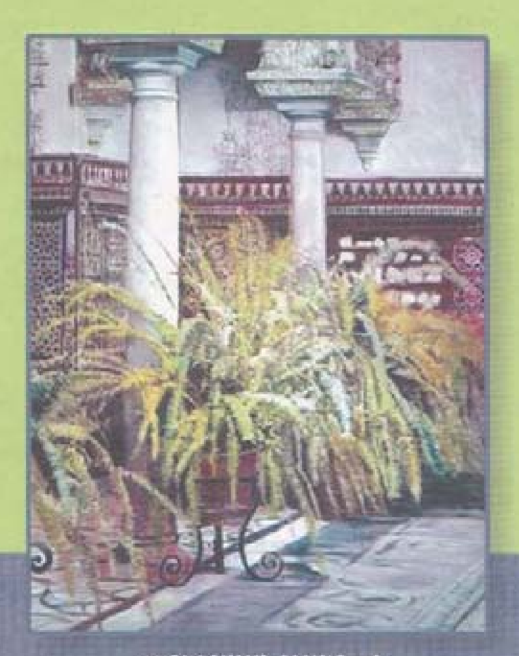


رثاء النفس في الشعر الأندلسي

الدكتور مقداد رحيم



جهينة للنشر والتوزيع

لوحة الغلاف للفنانة نهلة عسر

رثاء النفس في الشعر الأندلسي

الدكتور مقداد رحيم

جهينة
للنشر والتوزيع

1433هـ-2012م



العبدلي- عمارة جوهرة القدس - ص.ب 8670 عمان 11121 الأردن
تلفاكس: 4620078 - خلوي: 71 873 965 07

Jawhart El-Quds Building - Al-Abdali - P.O.Box Amman 11121 Jordan
Telefax: 4620078 - Mob.: 07 965 873 71
E-MAIL:Darjuhaina@yahoo.com



وما الناس إلاّ هالكٌ وابنُ هالكٍ   وذو نَسَبٍ في الهالكينَ عريقِ

أبو نواس

وقد فارق الناس الأحبة قبلنا   وأعيا دواءُ الموتِ كُلَّ طبيبِ

المتنبي

لابد مِن فَقْدٍ ومِن فاقدٍ   هيهاتَ ما في الناسِ مِن خالدِ

أبو فراس الحمداني

أقولُ لِنفسي ما مبينٌ كهالِكٍ   وما الناسُ إلاّ هالكٌ وابنُ هالكِ

ابن حزم الأندلسي



المقدمة

يتناول هذا الكتاب واحداً من أغراض الشعر العربي في الأندلس هو رثاء النفس، وهو غرضٌ لم يتناوله كتاب مستقلٌ من قبلُ، بل كان يمرُّ في الكتب والأبحاث مروراً خفيفاً في ظلِّ غرض الرثاء.

وقد رأيتُ رثاء النفس متفشياً في الشعر العربي في الأندلس تفشياً بدا لي واسعَ النطاق، كبيرَ الأهمية، خطيرَ الأَثر، فرأيتُ أنه يقوم بوضع كتاب، أو أكثر من كتاب، بل رأيتُ أنَّه يصلح أنْ يكون غرضاً قائماً بذاته، وإذا كنَّا سوَّغنا له ذلك من خلال الشعر الأندلسي، فجديرٌ به أنْ يكون أسوةً لمثيله في المشرق إذا توفَّر له الصبرُ في البحث والتحرِّي، أو إذا ظفرَ بمثل ما ظفر به في الأندلس من إقبال شعراء الأندلس عليه واهتمامهم به على اختلاف حظوظهم من المنازل والطبقات والاتجاهات، مع وفرةٍ زاخرةٍ من النصوص، على نحو ما سنرى من خلال فصول هذا الكتاب.

وكان الشائع لدى النقاد القدماء قولهم: "أصغر الشعر الرثاء، لأنه لا يعملُ رغبةً ولا رهبة"[(١)]، ولكنَّ رثاء النفس يعملهما كليهما، ففيه الرغبة في الحياة ورهبة الموت، كما بدا واضحاً في أثناء هذا الكتاب، وقد نقل ابن رشيق في كتابه "العمدة"[(٢)] عن ابن قتيبة قوله: "قال أحمد بن يوسف الكاتب لأبي يعقوب الخريمي: أنتَ في مدائحكَ لمحمد بن منصور كاتب البرامكة أشعر منك في مراثيكَ.

له، فقال: كُنَّا يومئذٍ نعمل على الرجاء، ونحن نعمل اليوم على الوفاء"، وليس في قصيدة رثاء النفس شيءٌ من وفاء، بل هي وعاء لأحد رجاءين أحدهما في الدنيا وثانيهما في الآخرة، وهي وعاء لأحاسيس مُرهفة وصادقة وقوية ليس وراءها غير الشاعر نفسه، وبذلك يمكن أنْ يكون شعراً عاليَ الطبقة، وربما ينطوي تحت مقصد القرطاجني في كتابه

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/ ١٢٣.
(٢) ١/ ١٢٣.

"منهاج البلغاء"[1] عندما قال: "إنَّ خير الشعر ما صدرَ عن فكرٍ وَلِعٍ بالفنِّ والغرض الذي القول فيه مرتاحٌ للجهة والمنحَى الذي وجّه إليه كلامه لإقباله بكلِّيتِهِ على ما يقوله وتوفير نشاط الخاطر وحدَّتِهِ بالانصباب معه في شِعبِهِ والميل معه حيثُ مال به هواه"، فليس هناك ما يربو على التفكُّر بالموت من ذلك.

ثُمَّ شاعَ بين أولئك النقَّاد أَنَّ الرثاء هو مدحٌ للميت كما أَنَّ المدحَ للحيّ،[2] وأنَّه "ليس بين المرثية والمدحة فصلٌ إلاَّ أنْ يُذكَر في اللفظ ما يدلُّ على أنَّه لَهالك، مثل: "كان" و"تولَّى" وقضَى نحبَه" وما أشبه ذلك، وهذا لا يزيد في المعنى ولا ينقص منه، لأنَّ تأبين الميتِ إنما هو بمثل ما كان يُمدَح به في حياته"[3]، فأَينَ رثاء النفس من هذا؟.

واستناداً إلى ما قدمناهُ نرى الحقَّ لِرثاء النفس أنْ ينفردَ بذاته دون أنْ يتَّكئ على رثاء الآخَر، وأنْ يُدرَسَ باعتبار ما لهُ من خصوصية وتفرُّد و أهمية.

يُعنَى هذا الكتاب بدراسة النص الشعري الأندلسي الذي يرثي الشاعرُ فيه نفسَهُ وهو يواجه الشعور بالموت الحقيقي، ولذلك فهو يستثني الشعور بالموت الجماعي، وأعني رثاء النفس من خلال الجماعة، وهو مما يرد كثيراً جداً في قصائد الوعظ والزهد والإرشاد، ويستثني النصوص التي تتحدث عن الموت بشكلٍ عام دون أنْ تعبر عن موت الشاعر نفسه، فغرض الكتاب هو الوقوف على التجربة الفردية في مواجهة الموت على وجه الحقيقة لا المجاز أو الافتراض أو التخيُّل، من خلال الشعر، فلا يلتفتُ إلى الموت العشقي البلاغي الطبيعي كمثل قول ابن عبد ربه:

ودَّعتَ فاركبْ جناحَ البينِ في سفرهْ ... هذا الفراقُ وهذا الموتُ في أثرهْ[4]

---

(١) ص ٣٤١.

(٢) أنظر طبقات الشعراء: ص٨٤.

(٣) نقد الشعر: ص١٠٠.

(٤) المختار من شعر بشار.

ولا إلى الشاذ منهُ كمثل قول إبراهيم بن سهل في معشوقِهِ موسى:

أموسَى لقدْ أوردتَني شرَّ موردٍ ... وما أنا فِرعونٌ كَفورُ الصنائعِ
سحرتَ فؤادي حين أرسلتَ حيَّةَ الـ ... ـعِذارِ وقد أغرقتَني في مدامعي
وما كنتُ أخشَى أنْ تكونَ مَنيَّتي ... يكفَّيكَ والأيَّامُ ذاتُ بدائعِ
وما أسَفي أنّي أموتُ وإنما ... حِذاريَ أنْ تُرمَى بِلؤْمِ الطبائعِ[1]

ولا إلى الموت الصوفي المحض كمثل قول ابن الجنَّان الشاطبي:

أفنانيَ القبضُ عنِّي ... حتَّى تلاشَى وجودي
وجاءني البسطُ يُحيي ... روحي بِفضلِ وجودي
فقلتُ للنفسِ: شكراً، ... لذاكَ بالنفسِ جُودي
وقُمتُ أشطحُ سُكراً ... فغِبتُ عنْ ذا الوجودِ![2]

وكقول الشيخ محيي الدين بن عربي:

لَمَّا بدا السرُّ في فؤادي ... فَنى وجودي وغابَ نَجمي
وحال قلبي بِسرِّ ربِّي ... وغبتُ عنْ رسمِ حِسِّ جِسمي
وجئتُ مِنهُ بهِ إليهِ ... في مَركبٍ مِن سِنيٍّ عَزمي[3]

أو الموت في الغزل الصوفي كمثل قوله:

مَرَضي من مريضةِ الأجفانِ، ... علِّلاني بِذكرها علِّلاني

---

(١) ديوانه: ص ٢٣٨.

(٢) تاريخ الأدب العربي (فروخ): ٦/ ٢٧٣-٤.

(٣) ديوانه: ص٤٣٠.

يــا خليلـــيَّ عَـــرِّجا بِعنانـــي لأرَى رســـمَ دارهـــا بِعيانـــي
فــإذا مــا بلغتمــا الــدارَ حُطَّــا وبهـــا صـــاحبيَّ فَلْتبكيانـــي
وقفـا بــي علـى الطلـولِ قلـيلاً نتبــاكَى، بــل أبــكِ مِمــا دَهانـــي
وانــدباني بــشعرِ قــيسٍ وليلَـــى وبِـــمَيٍّ، والـــمُبْتَلَى غـــيلانِ[1]

وهذا لا يمنع اختلاط رثاء النفس بأغراض أخرى كالمديح ورثاء الآخر وشكوى الزمان والزهد ووصف الشيب ووصف الطبيعة وغير ذلك مما يُعدُّ تطويراً وتجديداً لقصيدة الرثاء.

وقد اشترطَ البحثُ في هذا الكتاب أنْ يكون الشاعر أندلسيَّ النشأة، فلم يعتدَّ بأبي علي القالي وزرياب، على سبيل المثال، وإنْ قضيا الشطر الأخير من حياتيهما في الأندلس، ولا بابنِ المغربي وابن سيد الناس، وإنْ كانا من أصلٍ أندلسي، لأنهما لم يعيشا في الأندلس، كما لم يُعنَ بالمقارنة بأدبٍ آخر غير أندلسي.

وقد امتدَّ زمنُ البحث ليشمل العصور السياسية جميعاً في الأندلس كلها، وهي مدةٌ زادتْ عن ستة قرون من الزمان، تجمعتْ منها لديَّ نصوص كثيرة جداً، غيرَ أنَّ قسماً كبيراً من هذه النصوص لم يتم بحثها أو الإشارة إليها في هذا الكتاب، وهناك شعراء كثيرون لم يُذكَروا فيه، فغرض الكتاب هو رسم صورة لهذا الغرض بكل معطياته وليس الإحصاء والإيعاب، وربما يُتناوَلُ النصُّ الواحد أكثرَ من مرةٍ واحدة لتعدد دلالاته.

وقد اقتضى منهج البحث في هذا الموضوع أنْ ينقسم على أربعة فصول، وقد تتبع الفصل الأول تاريخ رثاء النفس في الشعر الأندلسي وأهميته، بينما اختصَّ الفصل الثاني بالكلام على بواعث النظم في هذا الغرض، وكان من بين المُسهمين فيه جماعة كبيرة من عِلية القوم في الأندلس من الحُكَّام والملوك والأمراء والرؤساء والوزراء وقادة الجيوش

---

(١) ترجمان الأشواق: ص٧٨-٨٣.

وأصحاب السلطة والقرار، فكان الفصل الثالث خاصاً بالحديث عن تجاربهم مع الموت وموقفهم منه، وطرائق تعبيرهم عنه، والظروف التي كانت تحيط بتجاربهم تلك.

أما الفصل الرابع الأخير فقد كان جولةً في رحاب فلسفة الموت والحياة لدى الشعراء الأندلسيين الذين رثوا أنفسهم، وهي بدون شكٍّ موقف المجتمع كله. وقد حاولت الخاتمة أن تلمَّ بأهم النتائج التي توصل إليها هذا الكتاب.

وقد صاحبني هذا الكتاب ثماني سنواتٍ منذ أنْ تبدَّى لي فكرةً حتى استوى كاملَ الخَلْق، وموضوعُه يشفع لي بطول المدة، لتطلُّبه الدقة في البحث والفحص والتمحيص، فضلاً عن توزُّعه في مصادر تستدعي الاستقصاء، ويصعب أنْ تتجمع في مكانٍ واحد، ولا أنسَى أنَّ اقتحام موضوعٍ مثله يحتاجُ إلى مزاجٍ نفسي خاص، وأشهد أنَّ البحث فيه كان متقطعاً على وفق ذلك.

وعلى الرغم من كثرة ما توفَّر لديَّ من مادةٍ تصلح للدرس والبحث والتطويل غير أنني آثرتُ عدم الإفاضة في القول، واكتفيتُ بالإشارة دون الإطالة، والدلالة بالقليل على الكثير مع الاستيفاء، على عادتي من ذلك، وبخاصةٍ والكتاب دلَّ على موضوعٍ واسع النطاق شملَ الأندلسَ كلها، وزمانها كله.

ولعلّي أنْ أكونَ وُفّقتُ إلى الغاية، وما التوفيق إلاَّ من عند الله وهو حسبي.

الدكتور مقداد رحيم

أستاذ الأدب الأندلسي ونقده

الفصل الأول

رثاء النفس في الشعر الأندلسي
تاريخُهُ وأهميتُهُ



يؤرِّخ هذا الفصلُ لقصيدة رثاء النفس الأندلسية، بحسب ما وصل إلينا منها عبر المصادر، ويميط اللثام عن أهميتها ومكانتها في الشعر العربي والأندلسي منهُ خاصةً.

أولاً: تاريخ رثاء النفس في الأندلس

لاشك في أن النظر في أمر الحياة والموت هو مما اعتاد عليه بنو البشر في كل زمان ومكان، ومهما اختلفت الرؤى في معالجة أمر الموت فلم يتعدَّ كونه قَدَراً مُـحَتوماً لم يستطع أحد ردَّه، وإنْ لم يعدم المحاولة إلاَّ أنَّ أحداً لم يفزْ بغير الفشل.

ولاشكَّ أيضاً في أنَّ كثيراً من الناس في كل العصور كانوا رثوا أنفسهم وهم يجابهون الموت أو يقتربون منه أو يتوقعونه، ولكنَّ الشعر قيَّدَ أكثرَ نصوصِهم للحفظ، حيثُ أمكنت الكتابةُ، بينما ضيَّع النـثرُ أكثرها، ولهذا عثرنا على نصوص شعرية عربية في هذا الغرض ترجعُ إلى عصر ما قبل الإسلام والعصور التالية، ولم تكن الأندلس مكاناً وزماناً لِتـتخلَّى عن هذا الغرض الإنساني، ولم تعدمْ أسبابه، بل لقد أسهمتْ بقسطٍ وافرٍ منه في الشعر، وأنجبتْ رعيلاً مهمَّاً من الشعراء أسهموا فيه توزَّعوا على كل العصور السياسية، منذ عصر الإمارة (١٣٨- ٣١٦هـ) حتى آخر يومٍ من أيام الحكم العربي في الأندلس، كما سنرى.

أما سنوات الأندلس الأولى خلال عصر الولاة التي لم تبلغ الخمسين عاماً (٩٢- ١٣٨هـ) فلم نعثر فيها على شيءٍ من هذا النوع من الرثاء، كما لم نعثر على كثيرٍ من الشعر في غيره من الأغراض، وفضلاً عن قِصَر المدة فإنَّ العرب المسلمينَ كانوا منشغلين ببناء الدولة الجديدة، وتسييس أمورها كافة، فلم يكنْ لتدوين الشعر مجاله الواسع في مثل هذه الظروف، وإنْ كان حاضراً دائماً، يُضاف إلى ذلك أنَّ قسماً كبيراً من الذين كتبوا الشعر منهم كان مشرقياً وافداً، ولم يكن أندلسيَّ النجار.

ونحن نظنُّ ظـنَّاً قوياً أنَّ شعر رثاء النفس في هذا العصر كان موجوداً، لأنَّه كان عصرَ صراعاتٍ سياسية وقبلية، وما كان يدور في ساحة الأندلس فيه من تنكيل وتعذيبٍ وتقتيل في ظلال والبناء والتأسيس، وفي ظروف التعصُّب والخلاف في الرأي كان جديراً

بإنتاج نصوصٍ ذات باعث سياسي في الأقل، فضلاً عن باعث الشعور بالغربة والبعد عن الأوطان الأولى، وعن باعث الشعور بدنوّ الموت الطبيعي نفسه باستمرار.

وقد اعتمدنا على تواريخ وفيات الشعراء في التأريخ لهذا الشعر، والتقسيم على العصور السياسية، وهو تقسيم مُتَّبع، على الرغم من تداخل تواريخ العصور السياسية في الأندلس منذ عصر الطوائف، ومنذ بدء تفتُّت الأندلس وتقسيمها على مناطق نفوذٍ متباينة الولاءات، إذْ لا يمكن لنا تجاوز مثل هذا التقسيم وإنْ لم يكن على قدرٍ كبير من الدقة، فهو يفي بالغرض على أية حال، على الرغم من جَعْلِهِ الشاعرَ منتمياً إلى عصرين أحياناً، وخاصةً عندما يكون الموضوع شاملاً للأندلس كلها ولتاريخها كله.

وكان أول شاعر أندلسي رثى نفسه ووصل إلينا رثاؤهُ هو أبو المخشيّ عاصم بن زيد بن يحيى، الذي توفيَ على عهد الحكم بن هشام (١٨٠-٢٠٦هـ)، وكان الأمير هشام بن عبد الملك قد سَملَ عينيهِ، فرأى أن فقدَه لبصره موازٍ لفقده الحياة، وأنَّ من الواجب أنْ يرثيَ نفسه، على ما سنذكره فيما بعد، فقال في مقصورةٍ:

خــضعتْ أمُّ بناتــي لِلعــدى	أنْ قــضى اللهُ قــضـاءً فمــضى
ورأتْ أعمَــى ضــريراً إنمـــا	مَــشيُهُ في الأرضِ لَمْــسٌ بالعــصا
فاســتكانتْ ثــم قالــتْ قولــةً	وهــي حــرّى، بلغــتْ منّــي المــدى
ففــؤادي قَــرحٌ مــن قولــها:	مــا مِــن الأدواءِ داءٌ كالعــمَى
وإذا نــالَ العمَــى ذا بَــصَـرٍ	كــانَ حيًّــا مثــلَ مَيْــتٍ قــد ثَــوى
وكــأنَّ النــاعمَ المــسرورَ لــمْ	يَــكُ مــسروراً إذا لاحَ الــردَى

ويلتحق به جملة من الشعراء في عصر الإمارة والخلافة منهم الغزال يحيى بن حكم (ت ٢٥٠ هـ) وهاشم بن عبد العزيز (ت٢٧٣هـ)، وسعيد بن جودي (ت٢٨٤هـ)، ومحمد بن عبد السلام الخشني (ت٢٨٦هـ) والأمير عبد الله بن محمد (ت٣٠٠هـ)، وأبو الأصبغ موسى بن محمد بن سعيد بن موسى (ت٣٢٠هـ)، وابن عبد ربه أبو عمر أحمد

(ت٣٢٨هـ)، وابن أخيه سعيد بن إبراهيم بن عبد ربه (ت٣٤٢هـ)، وجهور بن عبيد الله بن أبي عبده (ت٣٤٤هـ)، وإسماعيل بن بدر (ت٣٥١هـ)، وأبو عبد الله محمد بن حارث الخشني (ت٣٦١هـ)، وابن هانئ محمد بن هانئ بن محمد بن سعدون (ت٣٦٢هـ)، وجعفر بن عثمان بن نصر المصحفي (ت٣٧٢هـ)، وأبو بكر الزبيدي محمد بن الحسن (ت٣٧٩هـ)، وابن شهيد عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك (ت٣٩٣هـ)، وعبد الملك بن جهور (ت٣٩٣هـ)، وأبو مروان الجزيري عبد الملك بن إدريس (ت٣٩٤هـ)، وابن أبي زمنين محمد بن عبد الله بن عيسى (ت٣٩٩هـ)، والطليق المرواني مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر (٤٠٠هـ)، وسعيد بن محمد السرقسطي المعافري (ت بعد ٤٠٠هـ)، وأبو الوليد ابن الفرضي عبد الله بن محمد بن يوسف(ت ٤٠٣هـ)، وحسان بن مالك بن أبي عبدة (ت٤١٦هـ)، وابن دراج القسطلي أحمد بن محمد بن العاصي (ت ٤٢١هـ)، وغيرهم.

أما في عصر ملوك الطوائف فنقعُ على مجموعة أخرى من الشعراء منهم يوسف بن هارون الرمادي (ت٤٢٢هـ)، و أبو عامر بن شهيد أحمد بن عبد الملك (ت٤٢٦هـ)، وابن الأبّار الخولاني الإشبيلي أحمد بن محمد (ت٤٣٣هـ)، وأبو الحزم جهور بن محمد ابن جهور (ت٤٣٥هـ)، وابن حصن الإشبيلي علي بن غالب بن حصن(ت٤٤٩هـ)، وعبد الملك بن غصن الحجاري (ت٤٥٥هـ)، وابن حزم الكبير علي بن أحمد بن سعيد صاحب طوق الحمامة (ت٤٥٦هـ)، وابن سيدة علي بن اسماعيل (ت٤٥٨هـ)، وابن زيدون أحمد بن عبد الله بن أحمد (ت٤٦٣هـ)، وأبو جعفر اللمائي أحمد بن أيوب (ت٤٦٥هـ)، وأبو إسحاق الألبيري إبراهيم بن مسعود (ت بعد ٤٦٩هـ)، وأبو الوليد الباجي سليمان بن خلف بن سعد (ت ٤٧٤هـ)، وأبو بكر محمد بن عمار (ت ٤٧٧هـ)، وابن الحداد الوادي آشي محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٤٨٠هـ)، والمعتصم ابن صمادح محمد بن معن (ت ٤٨٤هـ)، والراضي العبادي يزيد بن محمد المعتمد بن عباد (ت٤٨٤هـ)، وغيرهم.

ونجدُ مجموعة أخرى من الشعراء في عصر المرابطين يقف على رأسهم المعتمد محمد بن عبّاد (ت٤٨٨هـ)، والحميدي محمد بن فتوح بن عبد الله بن حُميد(ت٤٨٨هـ) وأبو بكر بن اللبانة محمد بن عيسى بن محمد الداني (ت ٥٠٧هـ)، وأبو بكر بن عبد العزيز ابن القبطرنوة (ت٥٢٠هـ)، وأبو بكر بن رحيم محمد بن أحمد(ت ٥٢٠هـ)، وأبو بكر الطرطوشي محمد بن الوليد (ت ٥٢٠هـ)، والأعمى التطيلي أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة (ت ٥٢٥هـ)، وابن الزقاق البلنسي علي بن إبراهيم بن عطية الله (ت٥٢٩هـ)، وأبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت (ت ٥٢٩هـ)، وابن حمديس عبد الجبار بن أبي بكر محمد الصقلي (ت ٥٢٩هـ)، وأبو بكر محمد بن يحيى الصائغ المعروف بابن باجة (ت ٥٣٣هـ)، وابن خفاجة أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح عبد الله (ت ٥٣٣هـ)، وأبو الفضل بن شرف جعفر بن محمد (ت ٥٣٤هـ)، وأبو العلاء عبد الحق بن خلف بن مفرِّج المعروف بابن الجنان (ت ٥٣٩هـ)، وأبو بكر بن العربي محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله (ت٥٤٣هـ)، وابن بقي أبو بكر يحيى بن أحمد بن عبد الرحمن (ت ٥٤٥هـ)، وأبن ينّق الشاطبي أبو عامر محمد بن يحيى (ت ٥٤٧هـ)، وابن وكيل الأُقليشي أحمد بن معد بن عيسى (٥٤٩هـ)، وأبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد (ت ٥٥٩هـ)، وغيرهم.

وفي عصر الموحدين نعثر على جملة أخرى من الشعراء من أمثال ابن طفيل محمد بن عبد الملك (ت ٥٨١هـ) وأبي محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الإشبيلي (ت ٥٨١هـ)، وأبي بكر بن مغاور عبد الرحمن بن محمد (ت ٥٨٧هـ)، وأبي بكر بن زهر محمد بن أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء (ت ٥٩٥هـ)، وأبي بحر صفوان بن إدريس بن إبراهيم (ت ٥٩٨هـ)، وأبي عمر المارتلي موسى بن عمران (ت ٦٠٤هـ)، وابن جبير محمد بن محمد بن جبير بن سعيد (ت ٦١٤هـ)، وأبو القاسم بن سعيد عبد الرحمن ابن محمد بن سعيد العنسي (ت ٦١٧هـ)، وأبي الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي (ت٦٣٤هـ) وابن مرج الكحل أبي عبد الله محمد بن إدريس بن علي (ت ٦٣٤هـ)، وأبي الربيع الكلاعي سليمان بن موسى بن سالم (ت ٦٣٤هـ)، وغيرهم.

أما عصر بني الأحمر وهو آخر العصور الأندلسية فقد أسهم فيه في هذا الغرض على سبيل المثال أبو بكر بن قسوم محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللخمي الإشبيلي (ت٦٣٩هـ)، ومحمد بن أحمد الإستجيّ (ت ٦٣٩هـ)، وحُميد الأنصاري أبو بكر أحمد بن عبد الله بن الحسن (ت ٦٥٤هـ)، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله المرسي (ت ٦٥٥هـ)، وابن الجنان الأنصاري محمد بن محمد بن أحمد (ت ٦٥٥هـ)، وابن سراقة الشاطبي محمد بن أحمد بن محمد (ت ٦٦٢هـ)، وابن الفخار الرعيني علي بن محمد بن علي بن محمد (ت ٦٦٦هـ)، وابن الناظر القرشي الحسين بن عبد العزيز (ت٦٧٩هـ)، وابن الغماز البلنسي أحمد بن محمد بن الحسن (ت ٦٩٣هـ)، وابن جزي أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد (ت ٧٤١هـ)، وأبو حيان الغرناطي أثير الدين محمد بن يوسف بن عليّ (ت ٧٤٥هـ)، والطويجن الساحلي إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الأنصاري (ت ٧٤٧هـ)، وأبو بكر بن شبرين محمد بن أحمد بن محمد (ت ٧٤٧هـ)، وأبو جعفر بن صفوان أحمد بن إبراهيم بن أحمد (ت ٧٦٣هـ)، وأبو البركات بن الحاج البلفيقي محمد بن محمد بن إبراهيم (ت ٧٧٣هـ)، ولسان الدين بن الخطيب محمد بن عبد الله بن محمد (ت ٧٧٦هـ)، وابن زمرك أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد (ت ٧٩٦هـ)، ويوسف الثالث بن يوسف بن الأحمر ملك غرناطة (ت ٨١٩هـ)، وابن عاصم أبو بكر محمد بن محمد بن عاصم (ت ٨٢٩هـ)، وعبد الكريم ابن محمد القيسي البسطي الغرناطي (ت ٨٩٨هـ)، وابن العربي العقيلي محمد بن عبد الله (ت ٩٢٨هـ) على لسان آخر ملوك الأندلس أبي عبد الله الصغير، وغيرهم.

وبذلك يكون رثاء النفس في الشعر الأندلسي حاضراً في كل العصور الأندلسية، بل على مدار العقود والأجيال، بشكلٍ لافتٍ للاهتمام، غير أنَّ وضع اليد على أول نص قِيلَ في رثاء النفس في الشعر الأندلسي، خلاف ما ذكرناه، يبقى موكولاً بما يستجد من مصادر.

على أنَّ التفكُّر بالموت لم يشغلْ بال الشاعرة الأندلسية كما لم يشغل بال أختها المشرقية، فعلى الرغم من وجود عدد من الشواعر الأندلسيات، ووجود عدد لا بأس فيه

من النصوص الشعرية، غير أننا لم نعثر على أزيد من نص واحدٍ في رثاء النفس للشاعرة مريم بنت أبي يعقوب الفصولي الشلبي (ت بعد ٤٠٠هـ)، وكانت بلغتْ من العمر سبعةً وسبعين عاماً، كما بلغ الوهنُ منها مبلغه، فطرقتْ باب الموت بقولها:

وما ترتجي من بنتِ سبعينَ حجةً وسبعٍ كنسج العنكبوتِ المُهلهَلِ[1]

تدبُّ دبيبَ الطفلِ تسعى إلى العصا وتمشي بها مشْيَ الأسيرِ المُكَبَّلِ[2]

وهو أمر غير مستغرَب، فموضوع رثاء النفس موضوع لا تطيقه المرأة في الظروف العادية الطبيعية، ولم تكن هي على مدى العصور الأندلسية، إلا ما ندر، تحفل بأمور السياسة وتعاني الحياة كما كان يعانيها الرجل، فضلاً عن أنَّ تسجيل أدب المرأة والوقوف عليه لم يكن شغل الكتّاب والمؤلفين، استناداً إلى ذكورية المجتمع، على الرغم مما نالته المرأة في الأندلس من التحرر المشروط المحدود، ولذلك بقي أدبها حبيسَ المنتديات الخاصة، وما وصل إلينا من أدب نسوي لم يتعدَّ كونه أدب امرأةٍ نشأتْ في قصر كولادة بنت المستكفي، أو رضعتْ من علمٍ وأدبٍ وأرضعتهما مثل مريم بنت أبي يعقوب، أو اتصلتْ بأسبابِ الثقافة وكان لها حظ من الإسهام فيها وتشجيع من أهلها وعشيرها مثل حفصة بنت حمدون الحجارية وأم العلاء بنت يوسف الحجارية، وفيما عدا ذلك كانت شذرات هنا وهناك.

ثانياً: أهمية رثاء النفس في الشعر الأندلسي

بدا لنا رثاء النفس في الشعر الأندلسي غرضاً مهماً جداً وبارزاً، فلم يكن من الأغراض المهملة أو الأغراض الثانوية، وتتجلّى لنا أهمية من خلال عدة أمورٍ يمكننا تفصيلها كالآتي:

(١) يُنظر كتاب الشعر النسوي في الأندلس.

(٢) جذوة المقتبس: ص٤١٢ ، وبغية الملتمس: ص٥٤٤.

١- إظهار الجوانب الروحية

حاول الشعراء الأندلسيون، في رثائهم لأنفسهم، أنْ يُظهروا الجوانب الروحية والنفسية التي تسود في المجتمع الأندلسي، وبدتْ جوانبَ عربية إسلامية لم تؤثِّرْ فيها الظروف الخاصة لهذا المجتمع، ولم يغيِّر منها الخليطُ العرقي والقومي والجنسي والديني الذي عُرف في الأندلس، ولا التسامح الذي أبداهُ المسلمون إزاء أصحاب الأديان الأخرى.

وقد شاعت لأجل ذلك معاني المغفرة وانتقال الروح إلى الملكوت الأعلى، وتلاقي الأرواح في الآخرة، و لاسيما أرواح المحبين، وطلب الدعاء، وسماع الميت لدعاء أحبته له، وسماعه لما يتحدثون به وهو محمول على نعشه، وانسعاد روح الميت بتخليد الأثر الذي تركه في الحياة بعده، وهكذا.

ومن أمثلة ذلك رثاء الأعمى التطيلي لنفسه من خلال رثائه لزوجته ويأمل فيه أن يلتقيها في جنة عدن:

أآمِـن إنْ أجـزعْ عليـكِ فإنـنـي ... رُزئـتُكِ أَحلى مِن شبابي ومِـن وَفـري
برغميَ خُلِّي بين جسمكِ والثرى ... وإنْ كنتُ لا أخشى الترابَ على التبرِ
هنيئاً لقبـرٍ ضـمَّ جـسمكِ إنَّـهُ ... مَـقَرُّ الحيـا أو هالـةُ القَمَـرِ البَـدرِ
إذا جئـتِ عَـدْناً فاطلبـينا فقلَّما ... تقَدَّمْـتِني إلاَّ مـشيتُ علـى الإثْـرِ
ولا تعـذليني إنْ أقـمتُ فربَّـما ... تـأَخَّرَ بـي سعيـي وأثقلَـني وِزري[١]

كما أظهرت بعض النصوص حالات الضعف واليأس والانكسار التي كانت تسود المجتمع الأندلسي في بعض الحقب التاريخية، وفي بحر الظروف الاجتماعية والسياسية القاهرة، وهو أمر دعا الشعراء الأندلسيين إلى التزام الجانب الروحي بشكلٍ أكثر شمولاً،

---

(١) ديوانه: ص٧٠.

للتخفيف من حدَّة الجانب المادي وفضاعته وثقلِهِ على النفوس، والتعبير عن الاستسلام للموت، وشأنهم في ذلك هو شأن باقي أفراد المجتمع في مثل هذه الظروف.

يقول أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود:

قـــالوا ألا تـــستجيدُ بـــيتاً ... تعجـــبُ مِـــن حُـــسنِهِ البيـــوتُ

فقلـــتُ مـــا ذاكـــمُ صـــوابٌ ... حِـــفْشٌ كـــثيرٌ لِمَـــنْ يمـــوتُ

لـــولا شـــتاءٌ ولَـــفْحُ قـــيظٍ ... وخـــوفُ لـــصٍ وحفـــظُ قـــوتِ

ونـــسوةٍ يـبتغـــينَ ســـترا ... بَـــنيتُ بنـــيانَ عنكبـــوتِ[1]

٢- إظهار الجوانب المادية

ولم يقتصروا على إظهار الجوانب الروحية السائدة في المجتمع الأندلسي فحسب، بل تجاوزوا ذلك إلى إظهار جوانبه المادية، فسجَّلوا جوانب من تمكُّن الفقر المادي من المجتمع، في بعض الحقب الزمنية، وقد تجلَّى ذلك من خلال رثاء بعض الشعراء لأنفسهم بدوافع الحاجة المادية، أو لانقباض الناس عنهم أو انقباضهم عن الناس للدافع نفسه.

يقول ابن جبير:

ربَّ إنْ لم تـــؤتِني سَـــعَةً ... فـــاطوِ عنّـــي فـــضلة العُمُـــرِ

لا أحـــبُّ اللبـــثَ في زمـــنٍ ... حـــاجتي فيـــه إلى البـــشَرِ[2]

وقد عبر بعض هؤلاء الشعراء عن عزوفهم عن التواصل مع ماجريات الحياة اليومية، وعدم اكتراثهم بمظاهر حيواتهم، لتمكُّن الشعور باليأس في نفوسهم، ولإيمانهم بعدم جدوى البناء والحياة كلها إلى زوال.

---

(١) المغرب في حلى المغرب: ٢/ ١٣٣.

(٢) نفح الطيب: ٢/ ٤٩٢.

ومن أشدِّ مظاهر اليأس من الحياة والضجر فيها رثاء مجموعة كبيرة من الشعراء لأنفسهم في أعمارٍ مبكّرة وقصيرة جداً، كما فعل عبد الكريم القيسي الذي رثى نفسه عندما بلغ الأربعين، وكانت ولادته في العام ٨٣٦، وربما لم يمتْ إلاَّ قبل سقوط غرناطة بقليل[١]:

مــرور الأربعــين أطــار نومــي | وأجـرى فـوق صَـفْح الخـدِّ دَمعـي
وعِلمـي بالرحيـل غـداً وتَركـي | مِنَ اهلي مَنْ غدا بَصَري وسَمعي[٢]

وهناك مَن رثى نفسه قبل بلوغه الأربعين، مثل أحمد الاقليشي بقوله:

ثلاثـون عامـاً قـد تولَّـتْ كأنهـا | حلـومٌ تقـضَّتْ أو بـروقٌ خواطـفُ
وجـاء المَشيبُ المُنـذرُ المرء أنـهُ | إذا رحلـتْ عنـه الشبيبةُ تالـفُ[٣]

بل لقد رثى محيي الدين بن سراقة محمد بن محمد بن إبراهيم نفسه عندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره، وكان يظن أنه لن يزيد عن الثلاثين، ثم لم يمتْ قبل بلوغه السبعين (٥٩٢-٦٦٢هـ)، يقول:

إلى كم أمنِّي النفسَ مالا تنالـهُ | فيـذهب عمـري والأمـانيُّ لا تُقـضَى
وقد مرَّ لـي خمسٌ وعشرون حجَّةً | ولم أرضَ فيها عيشتي فمتى أرضَى؟
وأعلمُ أنِّـي - والثلاثون مُدَّتـي- | حـرٍ بمعاني اللهو أوسعها ركْضا[٤]

---

(١) أنظر مقدمة ديوانه: ص ١٣-١٤.

(٢) ديوانه: ص٤١١.

(٣) التكملة: ص٦١.

(٤) فوات الوفيات: ٣/ ٢٤٥-٦.



٣- إظهار الجوانب الاجتماعية

أظهرت جملة من النصوص جوانبَ كثيرةً من العلاقات الاجتماعية والعاطفية التي كانت تسود المجتمع الأندلسي، ولاسيما بين الأفراد من حيث القوة والضعف، على أنَّ ضعف العلاقات وانشغال الناس عن العلائق الطيبة والصداقات كان أكثر شيوعاً فيها، وهو أمر طبيعي لأنَّ سياق التفكُّر بالموت وتوديع الدنيا وانقطاع الرجاء يجعل المرء بعيداً عن المجاملات وقريباً من قول الحقيقة كما هي، ولهذا السبب جاءت قصيدة رثاء النفس لتكون مستودعاً صادقاً للاستخبار عن العلاقات الاجتماعية.

يقول ذو الوزارتين عيسى بن لبون مشيراً إلى ضعف العلاقات الفردية في المجتمع وقد هيمنت الحياة المادية على الروحية، وغاب الصدق والإخلاص فيها، وقد وجد في لزومه بيته واللجوء إلى كتبه عزاءً له وراحةً حتى يحين موته:

نفضتُ كفِّي عن الدنيا وقلتُ لها: إليك عني فما في الحق أغتبنُ
من كِسر بيتيَ لي روضٌ ومن كتبي جليس صدقٍ على الأسرار مؤتمنِ
أدري به ما جرى في الدهر من خبرٍ فعندهُ الحقُّ مسطورٌ ومختزنُ
وما مصابي سوى موتي ويدفنني قومٌ وما لهمُ علمٌ بما دفنوا[(١)]

ويرى أبو جعفر أحمد بن عتيق الشاطبي أنَّ علاقة الأهل والأقرباء به هي من باب الإفادة منه وتحقيق المآرب:

وقلَّ انتفاعُ الأهلِ منكَ فأعرضوا كأنكَ فرخٌ ملَّ من زقِّهِ الطيرُ[(٢)]

ويستثنى من ذلك العلاقات العائلية بين الآباء والأبناء، الأزواج، الإخوة، والأقربين، وهي كثيرة، وكذلك العلاقات الروحية بين التلاميذ وشيوخهم، ورجال

---

(١) قلائد العقيان: ص٢٤٣.
(٢) الكتيبة الكامنة: ص١٠٦.

الدين ورموزه، وهي قليلة، فقد بدا واضحاً صدق العاطفة وقوتها في مثل هذه العلاقات.

وأعود إلى الصداقات الفردية فأُؤكّد أنَّ جملةً من القصائد كانت تعبر تعبيراً واضحاً عن وجود صداقات قوية ومخلصة يسودها المحبة والاحترام والتآلف وحسن العشرة، كالصداقة التي كانت تربط بين ابن شهيد وابن حزم وآخرين كما دلت على ذلك قصائده في توديع الحياة، ومن قصائده تلك التي يخاطب فيها ابن حزمٍ قصيدته التي منها:

فمنْ مبلغٌ عني ابن حزمٍ وكان لي ... يداً في ملمَّاتي وعند مضايقي
عليك سلام الله إني مُفارِقٌ ... وحسبُك زاداً من حبيبٍ مفارقِ
فلا تنسَ تأبيني إذا ما فقدتني ... وتذكار أيامي وفضلَ خلائقي
وحرِّكْ له بالله من أهل فَنِّنا ... إذا غيبوني كلَّ شهْمٍ غُرانِقِ
فلي في ادِّكاري بعد موتي راحةٌ ... فلا تمنعونيها عُلالةَ زاهِقِ
وإنّي لأرجو الله فيما تقدَّمتْ ... ذنوبي به مما درى من خلائقي[1]

وهناك شخص آخر سمَّاهُ عمراً خصَّه بالذكر في قصيدة مثل هذه يقول فيها:

أقرِ السلامَ على الأصحاب أجمعهمْ ... وخُصَّ عَمراً بأزكى نور تسليمِ
وقلْ له: يا أعزَّ الناس كُلهمُ ... شخصاً عليَّ وأولاهم بتكريمِ
الله جارُك من ذي منعةٍ ضفرتْ ... منه الليالي بِعِلْقٍ غير مذمومِ
ما كان حبُّكَ إلا صوبَ غاديةٍ ... طِيباً وحاشا لِحُبِّي فيكَ من لومِ
إنْ شاء صرفُ الردى تقديمَ أطوعنا ... فقد رضيتُ –حماك الله– تقديمي
وإنْ أحبَّ الثرى جسماً ليأكلهُ ... أسمحْ بجسمي له يفديكَ تعظيمي

---

(١) ديوانه: ص١٠٢.

عشنا أليفينِ في برِّ الهوى زمَناً حتَّى زقا بنوانا طائرُ الشُّومِ
فَشتَّتتْ نُوَبُ الأيامِ ألفتَنا قَسراً ولم يُغنها ظنِّي وتنجيمي[1]

وفي قصيدة أخرى يكشف عن أنَّ له جماعةً من الأصدقاء المقربين خصَّهم بالخطاب وهو يفارق الحياة دون أن يسمِّيَ أحداً منهم:

أستودع الله إخواني وعشرتهم وكلُّ خرقٍ إلى العلياءِ سبَّاقِ
وفتيةٍ كنجوم القذفِ، نيِّرُهم يَهدي، وصائبهم يُودي بإحراقِ[2]

وقال من قصيدة أخرى في الغرض نفسه:

فمَنْ مبلغُ الفتيان أنَّ أخاهمُ أخو فتكةٍ شنعاءَ ما كان شِكلَها؟
عليكم سلامٌ من فتى عضَّه الردى ولم ينسَ عيناً أثبتتْ فيه نَبلها
يبين وكفُّ الموتُ يخلعُ نفسَهُ وداخلها حبٌّ يهوِّنُ ثُكلَها[3]

وفي جانب آخر من هذه العلائق الإيجابية كانت هناك أخلاق اجتماعية سلبية تقوم على إظهار العداء والتشفِّي بموت الآخر.

يقول عبد الملك بن غصن يرثي نفسه منتظراً الموت على يد المأمون وقد نكبه شرَّ نكبة في سياق العداوة:

فديتُكَ هل لي منك رُحمَى لعلَّني أفارقُ قَبراً في الحياة فأُنشَرُ
وليس عقاب المذنبينَ بِمُنكَرٍ ولكنْ دوامَ السخط والعتْبِ يُنكَرُ
ومن عجَبٍ قولُ العُداةِ مثقَّلٌ ومثلي في إلحاحهِ الدهرَ يُعذرُ[4]

---

(١) ديوانه: ص١٢١-١٢٢.

(٢) ديوانه: ص١٠٤.

(٣) ديوانه: ص١١٠.

(٤) نفح الطيب: ٣/ ٤٢٤.

ويقول أبو بكر محمد بن إبراهيم القرشي النحوي في سياق التشفّي بالموت:

فــقلْ للــذي سَــرَّهُ مَهلــكي تأهَّــبْ فإنــكِ بــي لاحِــقُ[1]

وفي السياق نفسه يقول الوزير هاشم بن عبد العزيز وقد تأكَّد له مقتله على يد المنذر بن محمد،وكان نَكبَهُ بعد أنْ ولاّه الحجابة:

فمنْ يــكُ مـسروراً بِــحالي فإنـهُ سينهلُ في كأسـي وشـيكاً ويـشربُ[2]

أما الوشايات والسعايات فلم يكن المجتمع الأندلسي بمنأى عنها، وقد عبرتْ قصيدة رثاء النفس عن هذه الصفة من خلال شعراء كثيرين.

قال أبو عبد الله محمد بن مسعود الغساني البجاني يرثي نفسه وهو ينتظر الموت على يد المنصور:

إنْ كنتُ أضمرتُ الـذي زخرفـوا عــني فـدعْني للقديــر الــرحيمْ[3]

وقد عانى ابن زيدون كثيراً من الوشاة والسعاة، وذكرهم في قصائده في كل مناسبة استعطافٍ أو رثاء لنفسه، وهي مناسبات متكررة، وهاهو يشكو تحميله ذنباً لم يحمله، بل نُسبتْ إليه من لدن سواه:

ما للـذنوبِ، الـتي جـاني كبائرهـا غـيري، يُــحمِّلُني أوزارَهــا وَزَري؟

مَـنْ لم أزلْ مِـن تأنِّيـهِ علـى ثقــةٍ ولم أبـتْ مِـن تــجنِّيهِ علـى حَـذَرِ![4]

---

(١) تحفة القادم: ص٢٤.

(٢) الحلة السيراء: ١/ ١٤١.

(٣) نفح الطيب: ٣/ ٣٨٩.

(٤) ديوانه: ص٢٥٥.

ويشير إلى صفة النفاق التي اتصف بها مَن كانوا يضمرون له العداء والغيظ:

إنَّ الأُلى كنتُ –من قبل افتضاحهمُ- مِثل الشجَى في لَهاهمْ ليس يُنتزَعُ
لم أحظَ –إذْ همْ عِدا بادٍ نِفاقُهمُ- إلاَّ كما كنتُ أحظى إذْ همُ شِيَعُ(١)

ويرى أنَّ سببَ عداوة الآخرين له هو ما تحلَّى به من العلْم والأدب وعلوّ المكانة:

ولو انَّني أسطيعُ كيْ أُرضِي العِدا شَريتُ ببعضِ الحِلْمِ حظًّا من الجهْلِ(٢)

وإلى ذلك يشير في قصيدة أخرى له:

قدْ كنتُ أحسبُني والنجمَ في قَرَنٍ ففيمَ أصبحتُ مُنحطًّا إلَى العَفَرِ؟
أَحينَ رفَّ علَى الآفاقِ مِن أدبي غَرْسٌ لهُ مِن جَناهُ يانعُ الثَّمَرِ؟(٣)

ولذلك يتخذون من الوشاية سبيلاً للإيقاع به:

لَئِنْ زعمَ الواشون ما ليسَ مَزعماً تُعذّرُ في نَصري وتَعذِرُ في خَذْلي
وأصدى إلى إسعافِكَ السائغِ الجَنى؟ وأَضحى لدى إنصافِكَ السابغِ الظلِّ
وغيرُكَ رامَ العُذرُ إبلاغَ سَمعِهِ فَصَمَّ وأَصغى للوقيعةِ والعذْلِ(٤)

أما المعتمد بن عباد فيشير إلى مجموعة من الصفات المذمومة مثل الغدر والغشّ والبغض والحقد خلال رثائه لنفسه في اعتذاريته لأبيه المعتضد وكان ينتظر منه البطش:

ومُتُّ إلاَّ ذَماءً فيَّ يُمسكُهُ أنّي عهدتُكَ تعفو حين تقتدرُ

(١) ديوانه: ص٣٠٢-٣٠٣.
(٢) ديوانه: ص٢٦٣.
(٣) ديوانه: ص٢٥٧-٨.
(٤) ديوانه: ص٢٦٨.

لم يـأتِ عبـدُكَ ذنبـاً يـستحقُّ بــهِ عتْبـاً، وهـا هـو قـد نـاداكَ يعتــذرُ
ما الذنبُ إلاَّ على قومٍ ذوي دغَلٍ وفَـى لهـمْ عهـدُكَ المعهـودُ إذْ غــدروا
قــومٌ نـصيحتهمْ غـشٌّ وحبُّــهمُ بغـضٌ، ونفعهــمُ -إنْ صَـرَّفوا- ضـررُ
يُميَّزُ البغضُ في الألفاظِ، إنْ نطقوا ويُعرفُ الحقـدُ في الألحـاظِ، إنْ نظـروا
إنْ يُحرقُ القلبَ نفثٌ من مقـالهمُ فإنما ذاكَ مِن نــار القِــلى شَــررُ.....
وإنما أنا ســاعٍ فــي رضـاكَ، فـإنْ أخفقتُ فـيه، فلا يُفسحْ ليَ العُمُـرُ [١]

وقد شاعت معاني الفخر بالذات في قصائد رثاء النفس، فدلَّ ذلك على اعتداد الأندلسي بنفسه في مجتمعه، على قول أبي الصلت أمية بن عبد العزيز الذي جعل فضله الباهر سبباً لموته المبكّر:

عَـذيريَ مـن دهـرٍ كأنّــي وترتُـهُ بِــباهرِ فـضلي فاسـتقادَ بـهِ منِّـي[٢]

وقول ابن الحداد الوادي آشي:

إلى الموتِ رُجعي بعد حينٍ فإنْ أمُـتْ فقدْ خُـلِّدتْ خُلـدَ الزمـانِ مناقبي[٣]

وقول أبي الفضل جعفر بن محمد بن شرف:

وإنَّ الــدهرَ لم يعلــمْ مكــاني ولا عرفــتْ بنــوهُ مــا لديَّــا
زمــانٌ ســوف أُنــشَرُ فيــهِ نــشراً إذا أنــا بالحِمــامِ طويــتُ طــيًّا[٤]

---

(١) ديوانه: ص٣٨-٣٩.
(٢) أبو الصلت: ص١٥٣.
(٣) نفح الطيب: ٤/ ٤٩.
(٤) التكملة: ٢/ ٢٨٠.

وقد بدا المجتمع الأندلسي، من خلال قصيدة رثاء النفس، مهووساً بالطيرة والتطيُّر، وما ذاك إلاَّ لشدة ارتباطه بالحياة وحبه لها وإقباله عليها بقوة، ولذلك نراه شديد الحساسية مرهفاً، فنرى الأندلسي يحزن لدى سماعه صوت النواعير، أو شَدْو الـحَمام، فضلاً عن بعض مظاهر الطبيعة الأخرى، كما سنرى، ويقلقُ قلقاً شديداً إذا بدأ الشيبَ يتسلل إلى شعر رأسه وإنْ كان ذلك في سنٍّ مبكّرةٍ، ويعزو كل ذلك إلى فقدان شيءٍ يكون غالباً هو الحياة، ويستدعي التفكّر بالموت ورثاء النفس.

يقول ابن حمديس:

بكـى النـاسُ قبلـيَ فَقْـدَ الـشبابِ ... بِـدمعِ القلـوبِ فمـا أنـصفوهُ
وإنّـي عليـهِ لَـمُـستدركٌ ... مِـن البـثِّ والحـزنِ مـا أهملـوهُ
لَعمـرُكَ مـا الـشيبُ إمَّـا بـدا ... بِفودَيـكَ إلاَّ الـردى أو أبـوهُ [1]

ويقول يوسف بن هارون الرمادي:

وثـلاثُ شيـباتٍ نـزلنَ بِمفرقـي ... فعلمـتُ أنَّ نـزولهنَّ رحيلـي [2]

ولعلَّ هذا يعود إلى عدم ثقة المجتمع الأندلسي بحياته في حاضره، وعدم اطمئنانه إلى مستقبله، وكان هذا الشعور نتيجة طبيعية لما يراه من تقلُّب السياسات والدول، وتعدد الولاءات وأسباب التعصُّب، وكثرة الحروب والمجابهات مع أعدائه المتربصين على الحدود باستمرار لمحاولة استرداد الأندلس من ناحية، وبين الأندلسيين أنفسهم من ناحية أخرى، فتكون الآمال كاذبةً، وأوقات السعْد محدودة، وقد يأتي الموت في مثل هذه الظروف اعتباطاً، ولا يصلح معها إلاَّ انتهاز الحياة، واقتناص لحظات المتعة اقتناصاً.

---

(١) ديوانه: ص ٥١٩.

(٢) وفيات الأعيان: ٧/ ٢٢٦.



٤- إظهار موقف الأندلسيين من الحياة والموت

أسهمَ هذا الغرض في الكشف عن موقف الأندلسيين من الحياة والموت، وهو موقف يستند إلى قدر كبير من الأهمية، لما له من الأثر في الإقبال على الحياة وبنائها، أو العزوف عنها وإهمالها، وقد رأينا من خلال النصوص في هذا الغرض أنَّهم كانوا يتباينون في هذا الموقف، فمنهم من كانوا يتشبثُون بالحياة ويأملون البقاء على قيد الحياة مدةً أطول، منطلقين في ذلك من الجانب المادي للحياة، ومنهم مَن كانوا يؤمنون بأنَّ الموت حقٌّ وأنه قدر لابد منه إنْ عاجلاً أم آجلاً، فيستسلمون له، بل إنَّ البعض منهم كان يتمناه، متخذين من العقيدة الإسلامية، في أغلب الحيان، السبيلَ إلى ذلك.

ومن ناحية أخرى نرى القسم الأول منهم يودِّعُون الحياة آسفين، ويستقبلون الموت غاضبين، يذكرون الحياة بفخرٍ وكبرياء، ويرجون خلودَ أثرهم الذاتي، ويتعلقُون بما كان من ذلك فيها، فجاءت نصوصهم هذا أكثر حرارة وأشدَّ عاطفةً، وبينما نرى القسم الثاني يودِّعون الحياة راضين، ويستقبلون الموت مطمئنين، نظراً لزهدهم في الدنيا وإيمانهم بضرورة الموت وانتظارهم الرحمة والغفران ونوال الجنة، فكانت نصوصهم تتسمُ بالرزانة والهدوء والسكينة وضعف العاطفة، بينما وقف قسم ثالث في حيرةٍ بين حب الحياة والتعلق بها وبين القبول بقدر الموت والاستسلام له، وينتمي إلى هذا القسم أولئك الذين عَـلُّوا من الحياة كأساً هانئةً واقتربوا من زمن فراقها وفي نفوسهم حب الفوز بالحياتَـين معاً.

يقول ذو الوزارتين أبو عبد الرحمن محمد بن طاهر وهو يستقبل الموت آسفاً خائفاً:

كـــانَ الــــذي خفـــتُ أنْ يكـــونَ ... إنَّــــــا إلى اللهِ راجعــــــــونَ(١)

أما الطول الطبيعي للعُمر فكان يتراوح عندهم في الغالب، وكما يظهر في نصوصهم، بين الستين والسبعين، فإذا زاد عن هذا القدر تشاءموا وضاقوا بالحياة، ولعلهم ينـزعون بذلك منـزعاً دينياً، مستندين إلى حديث الرسول الكريم محمد (ص):

---

(١) قلائد العقيان: ص١٤٧.

"عُمر أمتي من ستين إلى سبعين سنةً"[1] ، وحديثه (ص): "مَن عمّر ستين سنةً أو سبعين سنةً فقد عُذرَ إليه في العُمر"[2] ، غير أنَّ عدد الستين يتردد في قصائدهم أكثر من أي عدد آخر.

هذا ابن خفاجة يقول وقد بلغ الستين من العمر:

ألا ساجلْ دموعي يا غمامُ   وطارحني بشجوكَ يا حَمامُ
فقد وفّيتُها ستّينَ حَولاً   ونادتْني ورائي هلْ أمامُ؟[3]

ولكنه لم يمتْ قبل بلوغه والثانية والثمانين(٤٥١-٥٣٣هـ).

يقول أبو جعفر أحمد بن محمد بن سعيد بن أبي حبل المعافري:

وقدْ جعلتْ لي الستّونَ قيداً   وثيقاً مؤذناً بلحاقِ حَتْفِ[4]

أما بلوغ السبعين من العمر فيقول فيه إبراهيم بن عبد الرحمن بن يخلف القيسي المعروف بابن النشا الوادي آشي:

وليس ذا منكَراً على مَنْ   مرتْ عليه سبعونُ عاما
وعن قريبٍ أَحُلُّ قبراً   أُطيلُ في قَعرِهِ المُقاما[5]

ويتعجَّبُ ابنُ عبد ربه عندما بلغ من العمر ما بلغه ابن خفاجة ولم يمتْ:

وما ليَ لا أبلَى لسبعين حجةً   وعشرٍ أتتْ مِن بعدِهِ سنتانِ![6]

---

(١) سنن الترمذي: رقم ٢٢٥٣.

(٢) مسند أحمد: رقم ٨٨٨٣.

(٣) ديوانه: ص ٦٥.

(٤) الكتيبة الكامنة: ص١٠٨.

(٥) بغية الوعاة: ١/ ٤١٧.

(٦) جذوة المقتبس: ص١٠٤، وبغية الملتمس: ص١٥٠-١.

وبالجملة نرى أنَّ التشبث بالدين وبالعقائد يعظم في إطار الضعف السياسي، وانحلال الدولة، ويضعف الشعرُ مع ذلك، بينما يقوى في إطار قوة الدولة وسطوة العوامل السياسية، ويضعف الاتجاه المتصل بالدين والعقائد مع ذلك، وهذا ما كان في الأندلس على مرّ العصور والدويلات.

٥- توثيق جوانب من التاريخ السياسي

حفظتْ لنا نصوص رثاء النفس جوانب مهمة جداً من الحياة السياسية في الأندلس، وأرَّختْ لأحداثٍ سياسية كثيرةٍ، ودلَّتْ على ماجرياتٍ جديرةٍ بالاهتمام في بلاطات الملوك والحاكمين وأصحاب السلطة، وخاصةً عندما يكون الشاعر واحداً منهم، فضلاً عما كان يحدث في الأندلس من فتنٍ وحروب متواصلة[١] وبذلك استطاعتْ هذه النصوص أن ترقَى إلى مرتبة الوثيقة التاريخية والسياسية..

وقد ورد أغلب هذه النصوص في موضع العقوبات التي تُنـزَلُ في الشاعر، أو العقوبات التي يتوقَّعُ الشاعرُ إنزالها فيه من لدن الحاكم، ويختلطُ فيها الاستشفاع والاستعفاء والتوسُّل والاعتذار باليأس من النجاة، وفي موضع زوال السلطة وأفول السعد الذي لم يكن يساوي أقلَّ من الحياة لدى الحاكمين.

٦- التأريخ لشعر الشاعر وحياته

كان لرثاء النفس في الشعر الأندلسي فضل معرفة آخر شعر قاله الشاعر، وليس بعد الشعر الذي يقوله الشاعر وهو يعاني سكرات الموت مِن تالٍ، وقد عثرنا على مجموعة كبيرة من النصوص الشعرية التي كانت آخر ما نظمه أصحابها من شعر. وقد نصَّ المؤرخون على ذلك بعبارات مثل: "وآخر شيء قاله"، و"قالَ في العلة التي مات فيها"، و"قال وهو يحتضر"، و"قال في الليلة التي مات فيها"، و"كان ذلك آخر شيء قاله قبل موته"، و"قاله قبل موته بشهر"، وهكذا، فضلاً عن ذكر الشعراء أنفسهم إلى ما بلغوه من العمر بالسنين وهو كثير جداً.

---

(١) أنظر في ذلك كتاب الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي.

إنَّ مثل هذا الأمر يساعد الناقد ومؤرخ الشعر على دراسة مستوى تطور شعر الشاعر من نواحٍ مختلفة، أو تواريخ نظم القصائد، أو تواريخ وفيات الشعراء إذا لم يقم على ذلك دليل غير نصوصهم الشعرية.

يقول لسان الدين بن الخطيب في أثناء ترجمته لابن فرقد إبراهيم بن خلف بن محمد ابن الحبيب بن عبد الله بن عمر: "ومِن شِعره وهو حُجَّةٌ في ميلاده ووفاته:

ثمانون عاماً مع ستٌ عمَّرتُ وليتني ... أرقتُ دموعي بالبكاءِ على ذنبي
فلا الدمعُ في محْوِ الخطيئة غُنيةٌ ... إذا هاجَ من قلبٍ مُنيبٍ إلى الربٌ
فيا سامعَ الأصواتِ رحماكَ أرتجي ... فهبْ لي انسكابَ الدمعِ معْ رقَّةِ القلبِ
وزَكٌ مقامي في العقودِ وكَتْبِها ... لوجهكَ لم أقبلْ ثواباً على كَتْبِ
ولا تخزني يومَ الحسابِ وهولِهِ ... إذا جئتُ مذعوراً من الهولِ والرُّعبِ[1]

٧- إسهام عِلية القوم

اشتملتْ قائمة الشعراء الذين أسهموا في رثاء أنفسهم مجموعة كبيرة من رؤساء القوم والملوك والحجّاب والأمراء وأصحاب الوزارتين وأصحاب الوزارة الواحدة والقُوّاد في العصور المختلفة، فضلاً عن مجموعة كبيرة من العلماء والفقهاء ورجال الدين، كما سنرى في الفصلين الثالث والرابع، وقد أثرى هذا الإسهامُ غرضَ الرثاء، فعرضَ طرائق تفكيرهم ومواقفهم من الحياة والموت، وأضاف إليه بواعثَ مهمة جديرة بالدرس والاهتمام.

كما دلَّتْ النصوص في هذا الشأن على تشابه العواطف والمواقف إزاء الموتِ بين العامة والخاصة، من حيث هو فقدٌ وانتهاء، والفرق الذي يمكن أن يُشار إليه هنا هو أنَّ أغلب هؤلاء العلية يتشبثون بالحياة أكثر من أغلب العامة، لتعلقهم ببهرج الحياة، وزينتها، ونوالها، إذا استثنينا منهم، طبعاً، مَن زَهدَ في الحياة.

---

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة: ١/ ٣٧٤.



٨- إسهام كبار الشعراء

لم يقتصر رثاء النفس على عامة الشعراء في الأندلس دون كبارهم والمشهورين منهم، بل كان لهؤلاء الكبار الإسهام الفعَّال، ولاسيما إذا كانوا من أصحاب الشأن في السياسة أو المجتمع، أو كانوا ذوي شهرةٍ واسعة، ومكانة مرموقة في المجتمع.

إنَّ إسهام مثل هؤلاء الشعراء جعل من هذا الغرض غرضاً من الأغراض الرئيسة في الشعر العربي، فضلاً عن الشعر الأندلسي، وسوَّغ له أهميته الكبيرة بوصفه وعاءً لموضوعٍ حيوي إنساني يعبِّر فيه الشاعر عن أهم التجارب الإنسانية في مواجهة الموت.

٩- كثرة الشعراء

أسهم في هذا الغرض مجموعة كبيرة من الشعراء اقترب عددهم من المائتين، بحسب ما توصَّلنا إليه، ولن يكون هذا العدد، طبعاً، هو الأخير، فهو عدد سمحَ به البحثُ والاستقصاء وتوفُّر المصادر، فضلاً عما ضاع منها ولم يمكن العثور عليه، وهو كثير.

١٠- كثرة النصوص الشعرية

وقد وقف البحثُ والاستقصاء على مجموعة كبيرة جداً من النصوص الشعرية الخاصة بهذا الغرض، ولم يكن ذلك بسبب كثرة الشعراء وحسب، بل لأنَّ كثيراً من الشعراء رثوا أنفسهم بأكثر من قصيدة واحدة أو بقصائد متعددة، مثل ابن زيدون وأبي بكر بن عمّار والمعتمد بن عبّاد. وسبب ذلك الرثاء المبكّر، حيث يظن الشاعر منهم أن موته قد أزف فيرثي نفسه، ثم يتأخَّر أجله فيُضطر إلى رثاء نفسه مرةً أخرى، أو مرةً بعد مرة.

وهناك سبب آخر لتعدد الرثاء هو المصاب الجلل مثل المرض الطويل أو انتظار العقوبة، وفي كلتا الحالتين ينتظر الشاعرُ أجله المحتوم الذي قد يتأخَّر، أو قد يتأخَّر كثيراً أحياناً، وتُعَـدُّ مدة الانتظار هذه بمثابة موتٍ مؤجَّل يستحقُّ الرثاء.

وقد اعتمدنا في هذا الكتاب على النماذج الشعرية التي تساعد على رسم صورة دقيقة لهذا الغرض في الأندلس، واستخلاص دلالاتها جميعاً، ولذلك تمَّ اطِّراح كثير من النصوص الشعرية لعدم توفُّرها على خاصّ.

يُضاف إلى ذلك ما اشترطناه على أنفسنا من تناول الشعر الخاص برثاء النفس في النصوص الشعرية دون تلك التي تتحدث عن الموت والحياة والوعظ بالتزام الدين وتنبيه الناس على الإعداد للموت ووصف الدنيا والآخرة والتذكير بعذابها وعذاب القبر وعاقبة الغافلين عن الإيمان الحق على أيدي الفقهاء والوعَّاظ ورجال الدين والزهَّاد والمتصوفين، ما لم يكن كلامهم ينصُّ على رثاء أنفسهم تحديداً وهم يواجهون قدر الموت، كما أشرنا إلى ذلك في المقدمة، ولذلك أهملنا بحراً من النصوص هي خارج نطاق البحث، كما أهملنا الإشارة إلى مجموعة كبيرة من الشعراء الذين لم يرثِ أحدهم نفسه وإنْ كان رثى نفسه من خلال الجماعة، لأن فكرة هذا الكتاب تتناول تجربة مواجهة الفرد للموت، وليس مواجهة الجماعة له والتعبير عن هذه المواجهة من خلال فرد.

١١- الحضور المتواصل

كانت قصيدة رثاء النفس شديدة الحضور في جميع العصور والأجيال، ولم تسجِّلْ انقطاعاً يُذكَر، ولم تشكِّل ظاهرة طارئة قابلة للاضمحلال أو الزوال، وأرى أنَّ مثل هذا الأمر يساعد على ترسيخ هذا الغرض في الشعر العربي بوصفه غرضاً أصيلاً قائماً بذاته، يمكن الاعتداد به كواحد من الأغراض التي أثبتتْ جدارتها في الاستقلال عن بقية الأغراض، ويلفتُ النظر إلى دراسة مثيلِهِ في الشعر العربي في المشرق في العصور المختلفة، فضلاً عما له من خصوصية وطرافة.

١٢- قيمة النصوص الشعرية فنيًّاً

توفَّر البحث على مجموعة طيبة من النصوص الشعرية ذات الخصائص الفنية العالية مما اشتملتْ على قوة النظم، وجمال الأسلوب، وطرافة المعاني والتشبيهات، وحسن التأتِّي للغرض، في وعاءٍ من رهافة الأحاسيس وصدق التجربة، وقد خُصِّصَ الجزء الخامس من هذا الكتاب ليحتفظ بأهم ذلك.

١٣- عادات وتقاليد خاصة

أخذ رثاء النفس في الشعر الأندلسي على عاتقهِ الكشف عن كثير من العادات والتقاليد الخاصة بالموت، مثل وصية الميت والصلاة عليه والدعاء له وتشييعه ودفنه وزيارة قبره وذكره والترحُّم عليه، فضلاً عن مواصفات القبر، وإمكان كتابة شعر الرثاء على شواهد القبور، ومنهم مَن يذكر اسمه في رثائه لنفسه ليكون على شاهدة قبره، كما فعل أبو عبد الله بن باق:

ترحمْ على قبرِ ابنِ باقٍ وحَيِّهِ فمِن حقِّ مَيْتِ الحيِّ تسليمُ حَيِّهِ(١)

وقد كانت ظاهرة كتابة رثاء النفس على شواهد القبور ظاهرةً بارزة كبيرة جداً في الأندلس كما دلتْ عليها كثرة النصوص، بل نستطيع أنْ نقول إنها كانتْ تشكِّل تقليداً متعارفاً عليه في المجتمع الأندلسي.

١٤- هاجس الشعر

كشفت هذه الدراسة عن اهتمام الأندلسيين البالغ بالشعر، وعدم استغنائهم عنه في كل شأن من شؤون الحياة، بل إنه لم يفارقهم في أشد التجارب قسوةً، وأعظم الأقدار بطشاً بالإنسان: الموت، ولم يكتفوا برثاء أنفسهم في موضع الاستشعار بالخطر أو دنوّ الرحلة الأبدية، بل نظموا الشعر في مختلف الحالات التي تتعلق بهذه القضية مثل الاحتضار، ونظم الشعر في آخر لحظة من لحظات العمر، ومعاناة الآلام الشديدة وأوجاع الأمراض، فضلاً عما ذكرناه من لحظات انتظار عقوبة الموت، وقد وقف الفصل الثاني من هذا الكتاب على عدد كبير من بواعث رثاء النفس، وبذلك كفاية للدلالة على أنَّ رثاء النفس بالشعر يسير إلى جوار تفصيلات الحياة اليومية لدى الشاعر الأندلسي.

إنَّ في ذلك دلالةً عظيمة على حب الأندلسيين للشعر، وإقبالهم عليه في الظروف والأحوال المختلفة، ولم يتغير موقفهم منه أو احتفاؤهم به حتى آخر ساعةٍ من وجودهم في الأندلس، وحتى وهم يواجهون الموت.

---

(١) نفح الطيب: ٦/ ٢٦٥.

١٥- ثقافة الشاعر

لم يكن قصيدة الرثاء في الشعر الأندلسي مستودعاً لأحاسيس الشاعر وموقفه من الموت والحياة وحسب، بل لقد عمد جملة منهم إلى إيداعها ما اكتسبوه من ثقافات وخبرات في حيواتهم، ففضلاً عما أودعوه نصوصَهم الشعريةَ من آي القرآن الكريم وعلوم الدين والفقه أودعوها كذلك أخباراً من التاريخ، ولمح من العادات والتقاليد والأمثال والحكم وجانباً مما كان يُسمَح لهم من تفلسف وإمعان نظرٍ في أمور الكون والخلق ودواعي الحياة، وقد سَوَّغ ذلك أنْ تكون مثل هذه النصوص طويلة.

وممنْ طوَّلوا في رثائهم لأنفسهم على هذا النمط ابن شُهيد وابن زيدون والألبيري وأبو بكر بن عمّار والمعتمد بن عباد وأبو بكر بن رُحيم وابن حمديس وأبو بكر بن عاصم وابن الجياب ويحيى بن هذيل وابن الخطيب.

١٦- تلوُّن الإيقاعات

كان ابن رشيق يقول بأنَّ "أصغر الشعر الرثاء، لأنه لا يُعملُ رغبةً ولا رهبة"[1]، ولكن الأمر اختلفَ لدى شعراء الأندلس، فقد رثى الكثيرون منهم أنفسهم تحت وطأة الرغبة في الحياة والرهبة في مواجهة الموت، كما سنرى في ثنايا هذا الكتاب، ولاشكَّ في أنَّ رثاء النفس يفوق في جدَّيتهِ رثاء الآخرين مهما بلغ قربهم من الشاعر، ولاسيما في موضع الخوف والجزع والتشبث بالحياة، وقد أشار حازم القرطاجني إلى نوعٍ من الرهبة نراهُ ينطبقُ على رثاء النفس، بقوله: "وإذا كان الارتماض لضارّ كانتْ تلك رهبة"[2].

وقد عرفَ الرثاءُ لدى القدماء النظمَ على الأوزان الطويلة والثقيلة مثل الطويل والبسيط، ليكون متناغماً مع غرض الرثاء الذي يقتضي الجدَّة والرزانة، ثمَّ عُـدَّ النظم على بعض الأوزان الرقيقة والرشيقة في هذا الغرض في القرن الثاني الهجري تطويراً وتجديدا،

---

(١) العمدة: ١/ ١٢١.

(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء: ص١٢.

نظراً لما أصاب المجتمع العربي آنذاك من تطور في الحضارة والتجديد في أساليب الحياة، وإنْ كانَ هذا التجديد في الرثاء محدوداً[1]، غير أنه لم يكن كذلك في الأندلس، أعني أنَّ التجديد في استخدام الأوزان الرقيقة والرشيقة في الرثاء في الأندلس لم يكن محدوداً.

ويبدو واضحاً من خلالَ تحليلنا لإيقاعات نصوص رثاء النفس في الأندلس أنَّ الشعراء الأندلسيين لم يكونوا يفكّرون بالأوزان الشعرية ساعةَ النظم، بل كانوا يتركون نفوسهم على سجيتها، فجاءتْ نصوصهم موقَّعةً بحسب إيقاعات تلك النفوس التي تنتظر الموت من حيث الانفعال والهدوء، أو القلق والاطمئنان، أو اليأس والأمل، وغير ذلك من المشاعر المتضاربة، يحدوهم في ذلك نفوس مطبوعة على قول الشعر حيث "لا يعتاص وزن الكلام على المطبوعين"[2].

إنَّ الشعراء الأندلسيين أثبتوا بشكل تطبيقي من خلال غرض رثاء النفس بطلان نظرية مناسبة الأوزان للأغراض في الشعر التي روَّج لها القدماء والتزموا بها مدة طويلة، وتداولتها الأجيال، فها قد رأينا كيف نوَّعوا في الأوزان واستخدموا أخفَّها وأكثرها رشاقةً وإطراباً مع أنَّ رثاء النفس أولى بأنْ يكون أكثر الأغراض الشعرية جديةً.

فَفضلاً عن الأوزان الطويلة والثقيلة والحادة مثل الطويل والبسيط والكامل استخدمَ الشعراء الأندلسيون الأوزانَ الخفيفة الرشيقة واللينة الرقيقة مثل الرجز والرمل والسريع والخفيف والوافر والمنسرح والمتقارب ومخلَّع البسيط والمديد، بل لقد استخدم بعضهم وزن الخبب[3] وهو بحر سريع راقص. كما استخدموا مجزوءات الأوزان مثل مجزوء الكامل ومجزوء الرجز ومجزوء الرمل ومجزوء الوافر، بل إِنَّ ابن جبير استخدمَ وزن المديد ذا التفعيلات: فاعلاتنْ فاعلن فاعلاتنْ محذوفاً مخبوناً في العروض والضرب، أي في الصدور والأعجاز، حيثُ جعلهُ: فاعلاتنْ فاعلنْ فعلنْ، وما ذاك إلاَّ تخفيفاً للإيقاع وترقيقاً له. قال:

(١) ينظر: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري: ص٤٦٦ وما بعدها.

(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء: ص٢٠٩.

(٣) أنظر: ابن حريق البلنسي حياته وآثاره: ص ١١٥.

ربّ إنْ لم تؤتِني سَعَةً ... فاطْوِ عنّي فضلةَ العُمْرِ

لا أُحبُّ اللبْثَ في زَمنٍ ... حاجتي فيهِ إلى البشَرِ

فَهُمُ كَسرٌ لِمُنجَبرٍ ... ما هُمُ جَبْرٌ لِمُنكَسِرِ[1]

أمّا القافية فلم يتقيّد الشعراء الأندلسيون بنوعٍ منه دون آخر وهم يرثون أنفسَهم، فكان منها المقيّد بكل أنواعه، والمُطلَق بكل أنواعه، ولم تكن لديهم تحديدات للموسيقى الخارجية لنصوصهم، بل لقد استخدمَ بعضهم القوافي النادرة مثل الثاء والطاء والغين، ليدلُّوا بذلك على تنوُّع قدراتهم وعلى استغلال الجوانب الفنية للكلام بكل طاقاته. قال ابن عمّار على قافية الثاء مخاطباً المعتمد بن عباد وقد تأكّدَ له مصيرهُ على يديه:

لك المثلُ الأعلَى وما أنا حارثُ ... ولا أنا ممنْ غيَّرتْهُ الحوادثُ

ولا شاركتْكَ الشمسُ فيَّ وإنهُ ... لينأى بحظّي منكَ ثانٍ وثالثُ

فديتُكَ ما للبِشْرِ لم يسرِ برقُهُ ... ولا نفحتْ تلكَ السجايا الدمائثُ

أظنُّ الذي بيني وبينك أذهبتْ ... حلاوتَهُ عنّي الرجالُ الأخابثُ

تنكّرتُ لا أني لفضلكَ ناكرٌ ... لديَّ ولا أنّي لعهدكَ ناكثُ

ولكنْ ظنونٌ ساعدتْها نمائمٌ ... كما ساعدتْ مَثنى المثاني المثالثُ

أبعدَ مضتْ خمسٌ وعشرونَ حجّةً ... تجافتْ بنا تلكَ الخطوبُ الكوارثُ

مضتْ لم تَرِبْ منّي أمورٌ شوائبٌ ... ولا تُسليتْ منّي مساعٍ خوابثُ

حللتَ يداً بي هكذا وتركتَني ... نهاباً وللأيّامِ أيدٍ عوابثُ

وهل أنا إلاّ عبدُ طاعتكَ التي ... إذا مُتُّ عنها قامَ بعديَ وارثُ

أَعِدْ نظراً لا توهنِ الرأيَ إنهُ ... قديماً نبا هافٍ وأدركَ رائثُ

(١) نفح الطيب: ٢/ ٤٩٢.

ستذكرني إنْ بانَ حبلي وأصبحتْ   تـئنُّ بِـكفَّيكَ الحبـالُ الرثائـثُ
وتطلبني إنْ غابَ للرأي حاضرٌ   وقد غـابَ منِّي للخواطِـرِ بـاعثُ
أعودُ بعهـدٍ نطتُـهُ بـكَ أنْ تـرى   تَحُـلُّ عُـراهُ العـاقداتُ النوافـثُ[1]

أما قافية الطاء فقد نظم ابن زيدون عليها قصيدته:

شَحطْنا، وما لِلدارِ نـأْيٌ ولا شَحْطُ   وشـطَّ بِمَـنْ نَهـوَى المَزارُ، ومـا شَطُّوا
أَأَحبابَنـا أَلـوتْ بِـحادثِ عَهـدِنا   حـوادثُ لا عَقْـدٌ عليهـا ولا شَـرطُ
لَعمرِكمُ إنَّ الزمـانَ الـذي قَضَى   بِـشَتِّ جميـعِ الـشَّمْلِ مِنَّـا لَمُـشتطٌ
وأمَّـا الكـرى مُـذْ لَمْ أزرْكـمْ فهـاجِرٌ   زيارتُـهُ غِـبٌّ، وإِلـمامُـهُ فَـرْطُ
وما شَوقُ مقتولِ الجوانـحِ بالـصَّدَى   إلى نُطفَـةٍ زرقـاءَ أضـمَرَها وَقْـطُ
بِأَبرحَ مِـن شـوقِي إليكمْ، ودونَ مـا   أُديـرُ المُنـى عنـهُ القَتـادةُ والـخَـرْطُ
وفي الربربِ الإنسيِّ أحـوَى، كِناسُـهُ   نَواحي ضميري، لا الكَثيبُ ولا السَّقْطُ
غريبُ فنونِ الحُسنِ يرتـاحُ درعُـهُ   متـى ضـاقَ ذَرعـاً بالـذي حـازَهُ المِرطُ
كـأَنَّ فـؤادي يـومَ أهـوَى مودِّعـاً   هـوَى خافقـاً منـهُ بحيـثُ هـوى القُـرْطُ
إِذا ما كِتـابُ الوَجْـدِ أشكلَ سَطرُهُ   فَمِـنْ زفرتـي شَكلٌ ومِـنْ عَبرتـي نَقْـطُ
أَلا هـلْ أتـى الفِتيـانَ أَنَّ فَـتاهمُ   فَريـسةُ مَـنْ يَعـدو ونُـهزةُ مَـنْ يَـسطو
وأَنَّ الجـوادَ الفائـتَ الـشأْوِ صافـنٌ   تَخـوَّنَهُ شَـكلٌ وأزرى بِـهِ رَبْـطُ؟
وأَنَّ الحُسامَ العَـضْبَ ثـاوٍ بِـجَفنِهِ   ومـا ذُمَّ مِـنْ غَرَبَـيْهِ قـدٌّ ولا قَـطٌّ
عليـكَ "أبـا بكـرٍ" بـدرتُ بهمَّـةٍ   لهـا الخطَـرُ العـالي، وإِنْ نالَـها حَـطٌّ

(١) الذخيرة:٢/ ٢٤٣.

أَبي بعدَ ما هِيلَ الترابُ علَى أبي ... ورَهطي فذًّا حيثُ لم يبقَ لي رَهْطُ
لكَ النعمةُ الخضراءُ تَندى ظلالُها ... عليَّ، ولا جَحدٌ لديَّ ولا غَمْطُ
ولولاكَ لَمْ تَثقُبْ زنادُ قريحتي ... فَينتهبُ الظلماءَ مِنْ نارِها سِقْطُ
ولا أَلَّفتْ أيدي الربيعِ بدائعي ... فَمِنْ خاطري نثرٌ ومِن رَوضِهِ لَقْطُ
هَرِمتُ وما للشيبِ وَخْطٌ بِمَفرقي ... ولكنْ لِشيبِ الهَمِّ في كَبِدي وَخْطُ
وطاولَ سُوءُ الحالِ نفسي فَأَذْكَرَتْ ... مَنى الرَّوضةِ الغَنَّاء طاوَلَها القَحْطُ
مِئينٌ من الأَيَّامِ خَمسٌ قطعتُها ... أسيراً، وإِنْ لم يبدُ شدٌّ ولا قَمْطُ
أَتتْ بي كما مِيصَ الإِناءُ مِن الأَذى ... وأَذهبَ ما بالثوبِ مِن دَرَنٍ مَسْطُ
أَتدنو قُطوفُ الجنَّتينِ لِمعشرٍ ... وغايتيَ السِّدْرُ القليلُ أَو الخَمطُ؟
وما كان ظنِّي أَنْ تُغرِّرَ بي المُنى ... وللغِرِّ في العشواءِ مِن ظنِّهِ خَبْطُ
أَما وأَرَتْني النجمَ موطِئَ أَخمصي ... لقدْ وطِّأَتْ خدِّي لأَخمصِ مَنْ يخطو
ومستبطِإِ العُتبَى إذا قُلتَ قدْ أَتى ... رِضاهُ تَمادَى العَتبُ واتَّصلَ السُّخْطُ
وما زالَ يُدنيني ويُنئي قَبولَهُ ... هوًى سَرَفٌ مِنهُ وصاغيةٌ فَرْطُ
ونظمُ ثَناءٍ في نِظامِ ولائِهِ ... تَحلَّتْ بِهِ الدنيا، لآلئُهُ وَسْطُ
علَى خَصْرِها مِنهُ وِشاحٌ مُفصَّلٌ ... وفي رأسِها تاجٌ، وفي جِيدِها سِمْطُ
عَدا سَمعُهُ عَنِّي، وأَصغَى إِلَى عِداً ... لَهُمْ في أَديمي كُلَّما استمكنوا عَطُّ
بلغتُ المَدَى -إِذْ قصَّرُوا- فقلوبُهمْ ... مكامنُ أَضغانٍ أَساودُها رُقْطُ
يُولُّونَني عُرضَ الكَراهةِ والقِلَى ... وما دَهرهُمْ إِلاَّ النفاسةُ والغَمْطُ
وقدْ وَسموني بالتي لستُ أهلَها ... ولَمْ يُمْنَ أَمثالي بِأَمثالِها قَطُّ
فَرَرتُ، فإِنْ قالوا الفِرارُ إِرابةٌ ... فقدْ فَرَّ موسَى حينَ هَمَّ بِهِ القِبْطُ

وإنـي لَـراجٍ أنْ تعـودَ كَبدئـهـا … لـيَ الـشيمةُ الزهـراءُ والخُـلُقُ الـسَّبْطُ
وحِلمُ امرئٍ تَعـفُو الـذنوبُ بِعفـوِهِ … وتُـمحَى الخَطايا مِثلَ ما مُحـيَ الخَـطُّ
فَمـا لـكَ لا تَـختـصُّني بِـشفاعـةٍ … يَلـوحُ علَـى دهـري لِـميسمِها عَلْـطُ؟
يَفـي بنسيمِ العَـنبرِ الـوردِ نَفحُهـا … إذا شَعـشَعَ المِسكَ الأَحَـمَّ بِـهِ خَـلْطُ
فـإنْ يُـسعفِ المـولَى فَـنُعمى هنيئـةٌ … تُـنفِّسُ عَـن نفـسٍ أَلـظَّ بـهـا ضـغـطُ
وإنْ يأْبَ إلاَّ قـبضَ مبسوطِ فـضلِهِ … ففي يَـدِ مَولًى فَوقَهُ القـبضُ والبسْطُ(١)

كما نظم القاضي الشريف قصيدته مخاطباً نفسه:

أهزلاً وقد جدَّتْ بك اللمَّةُ الـشمطا … وأمنـاً وقـد ساورتِ يـا حيَّـةً رَقطـا؟
أغرَّكَ طـولُ العمـرِ في غيـرِ طائـلٍ … وسَـرَّكَ أنَّ المـوتَ في سـيرِهِ أبطـا؟
رويـداً فـإنَّ المـوتَ أسـرعُ وافـدٍ … علـى عمـركَ الفـاني ركائبـهُ حَـطَّا
فإذ ذاكَ لا تـسطيعُ إدراكَ مـا مضَى … بِحـالٍ، ولا قبـضاً تطيـقُ ولا بـسطا
تأَهَّـبْ فقـد وافـى مـشيبُكَ منـذراً … وهـاهوَ في فَودَيـكَ أحرفَـهُ خَطَّـا
فوافقـتَ منـه كاتـبَ الـسرِّ واشـياً … لـه القلـمُ الأعلَـى يخـطُّ بـه وَخطـا
مُعمَّى كتابٍ فَـكُّهُ "احـذرْ" فهـذهِ … سـفينةُ هـذا العمـرِ قاربـتِ الـشطَّا
وإنْ طالما خاضـتْ بـه اللججَ الـتي … خبطـتَ بهـا في كـلِّ مهلكـةٍ خَبطـا
ومـا زلـتَ في أمواجهـا متقـلِّباً … فآونـــة رفـــعاً وآونـــة حَطَّـــا
فقد أوشكتْ تُلقيكَ في قَعرِ حفـرةٍ … تـشدُّ عليـكَ الجـانبينِ بهـا ضغـطا
ولستَ علـى علـمٍ بمـا أنـتَ بعـدها … مُلاقٍ، أرضـواناً مـن الله أم سَـخطا(٢)

القصيدة.....

---

(١) ديوانه: ص ٢٨٥-٩٣.

(٢) نفح الطيب: ٥/ ٤٤٠.

أما قافية الغين فسيأتي الكلام عليها خلال حديثنا عن القصيدة الأنموذج.

إنَّ تلوُّن رثاء النفس بمثل هذه الإيقاعات، وعلى هذا النحو من الحرية في البناء يكشف عن نزوع الأندلسيين إلى التجديد في مجالات الشعر كافة، دون أنْ يتقيدوا بتحديدات سابقة مع التزامهم بالأصول، ونستطيع أنْ نضيف هذا إلى سلسلة إنجازاتهم في التجديد.

١٧- القصيدة الأنموذج:

استطاعت قصيدة رثاء النفس في الشعر الأندلسي أنْ تكون أنموذجاً يُحتَذَى، فنشأتْ ظاهرة بارزة في هذا النمط من الشعر هي ظاهرة المعارضات لازمتْهُ منذ وقتٍ مبكِّر جداً من تاريخه حتى وقتٍ متأخِّرٍ منه، وقوامُ ذلك أنْ يحتذي شاعرٌ شاعراً آخر فينظم على وزن قصيدة من قصائده وعلى قافيتها وموضوعها.

وأول قصيدة أنموذج كانت للغزال، وهي:

ألستَ ترى أنَّ الزمان طواني ... وبدَّلَ خَلقي كُلَّهُ وبَراني
تَحيَّفَني عُضواً فعضواً فلمْ يدعْ ... سوى اسمي صحيحاً وحدَهُ ولِساني
ولو كانت الأسماءُ يَدخلُها البِلى ... لقدْ بَلِيَ اسمي لامتدادِ زماني!
ومالِيَ لا أبلَى لتسعينَ حجَّةً ... وسَبعٍ أتتْ مِن بَعدِها سنتانِ
إذا عَنَّ لي شخصٌ تخيَّلَ دونَهُ ... شَبيهُ ضبابٍ أو شبيهُ دُخانِ! (١)

وقد أصبحت هذه القصيدة أنموذجاً لعددٍ من الشعراء منهم أحمد بن عبد ربه الذي قال:

كِلاني لِما بي عاذليَّ كفاني ... طويتُ زماني بُرهةً وطواني
بليتُ وأبلتْني الليالي وكَرُّها ... وصَرفانِ للأيَّامِ معتورانِ

(١) ديوانه: ص١١٢-١٣.

وما لـيَ لا أبلَى لـسبعين حجَّةً وعَـشرٍ أتـتْ مِـن بَعـدِها سنـتانِ
فلا تـسألانـي عَـن تباريحِ عِلَّـتي ودونكمـا مـنّي الـذي تَـريانِ
وإنّـي بِحمـدِ اللهِ راجٍ لِفـضلِهِ ولـي مِـن ضَـمانِ اللهِ خـيرُ ضَـمانِ
ولـستُ أُبـالي عـن تباريحِ علَّـتي إذا كـانَ عَقلـي باقيـاً ولِـساني
هما ما هما في كلِّ حـالٍ تلـمُّ بـي فـذا صـارمي فيهـا وذاكَ لِـساني[1]

ومنهم أبو الحسن علي بن زيد النجار الكاتب الأشبيلي إذْ قال:

أما تـشتفي مني صـروفُ زمانـي وهـلاً كفـى الأيّـامَ أنّـيَ فـانِ؟
وحسب المنايـا أنْ خلعـتُ شبيبتي ولـولا حـذاريها خلعـتُ عنانـي
فغيَّـضتُ أمـواهَ الـدموعِ بمقلتـي وأخمـدتُ نـيرانَ الجـوى بجنـاني
ونزَّهتُ عن سَمعِ القيانِ مـسامعي وقدسـتُ عـن بنـتِ الـدنان بنـاني
فأشـرقُ عُـذري للنهـى فعـذرنني وأظلـمَ في عـيني الـصبا فلحـاني
ولم تقنـع الأيّـامُ حتـى رميـنني بعـرض شـمامٍ أو بـركنِ أبـانِ
فطار فؤاد الـبرقِ يحكـي جـوانحي وأرسـلَ عينـيهِ الحـيا فبكـاني

ومنها:

بـدا لـيَ أنَّ الـدهرَ لـيسَ مـصرِّداً كـؤوسَ الـردى أو يـشربَ الملـوانِ
وأبصرتُ ما بين المصارعِ مَصرعي سـريعاً رمـاني الـدهرَ أو متوانـي[2]

---

(١) بغية الملتمس: ص ١٤٩-١٥٠، ومطمح الأنفس: ص٢٧٤-٥، والمطرب: ص١٥٥=٦، ونفح الطيب: ٧/ ٥٣.

(٢) تحفة القادم: ص٧٣-٧٤.

وقد أصبحت قصيدة أبي عثمان بن عبد ربه أنموذجاً لعدد من القصائد، وهي:

أبعد نفوذي في علوم الحقائقِ ... وطول انبساطي في مواهب خالقي
وفي حين إشراقي علَى ملكوتهِ ... أُرَى طالباً رزقاً إلى غير رازقي؟
وقد آذنتْ نفسي بتقويض رحلها ... وأعنفَ في سَوقي إلى الموتِ سائقي
وإنِّي وإنْ نقَّبتُ أو رحتُ هارباً ... من الموتِ في الآفاقِ فالموتُ لاحقي[1]

فمن ذلك قصيدة ابن شُهيد:

ولما رأيتُ العيشَ ولَّى برأسِهِ ... وأيقنتُ أنَّ الموتَ لاشكَّ لاحقي
تمنَّيتُ أنِّي ساكنٌ في غيابةٍ ... بِأعلَى مهبٌ الريحِ في رأسِ شاهقِ
أذرُّ سَقيطَ الحَبِّ في فضلِ عيشةٍ ... وحيداً، وأحسو الماءَ ثَنْيَ المفالِقِ
خليليَّ مَن رامَ المنيَّةَ مَرةً ... فقد رُمتُها خمسينَ، قَولةَ صادقِ
كأنِّي، وقد حانَ ارتحاليَ،لم أَفُزْ ... قديماً من الدنيا بِلمحةِ صادقِ
فمنْ مبلغٌ عنِّي ابن حزمٍ وكانَ لي ... يداً في مُلمَّاتي وعندَ مضايقي
عليكَ سلامُ اللهِ إنِّي مُفارقٌ ... وحسبُكَ زاداً من حبيبٍ مُفارِقِ
فلا تنسَ تأبيني إذا ما فقدتَني ... وتذكارَ أيامي وفضلَ خَلائقي
وحرِّكْ له باللهِ من أهلِ فنِّنا ... إذا غيَّبوني كلَّ شَهمٍ غُرانقِ
عسى هامتي في القبرِ تسمعُ بعضَهُ ... بترجيعِ شادٍ أو بتطريبِ طارقِ
وإنِّي لأَرجو اللهَ فيما تقدَّمتْ ... ذنوبي به مما درى من حقائقي[2]

---

(١) جذوة المقتبس: ص٤٠٠، وبغية الملتمس: ص٥٢٧.

(٢) ديوانه: ص١٠١-٢.

وقصيدة أبي جعفر بن وضَّاح التي منها:

فـلا تعذلانــي في تـسرُّعِ مهجـتي | إلى حَتــفِها بـــين القـــنا والفيـالقِ
فلستُ مزيحاً من قنا اللحظ راحتي | ولا مُعفياً عن محمل السيفِ عاتقي[1]

وقصيدة ابن الزقاق البلنسي:

أَإخواننا والموتُ قـد حـال بينـنا | وللمـوتِ حُكـمٌ نافـذٌ في الخلائـقِ
سبقتُكمُ للمـوتِ والعمرُ ظِنَّـةٌ | وأعلـمُ أنَّ الكـلَّ لا بـدَّ لاحقـي
بعيشكمُ أو باضطجاعيَ في الثرى | ألَمْ نـكُ في صَـفوٍ مـن الـودِّ رائـقِ؟
فمن مرَّ بي فليمضِ بي مترحِّـماً | ولا يـكُ مَنـسياً وفـاءُ الأصـادقِ[2]

وقصيدة أبي بكر الرندي الحكيم التي منها:

ولما رأيتُ الشيـبَ حـلَّ بـمفرقي | نــذيراً بترحــال الـشبابِ المُفـارقِ
رجعتُ إلى نفسي فقلتُ لها انظري | إلى مـا أرى، هـذا ابتـداءُ الحقـائقِ[3]

ولأبي الوليد بن الفرضي قصيدته التي يقول فيها:

أسـير الخطايـا عنـد بابـكَ واقـفُ | علـى وجَـلٍ مـما بـهِ أنـتَ عـارفُ
يخـافُ ذنوبـاً لم يغـبْ عنـكَ عيبُهـا | ويرجـوكَ فيـها فهْـوَ راجٍ وخـائفُ
ومَن ذا الذي يُرجَـى سـواكَ ويُتَّقَـى | ومـا لـكَ في فـصلِ القـضاءِ مُخـالفُ
فيـا سيِّدي لا تُخزنـي في صـحيفتي | إذا نُـشرتْ يـومَ الحـسابِ الـصحائفُ

---

(١) مطمح الأنفس: ص٤٠٠.
(٢) ديوانه: ص٢٠٥.
(٣) نفح الطيب: ٥/ ٤٩٨.

وكنْ مؤنسي في ظلمة القبرِ عندما ... يصدُّ ذوو القُربَى ويجفو المؤالِفُ
لئنْ ضاقَ عني عفوُكَ الواسعُ الذي ... أُرجِّي لإسرافي فإنِّي لَتالِفُ[1]

وقد كانت هذه القصيدة أنموذجاً لأبي العباس الوقشي وقد وافقه في مفتتحها فقال:

أسير الخطايا عند بابك واقفُ ... له عن طريق الحق قلبٌ مُخالِفُ
قديماً عصى عمداً وجهلاً وغرةً ... ولم ينهه قلبٌ من الله خائفُ
تزيدُ سنوهُ وهْو يزدادُ ضلَّةً ... فها هو في ليلِ الضلالةِ عاكِفُ
تطلَّعَ صبحُ الشيبِ والقلبُ مظلمٌ ... فما طافَ فيه من سنا الحقِّ طائفُ
ثلاثون عاماً قد تولَّتْ كأنها ... حلومٌ تقضَّتْ أو بروقٌ خواطفُ
وجاء المشيبُ المنذرُ المرْءِ أنهُ ... إذا رحلتْ عنه الشبيبةُ تالفُ
فيا أحمد الخوَّان قد أدبرَ الصبا ... وناداكَ من سنِّ الكهولةِ هاتفُ
فهلْ أرَّقَ الطرفَ الزمانُ الذي مضى ... وأبكاهُ ذنبٌ قد تقدَّمَ سالفُ
فجُدْ بالدموعِ الحُمرِ حُزناً وحسرةً ... فدمعُكَ يُنبي أنَّ قلبكَ آسفُ[2]

وقد عارضها كذلك العباس أحمد بن الغمَّاز فقال:

هو الموتُ فاحذرْ أنْ يجيئكَ بغتةً ... وأنتَ على سوءٍ من الفعلِ عاكفُ
وإيَّاكَ أنْ تمضي من الدهرِ ساعةٌ ... ولا لحظةٌ إلاَّ وقلبُكَ واجفُ
وبادرْ بأعمالٍ تسرُّكَ أنْ تُرى ... إذا نُشرتْ يوم الحساب الصحائفُ
ولا تيأسنْ من رحمة الله إنهُ ... لِربِّ العبادِ بالعبادِ لَطائفُ[3]

---

(١) نفح الطيب: ٢/ ١٢٩.
(٢) التكملة لكتاب الصلة: ١/ ٥٧، ونفح الطيب: ٢/ ٥٩٩-٦٠٠.
(٣) نفح الطيب: ٤/ ٣١٦.

وقد رثى الرمادي نفسه بقصيدته التي يقول فيها:

على كبري تهمي السحابُ وتـذرفُ ... ومـن جزعـي تبكـي الحَمـامُ وتهتـفُ
كأنَّ السحاب الواكفـاتِ غواسلي ... وتلـك علـى فَقـدي نـوائحُ هُـتَّفُ
ألا ظعنـتْ ليلـى وبـانَ قَطينُها ... ولكنَّـني بـاقٍ فلومـوا وعنِّـفُوا
ولآنستُ في وجـهِ الصباحِ لِبينِها ... نحـولاً كـأنَّ الصبحَ مثلـيَ مُدنَـفُ
وأقـربُ عهـدٍ رشـفةٌ بلَّت الحشا ... فعـادَ شـتاءً بـارداً وهـو صـيِّفُ
وكانتْ علـى خـوفٍ فولَّـتْ كأنَّـها ... من الردفِ في قيـد الخلاخـلِ تَرسُـفُ[1]

فكانتْ أنموذجاً احتذاه البلفيقي في قصيدته التي يقول فيها:

تأسَّـفَ لكـنْ حـين عـزَّ التأسُّـفُ ... وكفكـفَ دمعـاً حـين لا عـينَ تـذرفُ
ورامَ سـطوناً وهـو في رِجْـلِ طـائرٍ ... ونـادَى بِأُنـسٍ والمنـازلُ تهـتفُ
أراقـبُ قلـبي مـرَّةً بعـدَ مـرَّةٍ ... فأُلفـيهِ ذيَّـاكَ الـذي أنـا أعـرفُ
سـقيمٌ ولكـنْ لا يـحسُّ بدائـهِ ... سوى مَن له في مـأزقِ الموتِ موقـفُ
وجـاذب قلبـاً لـيس يـأوي لِمـألفٍ ... وعـالجَ نَـفْـساً داؤهـا يتـضاعـفُ
وأعجـبُ مـا فيـهِ اسـتواءُ صـفاتِهِ ... إذا الـهمُّ يـشقيهِ أو الـسرُّ يُـترِفُ
أقـولُ وفي أثنـاءِ مـا أنـا قـائـلٌ ... رأيـتُ المنايـا وهْـيَ لـي تتخـطَّفُ
وإنِّـي مـع الساعاتِ كيفَ تقلَّبتْ ... لأسـهُمِها إنْ فوَّقـتْ مُتَـهَدَّفُ
ومـا جـرَّ ذا التسويفَ إلاَّ شـبيبتي ... تُخيِّـلُ لـي طـولَ المـدى فأُسـوِّفُ
إذا جاءَ يومٌ قلتُ: هـذا الـذي يلـي ... ووقتُـكَ في الـدنيا جلـيسٌ مخـفَّفُ

---

(١) مطمح الأنفس: ص٣٢٠.

أُقـدِّمُ رِجـلاً عنـدَ تـأخيرِ أُختِها إذا لاحَ شمسٌ فالكواكبُ تُكسَفُ
كـأنَّ لِـداتي في مراقـدهمْ ولـمْ أودِّعُهـمْ والغُصنُ ريَّانُ ينـطفُ
وهَبْني أعشْ هلْ لي إذا شابَ مفرقي وولَّى شبابٌ هـل يُـباحُ التسوُّفُ؟[1]

وهي واحد وسبعون بيتاً.

أما ابن زيدون فقد رثى نفسه بقصيدته التي يقول فيها:

ألمْ يأنِ أنْ يبكي الغمامُ على مثلي؟ ويطلبُ ثأري البرقُ منصلِتَ النصلِ؟
وهـلا أقامتْ أنجمُ الليلِ مأتماً لِتندبَ في الآفاقِ ما ضاعَ مِن تَتلي
ولو أنصفتْني -وهي أشكال هِمَّتي- لألقتْ بأيدي الذلِّ لَمَّا رأتْ ذُلِّي
ولافترقتْ سَبعُ الثريَّا وغاضَها بمطلعِها ما فَرَّقَ الدهرُ مِن شَملي
لَعمرُ الليالي إنْ يكنْ طالَ نزعُها لقد قَرطَستْ بالنَّبْلِ في موضعِ النُّبْلِ
تحلَّتْ بآدابي، وإنَّ مآربي لَسانحةٌ في عَرض أمنيةٍ عُطلِ
أخصٌ لفهمي بالقِلَى، وكأنَّما يَبيتُ لِذي الفهمِ الزمانُ على ذَحْلِ
وأُجفَى على نظمي لِكلِّ قلادةٍ مفصَّلةِ السِّمطينِ بالمنطقِ الفَصْلِ
ولو أنَّني أسطيعُ كي أُرضيَ العِدا شَريتُ ببعضِ الحِلْمِ حظَّاً من الجهْلِ
أمقتولةَ الأجفانِ ملَكِ والِهاً؟ ألمْ تُركِ الأيَّامُ نجماً هوى قَبلي؟
أقِلِّي بُكاءً، لستِ أولَ حُرَّةٍ طوتْ بالأسَى كَشحاً على مَضضِ الثُّكْلِ
وفي «أُمِّ موسى» عِبرةٌ إذْ رمتْ بهِ إلى اليمِّ في التابوتِ، فاعتبري واسلي
لعلَّ المَليكَ المُجملَ الصُّنعِ قادراً لهُ بَعدَ يأْسٍ سوف يُجملُ صُنعاً لي

---

(١) شعر البلفيقي: ص٥٠-٦٠.

ولله فينــا عِلــمُ غيــبٍ، وحَــسبُنا ... بهِ -عندَ جَورِ الدهرِ- مِن حَكَمٍ عَــدْلِ

وإنَّ رجــائي في الهُمــامِ ابــنِ جَهــورٍ ... لَمُستَحكِمُ الأَسبابِ مُستحصِدُ الــحَبلِ

هُمــامٌ عَريــقٌ في الــكِرامِ، وقلَّمــا ... ترَى الفَرعَ إلاَّ مُستمِدًّا مِـن الأَصـْلِ

نَهــوضٌ بِـــأَعباءِ المُــروءةِ والــتُّقَى ... سَحوبٌ لأَذيـالِ الـسيادةِ والفَـضْلِ

إذا أشــكَلَ الخَطــبُ الــمُلِمُّ فإنــهُ ... وآراؤهُ كَــالخَطِّ يُوضَـحُ بالـشَّكْلِ

وذو تُــدرَإٍ، للعَــزمِ تــحتَ أنــاتِهِ ... كُمونُ الردَى في فَترةِ الأَعْيُنِ الـنُّجْلِ

يــرِفُّ علــى التأميــلِ لألاءُ بِــشْرِهِ ... كمـا رفَّ لألاءُ الحُسامِ علَى الـصَّقْلِ

محاسـنُ مـا لِلحـسْنِ في البـدرِ عِــلَّةٌ ... سِـوى أنــها باتــتْ تُــمِلُّ فَيستملي

تُغِـصُّ ثنــائي مثلمـا غَـصَّ جَــاهداً ... سِـوارُ الفـتاةِ الـرُّودِ بالمِعصمِ الـخَدْلِ

وتَغنَى عَن المَـدحِ -اكتنـاءً يـسَروها- ... غِنَى المُقْلةِ الكَحلاءِ عَـن زينـةِ الكُحْـلِ

"أبا الحزمِ" إنّـي -في عتابـك- مائـلٌ ... على جانبٍ -تأوي إليهِ العُـلا- سَـهْلِ

حَــمائمُ شَــكوَى صبَّحَتْكَ هــوادلاً ... تُــناديكَ مِــن أَفنــانِ آدابــيَ الــهُدْلِ

جَــوادٌ إذا اســتنَّ الجِيــادُ إلى مَــدَى ... تَــمطَّرَ فاستولَــى عَلَــى أمَدِالـخَـصْلِ

ثَــوَى صـافناً في مـربطِ الهُـونِ يَشتكي ... بِتَـصهالِهِ مــا نالَـهُ مِـن أذى الـشَّكْلِ

أَفي العَـدْلِ أَنْ وافتْـكَ تَـترى رسـائلي ... فلـمْ تَـتْرِكْ وَضـعاً لهـا في يَـدَيْ عَــدْلِ

أُعِــدُّكَ للحِلْـــى، وآمُـــلُ أَنْ أرى ... بِـعماكَ مَوسـوماً، ومـا أَنـا بِالغُــفْلِ

ومازالَ وَعدُ الـنفسِ لـي منـكَ بـالمُنَى ... كـأنّي بِــهِ قـدْ شِـمتُ بارقـةَ الــمَحْلِ

أَئِنْ زعـمَ الواشـون مـا لـيسَ مَزعمـاً ... تُعــذِّرُ في نَـصري وتَعـذِرُ في خَــذْلي

وأَصدى إلى إسعافِكَ الـسائغِ الجَنى؟ ... وأَضحى لدى إنـصافِكَ السابغِ الظِـلِّ

وغـيرُكَ رامَ العُـذرُ إِبـلاغَ سَـمعِهِ فَـصَـمَّ وأَصـغَى للوقيـعةِ والعـذْلِ
ولـو أنـني واقـعتُ عَمـداً خطيئـةً لمـا كـان بِـدْعاً مِـن سـجاياكَ أنْ يُـملي
فلمْ أستَرْ حربَ :الفُجار" ولم أُطِعْ" مُـسيلمةً" إذْ قـالَ: إِنّـي مِـن الرُّسْـلِ
ومِثلـيَ قـدْ تهفـو بِـهِ نَـشوةُ الـصِّبا ومِثلُـكَ مَـنْ يعفـو، ومالَـكَ مِـنْ مِـثْلِ
وإِنّـي لَـتَـهاني نُهـايَ عَـن التـي أَشـادَ بِهـا الواشـي، ويَعـقِلُني عَقلـي
أَأَنكُـثُ فيـكَ المَـدحَ مِـن بعـدِ قُـوَّةٍ ولا أقـتدي إلاَّ بِـناقـصةِ الغَـزْلِ
ذَممـتُ إذاً عهـدَ الحيـاةِ، ولا يَـزلْ مُـمِرّاً علـى الأيّـامِ طَعمُهمـا المـحْلي
ومـا كنـتُ بالمُهـدي إلى الـسؤددِ الخَنـا ولا بالمُـسيءِ القـولَ في الحَسَنِ الفِعْـلِ
ومــا لـيَ لا أُثنـي بآلــاءِ مُنعِـمٍ إذا الرَّوضُ أَثـنى بالنسيمِ علَـى الطَّـلِّ
هيَ النعْلُ زلَّتْ بي، فَهَلْ أنتَ مُكـذِبٌ لِقيـلِ الأعـادي إِنَّـها زَلَّـةُ الحَسْلِ!
وهلْ لـكَ في أنْ تـشفعَ الطَّـوْل شـانعاً فَتُنـجِـحَ مَيمـونَ النقيـبةِ أو تُبلـي
أجِرْ أعِدْ آمِنْ أَحسنِ ابدأْ عُدِ اكفِ حُطْ تَحَفَّ ابسطِ استأْلفْ صُنِ احْمِ اصطنعْ أَعْـلِ
مُنـىً –لو تسَنَّى عَقـدُها بيـدِ الرضـا_ تَيـسَّرَ مِنـها كـلُّ مستـصعَبِ الـحَلِّ
أَلا إنَّ ظَـنّـي –بـين فِعلَيـكَ_ واقـفٌ وقُـوفَ الهوى بـينَ القطيعـةِ والوَصْـلِ
فإِنْ تُمـنَ لـي مِنـكَ الأمـاني فَـشيمةٌ لِذاكَ الفعـالُ القَـصْدَ والخُـلُقِ الـرَّسْلِ
وإلاَّ جَنيتُ الأُنسَ مِنْ وَحـشةِ النوى وهَولِ الـسُّرى بين الـمَـطيَّةِ والرَّحْـلِ
سَيُعـنَى بِـما ضَيَّعتُ مِـنّيَ حـافظٌ ويُلفَى لِما أرخصتَ مِن خَطَـرِي مُغلـي
وأَينَ جَوابٌ مِنكَ تَـرضَى بِـهِ العُـلا إذا سأَلَـتْني عَنـكَ أَلـسنةُ الـحَفْلِ؟[1]

(١) ديوانه: ص٢٦١- ٢٧٣.

فكانتْ أُنموذجاً احتذاه ابن حمديس في قصيدته:

نَنامُ من الأيَّامِ في غَرَضِ النَّبْلِ ... ونُغذَى بِمُرِّ الصابِ منها فنستحلي
وقد فَرغتْ للقومِ في غَفَلاتِهم ... حتوفٌ بهمْ تُمسي وتُصبحُ في شُغْلِ
أرى العالَمَ العلويَّ يَفنَى جميعُهُ ... إذا خَلَتِ الدنيا من العالَم السُّفْلي
ويبقَى على ما كانَ مِن قبلِ خَلْقِهِ ... إلاهٌ هَدَى أهلَ الضلالةِ بالرُّسْلِ
ويَبعثُ مَنْ تحتَ الترابِ وفوقَهُ ... نشوراً، إليهِ الفضلُ، يا لكَ مِن فضْلِ
أرى الموتَ في عيني تخيَّلَ شَخصُهُ ... ولي عُمُرٌ في مثلِهِ يَتَّقي مِثلي
وكادتْ يدٌ منهُ تشدُّ على يدي ... ورجْلٌ لهُ بالقُرْبِ تَمشي على رِجْلي
وفي مدِّ أنفاسي لديَّ وجَزرِها ... بَقاءٌ لنفسٍ غير متَّصلِ الحبْلِ
ثمانونَ عاماً عِشتُها ووجدتُها ... تهدِّمُ ما تَبني وتفضُ مَنْ تُعْلي
وإنِّي لَحيُّ القولِ في الأملِ الذي ... إذا رُمتُهُ ألفيتُهُ مَيِّتَ الفعْلِ
إذا اللهُ لم يمنحْكَ خيراً، مُنعتَهُ ... على ما تُعانيهِ من الحِذْقِ والنُّبْلِ
فيا سائلي عَن أهلِ ذا العصرِ دعْهمُ ... فبالفرعِ منهمْ يُستَدَلُّ على الأصْلِ
إذا خَلَلٌ في الحالِ منكَ وجدتَهُ ... فإيَّاكَ والتعويلَ منهمْ على خِلٍّ
تأمَّلتُ في عقلي وضعفي فقلْ إذا ... سئلتَ: رأيتُ الشيخَ في عُمُرِ الطفْلِ
وهَمٌّ لهُ حِمْلٌ على الهمِّ ثقلُهُ ... فيا ليتَهُ مِنهُ على كاهلِ الكَهْلِ
رجعتُ إلى ذكرِ الحِمامِ فإنَّهُ ... لهُ زمنٌ ملآنُ بالغدْرِ والخَتْلِ
وكمْ لَقْوةٍ مِن قُلَّةِ النيقِ حطَّها ... إلى حيثُ تُفنيها الذبابةُ بالأكْلِ
وقسورةٍ أفضَى إلى نزْعِ روحِهِ ... وشقَّ إليها بينَ أنيابِهِ العُصْلِ
فما للردَى مِنْ منهلٍ لا تُسيغُهُ ... وواراهُ يَغنَى عن العَلِّ بالنهْلِ[1]

القصيدة...

---

(١) ديوانه: ص٣٦٤-٥.

وقد كان لابن سيدة علي بن إسماعيل النحوي اللغوي أنموذج هو قصيدته التي يقول فيها:

ألا هلْ إلى تقبيل راحتِكَ اليمنَى ... سبيلٌ فإنَّ الأَمْنَ في ذاكَ واليُمنا
فتنضَى همومٌ طلَّحتْهُ خُطوبُها ... فلا غارباً يُبقينَ منهُ ولا متنا
غريبٌ نأَى أهلوهُ عنهُ وشَفَّهُ ... هواهمْ، فأَمسَى لا يقرُّ ولا يَهنا
فيا مَلِك الأملاكِ إنِّي مُحوَّمٌ ... على الوِرْدِ لاَ عنهُ أُذادُ ولا أُدنَى
ضحيتُ فهلْ في بردِ ظلِّكَ نومةٌ ... لذي كَبِدٍ حرَّى وذي مقلةٍ وَسْنَى
تحقَّقتُ مكروهاً وأقبلتُ شاكياً ... إليكَ أَمأذونٌ لعبدِكَ أَمْ يثنَى؟
وإنْ تتأكَّدْ في دمي لكَ نِيَّةٌ ... فإنِّي سيفٌ لا أُحبُّ لهُ جَفْنا
إذا ما غدا في حرِّ سيفِكِ بارداً ... فَقِدْماً غدا مِن بَردِ نُعماكمُ سُخْنا
وهلْ هيَ إلاَّ ساعةٌ ثمَّ بَعدَها ... سَتقرعُ ما عُمِّرتُ مِن زمنٍ سِنَّا
وللهِ دمعي ما أَقلَّ استنانِهِ ... إذا في دمي أَمسَى سنانُكَ مُستَنَّا
وما ليَ مِن دهري حياةٌ أَلذُّها ... فتعتدُّها نُعمَى عليَّ ويَمتنَّا
إذا قَتلةٌ أرضتْكَ منَّا فهاتِها ... حبيبٌ إلينا ما رضيتَ بهِ عَنَّا[1]

وهي طويلة، وقد عارضها أبو بكر الصائغ بقوله:

أقول لنفسي حينَ قابلها الردَى ... فراغتْ فِراراً منهُ يُسرَى إلى يُمنَى
قَريْ تحمدي بعضَ الذي تكرهينَهُ ... فقد طالَ ما اعتدتِ الفرارَ إلى الأَهنَى[2]

(١) بغية الملتمس: ص٤١٨- ٤١٩، ومطمح الأنفس: ص٢٩٢-٣، ونفح الطيب: ٤/ ٢٧-٢٨.
(٢) قلائد العقيان:٧٣٧، والوافي بالوفيات: ٢/ ٢٤١، ونفح الطيب: ٧/ ٢٤.

وقال أبو محمد القاسم بن فتح بن يوسف بن الأريولي الحجاري:

إلى كــــمْ تقــــولُ ولا تفعــــلُ وتغفــــلُ والمــــوتُ لا يَغفــــلُ
أَأَمَّلــتَ خُلْــداً؟ فهيهــاتَ أَنْ يُــرَى المــرءُ يُــدركُ مــا يأمَــلُ
أم الــدهرُ غــرَّكَ إمهالُــهُ ولــو قــد تحقَّقــتَ مــا يُمهــلُ
ألــيسَ يُــجزِّيكَ أَجــزاءهُ وذلــكَ مِــن فعلِــهِ الأعــدلُ
ومَــن رامَ مِــن ربِّــهِ منــزلاً بغــير التقَــى خــانهُ المنــزلُ
كتــابٌ عزيــزٌ بــهِ ناطــقٌ وحــسبُكمُ الحَــكَمُ الفيــصلُ[1]

فقال أبو عمران المارتلي معارضاً:

إلى كــم أقــولُ ولا أفــعلُ وكــم ذا أحــومُ ولا أنــزلُ
وأزجــرُ نفــسي فــلا ترعــوي وأنــصحُ نفــسي فــلا تــقبلُ
وكــم ذا تعلَّــلُ لــي ويحَــها بعــلَّ وســوفَ وكــم تمطــلُ
وكــم ذا أؤمِّــلُ طــولَ البقــاءِ وأغــفلُ والمــوتُ لا يَغفــلُ
وفي كــل يــومٍ يُنــادي بِنــا منــادِي الرحــيلِ ألا فــارحلوا
أمِــنْ بَعــد سبعين أرجــو البقــا وســبعٍ أتــتْ بَعــدَها تــعجَلُ
كــأنْ بــي وشــيكاً إلى مَــصرعي يُــساقُ بِنعــشي ولا أُمــهَلُ
فيــا ليــتَ شِعريَ بَعــدَ الســؤالِ وطــولِ المــقامِ لِمــا أُنــقَلُ![2]

(١) أخبار وتراجم أندلسية: ص٥٣-٥٤.

(٢) تحفة القادم: ص١٣٢-٣، والغصون اليانعة: ص ١٣٦-٧، ونفح الطيب: ٣/ ٢٩٦.



وقالَ أبو الحسن غلام البكري:

ألاحتْ وللظلماءِ مِن دونها سِدلُ ... عقيقةُ برقٍ مثلما انتُضيَ النصْلُ
نَكرتُ الدُّنى والأهل فيها فليس لي ... بها عقوةٌ آوي إليها ولا أهلُ
وأفردَني صرفُ الزمانِ كأنَّني ... طريرٌ من الهنديّ أخلَصَهُ الصقلُ
فيا ليتَ شِعري هل مقامي لِنيَّةٍ ... تصيخُ لِنجواها المطيَّةُ والرحلُ!
وسيرٍ يخلِّي المرءَ منهُ قرينهُ ... فريداً كما خلَّى تريكتهُ الرألُ[1]

وهي طويلة، وقد كانت أنموذجاً للمعتمد بن عباد وقد كان البكري من شعرائه، فنظمَ قصيدته:

بكيتُ إلى سرب القَطا إذْ مررنَ بي ... سَوارحَ، لا سجنٌ يعوقُ ولا كبْلُ
ولم تكُ - واللهُ المُعيدُ - حَسادةً ... ولكنْ حنيناً أنَّ شَكلي لها شَكلُ
فأسرحُ، لا شَملي صديعٌ، ولا الحشا ... وجيعٌ، ولا عيناي يُبكيهما ثُكْلُ
هنيئاً لها أنْ لم يُفرَّقْ جَميعُها ... ولا ذاقَ منها البُعدَ مَن أهلُها أهلُ
وأنْ لم تبتْ مثلي تطيرُ قلوبُها ... إذا اهتزَّ بابُ السجنِ أو صلصلَ القُفلُ
وما ذاك مما يعتريني، وإنما ... وصفتُ الذي في جِبلةِ الخَلقِ مِن قبلُ
لِنفسي إلى لُقيا الحِمامِ تَشوُّفٌ ... سوايَ يُحبُّ العيشَ في ساقِهِ حَجْلُ
ألا عصمَ اللهُ القَطا في فراخِها ... فإنَّ فراخي خانَها الماءُ والظلُّ[2]

وبعد أنْ نظم ابن الحدَّاد الوادي آشي قصيدته:

إلى الموت رُجْعي بعد حينٍ فإنْ أمُتْ ... فقدْ خُلِّدتْ خُلْدَ الزمانِ مناقبي

---

(١) الذخيرة: ٢/ ٣٣٢.

(٢) ديوانه: ص١١٠-١١١.

وذكـريَ في الآفـاقِ طــارَ كأنَّــهُ بِكلِّ لِسانٍ طيبُ عـذراءَ كاعِـبِ
ففــي أيِّ عِلْــمٍ لمْ تبــرِّزْ سوابقــي وفـي أيِّ فَـنٍّ لم تبــرِّزْ كتائـبي[1]

احتذاها ابن خفاجة فقال:

بِعيـشِكَ هـل تـدري أَهُـوجُ الجَنائـبِ تَـخبُّ بِرحلـي أَمْ ظهـورُ النجائـبِ
فمـا لُحـتُ في أُولَـى المشارقِ كوكبـاً فأَشرقْتُ حتَّى جُبتُ أُخرَى المَغاربِ
وَحيــداً تَهادَانــي الفيــافي فأَجتــلي وجـوهَ الـمنايا في قنـاعِ الغياهــبِ
ولا جــارَ إلاَّ مِــن حــسامٍ مـصَـمِّمٍ ولا دارَ إلاَّ في قُتُــودِ الركائــبِ
ولا أُنــسَ إلاَّ أنْ أُضــاحِكَ ساعــةً تُغـورَ الأمانــي في وجـوهِ المطالِـبِ
بِليـلٍ إذا مـا قلـتُ قـدْ بـادَ فانقـضَى تكشَّفَ عَن وعْـدٍ مِـن الظـنِّ كـاذبِ
سـحبتُ الـدياجي فيـهِ سُـودَ ذوائـبٍ لأَعــتنقَ الآمــالَ بِيــضَ ترائــبِ
فمزَّقتُ جَيبَ الليلِ عن شخصِ أطلسٍ تطلَّــعَ وضَّـاح المـضاحكِ قاطِــبِ
رأيـتُ بـهِ قِــطْعاً مِـن الفجـرِ أغبـشاً تأَمَّــلَ عــن نــجمٍ توقَّـدَ ثاقِــبِ
وأرعــنَ طمَّــاحِ الــذؤابةِ بــاذخٍ يُطــاولُ أعنــانَ الــسما بِــغارِبِ
يَـسُدُّ مَهـبَّ الـريحِ عَـن كـلِّ وجهـةٍ ويَــزحمُ لـيلاً شُهْبَــهُ بالــمناكِبِ
وقــورٍ علــى ظــهْرِ الفَـلاةِ كـأنَّــهُ طِـوالَ الليـالي مُطـرقٌ في العواقِـبِ
يَلــوثُ عليــهِ الغـيمُ سُـودَ عمـائــمٍ لها مِـن وميضِ البرقِ حُمْـرُ ذوائـبِ
أَصــخْتُ إليـهِ وهْـوَ أخـرسُ صـامتٌ فحدَّثنــي ليـلَ الــسُّرَى بِالعجائــبِ
وقــالَ ألا كــمْ كنـتُ ملجـأَ فاتــكٍ ومَــوطِنَ أَوَّاهٍ تَبتَّــلَ تــائبِ

(١) مطمح الأنفس: ص٣٣٧، ونفح الطيب: ٤/ ٤٩.

وكَمْ مَرَّ بي مِنْ مُدلِجٍ ومؤَوِّبٍ ... وقالَ بِظلّي مِن مَطيٍّ وراكبِ
ولاطَمَ مِنْ نُكْبِ الرياحِ معاطفي ... وزاحَمَ مِن خُضْرِ البحارِ جَوانبي
فما كانَ إلاَّ أنْ طوتْهم يدُ الردَى ... وطارتْ بهمْ ريحُ النوَى والنوائبِ
فَما خَفْقُ أَيكي غيرُ رجفةِ أَضلُعٍ ... ولا نَوحُ وُرقي غيرُ صَرخةِ نادبِ
وما غَيَّضَ السُّلوانُ دَمعي وإنَّما ... نُزفتْ دموعي في فِراقِ الأَصاحبِ
فحتَّى متَى أبقَى ويَظعنُ صاحبٌ ... أُودِّعُ مِنهُ راحلاً غيرَ آيبِ؟
وحتَّى متَى أَرعَى الكواكبَ ساهِراً ... فَمِنْ طالعٍ أُخرَى الليالي وغاربِ؟
فرُحماكَ يا مولايَ دعوةَ ضارعٍ ... يَمُدُّ إلى نُعماكَ راحةَ راغبِ
فأَسمعَني مِن وعْظِهِ كلَّ عبرةٍ ... يُترجِمُها عنهُ لسانُ التَّجاربِ
فَسَلَّى بِما أَبكَى، وسرَّى بما شجا ... وكانَ على ليلِ السُّرى خيرَ صاحبِ
وقلتُ وقدْ نَكَّبتُ عنهُ لِطِيَّةٍ ... سَلامٌ فإنَّا مِنْ مُقيمٍ وذاهِبِ[1]

كما احتذاها أبو عبد الله محمد بن أحلى فقال:

خليليَّ قد ضاقتْ عليَّ مذاهبي ... وكفكفتُ نفسي عن جميعِ مطالبي
وضاقتْ جفون العين عن عبراتها ... لأمرٍ يراهُ الحبرُ ضربةَ لازبِ
وشبتُ ولم أبلغْ ثلاثينَ حجةً ... لِحجَّةِ جبَّارٍ على الخَلْقِ غالبِ
دعاني وشجوي والأسَى وبلابلي ... ولا تعذلانـي في الدموعِ السواكبِ
أألتذُّ بالدنيا وأرنو لِحسنِها ... ولستُ إليها بعدَ موتي بِآيبِ
لَعمري لقد أصبحتُ سكرانَ حائراً ... جديراً بما عندي، ولستُ بِشاربِ[2]

(١) ديوانه: ص٢١٥-٢١٧.

(٢) الحلة السيراء: ٢/ ٣١٦-٣١٧.

وكان المعتضد عباد بن محمد قد رثى نفسه بقصيدة منها قوله:

يُـصبِّرني أهـل المـودَّةِ دائبـاً ... وإنَّ فـؤادي، والإلـهِ، صَبـورُ
أَغارُ علَى مَغنَى الرئاسةِ، إنني ... علـى كـلِّ حُسنٍ في الزمانِ غيورُ
أُصرِّفُ ذهني في أمورٍ جليلةٍ ... وأعلمُ أنَّ الدائراتِ تدورُ[(١)]

فأصبحت هذه القصيدة أنموذجاً لغيره من الشعراء، ومنهم ابنه المعتمد، حيث قال:

غريبٌ بأرضِ المغربينِ أسيرُ ... سيبكي عليهِ منبرٌ وسريرُ
وتندبُهُ البيضُ الصوارمُ والقنا ... وينهلُّ دمعٌ بينهنَّ غزيرُ
سيبكيهِ في زاهيهِ والزاهرِ الندى ... وطُلاَّبُهُ، والعرفُ ثمَّ نكيرُ
إذا قِيلَ في أغماتَ قد ماتَ جُودُهُ ... فما يُرتَجَى للجودِ بعدُ نشورُ
مضى زمنٌ والمُلكُ مستأنسٌ بهِ ... وأصبحَ عنه اليومَ وهو نفورُ
برأيٍ من الدهر المضلَّلِ فاسدٍ ... متى صلحتْ للصالحين دهورُ
أذلَّ بني ماء السماء زمانُهم ... وذُلُّ بني ماءِ السماءِ كثيرُ
فما ماؤها إلاَّ بكاءٌ عليهمُ ... يفيضُ على الأكبادِ منهُ بحورُ
فيا ليتَ شِعري هل أبيتنَّ ليلةً ... أمامي وخَلفي روضةٌ وغديرُ؟
بِمُنبتةِ الزيتونِ موروثةِ العُلا ... تُغنِّي قيانٌ أو ترنُّ طيورُ
بزاهرها السامي الذرا جادَهُ الحيا ... تُشيرُ الثريا نحوَنا ونُشيرُ
ويلحظنا الزاهي وسعدُ سعودِهِ ... غيورَينِ والصبُّ المحبُّ غَيورُ
تراهُ عسيراً أم يسيراً منالُهُ ... ألا كلُّ ما شاء الإلاهُ يسيرُ
قضى اللهُ في حِمصَ الحِمامَ وبُعثرَتْ ... هنالكَ مِنَّا للنشورِ قُبورُ[(٢)]

(١) الحلة السيراء: ٢/ ٤٤.

(٢) ديوانه: ص٩٨-٩٩.

ومنهم أبو الصلت أمية بن عبد العزيز فقال:

سكنتُكِ يا دارَ الفناءِ مصدِّقاً   بأنّي إلى دار البقاءِ أصيرُ
وأعظمُ ما في الأمر أنّيَ صائرٌ   إلى عادلٍ في الحُكمِ ليسَ يجورُ
فيا ليتَ شِعري كيفَ ألقاهُ بَعدَها   وزادي قليلٌ والذنوبُ كثيرُ!
فإنْ أكُ مَجزيّاً بذنبي فإنّني   بحرِّ عذابِ المذنبينَ جديرُ
وإنْ يكُ عفوٌ -ثمَّ- عنّي ورحمةٌ   فَثمَّ نعيمٌ دائرٌ وسرورُ(1)

كما احتذاها المظفَّر عبد الملك بن عبد العزيز بن الناصر بن المنصور بن أبي عامر، وجعل مطلعَها خاتمةً لقصيدته كما يفعل الوشّاحُ في خرجة الموشّح، فقال:

علمتُ بأنَّ الدائراتِ تدورُ   وقد كُسفتْ منّا هناك بدورُ
ونادَى مُنادي البينِ فينا ترحّلوا   فطارَ فؤادٌ للفراقِ صبورُ
ونُثّرَ سِلكٌ طالَ في الملك نظمُهُ   كذا كلُّ نظمٍ بالزمانِ نَثيرُ
خرجنا من الدنيا وكانتْ بأسرِها   تُصيخُ لِما نومي بهِ ونُشيرُ
نهضنا بها ما دامَ في السعد نجمُنا   فلما هوَى جارتْ وليس مُجيرُ
فلا يَنسَ تسليمَ السماطينِ مِسمعي   بحيثُ القَنا والمُرهَفاتُ سطورُ
وحيثُ بنو الآمالِ تَكرعُ كالقَطا   وقدْ زخرتْ للمكرماتِ بُحورُ
وقد قامت المُدّاحُ تَنثرُ نظمها   ودارتْ علينا للثناءِ خمورُ
ولله يومٌ قد نهضتُ بِصدرهِ   وحوليَ من صيدِ الكُماةِ صُقورُ
أثارَ به ركضُ الفوارسِ قَسطلاً   يُرصِّعُهُ للباتراتِ قَتيرُ

(1) أبو الصلت:ص ٨٧.

وقد جال جرَّارُ الذيولِ مماصِعٌ وطارَ إلى نهبِ النفوسِ مُغيرُ
وقد صمَّت الأسماعِ إذْ طاشت النُّهى وحامتْ على ما عُوِّدتْهُ طيورُ
وأُصدرت الراياتُ حُمراً كأنّها صدورُ حسانٍ مَسَّهنَّ عَبيرُ
ألا بأبي ذاكَ الزمانُ الذي مضَى وتَعساً لدهرٍ جاءَ وهْوَ عَثورُ
تُصابحُنا فيه الرزايا فتارةً تُصِمُ صِماخاً أو تجيشُ صدورُ
لقد أسخنَ المقدارُ طَرفيَ بَعدَهُ وكمْ قرَّ بالآمالِ وهْوَ قريرُ
أيا مُهدياً نحوي التحيةَ عن نوىً تُسائلني، إنَّ الزمانَ خَبيرُ
فَسلْهُ عن الماضينَ قبلي فإنَّهُ على كلِّ حالٍ لا يزالُ يَجورُ
فلو أبصرتْ عيناكَ هَمِّي حالكاً وشُهْبُ الدياجي في السماءِ تُنيرُ
ومِن أدمعي زَهْرٌ تناثرَ غُصنُهُ بِنكباءَ يُزجيها جوىً وزفيرُ
لأنشدتُ مِن طولِ التفجُّعِ والأسَى وقد قَصُرتْ عنِّي مُنىً وقُصورُ
"غريبٌ بأرضِ المغربينِ أسيرُ سيبكي عليهِ منبرٌ وسريرُ"(١)

كما احتذاها ابن صفوان أحمد بن إبراهيم بن أحمد المالقي، فقال:

يقولون إنَّ الموتَ حَتْمٌ على الورَى يديرُ صغيرٌ كأسَهُ وكبيرُ
فلا تتَنسَّمْ ريحَ راحٍ لِفقدِهِ فإنَّكَ عن قَصْدِ السبيلِ تحورُ
فقلتُ: بلَى حُكْمُ المنيَّةِ شاملٌ وكلٌّ إلى ربِّ العبادِ يَصيرُ
ولكنْ لتقديمِ الأعادي على الردَى نشاطٌ يعودُ القلبَ منهُ سرورُ
وأَمْنٌ ينامُ المرءُ في بردِ ظلِّهِ ولا حَيَّةٌ للحقْدِ ثمَّ تثورُ

(١) المغرب في حلى المغرب: ٢/٣٠٢-٣.

وحسبيَ بيتٌ قالهُ شاعرٌ مضَى غدا مثلاً في العالمينَ يسيرُ:

"وإنَّ بقاء المرءِ بعدَ عدوِّهِ ولو ساعةً مِن عُمرِهِ لَكثيرُ [(١)]

واحتذاها ابن جلوط أبو زكريا يحيى بن السراج، فقال:

نَهاكَ نذيرُ الشيبِ لو كنتَ ترعوي وهلْ بعدَ إنذارِ المشيبِ نذيرُ؟

إلى كمْ تُرى عن نُصْحِ نفسِكَ مُعرِضاً وتُصغي إلى الآمالِ وهْيَ غرورُ؟

أرَى العمرَ ولَّى مُعرِضاً عنكَ فاغتنمْ بقيَّتَهُ إنَّ البقاءَ عَسيرُ

وبادرْ إلى الطاعاتِ غيرَ مقصِّرٍ فأطولُ أيَّامِ الحياةِ قَصيرُ

إلاهي أَجِرني مِن عذابِكَ إنهُ عذابُكَ مَحذورٌ وأنتَ مُجيرُ

ولا تُخزِني يومَ الحسابِ ونَجِّني بفضلِكَ إنَّ الفضلَ منكَ كبيرُ

نَدبتُ إلى الصفْحِ الجميلِ فجُدْ بِهِ فأنتَ بهِ يا ذا الجلالِ جَديرُ

ومُنَّ بِجبْري مِن قبيحِ إساءتي فعَبدُكِ ممَّا قد جناهُ كَسيرُ

فما ضلَّ مَن آتيتَهُ رُشدَ نَفسِهِ ولا ذلَّ مَنْ والاهُ منكَ نَصيرُ [(٢)]

أما نصرّ محمد بن عبد الله بن الغازي بن قيس القرطبي التي منها:

الحمد للَّهِ ثمَّ الحمد للَّهِ كَمْ ذا عن الموتِ مِن ساهٍ ومِن لاهٍ!

يا ذا الذي هوَ في لهوٍ وفي لعبٍ طوبَى لِعبدٍ حقيبِ القلبِ أوَّاهِ

ماذا تُعاينُ هذي العينُ مِن عَجَبٍ عند الخروجِ مِن الدنيا إلى اللهِ؟ [(٣)]

---

(١) الديباج المُذهب: ص ٤٣.

(٢) الكتيبة الكامنة: ص١٢٤-٥.

(٣) بغية الوعاة: ١/ ١٣٩.

فقد كان أنموذجاً للشاعر عبد الله بن عيسى بن عبد الله الشلبي الأندلسي الذي قال:

الحمدُ للهِ ثمَّ الحمدُ للهِ ... ماذا عن الموتِ من ساهٍ ومن لاهِ
ماذا يرى المرءُ ذو العينين مِن عجبٍ ... عند الخروجِ من الدنيا إلى اللهِ[1]

ويبدو واضحاً أن أبا بحر صفوان التجيبي تأثّر بأجواء هذا النص فنظم بيتين ولكن على وزنٍ آخر:

قالوا وقد طالَ بي مدى زمني ... ولم أزلْ في تجرُّمي ساهي
أعددتَ شيئاً ترجو النجاةَ بهِ ... فقلتُ أعددتُ رحمةَ اللهِ[2]

وقال أبو بكر مالك بن حِمير:

رحلتُ وإنني مِن غيرِ زادِ ... وما قَدَّمتُ شيئاً للمَعادِ
ولكنّي وثقتُ بجُودِ ربّي ... وهل يشقى المُقِلُّ مع الجوادِ[3]

فعارَضَه أبو الأصبغ عيسى بن محمد العبدري المعروف بابن الواعظ، فقال:

رحلتُ بغيرِ زادٍ للمَعادِ ... ولكنّي نزلتُ على جَوادِ
ومَن يرحلْ إلى مولًى كريمٍ ... فما يحتاجُ في سَفرٍ لِزادِ[4]

كما عارضَه ابن الفضل الأريولي علي بن أحمد، فقال:

فوا أسفاً أتدركني المنايا ... ولم أبلغْ من الدنيا مرادي؟

---

(١) بغية الوعاة: ٢/ ٥١.

(٢) زاد المسافر: ص ٣٠.

(٣) تحفة القادم: ص٨٤.

(٤) تحفة القادم: ص٨٤.

وما هو غير أنْ أُدعَى وحسبي حيا الإخوانِ أو حرب الأعادي[1]

وقد كانتْ قصيدة ابن الناظر الحسين بن عبد العزيز بن أبي الأحوص الغرناطي أنموذجاً لمجموعة من القصائد، وهي:

رغبتُ عن الدنيا لِعلميَ أنَّها محلُّ حياةِ المرءِ فيهِ بلاغُ
وقد لاحَ في فَوديَّ شيبٌ على الردَى دليلٌ وفيهِ ما أردتُ بلاغُ
وأمَّلتُ من مولايَ نظرة رحمةٍ يكون بِها منِّي إليهِ بلاغُ
فأَحظَى إذا الأبرارُ قيلَ لهمْ غداً هلمُّوا إلى دار النعيمِ فراغُوا
رأيتُ بنيهمْ ما رمتْهمْ سهامُها فطاشتْ ولا حُمَّ الحِمامُ فراغُوا
فعُجتُ إلى دارِ البقاءِ بِهمَّتي فعنديَ عنها راحةٌ وفراغُ[2]

فمن ذلك قصيدة ابن جزي الكلبي محمد بن أحمد، وقد اتفقَ معه في تكرار كلمة القافية في الأبيات الثلاثة الأولى:

لكلٍّ بني الدنيا مُرادٌ ومقصد وإنَّ مُرادي صِحَّةٌ وبَلاغُ
لأَبلُغَ مِنْ عِلم الشريعةِ مبلغاً يكونُ بهِ لي في الجنانِ بلاغُ
وفي مثلِ هذا فلينافسْ أولو النُّهَى وحسبيَ مِن دارِ الفناءِ بلاغُ[3]

وقصيدة أبي عبد الله محمد بن علي بن يوسف السكوني:

أَمِنْ بعدِ ما لاحَ المشيبُ بمفرقي أميلُ لزورٍ بالغرورِ يُصاغُ

---

(١) زاد المسافر: ص ٨١.

(٢) بغية الوعاة: ١/ ٥٣٦.

(٣) نفح الطيب: ٥/ ٥١٥.

وأرتـاحُ للَّـذَّاتِ والـشيبُ منـذرٌ بمـا لـيسَ عنـهُ للأنـامِ مَـراغُ
ومَـنْ لمْ يمـتْ قبلَ المشيبِ فإنَّـهُ يُـراعُ بِـهولٍ بَعـدَهُ ويُـراعُ
فيا ربِّ وفِّقْني إلى ما يكـونُ لـي بـهِ للـذي أرجـوهُ منـكَ بـلاغُ[1]

وقصيدة أبي علي بن سليمان القرطبي:

ألا هـلْ إلى مـا أرتـضيـهِ بـلاغُ وكيـفَ يُـرَى يومـاً إليـهِ بـلاغُ
وقـدْ قطعـتْ دونـي قواطـعُ جمَّـةٌ أراعُ لهـا مهمـا جَـرتْ وأُراعُ
ومـا لـيَ إلاَّ عفـوَ ربٍّ وفـضلَهُ ففيـهِ إلى مـا أرتـجيهِ بـلاغُ[2]

وقصيدة أبي البركات بن الحاج:

ألا ليتَ شِعري هل لِما أنا أرتجي مـن اللهِ في يـومِ الجـزاءِ بـلاغُ
وكيـف لِـمثلي أنْ ينـالَ وسيلـةً لهـا عـن سـبيلِ الـصالحينَ مراغُ
وكمْ رمتُ دهري فتح بـابِ عبادةٍ يكـونُ بـها في الفـائزينَ مـساغُ
فكدتُ ولمْ أفعلْ وكيفَ وليس لـي المـعينانِ فيهـا صـحةٌ وبـلاغُ
لأَصبحتُ مِن قومٍ دعاهمْ إلى الرضَى منـادي الهُـدَى فاسـتنكروهُ فراغُـوا
أباغ تـرى أُخـراهُ مـن يزدهيـهِ مِـنْ زخـارفِ دنيـاهُ الدنيَّـةِ بـاغُ
ويضربُ صفحاً عن حقيقةِ ما طـوتْ فيُلهـيـهِ زورٌ قـد أتـتهُ مُـصاغُ
إذا مـا بـدا للرشـدِ نهـجُ بيانِـهِ يُـراعُ بـهِ عـن وحـشةٍ فيُـراغُ
فيا ربِّ بَردَ العفوِ هَبْ لي إذا غلتْ مـن الحـرِّ في يـومِ الحـسابِ دمـاغُ

(١) الكتيبة الكامنة: ص٦١، ونفح الطيب: ٥/ ٥١٦.
(٢) نفح الطيب: ٥/ ٤٧٤.

فمِن حُـرَقٍ للـنفسِ فيـهِ لـواعجٌ ومـن خجـلٍ للوجـدِ فيـهِ صـباغُ
وعظتُكِ نفسي لو أنبتِ، وفي الذي وُعظـتِ بـهِ لـو ترعـوينَ بـلاغُ[1]

وهكذا.....

❋ ❋ ❋

واستناداً إلى أهمية ما حققه هذا النمط من الشعر في الأندلس من ثراءٍ كان من آياته أنْ أصبح وعاءً لتجارب إنسانية واجتماعية وفكرية ذات قيمةٍ عالية، فإنَّ بإمكاننا أنْ نَـعُدَّ رثاء النفس في الشعر غرضاً قائماً برأسِهِ يُضاف إلى أغرض الشعر العربي، ولهُ أنْ يُضاف إلى الإنجازات الأخرى التي حققها الأندلسيون في الأدب والشعر.

---

(١) نفح الطيب: ٥/ ٤٧٤.

الفصل الثاني

بواعث رثاء النفس في الشعر الأندلسي



لقد كان وراء رثاء الشعراء الأندلسيين لأنفسهم مجموعة من البواعث تضافرتْ لِتجعلَ من هذا الغرض الشعري ظاهرةً جديرة بالدرس والتحليل، أمام الباحث المتتبع في الأقل، وقد وقفنا على هذه البواعث وأمكننا حصرها في ثلاثةِ اتجاهات تبينتْ لنا على الوجه الآتـي:

الاتجاه الأول: الإحساس بقرب الموت:

وقد بدا لنا هذا الاتجاه ملياً في عدة بواعث:

١- الشيخوخة:

الشيخوخة هي من أكثر البواعث شيوعاً ونمطيةً في العصور والأمكنة المختلفة، وقد تعامل معها الناس، فضلاً عن الشعراء، وكأنها معادل موضوعي لانتهاء مسيرة الحياة، أو لحلول الموت وشيكاً، ولم يكن الشعراء الأندلسيون على غير هذه الشاكلة، إذ يستوي بنو البشر في مثل هذا الإحساس مهما تفاوتوا في المنزلة و الطبقة، أو في الزمان والمكان، أو في الجنس والمعتقد. إنهم عبروا عن متفاوت الأحاسيس، ومتضارب المشاعر، في الحالات والظروف الإنسانية المختلفة التي تتشبث بأدنى ما له علاقة بهذا الموضوع.

ومن ذلك **إحساسهم بالشيخوخة المؤدية إلى الموت** من حيث الزمن، أو مبلغ العمر من السنوات، وقد تفاوتوا فيه غاية التفاوت، إذ قد لا نرى عجباً في أن يرثي الشاعر نفسه بعد إشرافه على العام المائة من عمره، كما هو الحال لدى يحيى الغزال، حيث يقول:

ألستَ ترى أنّ الزمان طواني ... وبدّل خَلقي كلَّه وبراني

ومالِيَ لا أَبلى لِتسعينَ حجةً ... وسبعٍ أتتْ مِن بعدها سنتان[1]

أو بعد أن يتجاوز الثمانين قليلاً، كما هو الحال لدى أحمد بن عبد ربه الأندلسي، إذ قال "قبل موته بأحد عشر يوماً"[2]، "وهو آخر شعرٍ قاله"[3]:

---

(١) ديوانه:ص١١٢.

(٢) المطرب:ص١٥٥.

(٣) بغية الملتمس:ص١٥٠، وينظر كذلك:الوافي بالوفيات:٨/ ١٣ .

كلانـي لمـا بـي عـاذليَّ كفانـي طويـتُ زمـاني برهـةً وطوانـي
ومـاليَ لا أبلـى لِـسبعين حجـةً وعـشرٍ أتـتْ مِـن بعـدها سـنتانِ[1]

أو قد بلغها أو كاد، كما هو الحال لدى ابن أبي عقيل الحريري في قوله:

إن الثمـانينَ وتعدادهـا مراحـل تُـدني إلى الآخـره
أُراعُ إن عـددتُ أيامهـا مِـن زلـةٍ أو قـدمٍ عاثـره[2]

أو قوله:

إن الثمـانين وتعدادهـا جَـذرٌ إليـه ينتهـي الكاسـبُ
عمـرٌ خليـقٌ بـالحجى والنهـى لكنـه منقطـعٌ ذاهـب[3]

أو قوله:

وسـائلٍ يـسألني كـم مـضى جـزتَ الثمـانين فقلـتُ انقـضى
حـسابُ عمـرٍ ليـتَ أيامـه عَلِقْـتُ منهـا بحبـال الرضـى[4]

وكما في قول القاضي أبو العباس أحمد بن الغماز البلنسي متسائلاً:

ألـيسَ الثمـانون قـد أقبلـتْ فلـم تُبـقِ في لـذّةٍ مَطْمعـا؟[5]

---

(١) ديوانه:ص...، وينظر:بغية الملتمس:ص١٥٠،ومطمح الأنفس:ص٢٧٤، ونفح الطيب:٧/ ٥٣.

(٢) الوافي بالوفيات: ٧/ ٣٢٥.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه:٧/ ٣٢٤.

(٥) نفح الطيب:٤/٣١٦.

وقد أسهم مجموعة من الشعراء في رثاء أنفسهم عندما بلغوا سنَّ السابعة والسبعين، وكلهم يملّون البقاءَ على قيد الحياة بعد بلوغهم هذا العمر عن طريق التساؤل، منهم مريم بنت أبي يعقوب الفصولي الشلبي التي عُمِّرَتْ طويلاً كما يقول الحميدي[1] (ت٤٨٨هـ)، ولابد من أنها رثتْ نفسها قبلَ أن تُعَمَّر، ورأتْ أنْ لا أمل ولا رجاء بعد بلوغ هذا العمر، تقول:

وما ترتجي مِن بنت سبعين حجةٍ وسبعٍ كنسج العنكبوت المهلهلِ؟[2]

وأبو بكر بن المنخل الشلبي الذي لم يجد غير أنْ ينتظر الموت الذي لابد منه ، ويتساءلُ عن موعد حلوله، في آخر شعرٍ قاله:

مضتْ لي سبعُ بعد سبعين حجةٍ ولـي حركاتٌ بعدها وسكونُ
فيا ليت شعري أين أو كيف أو متى يكون الذي لابد أنْ سيكونُ؟[3]

وأبو عمران المارتلي الذي يتهيأُ له حلول الموت وشيكاً، ويُخَيَّلُ إليه كيف يُحمَلُ على نعشه، ويُسألُ في قبرِه:

إلى كم أقولُ ولا أفعلُ وكم ذا أحومُ ولا أنزلُ
وأزجر عيني ولا ترعوي وأنصحُ نفسي ولا تقبلُ
وكم ذا تُعللُ لي ويحَها بِعَلٍّ وسوفَ وكم تمطلُ
وكم ذا أُؤمِّلُ طولَ البقاءِ وأغفلُ والموتُ لا يغفلُ
وفي كل يومٍ يُنادَى بنا مُنادي الرحيل ألا فارحلوا

---

(١) ينظر جذوة المقتبس:ص٤١٢.

(٢) نفسه، وينظر الشعر النسوي في الأندلس:ص٦٥.

(٣) زاد المسافر:ص ١٣٠، وفي نفح الطيب:٤/ ١١٧: ست وسبعون.

أَمِنْ بعدِ سبعينَ أرجو البقاءَ وسَبْعٍ أَتتْ بَعدها تُعْجِلُ؟
كأنْ بي وشيكاً إلى مَصرعي يُساقُ بِنعشي ولا أُمهَلُ
فيا ليتَ شِعريَ بعدَ السؤالِ وطولِ المقامِ لِما أُنقَلُ؟[1]

أما بلوغ السبعين من العمر، أو بعده بقليل، فقد كان حافزاً لكثيرٍ من الشعراء الأندلسيين لرثاء أنفسهم، من أولئك أبو عبد الله محمد بن أمية الجياني إذ يرى أنه مقبلٌ على الموت حيثُ لم يبقَ من الحياة إلا القليل، يقول:

أي عذرٍ يكون لي أي عذرِ لابن سبعين مولعٍ بالصبابهْ
وهو ماء لم تُبقِ منه الليالي في إناء الحياة إلاّ صُبابهْ[2]

ومنهم أحمد بن محمد بن عمر التميمي المري المعروف بابن ورد الذي يعبر عن تأكّده من دنوّ الموت في قوله:

عَشر الثمانين وعمر طويلْ لم يبق للصحبة إلّا القليلْ
لا تحسبوني ثاوياً فيكمُ فقد دنا الموت وحان الرحيلْ[3]

وممن رثوا أنفسهم عند بلوغهم الستين أو أكثر قليلاً، الفقيه منذر بن سعيد البلوطيّ الذي انقطع أمله من الحياة الدنيا بعد أن بلغ الثالثة والستين، فقال محدّثاً نفسَه:

ثلاثٌ وستون قد جزتها فماذا تؤمّل أو تنتظرْ؟
وحلّ عليكَ نذير المشيبِ فما ترعوي أو فما تزدجرْ

(١) تحفة القادم:ص١٣٣، والمغرب في حلى المغرب:١/ ٤٠٧، والغصون اليانعة:ص١٣٧.
(٢) بغية الوعاة في طبقات النحاة: ١/ ٥٨.
(٣) تحفة القادم:ص٣٣، والوافي بالوفيات: ٨/ ٧٢.

تـــمرُّ لياليـــكَ مَـــرّاً حثيـــثاً وأنـــتَ علـــى مـــا أرى مُـــستمِرٌ
فلـــو كنـــتَ تعقـــلُ مـــا ينقـــضي مـــن العمـــر لاعتـــضتَ خـــيراً بـــشرْ
فمـــا لـــكَ لا تـــستعدُّ إذاً لِـــدارِ المُقـــامِ ودارِ المقـــرْ
أتـــرغبُ عـــن فجـــأةٍ لِلمَنـــونِ وتعـــلمُ أنْ لـــيسَ منهـــا مفـــرْ؟[1]

وأحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي وقد ذكّره بلوغُه الستين بأنه لابدَّ هالكٌ مُفارِقٌ الحياة، فهانَ عليهِ كلُّ شيء، يقول:

أتـــتني مـــن الأيـــام ســـتون حجـــةً ومـــا أمـــسكتْ كفـــي بـــثني عنـــاني
تذكَّرتُ أني هالـكٌ وابـنُ هالـكٍ فهانـــتْ علـــيَّ الأرضُ والـــثقلانِ[2]

ومثله في هذا ابن خفاجة وقد طلبَ من عناصر الطبيعة أن تشاركه رثاءه لنفسه لِتخففَ عليه وطأة الإحساس بالموت وتوديع الدنيا، حيث ليسَ مِن بعد الستين مِن أملٍ فـي الحياة :

ألا ســـاجلْ دمـــوعي يـــا غَمـــامُ وطـــارحْني بـــشجوكَ يـــا حَمـــامُ
فقـــد وفَّـــيتُها ســـتّينَ حَـــولاً ونادتْـــني ورائـــي هـــلْ أَمـــامُ؟[3]

ومثلهما الألبيري محدثاً نفسه حيث يقول:

قـد بلغـتَ الـستينَ ويحـكَ فـاعلمْ أنّ مـــا بعـــدها علیـــكَ تلـــوّمْ[4]

---

(١) مطمح الأنفس: ص٢٤٩.

(٢) أخبار وتراجم أندلسية:ص١٠.

(٣) التكملة لكتاب الصلة: ١/ ١٢٥.

(٤) ديوانه: ص٥٦.

وهكذا فعل القاضي أبو الوليد الباجي، حيث يقول متحدثاً عن عمره الذي يراه قد انقضى أو ضاع بحلول الستين:

وضـيَّعتُه سِتِّـينَ عامـاً أعـدُّها ... ومـا خـيرُ عمـرٍ إنمـا خَـيرُهُ العَـدُّ[1]

ولكننا قد نعجب ممن كان يرى أن بلوغ الأربعين عاماً من العمر كفيل بتوديع الحياة ورثاء النفس، ذلك هو عبد الكريم القيسي الأندلسي البسطي حيث يقول:

مـرور الأربعـين أطـارَ نومـي ... وأجـرى فـوقَ صـفح الخـدِّ دمعـي

وعلمـي بالرحيـل غـداً وتركـي ... مِنَ اهلي مَن غدا بصري وسمعي[2]

بل إنَّ منهم رثى نفسه عند بلوغه الثلاثين من عمره، ومن هؤلاء أبو العباس الأقليشي بقوله:

ثلاثـون عامـاً قـد تولَّـتْ كأنهـا ... حُلـومٌ تقـضّتْ أو بـروقٌ خواطـفُ

وجـاء المشيبُ المُنـذر المـرء أنـهُ ... إذا رحلـتْ عنـه الـشبيبة تـالفُ[3]

أما ابن سُراقة الشاطبي، فقد ذهب إلى أبعد مِن ذلك عندما رثى نفسه وهو في سِنِّ الخامسة والعشرين، وكان يظنُّ أنه لن يعيش أطول مِن ثلاثين عاماً، فرثى نفسه قبل خمس سنواتٍ مما كان يظنّ، ولكنه عاش بعد رثائه لنفسه خمسةً وأربعين عاماً أخرى، وكان قد بلغ السبعين من العمر، قال:

وقد مرّ لي خمسٌ وعشرون حجةً ... ولم أرضَ فيها عيشتي فمتى أرضى؟

وأعلمُ أنـي، والثلاثـون مُدتـي، ... حَرٍ بِمغـاني اللـهوِ أُوسعها رَفـضا[4]

---

(١) الغُنْية: ص١٥٤.

(٢) ديوانه: ص٤١١، وينظر:البسطي آخر شعراء الأندلس: ص٤٠.

(٣) التكملة لكتاب الصلة: ١/ ٣٢٥.

(٤) نفح الطيب:٢/ ٦٤، وتاريخ الأدب العربي (عمر فروخ): ٦/٢٣٦، وتراجم مغربية من مصادر مشرقية: ص١٢٤.

ومن الشعراء من يشير إلى الشيخوخة دون أن يلمع إلى مقدار ما بلغه من العمر، وقد تفاوتوا أيضاً في التعبير عن ذلك، ومن أولئك محمد بن عبد الله المرسي السلمي الذي رأى أنه قد بلغَ الكِبَر ولابدّ من قدوم الموت، حيث يقول:

قالوا محمد قد كبرتَ وقد أتى ... داعي المنون وما اهتممتَ بِزادِ[1]

ومنهم أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر الإشبيلي الذي رأى في النظر إلى المرآة متلمساً لبلوغ هدفه من التعبير عن الشيخوخة، وأنْ لا سبيلَ إلى البقاء على قيد الحياة:

إني نظرتُ إلى المرآة إذْ جُليتْ ... فأنكرتْ مقلتايَ كلّ ما رأتا
رأيتُ فيها شُييخاً لستُ أعرفُهُ ... وكنتُ أعهدُهُ مِن قبل ذاكَ فتى
فقلتُ أين الذي مثواهُ كان هنا ... متى ترحَّلَ عن هذا المكان متى؟
فاستجهلتني وقالتْ لي وما نطقتْ ... قد كان ذاك وهذا بعد ذاك أتى
هَوّنْ عليكَ فهذا لا بقاءَ له ... أما ترى العشبَ يفنى بعدما نبَتا؟[2]

ومنهم القاضي أبو العباس أحمد بن الغماز البلنسي الذي يرى في طول حياته، وإنْ لم يذكرْ مقدار ما بلغتْه من السنين، مبرراً كافياً لتوديع الحياة واستقبال ربه بالاستغفار والدعاء، فهو يقول وكان ذلك يومَ وفاته فعلاً:

أدعوك يا رب مضطراً على ثقةٍ ... بما وعدتَ كما المضطرّ يدعوكا
دارِكْ بعفوكَ عبداً لم يزل أبداً ... في كل حال من الأحوال يرجوكا
طالت حياتي ولّما أتخذ عملاً ... إلاّ محبَّة أقوامٍ أحبُّوكا[3]

(١) معجم الأدباء:١٨/ ٢١٢، وبغية الوعاة: ١/ ١٤٤.
(٢) معجم الأدباء: ١٨/ ٢١٨، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء:٣/ ١١٤.
(٣) نفح الطيب: ٤/ ٣٤٠.

إنّ الشيخوخة- الموت لدى الشعراء الأندلسيين لم تكن ، في أغلب الأحوال، حقيقةً من الحقائق أو واقعاً يعيشونه حقاً، بل كانتْ إحساساً مجرَّداً وحسب، أو إحساساً كاذباً حتى، وقد نقلوا هذا الإحساس إلى مستوى الواقع، وألبسوه ثوبَه، وتعاملوا وإياه على وفق هذا الثوب الجديد. فابن سراقة الشاطبي الذي رثى نفسه عند بلوغه الخامسة والعشرين لم يفارق الحياة إلاّ بعد بلوغه السبعين، وأبو العباس الإقليشي الذي رثى نفسه في الثلاثين عاش حتى نِيفَ إلى الستين، وابن خفاجة الذي رثى نفسه في الستين عاش بعد ذلك اثنين وعشرين عاماً، وهكذا...

إن الرثاء المبكّر للنفس يكمنُ وراءهُ الوازع الديني لدى الشعراء الأندلسيين المسلمين، فقد جاء في سنن ابن ماجة[1] أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال " أعمار أُمَّتي ما بين السّتين إلى السبعين وأَقَلُّهم مِن يجوز ذلك"، ولهذا السبب، ربما، نجد أنّ أغلب نصوص رثاء النفس في الشعر الأندلسي المتعلقة بالشيخوخة تَنْصَبُّ على هذه الأعمار، كما مرَّ.

وقد لا نجانب الصوابَ إذا قلنا إنّ هؤلاء الشعراء يؤمنون، مثل أقرانهم من المسلمين، بأن هناك علاقةً وثيقةً بين قِصَر عُمر المسلم وعُمْقِ إيمانِه، ولذلك يكثر، أيضاً، رثاء النفس قبل بلوغ الشعراء الستين من العمر بكثير في الشعر الأندلسي، كما رأينا وكما سنرى، وكأن الشاعر المسلم يريدُ مفارقةَ الحياة قبل أن يحدثَ فيها ما يعكّر صَفْوَ إيمانه. وذلك إيمانٌ له ما يؤيدهُ في العقيدة الإسلامية وفي أحاديث الرسول الكريم، ومِن ذلك ما جاء في الحديث مِنْ أنه (ص) قال لابن عمر " كُنْ في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ وعُدَّ نفسك في أهل القبور"[2]، ولذلك فإنّ على المسلم أنْ يتوقع الموتَ في أيةِ ساعةٍ، وعليه أن يموتَ مؤمناً لكي يفوزَ بما وعدَ الله سبحان وتعالى بهِ عبادَه المؤمنين الصالحين، ومَنْ لا يَطْمعُ بما وَعَد وهو خيرٌ وأبْقَى؟.

---

(١) كتاب الزهد: الحديث ٤٢٣٦.

(٢) سنن الترمذي: الحديث ٢٢٥٥.

٢- الشيب:

والشيبُ هو غير الشيخوخة من حيث أن إحساس الشاعر باقتراب الموت غيرُ مُتأتٍّ من إحساسه بِطول العمر، وإنما مما يراه في شعره من ابيضاضٍ في اللَّـمَّة أو شعر الرأس عموماً وإنْ كان هو في ربيع العُمر، وهي نظرةٌ غير موضوعية، بالطبع، للموت والحياة وفيها شيء غير قليل من التعميم والخلط، إذ كان الناس، وربما ما يزالون، يرون في الشيب نذيراً للموت، والواقع أن الشيب من علامات فَقْد الشبابِ أو بعضِهِ وليس فقد الحياة، فالشاعر علي بن رَجَا بن مرجًّى لم يبلغ من العمر غير خمسةٍ وأربعين عاماً إلاّ أنه، مع ذلك، أحسَّ بدنوّ الموت لظهور الشيب في مَفْرِق رأسهِ:

كيـف أصبو وأربعـون وخمـسٌ ... رقَّمـتْ بالمـشيب مفـرقَ رأسـي
كل داء له دواء وداء الـشيـبِ ... والمـوتِ مالـهُ مِـن آسِ[1]

وشاركَه الشاعر الزاهد أحمد بن الإقليشي هذا الإحساسَ نفسَه عند بلوغه الثلاثين:

ثلاثـونَ عامـاً قـد تولَّـتْ كأنـها ... حُلـومٌ تقـضَّتْ أو بـروقٌ خواطـفُ[2]

الشاعر محمد بن علي بن أحلى مع أنه لم يبلغها، ومع ذلك شعر بأنه لن يطيبَ له عَيشٌ في هذه الدنيا التي لن يرجع إليها مرةً أُخرى:

خليليَّ قد ضـاقت عليَّ مذاهـبي ... وكفكفـتُ نفـسي عـن جميـع مطـالبي
وضاقت جفون العين عن عبراتهـا ... لأمـرٍ يـراه الـسحرُ ضـربةَ لازبِ
وشـبتُ ولم أبلـغ ثلاثـين حجـةً ... لحـجة جبـارٍ علـى الخلـقِ غالـبِ
دعاني وشجوي والأسى وبلابلـي ... ولا تعـذلاني في الـدموع الـسواكبِ
أَأَلتـذُّ بالـدنيا وأرنـو لحـسنـها ... ولـستُ إليهـا بعـد موتـي بآيـبِ؟[3]

---

(١) جذوة المقتبس:ص٣١٤، بغية الملتمس:ص٤٢٣.

(٢) نفح الطيب: ٢/ ٦٠٠.

(٣) الحلة السيراء: ٢/ ٣١٦-٣١٧.

وربما كان بعض الشعراء الأندلسيين شيوخاً بالفعل، و لكنهم في رثائهم لأنفسهم لا ينظرون إلاّ إلى الشيب وحده بوصفه معادلاً موضوعياً للموت ويحاولون إقامةَ الأدلَّة على ذلك ويستجلبون البراهين المنطقية له، فهذا ابن عبد ربه يخاطب نفسه بعد أن حلَّ الشيب برأسه نادباً حياتَهُ وكأَنْ لا انتظارَ في الحياة بَعدَه:

يا مَن تلهَّى وشيبُ الرأسِ يَندبُـهُ ماذا الـذي بعـدَ شـيب الـرأسِ تنتظـرُ

لو لم يكنْ لكَ غيرُ المـوتِ موعظـةٌ لكـانَ فيـه عَـن اللـذَّاتِ مُزدَجَـرُ(١)

وإلى هذا المعنى ذهب البلّفيقي بقوله:

وهَبْني أَعِشْ هَلْ لي إذا شابَ مَفْرِقي وولَّى شـبابي هـلْ يُبـاحُ التَّـسَوُّفُ؟(٢)

أما معادلة الشيب-الموت فقد نَصَّ عليها كثيرٌ من الشعراء الأندلسيين، منهم ابن الناظر الغرناطي الذي يرى في الشيب دليلاً على الموت ولذلك فهو راغب عن الدنيا مؤمِّلٌ رحمةً من الله عند اللقاء:

رغبـتُ عـن الـدنيا لِعلمـيَ أنـها محـالٌ حيـاة المـرء فيـه بـلاغُ

وقد لاحَ في فَوديَّ شيبٌ على الردى دليـلٌ وفيـه مـا أردتُ بـلاغُ

وأمَّلـتُ مـن مـولايَ نظـرة رحـمةٍ يكـونُ بـها مـني إلـيه بـلاغُ(٣)

وأبو بكر الكتندي الغرناطي الذي يُعادل بين سجع الحَمامِ وبياضِ لونهِ وبين بُكائه وشيب رأسه الذي يعني قُرب الموت:

لِـأمرٍ مـا بكيـتُ وهـاجَ شـوقي وقـد سـجعتْ علـى الأيـكِ الحَمـامُ

لِـأنَّ بياضَـها كبيـاضِ شَـيبي فَمعنـى سَـجْعِها: قَـرُبَ الحِـمامُ(٤)

---

(١) المطرب: ص١٥٤.

(٢) شعر البلفيقي: ص٦٠.

(٣) بغية الوعاة: ١/ ٥٣٥.

(٤) زاد المسافر: ص٨٢، وأدباء مالقة: ص٨٧.

وأبو إسحاق الألبيري الذي لا يرى التقليل مِن شأن الشيب وإنْ كان قليلاً، بل يرى فيه إمارةً على التأهُّبِ للموت:

بَصُرتُ بِشيبةٍ وَخَطَتْ نَصيلي | فقلتُ لهُ تأهّبْ لِلرحيلِ
ولا يَهُنِ القليلُ عليكَ منها | فما في الشيبِ وَيْحَكَ مِن قليلِ![1]

ويؤكّدُ هذا المعنى في مناسبةٍ أخرى فيقول:

تُغازلني المنيَّةُ من قريبِ | وتلحظُني مُلاحظةَ الرَّقيبِ
وتنشرُ لي كتاباً فيهِ طيِّي | بِخطِّ الدَّهرِ أسطرُهُ مَشيبي
هيَ الأدوارُ والآجالُ تأتي | فَتنزلُ بِالُمطَبَّبِ والطبيبِ
وما آسَى على الدنيا ولكنْ | على ما قد ركبتُ مِن الذنوبِ
فيا لهفي على طول اغتراري | ويا ويحي من اليومِ العصيبِ
إذا أنا لم أَنُحْ نَفسي وأبكي | على حُوبي بِتهتانٍ سَكوبِ
فمَنْ هذا الذي بَعدي سيبكي | عليها مِن بعيدٍ أو قريبِ؟[2]

وكذلك ابن لؤلؤة السكوني حيثُ يقرر أن الشيب منذرٌ بالموت لا محالة، فهو لهذا السبب لا يجد مبرراً للاغترار بما في الدنيا من ملذّات:

أَمِنْ بعدِ ما لاحَ المشيبُ بِمفرقي | أميلُ لِزورٍ بالغرور يُصاغُ
وأرتاحُ للذّاتِ والشيبُ مُنذرٌ | بما ليس عنهُ للأنامِ مراغُ؟[3]

(١) ديوانه: ص١٠٥.
(٢) ديوانه: ص٣٦.
(٣) نفح الطيب: ٥/٥١٦.

والى مثل هذا ذهبَ أبو بكر ابن الحكيم الرندي حيث يقول:

ولما رأيتُ الشيبَ حلَّ بمفرقي نذيراً بترحال الشباب المفارقِ
رجعتُ إلى نفسي فقلتُ لها انظري إلى ما أرى، هذا ابتداءُ الحقائقِ[1]

ويؤيدهُ في ذلك سلطان بلنسية مروان بن عبد العزيز في قوله:

ولما رأيتُ الشيبَ أيقنتُ أنهُ نذيرٌ لجسمي بانهدامِ بنائهِ
إذا ابيضَّ مُخْضَرُّ النباتِ فإنّهُ دليلٌ على استحصادهِ وفَنائهِ[2]

وحُميد الأنصاري القرطبي في مثل ذلك:

ولما رأيتُ الشيبَ بَيَّنَ صُبحَه وليلَ شبابي قد مضى لسبيلِهِ
أقمتُ على نفسي فناء دليلها فَصرتُ بوجهٍ مُعرضٍ عنْ دليلهِ[3]

ومنذر بن سعيد البلوطي حيثُ يُحدّثُ نفسه:

كم تصابى وقد علاكَ المشيبُ وتَعَامى عمْداً وأنتَ اللبيبُ؟
كيفَ تلهو وقد أتاكَ نذيرٌ أنْ سيأتي الحِمامُ منكَ قريبُ؟
يا سفيهاً قد حانَ منه رحيلٌ بعد ذاك الرحيلِ يومٌ عَصيبُ
إنّ للموتِ سَكرةً فارتقبْها لا يُداوي إذا أتتْكَ طبيبُ[4]

ومثله ابن الجياب الغرناطي:

رويداً فإنَّ الموتَ أسرعُ وافدٍ على عمركَ الفاني ركائبُهُ حطَّا

(١) نفح الطيب: ٥/ ٤٩٨.

(٢) المطرب: ص٨٠.

(٣) نفح الطيب: ٦/ ١٨٩.

(٤) نفح الطيب: ١/ ٣٧٥.

فإذْ ذاكَ لا تسطيعُ إدراكَ ما مضى   بحـال، ولا قبـضاً تُطيـقُ ولا بـسطـا
تأهَّبْ فقد وافـى مَـشيـبُكَ مُنـذراً   وهـا هـو في فَودَيْـكَ أحرفَـهُ خَطَّـا[1]

ويؤكد البسطي هذا المعنىَ فيقول:

وشابَ عِذاري واستحالَ سَـوادُهُ   وبـالموتِ لاشـكَّ المَـشيبُ يُقـاودُ[2]

بل إنَّ ابن حمديس يساوي تماماً بين الشيب والموت:

لعمـرُكَ مـا الـشيبُ إمـا بـدا   بِـفَودَيْكَ إلاّ الـردى أو أبـوهُ
ألمْ تَـرَ أنـكَ بـينَ الـشبابِ   كَمَـنْ مـاتَ أو غـابَ مَـنْ شَـبَّبوهُ[3]

على أنّ الشيب لم يكن دائماً باعثاً من بواعث رثاء النفس في الشعر الأندلسي، فقد يكون باعثاً من بواعث الاتعاظ والانتباه إلى ما يجب على المرء أن يفعله في آخر عمره تائباً ومستغفراً قبل أن يودع الموت ويستقبل الآخرة ويواجه ربه، وهو مما يدخل في الاتجاه الديني حيثُ الزهد المحض والوعظ والإرشاد، أو من بواعث حب الحياة والنيل منها أكثر مما كان في الوسْع وهو مما له علقة بالاتجاه الدنيوي ومبدأ اللذة، وكلا الباعثين مما لا يدخل في غرض موضوعنا هذا، ما لم يكونا سبباً مباشراً لِرثاء الشاعرِ نفسَهُ حيثُ شعوره بحلول الموت وانطفاء الحياة، كما سيتبين بعد قليل.

٣- المرض والعاهة:

كان المرضُ من أكثر دواعي رثاء النفس دوراناً في الشعر الأندلسي، وهو ذو علاقة وثيقةٍ بالباعث السابق، غير أنه يمكنُ أن يكون مستقلاً عنه أيضاً، لاسيما إذا كان الشاعر

---

(١) نفح الطيب: ٥/ ٤٤٠.
(٢) ديوان عبد الكريم القيسي: ص٤٧٣، والبسطي آخر شعراء الأندلس: ص ٤١.
(٣) ديوانه: ص٥١٩.

مريضاً وحسب ولم يكن شيخاً، أو لم يُعانِ الشيب، كما يمكن أن يقتربَ منه جداً إذا عانى الشاعر المرض مع أحد هذين. وعلى أية حال فإن الأندلسيين ، كما يبدو -في الغالب- يرون في المرض رديفاً للموت، وهذا في الأقل ما دلَّتْ عليه أشعارهم في هذا الغرض، وقد يصدق إلى حد كبير قولُ بعض قدمائهم:

سئمتُ الحياةَ على حبّها ... وحُقَّ لِذي السُّقْمِ أنْ يَسأما

فلا عيشَ إلاّ لِذي صحّةٍ ... تكون لهُ للتُّقى سُلَّما[1]

ومِن أشهر من عانوا المرض ورثوا أنفسهم بقوةٍ من الشعراء الأندلسيين أبو عامر بن شُهيد، فله في ذلك عدة قصائد، من ذلك قوله وقد أوهنَ مرضُ جسمه وأثخنه بالآلام ومنعه احتمال الحركة، حتى فَكَّرَ في الانتحار لشدة وطأتها عليه، ولكنه اكتفى بِنَدْبِ نفسِه والنواح عليها:

أنوح على نفسي وأندبُ نُبْلَها ... إذا أنا في الضرّاء أزمعتُ قتلها

رضيتُ قضاءَ اللهِ في كل حالةٍ ... عليَّ وأحكاماً تيقنتُ عَدْلَها

أَظلُّ قعيدَ الدارِ تَجنُبُني العصا ... على ضُعْفِ ساقٍ أَوهنَ السُّقْمُ رِجلَها

فَمَنْ مُبلغُ الفتيانِ أنَّ أخاهمُ ... أخو فَتكةٍ شَنعاءَ ما كانَ شكلها

عليكم سلامٌ من فتىً عضّه الردى ... ولَمْ ينسَ عَيناً أثبتتْ فيه نَبْلَها

يُبينُ وكَفُّ الموتِ تَخلعُ نفسَهُ ... وداخلُها حُبٌّ يهوِّنُ ثُكلها[2]

ومنهم أبو جعفر بن اللمائي الذي عانى كثيراً في مرض النسمة وهو من أمراض الصدر، ولم يجد منه بُرءاً ولا أملاً في البُرء، طمعاً في الحياة، فلم يجد إليها سبيلاً فَرثى نفسه في قوله:

---

(١) نفح الطيب: ٤/ ٣٤٣بدون نسبة.

(٢) ديوان ابن شهيد الأندلسي ورسائله: ص١١٠، والذخيرة: ١/ ٢٠٢.

عَظُمَ البلاءُ فلا طبيبٌ يُرتَجَى ... منهُ الشفاءُ، ولا دواءٌ ينجعُ
لم يبقَ شيءٌ لم أُعالجْها به ... طَمَعَ الحياةِ، وأينَ مَن لا يطمعُ؟
"وإذا المنيةُ أنشبتْ أظفارها ... ألْفَيتَ كُلَّ تميمةٍ لا تنفعُ"[(١)]

وفي قوله وقد عادَهُ بعضُ أصحابه وجَعَلَ يرَوِّحُ لهُ بِمروحة، واصفاً ذلك وهو في يأسٍ من الحياة:

رَوَّحَني عائدي فقلتُ له: ... مَهْ، لا تَزدني على الذي أَجِدُ
أما تَرى النارَ وهيَ خامدةٌ ... عندَ هبوب الرياح تَتّقدُ؟[(٢)]

ولابن الجنان الأنصاري تجربة ابن اللمائي نفسها مع مرضه الذي توفيَ فيه حيثُ يقول:

جَهِلَ الطبيبُ شكايتي، وشِكايتي ... أنّ الطبيبَ هو الذي هو مُمرِضي
فإن ارتضى بُرئي تداركَ فضلُهُ، ... وإن ارتضي سَقَمي رضيت بما رضي
ما لي اعتراضٌ بالذي يقضي بِهِ ... لكنْ لرحمتهِ جَعلتُ تعرُّضي[(٣)]

أما أبو العباس أحمد بن علي الكناني الملقب باللص فقد محا الشعورُ بوشوك الموت النومَ من عينيه، بسبب اشتداد مرضه:

وقائلةٍ والضنى شاملي ... علامَ سهرتَ فلم ترقدِ
وقد ذابَ جسمكَ فوقَ الفراشِ ... حتى خفيتَ على العُوَّدِ؟
فقلتُ وكيفَ أُرى نائماً ... ورامي المنيّةِ بالمرصدِ؟[(٤)]

---

(١) تاريخ الأدب العربي (فروخ): ٥/٦٠٦.
(٢) نفسه.
(٣) تاريخ الأدب العربي (فروخ): ٦/١٩٧.
(٤) التكملة لكتاب الصلة: ١/٧٣.

ويبلغ المرض من أبي بكر بن جُزي مبلغه الذي ينذر معه بالخطر والتسليم لقدر الموت، ولكنه مؤمن بهذا القدر، صابرٌ من أجله:

إنْ يأخذ السُّقْمُ من جسمي مآخذهُ ... وأصبح القومُ من أمري على خَطَرِ
فإن قلبي بحمد الله مرتبطٌ ... بالصبر والشكر والتسليم للقدرِ
فالمرءُ في قبضةِ الأقدار مصرعهُ ... للبرءِ والسُّقْمِ أو للنفعِ والضررِ[1]

ولم يترك المرض والضعف للشاعر حبيب بن أحمد الشطجيري غير أن يفوّض أمره إلى الله ويتوجه إليه وكأنه يودع الدنيا حيثُ يقول:

الحمد لله على ما قضى ... فكل ما يقضيهِ فيه الرضى
قد كنتُ ذا أيدٍ وذا قوةٍ ... فاليومَ لا أستطيعُ أنْ أنهضا
فوَّضتُ أمري للذي لم يُضعْ ... مَن أحسنَ الظنَّ ومَن فوَّضا[2]

وما كان لدى هؤلاء من صبرٍ على بلوى المرضِ وآلامه لم يكن لدى الشاعر ابن معاوية اللخمي (محمد بن عيسى بن مهذّب)، فهو يشعر بأن الوقتَ يتثاقلُ في مضيّهِ حتى لكأنه لا يتحرك، وأن عذابه في مرضه يطول تبعاً لِذلك، فأخذَ يدعو ربَّه ليسَ من أجل الاستغفار والتقرب له، وإنما مِن أجل أن يُقصِّرَ من أيام عمره ـ أيام عذاباته مع هذا المرض، حتى آمَنَ بأنّ اللهِ مستجيبٌ لدعائه:

نهاري نهارانِ لا تسألوا ... وشهري مُقيمٌ فما يرحلُ
دعوتُ الإلاهَ لِكشفِ الردى ... فقالَ: بحقٌ أنا أفعلُ[3]

---

(١) نفح الطيب: ٥/ ٥٣١.
(٢) جذوة المقتبس: ص١٩٩.
(٣) التكملة لكتاب الصلة: ١/ ٣٢٥.

وكان جملةٌ من الشعراء الأندلسيين يعانون من أمراض الشيخوخة من ضعف في الجسم ووهنٍ في القوى، فيصفون ما يعتورهم من مشاعر وأحاسيس باضمحلال الحياة واقتراب الموت، فهذا الشيخ أبو بكر بن مغاور يقول وقد وهنتْ قواه، فلم يكن يستطيع المشيَ إلاّ اعتماداً على العصا:

قـالَ لـي يهـزأ مَـن لـمْ ... يتـوقَّـعْ مـن ملامـهْ
إذْ رأى كَـفّيَ دأبـاً ... بعـصاها مُـستهامهْ
أنـتَ واللهِ صحـيحٌ ... سـوفَ تبـقى لِلقيامـهْ
قلـتُ دعـني مِـن مـحالٍ ... قـد شـكا الـشيخُ الـسَّقامهْ
كيـفَ يُرجَـى لـي بـقاءٌ ... وجِـداري يِدعامـهْ؟[1]

والى هذا المعنى ذهبت مريم بنت أبي يعقوب الشلبي حيث تقول متحدثةً عن نفسها:

وما يُرتجَى مِن بنتِ سبعين حجةً ... وسـبعٍ كنسجِ العنكبـوت المُهلـهلِ
تَدُبُّ دبيبَ الطفلِ تسعى إلى العصا ... وتمشي بها مَشْيَ الأسير المكبَّلِ[2]
ورقَّ جلـدي ورقَّ عظمـي ... وأشـبهتْ لّمـتي الثـغاما

أما ابن النشا الوادي آشي فقد شكا خليطاً من أمراض الشيخوخة، مِن وهنٍ في القوى، وقلة نومٍ، وضعف بصرٍ وسمْعٍ، وصعوبة في القيام والقعود، وكل ذلك يدعوه إلى التيقن بقرب الموت، والحيلولة في القبر طويلاً:

وقـلَّ نـومي فليـت أنـي ... بُـدّلتُ مـن عيـشتي الحِمامـا

---

(١) زاد المسافر: ص٧٩، وأديب الأندلس أبو بحر التجيبي : ص ٣٠٤.

(٢) بغية الملتمس: ص٥٤٤ , ينظر الشعر النسوي في الأندلس. ص٦٤.

فلـــيس لـــي في الحيـــاة خـــيرٌ ... ولـــستُ أرجـــو لهـــا دوامـــا
فكيـــف ألهـــو بهـــا وســـقمي ... قـــد خـــالطَ الجـــسمَ والعظامـــا
ونـــاظري مـــا يُحـــقُّ مَـــرْأَى ... ومَـــسمعي لا يَـــعي كلامـــا
وقـــوتي قـــد وهـــتْ فمـــا إنْ ... أُطيـــقُ مَـــشياً ولا قيـــاما
ولـــيسَ ذا مُنكِـــرٍ علـــى مَـــنْ ... مـــرَّتْ عليـــه ســـبعونَ عامـــا
وعـــنْ قريـــبٍ أَحُـــلُّ قـــبراً ... أُطيـــلُ في قَعـــرِهِ المُقامـــا[1]

أما العَمَى فإنه يتساوى، في كثيرٍ من الأحيان، والموت، لدى معظم الناس، ولا أقول جميعهم، ومنهم الشعراء الأندلسيون، وهذا ما توصلَ إليه أيضاً علماء التحليل النفسي الذين "يقررون إنه في مستوى اللاشعور يكون فقدان العين مكافئاً للموت"[2]، وهكذا كان الأمر بالنسبة إلى أبي المُخَشَّى عاصم بن زيد، حيثُ كان قد فقد بَصَره بعدَ أنْ سمل الخليفة هشام بن عبد الرحمن عينيه على أثر بيتٍ قاله في حَوَلِه، وكان هشام أحولَ، فأحَسَّ أبو المخَشَّى عندما فقد بصره وكأنه فقد الحياة بأسرها، إذ ليس العمَى مما يُرجَى له علاج، وليس هو بِمُحتَمَلٍ كما تُحتملُ بقية الآلام في الجسم، بل هو الموتُ بعينه ولاسيما العَمَى بعدَ الإبصار، وانتهزَ تعليقَ زوجتهِ على ما أصابه في هذا، وتجريحها له فرصةً لِرثاء نفسه:

خـــضعـتْ أُمُّ بناتـــي للعِـــدَى ... أنْ قـــضَى اللهُ قـــضـاءً فَمـــضَى
ورأتْ أعمَـــى ضريـــراً إنّمـــا ... مَـــشْيُهُ في الأرض لَمْـــسٌ بالعـــصَى
فاســـتكانتْ ثـــم قالـــتْ قولـــةً ... وهْـــيَ حـــرَّى، بلغـــتْ منّـــي المـــدَى
ففـــؤادي قـــرِحٌ مِـــن قولِـــها ... مـــا مـــن الأدواء داءٌ كالعمـــى

(١) بغية الوعاة: ١/ ٤١٧.
(٢) شعر المكفوفين في العصر العباسي: ص ١٣٥.

وإذا نـــالَ العمَـــــى ذا بَـــصَرٍ كـانَ حيّـاً مثـلَ ميْـتٍ قـد ثـوَى
وكـأنَّ النـاعمَ المـسرور لـمْ يَـكُ مـسروراً إذا لاحَ الـردى[1]

٤- الاحتضار:

لعل الاحتضار هو من أقسى التجارب التي يمر بها المرء في حياته، وأكثرها حرجاً له، ومع ذلك نرى كثيراً من الشعراء الأندلسيين لا يُفوِّتون هذا الحدث بدون أن يسجّلوه بشعرهم، ويؤطِّروه بمشاعرهم وأفكارهم التي تنم غالباً عن مواقفهم من الموت والحياة، ومن الدين والدنيا. إنهم ينظمون الشعر ساعة الرحيل عن الدنيا بما فيها، وكثير من هؤلاء تركوا لنا آخر شعرٍ نظموه في حيواتهم، أو آخر كلامٍ نطقوا به، وهذه قضية ينظر إليها النقد بعينٍ خاصةٍ، لما لها من أهمية غير قليلةٍ في جوانب مختلفة مما يتعلق بتحليل النصوص الشعرية.

وممن سجلوا هذه التجربة فرثوا أنفسهم بحرارةٍ ابن شُهيد الأندلسي، فقد ترك لنا عدة قصائد وهو يعاني سكرات الموت، ولكن آخر قصيدة نظمها وسجل فيها آخر ساعات حياته هي قصيدته التي يقول فيها مودعاً إخوانه:

أستودع الله إخـواني وعـشرتهم وكـل خِـرقٍ إلى العليـاء سبَّـاقِ
وفتيـةٍ كنجـومِ القـذف نيِّـرهم يهـدي، وصـائبهم يـودي بـإحراقِ
وكوكبـاً لـيَ مـنهم كـان مغربـه قلـبي، ومـشرقه مـا بـين أطواقـي
الله يعلـم أنـي مـا أفارقـه إلا وفي الـصدر مـني حَـرٌّ مـشتاقِ
كنـا ألـيفينِ خـان الـدهر أُلفَـتنا وأي حُرٍّ على صَرْفِ الردى بـاقي[2]

---

(١) تاريخ الأدب العربي (فروخ): ٥/ ٨٨.

(٢) ديوانه: ص١٠٤.

ومنهم أبو عبد الله محمد بن يوسف الأنصاري الشاطبي الذي "لما حضر أجله، وقد أمرَ خادمه أن ينظف له بيته، وأن يغلق عليه البابَ ويفتقده بعد زمانٍ، ففعلَ ذلك، فلما دخل عليه وجدهُ ميتاً، وقد كتبَ في رُقعةٍ:

حانَ الرحيلُ فودّع الدار التي ... ما كانَ ساكنها بها بِمُخَلَّدِ
واضرعْ إلى الملكِ الجوادِ وقلْ لهُ ... عبدٌ ببابِ الجودِ أصبحَ يَجتدي
لم يرضَ إلاّ اللهَ معبوداً وما ... ديناً سوى دينِ النبيّ محمّدِ"(١)

وله في الغرض نفسه:

أقول لنفسي حين قابلها الردى ... فَراغتْ فِراراً من يُسرى إلى يُمنى
قفي تَحْملي بعض الذي تكرهينه ... فقد طالما اعتدْتِ الفرارَ إلى الأهنى(٢)

ومنهم أبو الصلت أمية بن عبد العزيز " عندما أشرف على الموت":

سكنْتُكِ يا دارَ الفناءِ مُصدّقاً ... بأنّي إلى دار البقاءِ أصيرُ
وأعظم ما في الأمر أنيَ صائرٌ ... إلى عادلٍ في الحكمِ ليسَ يجورُ
فيا ليتَ شعري كيف ألقاهُ بَعدها ... وزادي قليلٌ والذنوبُ كثيرُ؟
فَإنْ أكُ مَجزيّاً بِذنبي فإنني ... بِحَرٍّ عذاب المذنبينَ جديرُ
وإنْ يكُ عَفوٌ – ثمَّ- عني ورحمةٌ ... فَثمَّ نعيمٌ دائرٌ وسرور(٣)

ومنهم ابن الغماز البلنسي الذي قال "في اليوم الذي مات فيه":

أدعوكَ يا ربّ مضطراً على ثقةٍ ... بما وعدتَ كما المضطرّ يدعوكا

---

(١) نفح الطيب: ٢/ ٣٧٤. والأبيات منسوبة في بغية الوعاة ١/ ٤٧٥ إلى أبي بكر بن الصائغ.
(٢) وفيات الأعيان: ٤/ ٤٣١. والبيتان منسوبان في وفيات الأعيان ٤/ ٤٣١ إلى أبي بكر بن الصائغ.
(٣) ديوانه: ص٨٧.

دارِكْ بِعفـوكَ عبـداً لم يـزلْ أبـداً ... في كـل حـالٍ مـن الأحـوالِ يرجوكـا
طالتْ حياتي ولـمّا أتّخـذْ عمـلاً ... إلاّ محبّـــة أقـــوامٍ أحبُّـــوكا[1]

ومنهم عبد الله بن عيسى الشلبي الأنصاري الخزرجي الذي أنشد "لما أتاه الموت":

الحمــــد لله ثُــــمَّ الحمـــــدُ للهِ ... ماذا عن الموتِ مـن سـاهٍ ومِـن لاهـي
ماذا يرى المرء ذو العينين من عمرٍ ... عنـد الخـــروج مـن الدنيـا إلى اللهِ[2]

ومنهم أبو العباس بن جهور الذي قال:

أأرجـــو بالحيـــاة وقـــد نـــأيتُمْ ... تَقَـضّى النَّـــحْبُ وانقطــعَ الكــلامُ

"ثُمَّ ماتَ على أثر ذلك"[3].

وأبو بكر بن مغاور الذي قال "وهو يجود بنفسه":

أيهــا الواقــفُ اعتبـاراً بقـــبري ... اســتمعْ فيــهِ قــولَ عظمــي الــرميمِ
أودعوني بطْنَ الـضريحِ وخـافوا ... مِـــن ذنـــوبٍ كلومهـــا بأديـــمي
ودعـــوني بمـــا اكتـــسبتُ رهيـــناً ... غَلِــقَ الــرهنِ عنـــدَ مـــولىً كـــريمِ[4]

وأبو عبد الله محمد بن ذِمام وقد حاولَ أنْ يُخفِّفَ عن نفسه وطأة الموتِ بِتذكُّرِ أصحابه وغيرهم مِن الناس وقد أدركَهم الموتُ من قبلُ، وأنه ليسَ استثناءً من ذلك، في قولهِ "عندَ موتِه":

---

(١) نفح الطيب: ٤/ ٣٤٠.
(٢) بغية الوعاة:٢/ ٥١.
(٣) جذوة المقتبس: ص٤٠٣، وبغية الملتمس: ص٥٣٠.
(٤) نفح الطيب: ٣/ ٣٣١.

كيفَ أرجو من المَنونِ خلاصاً وأرى مَن صَحِبتُ صارَ دَفينا؟

وأرى الناسَ يُنقلون سراعاً كلّ يومٍ إليهمُ مُرْدِفينا[1]

ومنهم المُرفَّهون من أمثال المعتصم بن صمادح الذي قال عند وفاته، وقد مَلَّ الاستمتاع بكثرة النِّعَم في حياته:

تَمتَّعْتُ بالنعماءِ حتى مَلِلْتُها وقد أَضجرتْ عينَيَّ مِمّا سَئمتُها!

فيا عَجَباً، لمّا قَضيتُ قضاءها ومُلِّيتُها عمري تَصَرَّمَ وقتُها[2]

ومنهم المحرومون مِن مُتع الحياة وللذّاتِها حتى بغتَهم الموت، من أمثال أبي إسحاق إبراهيم بن علي الخولاني الذي قال "عندما أيقنَ بالموت" آسفاً على ما مضى من حياته وقد خَلَتْ مما يهوى ويريد:

عَصيتُ هوى نفسي صغيراً فعندما رَمتْني الليالي بالمشيبِ وبالكِبَرْ

أطعتُ الهوى عكسَ القضيّةِ ليتَني خُلِقتُ كبيراً وانتقلتُ إلى الصغَرْ[3]

٥- العقوبة:

تَعَرَّضَ جملةٌ صالحةٌ من الشعراء الأندلسيين إلى عقوباتٍ مِن لدُن الحاكمين، كانتْ غالباً ما تُشعِرُهم بقرب الموت في لحظةٍ من لحظات الجبروت المطلَق الذي "يتمتَّع" به أولئك الحاكمون، أو في ساعةٍ من ساعات غضبهم في ظل ظرفٍ من الظروف. ومِن هؤلاء الشعراء مَن يستطيعُ الفرارَ من هذا القدر، ومع ذلك يبقى مُهَدَّداً بتنفيذ العقوبة، ومنهم مَن يَنتظرها في السجن تحتَ الأرضِ أو فوقَها، ومنهم مَن يقع تحت طائلة الأسر.

---

(١) أدباء مالقة: ص٩١.

(٢) تاريخ الأدب العربي (فروخ): ٥/ ٦٦٩.

(٣) زاد المسافر: ص١٣٥.



إنَّ شعور هؤلاء الشعراء بقرب نهاية حياتهم بهذا الشكل المأساوي كان باعثاً قوياً لرؤية الموت وشيكاً، ولوصف هذا الشعور وصفاً صادقاً ودقيقاً وقوياً، فهو شعورٌ مُفعَمٌ بالحرمانِ مِن الحياة التي لم يَهَبْها المُعاقِبين للمُعاقَبين، ولهذا السبب يتشبثُ الشعراءُ بها أقوى ما يمكنُ من التشبُّث، ويحاولونَ درءَ الموتِ، على هذه الشاكلة، بِأية وسيلة، فَمرةً بالاستعطافِ والاعتذار، ومرةً ثانيةً بالتوسُّط والاستشفاع، ومرةً ثالثةً بالهربِ بعيداً عن يد الحاكم، فينفعُ ذلك أحياناً و يُخفقُ أحياناً أُخرى، وفي الحالتين جميعاً يبقى شعرهم نابضاً حياً، ومنهم مَن تأخذه الكبرياءُ والعزّةُ بالنفس وهو أسير فيخلو شعرُهُ من التوسُّل والاستعطاف والاعتذار، مهما كان الآسرُ قاسياً.

ومن الشعراء الذين عانوا هذه التجربة القاسية أبو بكر بن الجنان الشاطبي، حيثُ "حُصرَ بِقصبة شاطبة وأيقنَ بالموت وكتبَ بالفحمِ على حائط الموضعِ الذي كان فيه قصيداً امتحى منه بعضُهُ فلم يبقَ إلاّ هذا:

ألا درى الصِّيْدُ مِن قومي الصناديدُ ... أني أسيرٌ بدار الذلّ مَصْفودُ
لا أبسطُ الخَطْوَ إلاّ ظلَّ يقبضُهُ ... كِبْلٌ كما التفَّت الحيَّاتُ مَعقودُ
وقد تألّبَ أقوامٌ لِسفكِ دمي ... لا يعرفُ الفضلُ مأواهم ولا الجودُ
ثلاثةٌ من بني حُرّ ولا سعدوا ... وواحدٌ من بني حوراءَ مجحودُ

ومات في معتقلِهِ رحمه الله"[1].

وممن عانوا من مرارة الفرار من بطش السلطان، أملاً في النجاة من عقوبة الموت، أبو جعفر بن سعيد على يد السِّيْد أبي سعيد ابن عبد المؤمن الذي استوزَرَهُ، فطلبَ منهُ أبو جعفر أنْ يُعفيَهُ مِن الوزارةِ فلمْ يُعْفِهِ، حتى قالَ هذين البيتينِ مِن جملة قصيدة:

فقُلْ لِحريصٍ أنْ يراني مُقيَّداً ... بِخدمتِهِ لا يُجعَلُ الباز في القفَصْ
وما كنتُ إلاّ طوعَ نفسي فهلْ أرَى ... مُطيعاً لِمَنْ عنْ شأوِ فخريَ قد نَقصْ؟

---

(١) زاد المسافر: ص١١٦.

وفيهما هجاء واضح للسيد وحَطٌّ مِن قَدْره، فما كانَ منه إلاّ أنْ عَزَله أسوأَ عَزْل[1].

ثُمّ اشتدَّ عداؤهُ له بسبب حَفصة الشاعرة حيثُ كان أبو جعفر يهواها فاتصلتْ بالسيد "ووجد حُسَّادُه السبيلَ إلى إغراء السيد به، فكان ما نُميَ به عنه، أنْ قالَ لِحفصة يوماً: وما هذا الغرام الشديدُ به، يعني السيد، وكانَ شديدَ الأُدمة، وأنا أقدر أنْ أشتريَ لكِ من الغرض أَسْوَداً خيراً منهُ بِعشرينَ ديناراً، فجعلَ السيدُ يتوسَّد له المهالِك، وأبو جعفر يتحفَّظ كلَّ التحفُّظ"[2]، وهو يعلمُ أنْ لا مَفرَّ من الموتِ على يديه إذا ظفر به، حيثُ لَمْ يَهتدِ إلى رضاهُ ولا إلى الهربِ الآمِنِ منه، فأحَسَّ باليأسِ من الحياة وانحصرتْ أمنياتُهُ في أنْ ينأى عن الحياة بِأسرها في محلٍّ مُنْـزوٍ مِن الأرضِ لا دنيا فيه غيرَ الإفلات من حُكمِ السيد وسُلطته وجبروته، ومِن عقوبته، وتلكَ كانتْ أُمنياتٍ لا تملكُ صدىً من الواقع، فضاقتْ به الأرضُ، فقالَ وهو في حالتِه هذه راثياً نفسه:

مَـنْ يـشتري منّـي الحيـاةَ وطيبَهـا ... وَوَزارتـــي وتأَدُّبـــي وتَهذُّبـــي
بِمحـــلّ راعٍ في ذُرى ملمومـــةٍ ... زُويـتْ عـن الـدنيا بِأقـصى مَرتـبِ
لا حُكـمَ يأخـذه بهـا إلاّ لِـمَنْ ... يعفـو ويَـرؤُفُ دائمـاً بالـمُذنبِ
فلقدْ سئمتُ من الحياة مع امرئٍ ... متغـضّبٍ، متغلّـبٍ، مُتَرتّـبِ
الـموتُ يلحظـني إذا لاحظتُـهُ ... ويقـومُ في فكـري أوانَ تَجنُّبـي
لا أهتدي مَعَ طولِ ما حاولتُـهُ ... لِرضـاهُ في الـدنيا ولا لِلمَـهْربِ[3]

وكانَ أبو جعفر صادقَ المشاعر في رثائه لِنفسه، وكانتْ نفسُه صادقةً فيما تُحدّثُهُ فيه، فقد حَدثَ ما خشيَه من عقوبة الموت، إذْ "وضعَ السيدُ عليه العيونَ في كلّ جهةٍ، فقُبِضَ عليه بِمالقة، وطُولِعَ بِأمرِه فأَمرَ بِقتلِه صَبْراً"[4].

---

(١) أنظر نفح الطيب: ٤/ ١٨١.

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة: ١/ ٢٢٤-٥.

(٣) الإحاطة في أخبار غرناطة: ١/ ٢٢٥.

(٤) الإحاطة في أخبار غرناطة: ١/ ٢٢٦.

ومثل ذلك ما تكبَّدَه أبو بكر الداني، فقد "كان بينه وبين الوزير أبي القاسم زمام ائتلاف، ومعاطاة سُلاف،... فلما تغير له ناصر الدولة وتنكَّر، ورأى من قعود أبي القاسم عنه ما أنكر، هَبَّ مِن غفلته، واحتالَ في تفلُّتِهِ، فلاذَ بالفِرار، وعاذَ ببني حمّاد بِحكم الاضطرار، وجعلَ يستنـزله مَن هناك ويستعطفه، ويداريه ويستلطفه، لِيمنَّ بإعادته، وصرفه إلى عادته"[1]، غيرَ أنّ أياً من ذلك لم ينفع، ولم يبقَ غير اليأس والشعور بتنفيذ العقوبة إنْ عاجلاً أمْ آجلاً يُقضّانِ مضجعه، ولنْ ينفع بَعْدُ، خداعُ النفس بالأمل الكاذب:

أقـولُ تـحيـةً وهـي الـوداعُ ... خـداعاً لـي ومـا يغـني الخـداعُ
أُعلـلُ بـالمنى قلبـاً شِـعاعاً ... وهـل يتعلـلُ القلـبُ الـشعاعُ؟
وأتـركُ جـيرةً جـاروا وأشـدو: ... أضـاعوني وأي فتـىً أضـاعوا
إذا لم يُـرْعَ لـي أدبٌ وبـأسٌ ... فـلا طـال الحـسامُ ولا الـيراعُ
لقـد بـاعتنيَ الأيـامُ بَخـساً ... وعهـدي بالـذخائر لا تُبـاعُ
أجَفَّـتني فلـم ينبـتْ ربـيعٌ ... وحَطَّـتني فلـم يثبـتْ يفـاعُ
ومكَّنـت العـدا مـني فعاشـتْ ... بلحمـي ضـعفَ مـا عـاشَ الـسباعُ[2]

وأبو بكر الداني هنا يودِّعُ أهله وأصحابه، وكأنه يودِّعُ الحياة التي خسرها وباعتْه بِأبخس الأثمان من حيثُ كان يظنُّ أن موهبته وبأسه كفيلانِ بردّ الأذى عنه، وحِفْظِ حياتهِ وأمنه.

وممن ذاقوا مرارة هذه التجربة العالِمُ النحوي اللغوي علي بن إسماعيل بن سيدة الذي "كانَ منقطعاً للأمير أبي الجيش، مجاهد بن عبد الله العامري ثم حدثتْ له نَبوة بعد وفاته في أيام إقبال الدولة بن الموفَّق خافَه فيها وهربَ إلى بعض أعمالِه المجاورة، وبقيَ بها

(١) الذخيرة: ٤/ ٤٤٢.
(٢) الذخيرة: ٤/ ٤٤٣.

مدةً"[1]، وفي أثناء ذلك كتبَ إلى إقبال الدولة يستعطفه بالشعر، مُحاولاً أن يشتريَ حياتَه بِكرامتِه وكبريائه، وعظيمِ مَنْـزلتِه العلمية، بعد أنْ شعرَ بأَنْ لا فائدة من وراء الهرب، وأنَّ عقوبة الموت مُحْدِقةٌ به لا محالة:

أَلا هلْ إلى تقبيل راحتكَ اليُمنَى ... سَبيلٌ، فإنَّ الأمْنَ في ذاكَ واليُمْنا؟
ضحيتُ فهلْ في برد ظلاك نومةٌ ... لِذي كَبِدٍ حرَّى وذي مُقلةٍ وَسْنَى؟
فتنضى همومٌ طلَّحتْها خطوبها ... فلا غارباً يُبقِينَ منه ولا مَتْنا
غريبٌ نأى أهلوهُ عنهُ وشفَّهُ ... هواهمْ فأمسَى لا يَقرُّ ولا يَهنا
فيا ملكَ الأملاكِ إني مُحَوِّمٌ ... على الوِرْدِ لا عنه أُذادُ ولا أُدنَى

وما في هذه الأبيات من ذُلّ وهوانٍ واستسلامٍ يُفسّرُهُ ما يتلوها من أبيات:

تحققتُ مكروهاً فأقبلتُ شاكياً ... لَعَمري أمأذونٌ لِعبدكَ أنْ يُعْنَى؟
وإنْ تتأكدْ في دمي لكَ نيَّةٌ ... بِسفْكٍ فإني لا أُحبُّ لهُ حَقْنا
دمٌ كوَّنتْهُ مكرماتُك والذي ... يُكوِّنُ لا عَتْبٌ عليه إذا أفنَى
إذا ما غدا من حرّ سيفك بارداً ... فَقِدْماً غدا من بَرْدِ نعماكمُ سُخنا

ففيها يبدو ابن سيدة متأكداً على وجه التحقيق من نوايا "السلطان"، ويتضح ذلك جلياً في عباراته: "تحققتُ مكروهاً" و"في دمي لكَ نيةٌ" و"حرّ سيفك"، حتى يصرّح بأنه مستعدٌّ لهذه النية-عقوبة الموت في قوله عن دمه المسفوك: "فإنّيَ لا أحب له حقنا"، لاسيما وأنَّ هذا الدم هو مما كوَّنه هذا الحاكم، فمن حقه، ولا عتب عليه، إذا ما استردَّه وأفناه، ويكاد يقرر ما هو متوقّعٌ، وكأنه قد وقعَ فعلاً، أي الموتُ على يده، فَيبدي له ما

---

(١) بغية الملتمس: ص٤١٨، وانظر تاريخ أئمة اللغة: ص١٤٨، ومطمح الأنفس: ٢٩١-٢، ونفح الطيب: ٤/ ٢٧.

يمكنُ أنْ يكونَ نتيجةً لتنفيذ هذه العقوبة، مِنْ أنه سيقرعُ سنَّ الندمِ طوالَ حياته بعدَ ساعةٍ واحدةٍ من التشفّي هي ساعة تنفيذ العقوبة فيه:

وهلْ هيَ إلاّ ساعةٌ ثمّ بَعدَها ستَقرعُ ما عُمِّرتَ مِن نَدَمٍ سِنّا

ثمَّ يحاولُ أن يخفِّفَ عن نفسه وطأة هذا المُصاب الجلل، ويُقللُ في الوقتِ نفسه من أهمية قَتلِهِ في عينَي قاتلهِ، حيثُ لنْ يُغادرَ حياةً لذيذةً يُؤسَفُ عليها، ولنْ تُذرَفَ دموع حارة من أجلِه، ولن يحصل قاتلُه على خطيرٍ إذا ما تم إعدامُهُ:

وما ليَ مِن دهري حياةٌ أَلَذُّها فَتَعْتَدُّها نُعْمَى عليَّ وتمتنَّا

ولله دَمعٌ ما أقلُّ اشتياقه إذا في دمي أمسَى سنانُكَ مُستنَّا

ثمَّ يرجعُ فيُغري قاتله، على اعتبار ما سيكون، ببعضٍ من أبياتٍ لعلَّها تكونُ سبباً في استجلاب رضاهُ عنه:

إذا قَتلةٌ أرضتكَ منّا فهاتِها حَبيبٌ إلينا ما رضيتَ به عنّا

وهذا ما حصلَ حقاً، إذْ " حصلَ الرضا عنه عند وصولها إليه "[1]

وعلى الرغم من استسلام ابن سيده للموتِ غير أنه لا يبدو مقتنعاً به، إذْ هو صادرٌ من مخلوقٍ، وإنْ كان سلطاناً، يُعزز رأينا هذا خلوّ قصيدته هذه من أي إشارة إلى موقفه الديني من الموت، شأنُه في ذلك شأن غيره من الشعراء في مثل هذه القضية، بل إنّ جبروت السلطان أنساهُ جبروت الخالق، فوصفَ الأول بـ" ملك الأملاك" ونسي الثاني المالك الحقيقي، هذا فضلاً عما اصطبغتْ به هذه القصيدة من ارتباكٍ في المشاعر، وتناقضٍ في التعبير عنها، كما مرَّ، وكلُّ ذلك في إطارٍ من قوة النظم، وجودة السبك، وحرارة العاطفة في كل مقطعٍ من مقاطعها، وهو ما يؤكّد مدى تمسُّكه بالحياة وتشبثه بها،

---

(١) أئمة علماء اللغة: ص١٤٨، وانظر: بغية الملتمس: ص٤١٩.



ويكشفُ عن ذلك أيضاً أنها "قصيدة طويلة"[1]، وطول القصيدة يدلُّ، في حالةٍ كهذه، على أهمية قضية الحياة لدى الشاعر. وعلى أية حال فإن ما وصل إلينا منها كافٍ للدلالة على ما يهمنا مما كان في نفسه من الشعور بقرب الموت عقوبةً له من لدن "السلطان"، وما يتصل بذلك.

أما السجون فقد شهدتْ قصائدَ كثيرةً في رثاء النفس من لدن أولئك الشعراء الذين انتظروا عقوبة الموت حتَّى تـجلَّتْ أمامَ أعينهم حقيقةً لا غبارَ على تنفيذها، أو تجلَّى الموتُ قبلَ أن تتم. فمن هؤلاء الشعراء أبو زكريا يحيى بن هذيل الذي نظم في سجنه قصيدة طويلةً أيضاً وصفَ في مقدمتها الطويلة ظروف السجن وزملاءه من المسجونين بفائضٍ من المرارة والجزع، حتى توصَّلَ إلى هدفه، وهو اليأس من الحياة واستقبال الموت، فهو يتمنى من الدهر أن يُجيره بسهمٍ مصيبٍ قاتلٍ للخلاص مما هو فيه من عذابٍ لا آخرَ له، فكل شيءٍ من الحرمان في هذا السجن يُذكِّرهُ بكل شيءٍ من العطاء خارجَهُ:

أيا دهرُ إنـي قـد سئمتُ تهدُّفـي ... أجرْنـي فـإن الـسهمَ منـكَ مـصيبُ
إذا خفـقَ الـبرقُ الطـروقُ أجابَـهُ ... فـؤادي ودمـعُ المقلتـينِ سَـكوب
وإن طلعَ الكفّ الخضيبُ بـسحرةٍ ... فـدمعي بحنّـاء الـدماء خـضيبُ
تُـذكرني الأسـحارُ داراً ألفتُـها ... فيـشتدُّ حزنـي والحمـامُ طـروبُ[2]

وحيثُ لا أمل في أن يحيا بعدُ، فإن نزوعه إلى تمنّي الحياة فقط يجعله يشعر بالموت:

إذا علقتْ نفسي بـ"ليتَ" وربما ... تكـادُ تفـيضُ أو تكـادُ تـذوبُ

وفي نهاية المطاف لا يجد سوى أن ينظر في ما سيؤول إليه بعدَ الموت، فإذا كان فوزاً بالجنة التي يتمناها كل مسلم، فإن هذا الفوز يستحقُّ منه الصبر على ما يعاني، ويستحق منه التضرُّعَ إلى ربه في أن تكون تلك هي العاقبة:

---

(١) تاريخ أئمة اللغة: ص١٤٨.

(٢) نفح الطيب: ٥/ ٤٩٣-٤.

دعوتُـك ربـــي والـدعاءُ ضـراعةٌ وأنـــتَ تنـــاجَى بالـــدعا فتُجيـــبُ
لئنْ كان عُقبَى الصبر فوزاً وغبطـةً فــإني علــى الــصبر الجميــلِ دَروبُ

وهو صبرٌ عاناهُ أيضاً أبو عبد الله محمد بن مسعود الغساني البجاني في تجربةٍ مماثلة عندما سجنه المنصورُ، فقالَ في سجنه:

دعـوتُ لّمـا عِيْـلَ صـبري فهـلْ يـــسمعُ دعـــوايَ المليـــكُ الحلـــيمْ
مـــولايَ مـــولايَ ألا عَطفــــةٌ تـــذهبُ عنّـــي بالعـــذاب الألـــيمْ
إنْ كنت أضمرت الـذي زخرفـوا عنّـــي فـــدعني للقـــدير الـــرحيمْ
فعـــــندَهُ نـزَّاعــــةٌ للــــشوى وعنــــدَه الفـــردوسُ ذات النعـــيمْ

إلاّ أنه يبدو أكثر اطمئناناً لرحمة ربه، وأكثر استسلاماً له، ولديه شعور عميق بالظلم الواقع عليه، وهو مبعثُ الاطمئنان ذاك، الاطمئنان الذي جعله يذكر الفردوس وكأنه واثقٌ من الفوز بها إذا وافاه الأجل.

والمنصور نفسه كان وراء طائفةٍ من أجمل قصائد رثاء النفس في الشعر الأندلسي مما نظمه الشاعر المُفْلق أبو عمر هارون بن يوسف الرمادي، إذ وضعه في السجن بعدَ أن "شاعتْ عنه أشعارٌ في دولة الخلافة وأهلها، سدَّدَ إليهم صائبات نَبْلها، وسقاهم كؤوس نَهْلها، أوغرتْ عليه الصدور، ونفرتْ عليه المنايا ولكن لم يساعدها المقدور، فسجنه الخليفة دهراً، وأسلكهُ من النكبة وَعْراً"[(١)].

وقد كان الرمادي في رثائه لنفسه وهو في السجن مختلفَ الأحاسيس، دقيقاً في وصفها في الحالات المختلفة، وقد كانت تتفاوت بين الأمل في النجاة قوياً مرةً، وضعيفاً مرةً ثانيةً، ثم يصل إلى اليأس التام حيثُ لا أمل يراود أحاسيسه مرةً ثالثةً أخيرة، وفي الحالات الثلاث يقف دنوّ الموت، أو حصوله فعلاً، على رأس تلك الأحاسيس، وفي مقدمة توصيفه لها.

---

(١) مطمح الأنفس: ص٣١٧.

ففي مطلع قصيدته القافيَّة ينصُّ على كلمة "الأمْن" في حالة التمنّي، والأَمْنُ هنا يساوي الحياة، وتمنّي الأمن هو تمنّي الحياة، وهو في الوقتِ نفسه يأس منها وتصريح بعدم وجودها، ودافعٌ قويٌّ إلى التشوق إليها حيثُ كانتْ:

لكَ الأمْنُ مِنْ شجوٍ يزيدُ تـشوُّقي ....(1)

وقد كانت تعجُّ بالذكريات الجميلة، ومن تلك الذكريات ما عاشه الشاعر في مدينة الزهراء الباهرة، ولكنه الآن، يخْلقُ منها صورة مأساوية تتناسب والحال التي هو عليها، أو ما سوف تؤولُ إليه حالُه من فَقد الحياة، حيثُ يُقامُ عليه مأتمٌ، وتَشُقُّ الفاتناتُ ثيابَهنَّ أسفاً على فقدِهِ:

فوافوا بنا الزهراء في حـال خـالع الـ ... أئمّـــةِ لاســـتيفائهم في التوثُّـــقِ
وحوليَ مِنْ أهـل التـأدُّبِ مأتــمٌ ... ولا جُـــؤذرٌ إلاّ بِثــوبٍ مُـــمَزَّقِ

ويقارنُ الرمادي بين حالَـيْه قبل السجن حيثُ جمال الحياة ورونقها البهيّ ومغرياتها الجمّة، وبعدَه حيثُ انتفاء كل ذلك، ففي الحال الأولى تتغافل نفسُهُ عن الموت حتى وإنْ كان له ما لِروض الزهراء من جمالٍ أخّاذ وأنّى له ذلك؟، طمعاً في ما في الحياة من تلك المُغريات، أما في الحال الثانية فإنها لا تقوَى إلا على أنْ تستجيب له:

فلو أنَّ في عـيني الحِمـامُ كروضـها ... وإنْ كـان في ألوانــهِ غـيرَ مُـشفـقِ
ونادَى حِمـامي مُهجـتي لَتغافَلَـتْ ... فهـلاّ أجابـتْ وهـو عنـدي لَمُحنـقِ؟

وإذْ هو يفقد الصبرَ يحاول أنْ يستعين بما بقيَ من دموع عينيه، فلعلَّ في ذلك ما يعينه على الصبر ولو قليلاً:

---

(١) مطمح الأنفس: ص٣١٨، ولم ينصَّ المؤلف على عجز البيت.

أَعينَيَّ إنْ كانتْ لِدمعيَ فَضلةٌ تُثَبّتُ صبري ساعةً فَتَدَفَّقي

وفيما هو مستغرقٌ في ذكرياته إذ تتجلّى أمامَ عينيه صورة صاحبتِه وهي تسأله عن أملٍ لاجتماع الشمل الذي هو رمز لِلنجاة من الموتِ هنا، ولكنه لا يملك جواباً على ما تسأل، فذلك ظنٌّ غير مُحَقّق، من خلال حوارٍ يتخيَّله بينهما:

وقالتْ: تظنُّ الدهرَ يجمعُ بيننا ؟ فقلتُ لها: مَنْ لي بظنٍّ مُحقَّقِ ؟

ويعودُ فيعلّقُ آمالَه بالزَّجرِ والشفر والأحلام:

ولكنني فيما زجرتُ بِمُقْلةٍ زجرتُ اجتماعَ الشملِ بعدَ التفرُّقِ

فقد كانت الأشفارُ في مثل بُعدِنا فلمّا التقتْ بالطيفِ قالتْ سنلتقي[1]

وإذْ هي تبكيهِ بُكاءَ الثَّكلَى فإنه يرجوها ألاّ تفعلَ ذلك قبلَ أنْ يموتَ فعلاً، ولا شك عنده في تحقُّقِ ذلك، وقد استخدمَ كلمة "يوم" للتعبير بها عن الموت، وتكررتْ هذه الكلمة مرتين في بيتٍ واحد:

أباكيةً يوماً ولمْ يأتِ وقتُهُ سينفدُ قبلَ اليومِ دمعُكِ فارفقي

ومُذْ لم تريني أنتِ في ثوبِ ضائعٍ لَعمري لقدْ حفّتْ بِعيٍّ مُمَزَّقِ

وحيثُ يضيقَ به الأمل ويبلغُ يأسُه منتهاه، نراهُ يرسمُ صورةً نهائيةً لِمأساته في قصيدةٍ أُخرى، بعدَ أنْ تراءى له الموتُ في كل شيءٍ يراهُ أو يسمعه، فما المطرُ، هذه الظاهرة الطبيعية، إلاّ بكاء السحاب عليه حزناً على موته، وقد استخدمَ كلمة "تذرفُ" لِتوائم معنى البكاء وليس الهَمْيُ فقط، وما هُتافُ الحَمامُ إلاّ نواحٌ عليه للسبب نفسه، ولَمْ يكتفِ الشاعرُ بوظيفة السحاب، بل أسندَ إليه وظيفة غسله بعدَ فَقْدِه، بينما يستمر الحَمامُ بالنواح:

على كَمَدي تَهمي السحابُ وتذرفُ ومِنْ جَزَعي تبكي الحمامُ وتهتفُ

---

(١) مطمح الأنفس: ص٣١٨-٩.

كأنَّ السحابُ الواكفاتُ غواسلـي وتلـكَ علـى فَقْـدي نـوائحُ هُـتَّفُ[1]

وهكذا يطفحُ شعرُ الرمادي باللوعة والحزن والأسف، في إطار من قوة النظم، وحرارة العاطفة، على الرغمِ من قصر المدة التي قضاها في السجن[2]، استغراقاً منه في حب الحياة الدنيا، وتعلقه بها، وهو بذلك يذكرنا بقصيدة ابن سيدة مارة الذكر، كما يذكرنا حالُه بحال ابن سيدة مِن حيثُ نجاتُهُ من عقوبة الموت فيما بعد، فقد عفا المنصورُ عن الرمادي في سجنه كما عفا إقبالُ الدولةِ عن ابن سيدة في مَهْربه مِنْ قبل، فكان ذلك لهما بمنزلةِ الفرج بعد الشدة.

ولَمْ يبكِ السحابُ الرماديَّ وحدَه، بل لقد بكى جملةٌ من الشعراء المُجيدين مثل النجار الكاتب الذي يضيفُ إلى عناصر الطبيعة عنصراً آخر هو البرق في مشاركته رثاء نفسه بعدَ أنْ يتأكَّدَ مَصْرعُهُ، فيقول من جملة قصيدةٍ طويلة:

فطارَ فؤادُ البرقِ يحكـي جـوانحي وأرســلَ عينـــيه الحيــا فبكانـــي
بدا لي أنّ الـدهر لـيسَ مُـصـرّداً كـؤوسَ الـردى أو يـشربَ الملـوانِ
وأبصرتُ ما بينَ المصارعِ مَصْرعي سـريعاً رمـاني الـدهرُ أو مُتَوانـي[3]

وإذا كان أبو جعفر بن سعيد قد هجا أبا سعيد بن عبد المؤمن فاستطاع أن يهربَ من قبضته أول وهلةٍ، فإن أبا مروان عبد الملك بن غصن هجا ابن ذي النون ولكنه لم يستطع الإفلات من قبضته، فأودعَه ظلمة السجن حتى يرى في أمره ما يتوقعه الشاعر من عقوبة الموت، أما أبياتهُ في هجاء ابن ذي النون فهي:

تلقَّبــتَ بِالمـأمونِ ظلمـاً، وإنَّــني لآمــنُ كــلباً حيــثُ لــستُ مؤمِّنَــهْ

(١) مطمح الأنفس: ص ٣٢٠.

(٢) ذلك ما توصل إليه الدكتور إحسان عباس في كتابه تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة: ص ٢٠٨-٩، وانظر كذلك قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس: ص ٢/ ١٧٤.

(٣) تحفة القادم: ص٧٣.

حـــرامٌ عليـــهِ أنْ يجـــودَ بِبِـــشْرِهِ وأمّـــا النـــدَى فانـــدبْ هنالـــكَ مَدفنَـــهْ

سطور المخازي دون أبواب قصرِهِ بِـــحُجّابِهِ للقاصـــدينَ مُعنوَنَـــهْ ![1]

وفي أثناء مكثِهِ في السجنِ كتبَ إلى ابن هُودٍ يستشفعه، ويتحدثُ عن أنه مقبورٌ في الحياة:

فديتُكَ هل لي منك رُحمـى لعلَّـني أُفـــارقُ قـــبراً في الحيـــاة فأُنـــشرُ

ولـــيسَ عقـــابُ المـــذنبينَ بـــمُنكرٍ ولكنْ دوامُ الـــسخطِ والعتْـبِ يُنكـرُ[2]

ويرسم له صورة الموت التي أحاطتْ به وجعلتْ منه في قبضة الثرى بعد قبضة ابن ذي النون، وهو يرجو منه أنْ يتدخَّلَ لدى ابن هود لِيعفوَ عنه، فيكونُ إخراجُهُ من السجن بِمثابة ولادةٍ جديدةٍ له، بعد أنْ يئسَ منها أشدَّ اليأس:

أيـــا راكـــبَ الوجنـــاءِ بلِّـــغْ تحيـــةً أمـــيرَ جُـــذامٍ مـــن أســـيرٍ مُقـــيَّدِ

ولمـــا دعـــتني الحادثـــاتُ ولم أجـــدْ لهـــا وَزَراً أقبلـــتُ نحـــوكَ أغتـــدي

ومثلكَ مَن يُعدي على كل حادثٍ رمَـــى بِـــسهامٍ للـــردى لم تَرَصَّـــدِ

فعلَّـــكَ أنْ تخلـــو بِفكـــرِكَ ســـاعةً لِتُنقـــذني مِـــن طـــولِ هَـــمٍّ مُجـــدَّدِ

وها أنا في بَطْنِ الثرى وهو حامـلٌ فيَـــسِّرْ علـــى رُقبـــى الـــشفاعةِ مولـــدي

حنانيـــكَ ألفـــاً بعـــدَ ألـــفٍ فإنـــني جعلتُـــكَ بعـــدَ الله أعظـــمَ مَقـــصدي

وأنـــتَ الـــذي يـــدري إذا رامَ حاجـــةً تضلُّ بها الآراءُ مـن حيـثُ تهتـدي[3]

"فرقَّ له ابن هود، وتحيَّلَ حتى خلَّصَهُ بِشفاعتِه، فلما قدمَ عليه أنشده:

---

(١) نفح الطيب:٣/ ٣٦٣.

(٢) نفسه: ٣/ ٤٢٤.

(٣) نفح الطيب: ٣/ ٣٦٣.

حيـــاتيَ موهوبـــةٌ مِـــن عُلاكـــا وكيفَ أُرى عـادلاً عـن دَراكـا ؟!"[1]

وفي هذا البيت إقرارٌ من ابن غصن أنَّ الذي فعله ابن هود إنما هو إنقاذٌ لِحياته التي لولاه لَكانتْ من ضحايا الحاكم.

وممن تعرَّضَ للحبس قاضي القضاة أبو بكر محمد بن محمد بن محمد بن عاصم صاحب كتاب "حدائق الأزاهر"، حيثُ ذكر ولده أبو يحيى ابن عاصم الغرناطي أنه مُنِيَ " في عام أربعةَ عشرَ وثمانمائة بالاعتقال المُطاولِ الأمدِ الذي يقولُ في أثنائه بعدَ مدةٍ منه من أبياتٍ"[2] يصفُ فيها حاله وكأنه ميِّتٌ فعلاً:

أودعـوني تحـتَ الثـرى ونـسُوني فمُقـــامي فيـــهِ مُـــــقامٌ طويـــلُ

أنــا حــيٌّ وحــالتي حــالُ مَــيْتٍ ليـتَ شِـعري هـل للخـروجِ سـبيلُ؟

وعبارة "أودعوني تحتَ الثرى" تعبِّرُ تماماً عن شعوره بالموت وانتهاء مراسم الدفن، سبب ذلك طول مدة حبسهِ، واليأس الذي بلغتْه نفسه من الخلاص من الاعتقال، حتى إنه يتمنَّى زَورةً ممن يحب، أو قراءة كتابٍ وهو الفقيه القارئ المثقف، حتَّى ترتاح نفسه شيئاً ويتسلَّى عما ينوبه، ولكن دون جدوَى:

راحــةُ الـنفس زَورٌ مــن خليـــلٍ أو كتـــابٌ وأيـــنَ أيـــنَ الخليـــلُ؟!

ويؤكِّد يأسه في التفكير في احتمال تحقُّق ما يكرهُ وهو رهن الاعتقال ويوطِّن نفسه للصبر على ذلك، ولكنه لا يستبعدُ عاقبة الموت "أو دهتني الخطوب"، وفي ذلك حسبُه الله ونعمَ الوكيل، وتلك كفاية المسلم المؤمن الذي لا حول له ولا قوّة:

إنْ أرتـــني الأيـــامُ غـــيرَ جميـــلٍ وأحـــالتْ حـــالي فـــصبرٌ جميـــلُ

أو دهـتني الخطـوبُ فـالله حـسبي مِـن جميـع الـورَى ونِعـمَ الوكيـلُ

---

(١) نفسه: ٣/ ٣٦٤.

(٢) جنة الرضا: ٢/ ٢٠٣.

ومن الشعراء الأندلسيين من تعرَّضَ لعقوبة الاعتقال خارج وطنه الأندلس كأبي الصلت أمية بن عبد العزيز الداني الحكيم الذي اعتقله الأفضل خلال إقامته بمصر بسبب سعايات حاسديه وأعدائه، ثمّ فشله في انتشال مركبٍ من الغرق في ماء الإسكندرية بعد تكبيد الدولة مبالغ كبيرة من المال، فكان ذلك السبب المباشر في اعتقاله، فكتبَ إلى الأفضل وهو رهن الاعتقال يستعطفه بعد أن يئس من الخلاص، ويمهد لذلك بذكر ما أصابه من الويل، وقد أصبح كل طعمٍ لديه مرّاً وهو يُعاني من حبسٍ لم يتوقَّع أنه سيطول[1]:

إني سُقيتُ من الخطوب سلافةً ... جعل السقاةُ مزاجها من حنظلِ
كأس ثملتُ بها فملتُ وإنما ... دحضت بها قدمي من الشرف العلي
فاحلب بضبعي منقذي من هوةٍ ... أصبحتُ منها في الحضيض الأسفلِ
وامددْ إليَّ يدَ المُغيث فكمْ يدٍ ... لكَ أَنقذتْ من كل خطبٍ معضلِ[2]

وإذْ هو يطلب الإغاثة ومدّ يد المنقذ فلأنه أدرك بأنَّ الموتَ مُحدقٌ به لا محالة، وبذلك اشتدت بلواه وعظمتْ مصيبتُه التي ليس لها آخر:

إني دعوتك حين أجحفَ بي الردى ... فأغثْ فإني منه تحتَ الكلكلِ
فإليكَ مفزع كل عانٍ خائفٍ ... ولديك فرجة كل بابٍ مُقفلِ
قد طالت الشكوى وأقصر وقتها ... مُؤْد بكلّ تصبُّرٍ وتجمُّلِ
واشتدت البلوى وأنتَ لِرفعها ... فأجبْ فإني قد دعوتُكَ يا علي
عمرٌ يمرُّ وكربةٌ ما تنقضي ... أبدَ الزمان وغمّةٌ لا تنجلي
وزمان سخط ما له من آخرٍ ... ورجاء عفوٍ ما له من أوّلِ

(١) أنظر في ذلك مقدمة ديوانه ص ١٧ وما بعدها.

(٢) ديوانه: ص١٣٥.

كم ذا التغافل عن وليّكَ وحدهُ … والأمرُ يخرجُ دون كلّ مؤمّلِ
وعلام يهملُ أمره ويُضيعُه … مَن ليسَ للصنعِ الجميلِ بِمُهملِ

ويختتم قصيدته في الطلب الصريح من ممدوحه أن يخلِّصَه مما هو فيه، فإذا فعل فإنه سوف يُمطره بقصائد الثناء والمديح:

قمْ في خلاصي واصطنعني تصطنعْ … رطبَ اللسانِ مدير باعٍ المقولِ
يُثني عليكَ بما صنعتَ وربما … كرم الثناء فذمّ عرف المبذلِ

٦- **الكوارث الطبيعية:**

تعرضَ نفرٌ من الشعراء الأندلسيين إلى تجربة الموت من خلال كوارث طبيعية مفاجئة تباغتهم فيعيشونها ويصفونها ويتعرضون إلى ما أصابهم خلالها من ذعرٍ كان كافياً لإحساسهم بدنو الموت منهم، وهي غالباً ما تكون في بطون السفن وفي أعاريض البحار، بل إننا لم نعثرْ، من الكوارث الطبيعية، على غير البحر باعثاً على رثاء النفس، فيما تتبعنا من الشعر الأندلسي.

ومن تلك التجارب تجربة يحيى بن الحكم الغزال، حيثُ قاسى الهلعَ من أمواج البحر، وعاشَ مواجهةً حقيقيةً مع الموت، ووصف ذلك في حوارٍ أجراه بينه وبين يحيى، أي بينه وبين نفسه، حيثُ تعالت الأمواجُ كأنها الجبالُ تحتَ تأثير الرياح التي أخذتْ تهبُّ بشدةٍ من كل اتجاه، حتَّى حطَّمت المركبَ وما تركَّبَ منه من دعائمَ حديدية:

قال لي يحيى وصرنا … بين موجٍ كالجبالِ
وتولَّتْنا رياحٌ … مِن دبورٍ وشمالِ
شقَّت القلْعَينِ وانبتَّت … عُرى تلك الحِبالِ[1]

---

(١) ديوانه: ص١٠٠.

ولمْ يتسنَّ له بعدَ ذلك إلاّ أنْ يرى الموتَ رؤية العين:

وتمطَّـــى مَلِـــكُ الـــموتِ إلـــيْنا عـــنْ حِـــيالِ
فرأينـــا المـــوتَ رأيَ العيـــنِ حـــالاً بعـــدَ حـــالِ
لمْ يكـــنْ للقـــومِ فيـــنا يـــا رفيقـــي رأسُ مـــالِ!

وهو في ذلك يعبر عن حالةٍ حقيقية من حالات مواجهة بالموت، إذْ يتوجَّه المرءُ في مثل هذه الحال إلى مخاطبة نفسه، إنْ لم يجدْ مَنْ هو جديرٌ بالمخاطبة، أو مَنْ هو قريبٌ إلى نفسه.

وممن خاض في هذه التجربة وعاناها ابن درَّاج القَسطلّي، ووصفها في قصيدته التي مدح بها الخليفة خيران العامري في متوجهه إليه وهو في سرقسطة، عبر البحر، وهو في ذلك ينحو منحى الشعراء الجاهليين في وصف الرحلة إلى الممدوح، وما كان الشاعر قد تكبَّدَه من مخاطر ومهالِك خلالها، ولكن الأمر لدى القسطلّي يُشاكل الواقع من حيثُ أن رحلة الشاعر هنا عبرَ البحر في الأندلس، لا عبر الصحراء في الجزيرة العربية، ولهذا السبب فإن ما في قصيدته من توصيفٍ للرحلة يدخل في باب التجديد، ويكتنفُه صِدْق فنّي واضح، وإنْ كان الأمرُ في شكله العام يبدو وكأنه إرساء لتقاليد شعرية عريقة، خاصةً وأنَّ الشاعر يُشبّه أمواجَ البحر بجبلين مشهورين من جبال الجزيرة العربية ولم يشبّه هذه الأمواج بجبال الأندلس وهي كثيرة تصعب على العدّ ومنها ما هو مشهور، وهذا ما سنتحدَّثُ عنه في موضعٍ آخر من هذا الكتاب.

وإذْ هو يخاطب الخليفة مادحاً فإنه سرعانَ ما ينتقل إلى وصف الرحلة ومعاناته خلالها، ففي البيت الثالث من القصيدة يصف لممدوحه السفن التي سارتْ إليه، وهو في واحدةٍ منها طبعاً، وكيفَ أنها بدتْ وهي في لجج البحر الهائج وكأنها غربانٌ ذعرها حلول المغرب، فاضطربتْ حركتها في السماء، أما تلك اللجج فإنها ترتفعُ كأنها الجبالُ إذا هبت الرياح:

إليكَ شـحنَّا الفُلْـكَ تهـوي كأنهـا وقد ذُعرتْ من مَغرب الشمس غُربانُ

على لُججٍ خُضْرٍ إذا هبَّتْ الصبا   تـرامَى بـنا فيهـا ثبيـرٌ وثَهـلانُ[1]

ويسترسل في رسم بقية أجزاء الصورة-المأساة، حيثُ يجزعُ أهله الذين في معيته، ويبدو أنهم من النسوة فقط، وقد أسندَ إليهنَّ الرثاء، جزعاً شديداً فتشتعل هواجسُهنَّ ناراً، ولكنها نارٌ تزيدُ الليلَ ظلاماً، في مثل هذه الحال، فإذا قلَّ فيضُ الماء وهبطت اللجج يجدنَ مُتَّسعاً من القدرة على البكاء بأعينٍ ملؤها الحزن واليأس من الحياة، وإذا سكنت الرياح وهدأت السفينة يهدأُ رَوعُهنَّ، ويجِدنَ مُتَّسعاً من الوقتِ لِتذكُّر الأحبة والحنين إليهم، فربما لن يفوز بلقائهم فيما بعد:

وفي طيِّ أسمـال الغريـب غرائـبٌ   سَكنَّ شغافَ القلـب شيبٌ وولـدانُ
يُردِّدْنَ في الأحشاء حرّ مصائبٍ   تزيـدُ ظلامـاً ليـلَها وهـيَ نـيرانُ
إذا غِيْضَ ماءُ البحرِ منها مَدَدْنَهُ   بـدمع عيـونٍ تمـتريهنَّ أشجـانُ
وإنْ سكنتْ عنها الرياحُ جرَى بها   زفـيرُ إلى ذكـرِ الأحبَّـة حَنَّـانُ

ولابدَّ للمرء وهو يُكابد مثل هذه التجربة القاسية في مواجهة الموت وفي لجة البحر أنْ يتساءل فيما لو ينجو وتُكتبُ له حياةٌ أخرى في الدنيا، أم سيكون البحر قبراً له ومياهُهُ أكفاناً:

يقلنَ وموجُ البحر والهمُّ والدجى   تَـموجُ بنـا فيهـا عيـونٌ وآذانُ
ألا هلْ إلى الدنيا مَعادٌ وهـلْ لنـا   سوى البحر قبرٌ أو سوى الماء أكفانُ

ثمَّ يسلِّمُ على أحبته وأصحابه، كغيره ممن سبقه من الشعراء كما رأينا، وكأنه يودِّعهم توديعاً نهائياً، ويدعو بالسّقيِ للدهر-الزمن الذي عاشَ فيه، ثمَّ غادَرَهُ:

سلامٌ على الأحبابِ تسليمَ يائسٍ   وسـقياً لِـدهرٍ كـانَ لـي فيـهِ إخـوانُ

هؤلاء الأحبّة الذين استخلفوه لجِجَ البحر لِيموتَ فيها موتاً مُحققاً:

هُمُ استخلفوا الأحبابَ أمواجَ لجّةٍ   هيَ الموتُ أو في الموتِ عنهنَّ سلوانُ[2]

وبالجملة لم يكن هذا النوع من رثاء النفس مما كثر القول فيه من قبل الشعراء الأندلسيين.

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ١/ ٥٧، وثبير وثهلان جبلان في الجزيرة.

(٢) الذخيرة: ١/ ٥٨.



الاتجاه الثاني: الدين

وقد بدا لنا هذا الاتجاه موزَّعاً على البواعث الآتي ذكرها:

١- الكتابة على القبر:

دأب كثير من الشعراء الأندلسيين على طلب الكتابة على شواهد قبورهم، بعدَ الموت، نصوصاً شعرية من نظمهم، وقد ينظمون هذه النصوص عند شعورهم بحضور الموت، أو عند يأسهم من الدنيا وزهدهم فيها، وإيمانهم بأنهم مقبلون على الموت في أية ساعة، وأنه لابدَّ مُدركهم ، بحسب ما جاء في القرآن الكريم وفي السُّنّة النبوية، وهو تقرير حال يحياها الناس على مر الحياة ودورانها.

وهم هنا ينظمون هذه النصوص لِتلبّي غرضاً من أغراضهم، ومن أجل هذه الأغراض، اتجه الشعراء في رثائهم أنفسَهم من خلال الكتابة على القبور أربعة اتجاهات رئيسة، اتجاه يتصلونَ من خلاله بالله ويرجون مغفرته وهم متوجّهون إليه، وثانٍ يرجونَ به دُعاءَ الناس ممن يمرُّون بقبورهم، وثالث يحاولون من خلاله قَطْعَ دابر الشماتةِ وتشفّي الآخرينَ بهم لأجل أنهم ماتوا، من خلال إقرار حقيقة أنّ دائرة الموت تدور على الجميع، وأنّ أحداً، من الشامتين ومن سواهم، لن ينجو منه ولو بعدَ حين، ورابع يقصدون به إلى الحكمة والموعظة الحسنة مما له عَلقة بالموت.

أما الاتجاه الأول فينسلكُ فيه شعراء كثيرون، منهم أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الذي أوصى أن يُكتب على قبره:

سكنتُكِ يا دار الفناء مُصَدِّقاً ... بأنّي إلى دار البقاء أصيرُ
وأعظمُ ما في الأمر أنيَ صائرٌ ... إلى عادلٍ في الحكمِ ليس يجورُ
فيا ليت شعري كيف ألقاهُ عندها ... وزادي قليلٌ والذنوبُ كثيرٌ ؟
فإنْ أكُ مَجزيّاً بِذنبي فإنني ... بشرِّ عِقابِ المذنبينَ جَديرُ
وإنْ يَكُ عفوٌ منهُ عنّي ورحمةٌ ... فَثَمَّ نَعيمٌ دائمٌ وسرورُ[1]

---

(١) ديوانه: ص ٨٧.

ويؤكّد أبو بكر بن مغاور ثقته وحُسْن ظنه برحمة ربه وبكرمه، مُحاولاً بذلك، وقد دهمه الموت وأصبحتْ عظامه رميماً، أن يُطمئنَ نفسه وأهله وأصحابه بأنه مقبلٌ على رب كريم يعفو عن ذنوب مَن يستغفره:

أيها الواقف اعتباراً بقبري ... استمعْ فيه قولَ عظمي الرميمِ
أودعوني بطنَ الترابِ وخافوا ... مِن ذنوبٍ كلومُها بأديمي
قلتُ لا تجزعوا عليَّ فإنّي ... حَسَنُ الظنِّ بالرؤوف الرحيمِ
ودَعُوني بما اكتسبتُ رهيناً ... غلقَ الرهن عندَ مولىً كريمِ[1]

والى هذا المعنى ذهب أبو الحجاج المنصفي في قوله:

قالت ليَ النفسُ: أتاكَ الردَى ... وأنتَ في بحر الخطايا مُقيمْ
هلاّ ادَّخرتَ الزادَ قلتُ: اقصري ... لا يُحمَلُ الزادُ لِدار الكريمْ[2]

أما ابن شهيد فيستذكر أيامَ سروره ولهوِهِ في الدنيا وغفلتِه عن هذا المصير المحتوم- الموت، ثمَّ يخافُ ألاّ تشمله رحمةُ الله، ولذلك فهو يدعوه المغفرة والرحمة ويعترفُ بتقصيره، من خلال هذا الحوار:

يا صاحبي قُمْ فقدْ أطلنا ... أنحنُ طولَ المدَى هجودُ
فقال لي: لنْ نقومَ منهاَ ... ما دامَ مِنْ فوقنا الصعيدُ
تذكُرُ كم ليلةٍ نَعِمنا ... في ظلِّها والزمانُ عيدُ
وكم سرورٍ هَمَى علينا ... سَحابةً ثَرَّةً تَجودُ
كلٌّ - كأنْ لم يكنْ- تقَضَّى ... وشُؤمُه حاضرٌ عَتيدُ

---

(١) نفح الطيب: ٤/ ٣٤٢.

(٢) نفح الطيب: ٣/ ٥٩٥.

حَـــصَّلَهُ كـــاتبٌ حَـفيـــظٌ وضـــمَّهُ صـــادقٌ شَـهيـــدُ
يـــا ويلَنـــا إنْ تَنَكَّبَتْـــنا رحمـــةُ مَـــنْ بَطـــشُهُ شديـــدُ
يـــا ربِّ عفـــواً فأنـــتَ مَـــولى قَـــصَّرَ في شُـــكركَ العبيـــدُ[١]

ويدخلُ المعتمد بن عباد في رهط هؤلاء الشعراء وفي هذا الاتجاه ، حيثُ يدعو بالسقيا لقبرِهِ من خلال مناجاته، ويعجبُ من أنَّ الموتَ لحقَ به، ثمَّ ضَمَّ أشلاءه قبر، وهو مَنْ هوَ حيثُ الحِلْم والعِلْم والنعمى والكرَم والمجد والشجاعة والإقدام والانتقام والعطاء والضياء والتصدُّر، وكأنَّ مَنْ يكونُ بمنزلتهِ لا يجبُ أنْ يُدركه الموت، فَهو الموتُ نفسُهُ، أفليس هو مَنْ يُلحقُ الموتَ الأحمرَ بالآخرينَ أيامَ مجدِهِ؟:

قـبرَ الغريبِ سقاكَ الرائحُ الغادي حــقّاً ظــفرتَ بِأشــلاء ابــن عــبّادِ
بالحِلمِ، بالعلمِ، بـالنعمى إذ اتّـصلتْ بِالخصْبِ إنْ أجدبوا، بـالريّ للـصادي
بالطاعنِ، الضاربِ، الرامي إذا اقتتلوا بـالموتِ أحمـرَ، بالـضرغامةِ الـسعادي
بالدهرِ في نِـقَمٍ، بـالبحرِ في نِـعَمٍ بالبدر في ظُـلَمٍ، بالـصدْرِ في النـادي[٢]

ثم يرجعُ فيتذكَّر أنَّ ما حلَّ به هو الموتُ-الحق، وهو الأجَلُ المحتوم الذي جعَلَ الجبلَ- ابن عباد يُحمَلُ على أعوادٍ عي النعش:

نَعَمْ هو النعشُ وافانـي بـه قَـدَرٌ مِـن الـسماء، فوافانـي لِـميعادِ
ولَمْ أكنْ قبـلَ ذاك الـنعش أعلمـهُ أنَّ الجبـالَ تَهَـادَى فـوقَ أعـوادِ

ويستمرُّ في مخاطبة هذا النعش راجياً منه أن يرفقَ به وقد اشتملَ عليه وغيَّبَ كَرمَه، وداعياً له بالسقيا من مَطَرٍ طالما أشبهَهُ، فهو أخوهُ بالعطاء. وهو لا ينسى الروضَ حتّى في

(١) ديوانه: ص٦٧.
(٢) ديوانه: ص٩٦.

هذا الموقف القاسي، وهو الأديبُ الشاعر صاحب الذوق الرفيع، فيستسقي لِقبره الطَّلَّ مِن عيون الأزاهير التي لم تبخلْ يوماً بإسعاده وإسعاد الآخرين، وما أجدره الآن بمثل هذا الإسعاد:

َفاكَ، فارفقْ بما استُودعتَ مِنْ كَرَمٍ ... روَّاكَ كـلُّ قَطـوبِ الـبرق رَعَّـادِ
يبكي أخاهُ الـذي غَيَّـبْتَ وابِـلَـهُ ... تَـحتَ الـصفيح، بِـدمعٍ رائـحٍ غـادِ
حتَّى يجودَك دمعُ الطـلِّ مُنـهمراً ... مْـنْ أعْـين الزهـرِ لم يبخـلْ بإسـعادِ

ويختم خطابه لهذا القبرِ بالدعاء من الله أنْ يسبغَ على دَفينه، ويعني نفسه، رحمةً دائمة ليس لها عَدّ.

ويمثل الاتجاه الثاني أبو إسحاق ابن خفاجة الذي يرجو كل مَن يمرُّ بقبره أنْ يرثي ويتألَّمَ لحاله، ويسلّم عليه ويترحَّم، وهو يطلبُ، ممن يعرفهم في الأقل، أنْ يؤدّوا واجب الوفاء له مِن خلال ذلك:

خليلـيَّ هـل مِـن وقـفةٍ بتـألُّمِ ... علـى جَـدَثي أو نظـرةٍ بترحُّـمِ
خليليَّ هل بعـدَ الردى مِـن ثنيّـةٍ ... وهـل بعـدَ بطـن الأرضِ دار مخيِّمِ؟
وإنّـا حَيينـا أو رَدينـا لَـإخوةٍ ... فمَـنْ مـرَّ بـي مِـنْ مُـسلمٍ فَـلْيُسلّمِ
ومـاذا عليـه أنْ يقـولَ مُحيّـياً ... ألا عِـمْ صـباحاً أو يقـول ألا اسـلمي
وفـاءً لِأشـلاءٍ كَـرُمْنَ علـى البِلَـى ... فعـاجَ عليهـا مـن رُفـاتٍ وأعظُـمِ
يُـردّدْنَ طَـوراً آهـةَ الحُـزنِ عندَها ... ويـذرفُ طـوراً دمعـةَ الـمُترَحِّمِ(١)

وإلى هذا المعنى نفسه يذهب ابن الزقاق البلنسي في رثائه لنفسه، حيثُ يذكر تفريق الموت لِشمله وأصحابه وإخوانه، ويخاطبهم بعدَ الموت ويقول لهم بأنهم جميعاً لاحقون

---

(١) تحفة القادم: ص ٢٤-٥.

به، ويؤكّد أن عيشُهم كان رائقاً صافياً قبل الموت، من خلال أسلوب الاستحلاف، ثمّ يطلب من كل مَنْ يمرُّ بِقبره أنْ يترحَّم عليه وفاءً له:

أَإخوانَنا والموتُ قد حالَ بيننا ... وللموتِ حُكمٌ نافذ في الخلائقِ
سبقْتُكمُ للموتِ والعُمرُ طيَّةٌ ... وأعلمُ أنَّ الكُلَّ لا بُدَّ لاحقي
بِعيشكمُ أو باضطجاعيَ في الثرى ... أَلَمْ نكُ في صَفوٍ مِن العيشِ رائقِ
فَمَنْ مرَّ بي فَلْيمضِ بي مُتَرَحّماً ... ولا يَكُ مَنسيَّاً وفاءُ الأصادقِ(١)

وقد حرصَ أبو بكر ابن أبي العافية الكتندي على ألاّ يموت غريباً دونَ أنْ يفوز بالتسليم والترحم عليه من قبل كل مَن يمر بقبره، بعد أن جدَّ في طلب الرحلة متوكلاً على الله:

حَيٍّ قبراً بالبقيعِ حوى ... ذا اغترابٍ حطَّ أرحُلَهُ
جَدَّ في تسيارِهِ وجرى ... طَلِقاً ما شاء طَوَّلَهُ
فهو قد ألقَى عصاهُ ولَمْ ... يَدَّخِرْ إلاّ تَوكُّلَهُ(٢)

أما الشاعر الغرناطي ابن باق فقد طمعَ بالأمرين معاً، أعني رجاء غفران الله تعالَى، ورجاء دُعاء الناس له بذلك، مُعترفاً بالتقصير في طاعة الله مع صدق إيمانه به وحب رسوله الكريم، ومستشفعاً بأوليائه الصالحين، فقد "أوصى بعدَ أنْ يُحفَرَ قبرُهُ بينَ شيخيهِ الخطيبين أبي عبد الله الطنجالي وأبي عثمان ابن عيسى أنْ يُدفَنَ به، وأنْ يُكتَبَ على قبره هذه الأبيات":

ترحَّمْ على قبرِ ابن باقٍ وحَيِّهِ ... فَمِنْ حقّ مَيْتِ الحَيِّ تسليم حيِّهِ

---

(١) ديوانه: ص ٢٠٥.

(٢) أدباء مالقة: ص ٨٩.

وقلْ آمنَ الرحمانُ روعةَ خائفٍ ... لِتفريطِه في الواجباتِ وغيِّهِ

قد اختارَ هذا القبرَ في الأرضِ راجياً ... مِن الله تخفيفاً بِقَدْرِ وليِّهِ

فقد يشفعُ الجارُ الكريم لِجارهِ ... ويشملُ بالمعروفِ أهلَ نديِّهِ

وإني بفضل الله أوثقُ واثقٍ ... وحسبي وإنْ أذنبتُ حُبُّ نبيِّهِ(1)

أما علي بن أبي جعفر بن همشك فقد عبَّرَ عن معنىً طريفٍ مفادُهُ أنه لم يكن يريد قبراً لجسمهِ الذي لن يبقى بعدَ الموت، إذ يستحيل تراباً، ولكنَّه رجا من ورائه دعاء الأبرار له عندَ المرور به:

لَعمْركَ ما أردتُ بقاءَ قبري ... وجسمي فيه ليسَ له بقاءُ

ولكنّي رجوتُ وقوفَ بَرٍّ ... على قبري فينفعني الدعاءُ(2)

ويحاول الشاعر الشِّلْبي أبو بكر محمد بن إبراهيم العامري النحوي، في ثالث الاتجاهات، أنْ يدحضَ سرورَ أعدائه ومُبغضيه بموته، من خلال إقرار حقيقة أنّ جميع مَن في الأرض، وعلى مختلف الأزمنة قد ماتَ قبلَه، بدءاً بآدمَ عليه السلام ومحمد (ص) من الأنبياء، ثم الملوكُ والأعيان من بني البشر العاديين، وأنَّ الجميعَ، لهذا السبب سيموتون بما فيهم الشامتون أنفسهم -طبعاً-، فعلامَ السرور إذن؟:

لئنْ نفَذَ القَدرُ السابقُ ... بموتي كما حكمَ الخالِقُ

فقدْ ماتَ والِدُنا آدمٌ ... وماتَ محمدٌ الصادقُ

وماتَ الملوكُ وأشياعُهم ... ولمْ يبْقَ مِن جَمْعِهم ناطقُ

فقُلْ للذي سرَّهُ مَهْلكي ... تأهَّبْ فإنكَ بي لاحقُ(3)

---

(1) نفح الطيب: ٦/ ٢٦٥.

(2) الروض المعطار في خبر الأقطار: ص ٣٤٩.

(3) تحفة القادم: ص٢٤.

ويعودُ ابن الزقاق البلنسي ليرثيَ نفسه مرةً أخرى، ولكن في هذا الغرض، فيردّ على أعدائه الشامتين بموته كما فعل العامري النحوي، ولكنه يزيدُ عليه تفضيله الموت حيثُ الإقامة لدى الخالق سُبحانه وتعالَى، على الحياة حيثُ الإقامة بين الناس:

ألا يا واقفاً بي عندَ قبري | سلِ الأجداثَ عن صرف الليالي
وعن حالي فإنْ عيّتْ جواباً | فعبرتُها تُجيبُ عن السؤالِ
لئنْ شمتَ العدوُّ بنا فمهلاً | سيُنقَلُ للصفائح كانتقالي
وأيّ شماتةٍ في تركِ دنيا | لِذي أملٍ رأى عنها ارتحالي
وكنتُ أُقيمُ بين الناسِ فيها | فسرتُ إلى المهيمِنِ ذي الجلالِ[1]

ويبدو أن التشفّي بالموتِ من قبل الخصوم، ويسميهم الشعراءُ بـ"الأعداءَ"، كان مما هو سائد مألوفٌ في أخلاق الأندلسيين، فهذا أحمد بن إبراهيم بن صفوان، وهو شيخ عالم ومؤلفٌ وفقيهٌ ومتدينٌ ومتصوّف ومتفلسف وأديب يتَشَفّى بموتِ قاضي بَلدِهِ أبي عمرو ابن منظور وكانت بينهما "مقاطعة انبرى بها إلى مطالبته بما دعاه إلى التحوّل مضطراً إلى غرناطة"[2]، ولم يكظمْ هذا التشفّي، بلْ نظم فيه قصيدة يهجوه فيها وينسبُ إليه الفواحش مما له علقةٌ بشخصه وبعملِهِ في القضاء، ويتوقّعُ، بلْ يتمنّى له الحسابَ العسير في القبر وفي الآخرة، على وفق الحق الإلهي، لا كما كان هو يراه أيامَ كان قاضياً، حيثُ لا رشوة ولا شهادة زورٍ ولا مكر ولا غشّ ولا خداع:

تردّى ابنُ منظورٍ وحُمَّ حماهُ | وأسلَمَه حامٌ له ونصيرُ
تبَرَّأَ منه أولياءُ غرورهِ | ولمْ يَقِهِ بأسَ المَنونِ ظهيرُ

---

(١) ديوانه: ص ٢٤٧-٨.
(٢) الإحاطة: ١/ ٢٣٩.

وأَودَعَ بعـدَ الأُنـس مُـوحشَ بَلقـعٍ ... فَـحَيَّاهُ فيهـا مُنكَـرٌ ونكـيرُ
ولا رِشـوةٌ يُـدلي القبـولُ رشـادَها ... فيُنسَخَ بالسيرِ المُـريحِ عـسيرُ
ولا شـاهدٌ تَقـضي لـه عـن شـهادةٍ ... تَخَـلَّـلها إفـكٌ يُـصاغُ وزُورُ
ولا خُدعـةٌ تُجـدي ولا مَكْـرَ نـافعٌ ... ولا غـشَّ مطـويٌّ عليـهِ ضميـرُ
ولكنـه حَـقٌّ يـصولُ وبـاطلٌ ... يحـولُ ومَثـوَى جنّـةٍ وسعيـرُ(1)

ثمَّ هو يعترفُ بأنَّ مصيرَ كلِّ إنسانٍ الموت، وأنَّ الجميع ملاقونَ ربَّ العباد لا محالة، ولكنه يعود فيؤكِّد أنَّ موتَ الأعداء قبلاً، ولو بوقتٍ قصير، يعودُ على القلبِ بسرورٍ غامر، فموتُهم يضمن الأمْنَ وعدم الخوف منهم، في الأقل:

وقالوا قضاء الموت حَتمٌ على الورى ... يُـديرُ صغـيرٌ كأسَـه وكبـيرُ
فلا تَنتسِمْ ريحَ ارتياحٍ لِفقدهِ ... فإنـكَ عـن قـصدِ الـسبيلِ تـحورُ
فقلتُ بلَى حُكمُ المنيَّـة شامـلٌ ... وكـلٌّ إلى ربِّ العبـادِ يَـصيرُ
ولكنَّ تقديمَ الأعـادي إلى الـردَى ... نـشاطٌ يعـودُ القلـبَ منـه سـرورُ
وأمْـنٌ ينـامُ المـرءُ في بـرد ظلّـهِ ... ولا حـيَّةٌ للحقـدِ ثَـمَّ تـثورُ

ويحاولُ الشاعر أن يبرهن على صحة مذهبه هذا من خلال الاستشهاد ببيت شعرٍ قديم مشهور يتناول هذا المعنَى ويُضمِّنه قصيدته:

وحَسبيَ بيتٌ قاله شاعرٌ مضى ... غـدا مـثلاً في العالمـينَ يـسيرُ
"وإنَّ بقـاءَ المـرءِ بعـدَ عـدوّهِ ... ولـو ساعةً مِن عُمرهِ لَـكثيرُ"

---

(1) الإحاطة: 1/ 239-240.

أما أبو بكر ابن زهر الحفيد الطبيب فيرثي نفسه ويطلبُ أن يُكتبَ رثاؤه على قبره، وهو يندرجُ في إطار العظة والحكمة، ضمن الاتجاه الرابع من هذه الاتجاهات، فيعرض على الواقف على قبره مفارقة الموت والحياة، وهي مفارقةٌ تتعلّقُ بكينونته إنساناً يعيشُ على الأرض حيناً ثمَّ يُدفَنُ تحتَ ترابها، وتتعلقُ بمهنته طبيباً يُداوي مَرضاهُ حَذَرَ الموت، ولكنه لا يجدُ بُدّاً من الموت إنْ عاجلاً أو آجلاً، بلْ لقد تصوَّرَ أبو العلاء نفسه قد مات فعلاً، ورأى أنّ من الحكمة أنْ يعظَ الآخرين بأن الموت قَدرٌ لا مفرَّ منه، فليلتفتوا إليه قبلَ الفَوت:

تـرحَّمْ بفـضلكَ يـا واقـفاً ... وأبـصرْ مكانـاً دُفِعنـا إليـهْ

تـرابُ الـضريح علـى صفحتي ... كـأنيَ لمْ أمـشِ يومـاً عليـهْ

أُداوي الأنـامَ حـذارَ المَنـونِ ... فهـا أنـا قـد صـرتُ رهنـاً لديـهْ(١)

أما أحمد بن أيوب اللمائي فينصّ على نوعٍ آخر من المفارقة تتعلَّقُ بما يمكنُ للإنسان في حياته من البناء والتشييد، ثم لا يحصلُ بعد الموت على غير مكانٍ صغير يصفه اللمائي "ما بينَ الذراع إلى الشبر"، وهو القبر، فما العبرة، إذن، من فخامة البناء وسعة التشييد والدهر غير غافلٍ، وعلى الإنسان ألاّ يُحسنَ الظنَّ به، وألاّ يغفل أيضاً عن الالتفات إلى آخرته قبل أن يُفاجئه هذا المصير:

بَنيتُ ولم أسكنْ وحصَّنتُ جاهداً ... فلمّـا أتـى المقـدورُ صَـيَّرَهُ قَـبري

ولم يكُ حظِّي غيرَ ما أنتَ مُبصرٌ ... بعينيـكَ مـا بـين الـذراع إلى الـشبرِ

فيا زائراً قـبري أُوَصِّيكَ جاهـداً ... عليـكَ بتقـوى الله في الـسرِّ والجهْـر

فـلا تُحْسننْ بالدهـرِ ظنّـاً فـإنما ... مِـن الـحَزْمِ ألاّ يُـستنامَ إلى الـدهرِ(٢)

---

(١) التكملة لكتاب الصلة: ص ٢٦٨-٩، والنص فيه منسوب إلى أبي العلاء ابن زهر، والوافي بالوفيات: ٤/ ٤٠، ونفح الطيب: ٣/ ٤٣٤ ، وهناكَ اختلاف في هذه المصادر في بعض مفردات النص.

(٢) الإحاطة: ١/ ٢٤٣، وفيه في البيت الثاني: "ولم يكنْ حظي..."، ولا يستقيم معه الوزن.

ولا أشكُّ في أنَّ حرصَ الشعراء على كتابة نصوص الرثاء بالشعر على قبورهم يُرَدُّ إلى حُبِّهم لِذواتهم، واعتزازهم بِأنفسهم، وهو اعتزازٌ بالحياة، في آنٍ. إنهم في ذلك يعبرون عن رفضٍ خفيٍّ وغير مباشرٍ لِمغادرتها، وبالتالي فهم يعبرون رغبتهم في البقاء على الأرض، وبين الناس، على هذه الصورة بعدَ أن أصبحوا تحتها في الصورة المعروفة من الزوال والامّحاء المادي... إنه رغبةٌ في تحقيق الخلود في هذه الصورة المعنوية... صورة الذكر الحسَن، خاصة وإنهم يقدِّرون ما للشعر من أثرٍ سِحريٍّ في النفوس، ومن قدرةٍ على البقاء والتداول عبر الأزمنة أكثر مما لِلنثر في هذين الأمرين، فضلاً عمّا تقدَّمَ مِن أسبابٍ أخرى لِهذا الحرص.

٢- التوبة والاستغفار:

إنَّ أغلبَ الشعراء الأندلسيين يتَّجهون إلى إعلان التوبة والاستغفار في رثائهم لأنفسهم، ولاسيما عندما يبلغ بهم العمر مدىً معيناً هو غالباً بعد انقضاء مرحلة الشباب والكهولة، وأحياناً عندَ ذلك أو قبلَه، كما رأينا في هذا الفصل، ولهذا السبب وقفنا على مجموعةٍ كبيرةٍ من النصوص الشعرية التي يقفُ هذا الباعث وراءها، لمجموعة كبيرة من الشعراء.

من هؤلاء الشعراء أبو الوليد بن الفرضي الذي يشعر بملاقاة الله سبحان وتعالَى، ويعترفُ له بخطاياه الكثيرة في وجلٍ وخوفٍ شديدين، ويدعوه، ولا أحدَ سواه يستحقُّ الدعاء والرجاء، ألاّ يخيّب ظنه في مغفرته يوم الحساب، يومَ تُنشَرُ الصحف:

أسيرُ الخطايا عندَ بابكَ واقفُ ... على وجلٍ مما بهِ أنتَ عارفُ
يخافُ ذنوباً لم يغبْ عنكَ غيبُها ... ويرجوكَ فيها، فهو راجٍ وخائفُ
ومَن ذا الذي يرجو سواك ويتّقي؟ ... ومالك في فصل القضاء مُخالفُ
فيا سيدي، لا تُخزِني في صحيفتي ... إذا نُشرتْ يومَ الحساب الصحائفُ[1]

---

(١) وفيات الأعيان: ١/ ٤٧٩، ونفح الطيب: ٢/ ١٢٩.

بلْ إنه يرجوه المغفرة قبل ذلك، حيثُ القبر وظلمته التي لا تُطاقُ، إذْ ليس هنالك مِن قريبٍ ولا مؤانس، فما الذي سيحل به إذا لم يفزْ بها؟:

وكُنْ مؤنسي في ظلمة القبر عندما ... يصدُّ ذوو القربَى ويجفو المؤالفُ
لئنْ ضاقَ عني عفوكَ الواسع الذي ... أُرجّي لإسرافي فإنّي لَتالفُ

ويصفُ القاضي أبو الوليد ابن الباجي حياتَه، وكيف قضّاها في لهوٍ وعبثٍ غيرَ آبهٍ لما وعدَ الله به عباده المؤمنين الصاحين، ولا لوعيدهِ لأولئك الضالين عن طريق الهداية والرشاد، حتى إذا ما بلغ من العمر عتيّاً رجعَ فأسفَ على ما اقترفه من ذلك الغيّ أشدَّ الأسف، وقد زهدَ في الدنيا بعد أنْ تنكَّرتْ له، وقد فاتَ الأوان، وكانَ قد أمكنه الزهدُ من قبلُ فلم يفعلْ، وهو في ذلك كله يخاطب ربه سبحانه وتعالَى في تمهيدٍ منه لِطلب المغفرة:

إلهيَ قد أفنيتُ عمري بطالةً ... ولم يثنني عنها وعيدٌ ولا وعدُ
وضيَّعتُهُ ستسن عاماً أَعدُّها ... وما خير عمرٍ إنما خيرُهُ العدُّ
وقدّمتُ إخواني وأهلي فأصبحوا ... تضمُّهمُ أرضٌ ويسترهم لحدُ
وجاء نذير الشيبِ لو كنتُ سامعاً ... لِوعظِ نذيرٍ ليس مِن سمْعِه بُدُّ
تَلبَّستُ بالدنيا فلما تنكَّرتْ ... تمنيتُ زُهداً حين لا يمكنُ الزهدُ
وتابعتُ نفسي في هواها وغيِّها ... وأعرضتُ عن رشدي وقد أمكنَ الرشدُ
وأجهدتُها في نيلِ دنيا فلمْ أرَحْ ... وكم أسفٍ قد جرَّه ذلك الجهدُ
ولَم آتِ ما قدَّمتُه عن جهالةٍ ... فيمكنني عُذرٌ ولا يمكنُ الجحدُ (١)

(١) الغُنية: ص ١٥٤.

وهو يشعر الآن أنَّ الموتَ يُراودهُ، ولذلك فهو لا يملكُ من الوقت متَّسعاً لِيفعلَ ما يمكنه به أنْ يتقرَّبَ إلى الله، ويفوز بالجنَّة عاقبة المتقين، ولا مخلصَ له من نار الجحيم، ولم يبقَ بين يديه إلاّ أنْ يطلبَ العفو والمغفرة منه وهو الغفور الرحيم، ويبادر إلى الإعداد للآخرة في ما بقي له من الزمن الذي هو ساعةٌ واحدة ليس غير:

وها أنا مِن ورد الحِمامِ على مدى ... أُراقبُ أنْ أُمسي لديه وأنْ أغدو
وقد فاتني الإعدادُ بالعمل الذي ... بهِ كان يُرجَى القربُ والفوزُ والخُلدُ
وبُعديَ عن نار الجحيم وحرِّها ... وأنَّى لِمثلي عن لظَى حرِّها بُعدُ
ولم يبقَ لي إلاّ رجائيَ فضْلَ مَنْ ... له المُلكُ والإحسانُ والجودُ والحمدُ
يُزحزحُ بالإيمان عنّي جهنَّماً ... ويوردها مَنْ دينُه الكفرُ والجحدُ

ويتعرَّضُ ابن الباجي هو أيضاً إلى قضية الشماتة ويعدُّها ضرباً من الحقد:

ولا يشمتنْ بي كافراً كان حقدُهُ ... عليَّ لِتوحيدي فما صدَقَ الحقدُ

وواضحٌ ما طفحَ به هذا النصُّ من معانٍ دينيةٍ إسلامية لجأ إليها أيضاً أبو إسحاق القباب المؤدب وهو يُلاقي ربه ويودِّع الحياة:

يا أكرمَ الكرماء يا مَن لم يزلْ ... يُولي الجميلَ ويستر العصيانا
إنَّ الكريمَ متى ألمَّ بِداره ... ضيفٌ قَراهُ البرَّ والإحسانا
وأحلُّ دارَكَ مذنباً متذمِّماً ... فجعلْ قِرايَ العفوَ والغُفرانا
إنّي جعلتُ إلى عُلاكَ وسيلتي ... وشفيعيَ التوحيدَ والقُرآنا
أعلَى ظنوني أنَّ عفوك شاملٌ ... أهلَ الذنوبِ فلمْ تزلْ رحمانا[1]

(١) أخبار وتراجم أندلسية: ص ١٠٤.

أما أبو الحسن المرادي فقد استسلمَ لِقدره وهو يُواجه ربَّه، على يقينٍ من أنه لن يفوز بِعاقبة المتّقين، فقد اقترفَ المعاصي وهو عالِمٌ بها وبمدى قُبحها، وما ذاكَ إلاَّ سوء تدبيرٍ منه، ولذلك فإنَّ حسابه عند الله سيكون عسيراً، والحُكمُ موكولٌ به، إنْ شاءَ أنعمَ عليه برحمته، وإنْ شاءَ عذَّبه وجعله في أقبح صورة:

عِلمي يِقبح المعاصي حينَ أوثرها ... يَقضي بِأنيَ محمولٌ على قَدَرِ

لو كنتُ أملكُ نفسي أو أؤدِّبها ... ما كنتُ أطرحها في لُجَّة الغررِ

وكان في علم ربّي أنْ يُعذبني ... فلم أُشاركه في نفعي ولا ضرري

إنْ شاءَ نَعَّمني، أو شاءَ عَذَّبني ... أو شاءَ صوَّرني في أقبح الصورِ (١)

ولكنه، مع ذلك، لا يفوته أنْ أن يستغفر ربه، طمعاً في عفوه ومغفرته:

يا ربّ عفوكَ عن ذنبٍ قضيتَ به ... عَدْلاً عليَّ وهَبْ لي صَفحَ مقتدرِ

وكذلك هو حال الألبيري وقد شعر بِهجمة الموتِ، وهو مستغرقٌ في الخطايا، فأخذَ في لوم نفسه إذْ هو لم ينظرْ بعين عقله، فلو كان فعلَ ذلك لَما اقترف تلك الخطايا:

وقد سلَّ الحِمامُ عليَّ نَصلاً ... سيقتلني وإنْ شاكتْ سِلاحي

ويحملني إلى الأجداث صحبي ... إلى ضيقٍ هناكَ أو انفساحِ

فأُجزَى الخيرَ إنْ قدَّمتُ خيراً ... وشرّاً إنْ جُزيتُ على اجتراحي

وها أنا ذا على عِلمي بهذا ... بَطيءُ الشأو في سَنَن الصلاحِ

ولي شأوٌ بِميدان الخطايا ... بعيدٌ لا يُبارَى بالرياحِ

فلو أني نظرتُ بعين عقلي ... إذنْ لقطعتُ دهري بالنياحِ

---

(١) التكملة لكتاب الصلة: ٣/ ١٩٣، وأدباء مالقة: ص٢٢٧، وفيه: أبو بكر المرادي.

ولمْ أسحبْ ذيولي في التصابي ... ولمْ أطربْ بِغانيةٍ رَداحِ
وكنتُ اليومَ أوَّاباً مُنيباً ... لعلّي أنْ تفوز غداً قِداحي
إذا ما كنتُ مكبول الخطايا ... وعانِيَها فمَنْ لي بالبراح؟[1]

ثم يُعلنُ التوبة ويطلب المغفرة مِن إلهٍ لا يأس من رحمته:

فهلْ مِن توبةٍ منها نَصوحٍ ... تُطيّرني وتأخذُ لي سَراحي؟
فيا لهفي إذا جُمِعَ البرايا ... على حَرَبي لديهم وافتضاحي
ولولا أنني أرجو إلهي ... ورحمتَهُ يئستُ مِن الفلاحِ

ويتخيَّلُ أبو الطاهر التميمي نفسه وحيداً في قبره بعد الموت، حيثُ لا ظَهيرَ له ولا نَصير، وليس له، وقد أسرفَ في خطاياه، غير رحمة ربه ورضوانه:

ها أنا ذا في الترابِ وحدي ... فلا ظهيرٌ ولا نصيرُ
باللهِ هَبْ لي دُعاءَ صِدقٍ ... يَسمو به باعيَ القصيرُ
أسرفتُ يا ربّ في خطايا ... أنتَ بها عالِمٌ بَصيرُ
فامْنُنْ بِعفوٍ وجُدْ بِرُحمَى ... إليكَ يا ربّيَ المصيرُ[2]

أما أبو القاسم ابن الأبرش فإن ثقته القوية برحمة ربه جعلتْه لا يسمع إلى محاولات الآخرين لبثّ اليأس في نفسه من غفرانه لِذنبه مهما عظُمَ، فالله وحده هو الكفيلُ بذلك:

أيأسوني لمّا تعاظمَ ذنبي ... أتراهمْ هُمُ الغفورُ الرحيمُ؟
فَذروني وما تعاظمَ منه ... إنما يغفرُ العظيمَ العظيمُ[3]

---

(١) ديوانه: ص٤٩-٥٠.

(٢) المطرب: ص ٢٣٣.

(٣) نفح الطيب: ٤/ ٣١٩.



٣- التفكُّر بالموت والإعداد له:

ليس مِن أحدٍ مِن بني البشر يظنُّ الخلود في الحياة، ولكنَّ ما عند المسلمين من اعتقاد، وما ينصُّ عليه موروثُ دينهم يجعلهم يتفكَّرون بالموت دائماً، ولنقُلْ في مراحل من العمر يكون فيها التفكُّرُ بالموت مبكّراً، أو مبكراً جدّاً أحياناً، من غير أن تكون هناك علاقة بالشيخوخة أو المرض أو الإحساس بقرب الموت أو غير ذلك. إنها قضية التفكير بالآخرة وما سيكون عاقبةً للمسلم فيها. وبما أنَّ الإنسان معرَّضٌ لِلموت في أية ساعة، فإنه مُحتاجٌ إلى أن يُلاقي ربه وهو في حالٍ يرضاها، فيجزيه بما يأمله من النعيم في دار الخلود.

ومن الشعراء الأندلسيين مَن قضى شطراً طويلاً من حياته سادراً في الملذّات واقتراف الذنوب دون أن ينتبه، فإذا انتبه فإنه يحاول أنْ يستدرك ما فات، ولكنه في الواقع، يشعر وكأنه يموتُ في أية ساعة، ولذلك فإن أغلب الشعراء يستحضرون صورة الحياة الآخرة بما فيها من ثواب وعقاب، وما يتخلل ذلك من إجراءات، وتفيضُ قلوبهم أسىً وخوفاً من عاقبة ما اقترفوا لاسيما وهم غير واثقين من فسحةٍ في العمر باقيةٍ يُصلحون خلالها ما فسدَ قبل أن يلاقوا ربهم.

فهذا جمال الدين ابن الأمانة يفكّر في موته ويستحضر الحساب ويُسمِّيه "فضيحة"، حيث تنكشف صحيفة خطاياه، وذلك ما يستحقُّ منه الأسف والبكاء ولاسيما وقد فقَد كل حيلةٍ ووسيلة لِدرء ذلك، فوقَ ما تكبَّده من فرقة أهله وأحبابه وابتعاده عن وطنه، وهو ضمن مَن عدَّهم المقّري في باب "مَن رحلَ من الأندلسيين إلى بلاد المشرق"(١)، غير أنه يرجو الله الغفران وشفاعة رسوله عليه الصلاة والتسليم:

أفكّر في موتي وبعد فضيحتي ... فيحزن قلبي من عظيم خطيئتي
وتبكي دماً عيني وحُقَّ لها البكا ... على سوء أفعالي وقلة حيلتي
وقد ذابت أكبادي عناءً وحسرةً ... على بُعد أوطاني وفقْد أحبَّتي
فما ليَ إلا الله أرجوه دائماً ... ولا سيما عندَ اقتراب مَنيَّتي

---

(١) نفح الطيب: ٢/ ٥.

فنسأل ربـي في وفـاتيَ مؤمنـاً ... بِـجاه رسـول الله خـيرِ البـريَّـةِ[1]

وينتبه إبراهيم بن علي بن هردوس على حاله مِن الغواية وطول الأمل وضآلة ما بقي من عمره كما يشعر هو، مستخدماً إبهام القطاة تشبيهاً لذلك، وقد آن الأوان لِيُعدَّ العدَّة للموت، وتكذيب ذلك الأمل، فيحدّث نفسه في هذا منادياً باسمه:

أإبـراهيمَ إنَّ الـموتَ آتٍ ... وأنـتَ مـن الغوايـة في سُـباتِ
رجـاؤكَ مثل ظلِ الرمحِ طـولاً ... وعمـركَ مثـل إبـهام القطـاةِ[2]

ويزجر أبو عمران المارتلي نفسه، حيث الطمعُ في الدنيا الغفلة عن الموت والموت لا يغفل ، فهو آتٍ وشيكاً، ويتخيّل كأنه قد ماتَ وحُملَ على نعشه دونَ إمهال، ولاسيما وقد بلغ السبعين من العمر، ولكن ماذا سيكون مثواه في الآخرة بعد المكوث في القبر وبعد الحساب ؟:

إلى كـم أقـولُ ولا أفـعلُ ... وكـم ذا أحـومُ ولا أنـزلُ ؟
وأزجـرُ نفـسي فـلا ترعـوي ... وأنـصحُ نفـسي فـلا تـقبلُ
وكـم ذا تعللُ لـي ريـحَها ... بِعَـلٌ وسـوفَ وكـم تمطـلُ
وكـم ذا أُؤمّـلُ طـولَ البقـاءِ ... وأغفـلُ والمـوتُ لا يـغفلُ
وفي كـل يـومٍ يـنادي بـنا ... مُنـادي الرحيـلِ ألا فارحـلوا
أمِنْ بعـد سبعين أرجـو البقـاءَ ... وسـبعٍ أتـتْ بعـدها تعجـلُ
كـأنْ بـي وشيكاً إلى مصرعي ... يُـساقُ بِنعـشي ولا أُمهَـلُ
فيـا ليـتَ شعريَ بعدَ السؤالِ ... وطـولِ المقـامِ لِـما أُنقَـلُ ؟[3]

(١) نفح الطيب: ٢/ ٦٩٥-٦.

(٢) الوافي بالوفيات: ٦/ ٥٧.

(٣) تحفة القادم: ص١٣٢-٣.

والى هذا المعنَى ذهب الألبيري في قوله:

وقد حانَ ترحالي فقلْ ليَ عـاجلاً ... غلـى أي حـالٍ تَنقـضي عزمـاتي؟
أَأُثْـني بخـيرٍ أم أقـول تـمثُّلاً ... كمـا قالـت الخنسـاءُ في الـسمراتِ:
إذا لم يكُـنْ فـيكنَّ ظـلٌّ ولا جَنَـى ... فأَبـعَدَكنَّ الله مِـن شَجَـراتِ[1]

وقد أقضَّ التفكُّر بالموت والإعداد له الشاعرَ ابن حذلم حتى في يوم العيد، على الرغم من إلحاح الناس عليه بأنْ يُشاركهم الأُنسَ والسرور به:

يقولـون لـي: خَـلِّ عنكَ الأسَـى ... ولُـذْ بِالـسرورِ فَـذا يـومُ عـيدْ
فَـقلتُ لهـمْ والأسَـى غالِـبٌ ... ووَجـديَ يحيـا وشـوقي يزيـدْ:
توَعَّـدَني مـالكي بِالـفراقِ ... فكيـفَ أُسَـرُّ وعِيـدي وَعيـدْ؟[2]

أما ابن حمديس فقد أخذ يسأل نفسه ماذا أعدَّ للموتِ، وقد تكاثرت ذنوبُه، وهناك الملكانِ في القبر، وهناك يوم الحشر حيث الصراط المستقيم، فكيفَ إذا زلَّت قدماه ؟، وهناك نار جهنم، فكيف إذا لم تشمله مغفرة الخالق فلم ينجُ منها ؟:

مـا الـذي أعـددتَ للمـوتَ فقـدْ ... قُـدِّرَ المـوتُ بـلا شَـكٍّ عليـكْ ؟
أَذنوبـاً كـاثرتْ عـدَّ الحـصَى ؟ ... بئسَ ما استكثرتَ مـن كَسْب يـديكْ
أيّ خَطْـبٍ فـادحٍ في رقْـدةٍ ... يُـوقظُ الحشْرُ إليهـا مُقلتـيكْ ؟
وصـراطٍ لـستَ بالناجـي إذا ... وَطِئـتْهُ زلَّـةٌ مِـن قدمـيكْ
فلـكَ الويـلُ مِـن النـار إذا ... مُقلـةُ الـرحمنِ لم تنظُـرْ إليـكْ[3]

---

(١) المغرب في حلى المغرب: ٢/ ١٠١

(٢) الإفادات والإنشادات: ص١٥٤، ونفح الطيب : ٥/ ٣٨٣.

(٣) ديوانه: ص ٣٤٦.

أفليس مما يدعو إلى الخجل ملاقاة العبد لِربه وهو مطلوبٌ له بِدينٍ قديم وإن كان كريماً؟، هذا ما يراه المُنصفي في قوله:

قالت لي النفسُ أتاكَ الردى وأنتَ في بحر الخطايا مُقيمْ
وما ادّخرتَ الزادَ قلتُ:اقصري لا يُحمَلُ الزادُ لِدار الكريمْ
واخجلتا منه إذا جئتُهُ والعبدُ مطلوبٌ بِدينٍ قديمْ(١)

٤- الزهد في الدنيا:

لجأَ الكثير من الشعراء الأندلسيين إلى الزهد في الدنيا، وترك ما فيها من مغريات وهوَىً وملذّات، وقد تنتابهم في ساعةٍ من ساعات الزهد والتقشُّف مشاعرُ الخلاص من هذه الدنيا، وهي قصيرة العهد، والانتقال إلى الآخرة، حيثُ هي دار الخلود، حتى إذا بلغ الزهد في الدنيا غايته كان ذلك مدعاةً لانتفاء الحياة، أما ما يبقى من العمر فهو وقتٌ ضائع، بلْ هو تكريسٌ لِلمزيد من كُره الحياة والاشمئزاز منها.

فهذا أبو عيسى بن لبّون قد اكتشف حقيقةَ الدنيا فزهد فيها، وأحقيةَ الموت فأقرَّه وآمن بحلوله عاجلاً، فلم يبقَ له في الحياة سوى رمقٍ يمضي به بعده الموت إلى القبر، فيُدفَنُ من دون أن يَعرفَ دافنوه ما سيؤول إليه مصيره في الآخرة، وأنّى لهم أنْ يعرفوا ؟:

نفضتُ كفّي عن الدنيا وقلتُ لها إليكِ عنّي فما في الحقّ أَغتَبنُ
مِن كِسْرِ بيتِيَ لي روضٌ ومِن كتبي جليسُ صدقٍ على الأسرار مُؤتَمَنِ
أدري به ما جرى في الدهر من خبرٍ فعندهُ الحقُّ مسطورٌ ومختَزَنُ
وما مَضى بي سوى موتي ويدفنني قومي وما لهمُ عِلمٌ بما دفنوا(٢)

---

(١) تحفة القادم: ص ٨٤.

(٢) الحلة السيراء: ٢/ ١٧١، والمغرب في حلى المغرب: ٢/ ٣٧٧.

وهذا ابن الناظر القرشي يرى أن الحياة في الدنيا هي حياة محدودة قصيرة المدى، وقد دلَّتْ فوقَ ذلك إماراتٌ على أوان مفارقتها، فهي إن رمتْ أصابتْ، والناس إذا حضر الموت لا يستطيعون منه فراراً، فهو لذلك راغبٌ عنها زاهدٌ فيها، ناظرٌ إلى رحمة ربه ومغفرته وقد فضَّلَ دار البقاء:

رغبتُ عن الدنيا لِعِلميَ أنها ... مَحلُّ حياةِ المرءِ فيه بلاغُ
وقد لاحَ في فَودَيَّ شيبٌ على الردى ... دليلٌ، وفيه - ما أردتُ - بلاغُ
وأمَّلتُ مِن مولايَ نظرةَ رحمةٌ ... يكونُ بها مني إليه بلاغُ
فأحظى إذا الأبرارُ قِيلَ لهم غداً: ... هلمُّوا إلى دار النعيم فراغوا
رأيتُ بنيها ما رمتْهم سِهامُها ... فطاشتْ، ولا حُمَّ الحِمامُ فراغوا
فعُجتُ إلى دار البقاء بِهمّتي ... فعنديَ عنها راحةٌ وفراغُ[1]

أما أبو إسحاق الألبيري فيزهد حتى في بناء بيتٍ والاعتناء به، ويحاول تفنيد هذه الفكرة، فلا معنى عنده لبناء شيءٍ على الأرض ثابتٍ لِمَن لا قرارَ له على الأرض ولا ثبوت، بلْ إنّ مثواه القبر مهما طالَ عمره، ومهما بنى من قصور، وليتَ الناس يسمعون إلى القبر وهو يَعِظُهم، كما سمع هو واتَّعظ:

قالوا ألا تستجدُّ بيتاً ... تَعجبُ من حسنه البيوتْ
فقلتُ ما ذلكمْ صوابٌ ... حفْشٌ كثيرٌ لِمن يموتْ
لولا شتاءٌ ولَفْحُ قيظٍ ... وخوف لصٍّ وحفظ قُوتْ
ونسوةٌ يبتغينَ سِتراً ... بَنيتُ بنيانَ عنكبوتْ
وأيُّ معنىً لِحُسنِ مَغنَى ... ليسَ لأربابه ثبوت ؟
ما أوعظَ القبرَ لو قبلنا ... موعظةَ الناطقِ الصموتْ
يُوحي إلى مُمتطي الحشايا ... مالكَ عن مضجعي عَميتْ[2]

---

(١) بغية الوعاة: ١/ ٥٣٦.

(٢) ديوانه: ص ٧٠.

ويتذكر ابن حمديس مَصرعَه، فتهون عليه الحياة بما فيها، ويندم على أنه أطاعها وهامَ بها فيما مضى من عمره، ويُشبِّهها بالمرأة الخادعة، المُبغضة لِزوجها، فقلما تُمتِّعه، ولهذا السبب فإن الحرص عليها ضارٌّ، والزهد فيها هو الذي ينفعه، لاسيما وأنَّ الموتَ لا أمانَ له:

بيتُــــكَ فيــــه مَــــصرعُـكْ　　　وفي الــــضريح مَــــضجعُـكْ
غرَّتْـــكَ دنيــــاكَ التـــي　　　لـــها شـــرابٌ يخدعُـــكْ
هِمــــتَ بِــــحبٍّ فــــاركٍ　　　وقـــلَّما تُمتِّعُـــكْ
يـــضرُّكَ الحـــرصُ بِـــها　　　والزهـــدُ فيهـــا ينفعُـــكْ
لا تأمنــــنْ منيَّـــةً　　　إنَّ عـــصاها تقرعُـــكْ[1]

وإذا كان الحلول في القبر هو نهاية الحياة، فإنه هو أيضاً بدايةٌ لِحياة أخرى يعدُّها البداية الحقيقية، وليس في مقدوره إلاّ أنْ يتذكر ما يمكن أن يجري له في هذه الحياة الأخرى فيما لو بقيَ مستمراً في غيِّه وفي حبه لها، حيثُ أهوال يوم الحساب، والنار التي تلذعه من كل جانب:

مَغربـــكَ القـــبرُ الـــذي　　　يكـــون فيـــه مطلعـــكْ
إنْ فرَّقـــتْكَ تُـــربةٌ　　　فـــالله ســـوفَ يجمعـــكْ
وللحـــساب موقـــفٌ　　　أهوالـــه تُروِّعُـــكْ
كـــم جـــرَّ مـــا أشـــفقتَ مِـــنْ　　　لَمْـــسِكَ منـــه إصـــبعكْ
فكيـــفَ بالنـــار التـــي　　　مِـــن كـــلِّ وجـــهِ تلـــذعُكْ

وعلى هذا النحو من التفكُّر بالنار عاقبةً للمُذنبين بحسب الاعتقاد الإسلامي الحنيف، نجدُ أبا القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي يشعر بتعاظم ذنوبه وكثرتها بحيث

---

(١) ديونه: ص ٣٤٨.

يستعصي من أجلها الحصر، ولهذا السبب فإنَّ مصيره لابدَّ من أن يكون العذاب بالنار الذي أُعدتْ في الآخرة لمثله من المذنبين:

يا ربِّ إنَّ ذنوبي اليومَ قد عظُمتْ　　　فما أُطيقُ لها حصراً ولا عددا[1]

وإذْ هو يتضرَّع إلى الله سبحانه وتعالى فلأنه لا يُطيقُ هذا العذاب، وليس له قِبَلٌ به من قبل، ولا يصبر عليه:

وليسَ لي بِعذاب النار مِنْ قِبَلٍ　　　ولا أطيقُ لها صبراً ولا جَلَدا

وإذا كان هو على هذه الحال من الضعف فما أحراه بطلب الغفران والتخلُّص من هذه العاقبة:

فانظرْ إلى ضعفي ومسكنتي　　　ولا تُذيقنَّني حرَّ الجحيمِ غدا

وهكذا تدور صورة الحياة الدنيا والآخرة في أذهان هؤلاء الشعراء الذين زهدوا في الأولى بوصفها حياة زائلة فانية، واتَّجهوا إلى الأخرى بوصفها حياة خلود، فإما إلى العذاب وإما إلى النعيم، اتَّجهوا لها بإيمانهم ومعتقداتهم، ينظرون في تعاليم الدين، مسترشدين بالنصّ القرآني الحكيم وبالسنة النبوية الشريفة.

٥- تمنّي الموت- الاستشهاد:

تمنَّى جملةٌ من الشعراء الأندلسيين الموتَ خلال رثائهم لأنفسهم تحتَ ظروفٍ مختلفةٍ، من تلك الظروف الحاجة والفقر، فمما قاله ابن جبير في هذه الحال:

ربِّ إنْ لَمْ تؤتِني سَعَةً　　　فاطوِ عني فضلة العمرِ
لا أحبُّ اللَّبْثَ في زمنٍ　　　حاجتي فيه إلى البشَرِ
فَهُمُ كَسْرٌ لِمنجَبِرٍ　　　ما هُمُ جبرٌ لِمنكَسِرِ[2]

(١) الكتيبة الكامنة: ص٤٧.

(٢) نفح الطيب: ٢/ ٤٩٢.

ومما قاله المعتمد بن عباد في هذا السياق يشكو فقره وحاجة بناته إلى ما يلبسنه، وعملهنّ خادماتٍ في بيوت، الآخرين، بعد الغنى والجاه، فالموتُ أهونُ عليه من ذلك:

أليسَ الموتُ أروحَ مِن حياةٍ ... يطولُ على الشقيّ بها الشقاءُ
فمَنْ يكُ في هواهُ لقاءُ حبٍّ ... فإنّ هوايَ من حَتْفي اللقاءُ
أأَرغبُ أن أعيشَ أرى بناتي ... عواريَ، قد أضرَّ بها الحَفاءُ
خوادمَ بنت مَن قد كان أعلى ... مراتبه – إذا أبدو – النداءُ[1]

والمعتمد نفسه كان قد تمنّى الموت قبلَ ذلك، في ساعة من ساعات البذل السخي في معركته المصيرية، وأبدى البطولة الفائقة، حيثُ لا هيبة للموت ولا أهمية إزاء القضية التي يقاتل من أجلها... من أجل أنْ يبقى ملكاً، ومن أجل ألاّ تسقط إشبيلية بين يديه وبسببه، لقد قاتلَ الأعداء دون أن يتدرَّع أو أن يحمي جسده بما يحمي الكماة أجسادهم به في العادة ضد الطعنات، ولكنّ أمنيته في الموت لم تتحققْ:

أن يَسلبَ القومُ العِدا ... مُلكي وتسلمني الجُموعُ
فالقلبُ بين ضلوعه ... لم تسلم القلب الضلوعُ
لم أستَلبْ شرَفَ الطباعِ، ... أيُسلَبُ الشرفُ الرفيعُ؟
قد رمتُ يومَ نزالهمْ ... ألاّ تُحصّلني الدروع
وبرزتُ ليس سوى القميص ... عن الحشا شيء دَفوعُ
أَجَلي تأخّرَ لم يكنْ ... بهوايَ ذُلّي والخضوعُ
ما سرتُ قطُّ إلى القتالِ ... وكانَ من أملي الرجوعُ[2]

---

(١) ديوانه: ص ٩٠.

(٢) ديوانه: ص ٨٨-٩.

والمعتمد هنا لم يطلب الشهادة في سبيل الله، وإنما الموت في سبيل المُلك، وقد صرَّح بأنه يُقاتل العِدا ولم يذكر الكفّار، وذلك عكسُ ما فعله الكثيرُ من الشعراء الأندلسيين من أمثال الفقيه أبي بكر بن الحكيم. إنه يتمنَّى أن ينالَ الشهادة في سبيل الله في المعركة ضدَّ الكُفَّار، لكي تمحو ما تقدَّمَ من ذنوبه وما تأخَّرَ، وتُنجيه من النار:

قصدي المؤمّل في جهدي وإسراري ومطلبي من إلاهي الواحد الباري

شهادةٌ في سبيل الله خالصةٌ تَمحو ذنوبي وتُنجيني من النارِ

إنَّ المعاصي رجْسٌ لا يُطهِّرها إلاّ الصوارم من أيمانِ كُفَّارِ[1]

وقد تمنَّى صاعد الأندلسي أن يكونَ أوَّلَ المستشهدين في سبيل الإسلام في معركة "جربيرة"، وقد تذكَّرَ بها معركة بدرٍ الخالدة ضدَّ الكفَّار، ولذلك فإن من ينال الشهادة في هذه المعركة فإنه يُعَدُّ من أولئك الأوائل الذين نالوا الشهادة والسعادة:

اليومَ عاش الدين وابتدأ الهُدى غضّاً وعادَ المُلكُ عذْبَ الموردِ

ووقفتُ في ثاني حُنينٍ وقفةً فرأيتُ صُنعَ الله يُؤخذُ باليدِ

مَن فاته بدْرٌ وأدركَ عمرُهُ جربيرَ فهو من الرعيل الأسعدِ

فوددتُ لو حَتَمَ القضاءُ بأنني في القومِ أوَّل طالعٍ مستَشْهَدِ[2]

أما أبو عمر المالقي فقد ضاقَ صدرهُ شوقاً إلى حجِّ البيت وزيارة قبر المصطفى، مستشفعاً به، وتمنَّى أن يكونَ ذلك حُسنَ الختام لِحياتِهِ، بل الخلاص منها، وهو يأسفُ لأنَّه يعيشُ في بلدٍ بعيدٍ جداً عنهما، بحيثُ تعذّرتْ معه سبلُ الزيارة:

بكيتُ بدمعٍ كذوبِ العقيقْ غراماً وشوقاً لِوادي العقيقْ

(١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج: ص ٣٩٩.

(٢) تاريخ الأدب العربي عصر سيادة قرطبة: ص ٩٤.

وبيـــتٍ عتـــيقٍ ثــوى تـــُربَه — محـــــمدٌ المـــصطفى أو عتيــــقْ
فللــهِ تـــربٌ كمسْـكٍ ســحيقٍ — عـــدانيَ عنـــهُ مـــكانٌ سحيـــقْ
بــودّيَ لــو ســرتُ سيرَ العنيــق — أجــوبُ إلى البيـــتِ نيقــاً فَنـــيقْ
فــأبغي لِــأعلى رفيــقٍ خلاصـــاً — عسى الربُّ أعلَـى يـرَى بـي رفيـقْ(١)

وممن تمنَّوا الخلاص من الحياة أيضاً أبو الربيع العبدري، لأنه لم يحصلْ على شيءٍ ذي بالٍ في دنياه، ولا أدركَ ما يريد ويتمنَّى:

أخـي عُوفيـتَ والبلـوى ضـروبٌ — تَـعُــــمُّ وتـــارةً تـــأتي اختــصاصا
تعالَ فخـذْ بحظّك مـن همـومي — ودعْ أطـــلالَ هنـــدٍ والعِراصـــا
وبـــالكِ أخـــاكَ دنيـا قـد تولَّــتْ — ودهـــراً يُـــنهكُ العمـــرَ انتقاصـــا
ومــا ألفيــتُ نفــسي في المعالــي — ولا أدركـــتُ مـــن ثـــأرٍ قـــصاصـا
فليتَ العـيشَ إذْ لمْ يُقـضَ مَحضاً — رُزقْـتُ إذا انقـضى منـه الخلاصـا(٢)

وهكذا اختلفت أسبابُ تمنّي الموت لدى الشعراء الأندلسيين.

١- الوصية:

لجأ كثيرٌ من الشعراء الأندلسيين إلى إشهار وصاياهم عندما يشعرون بدنوّ أجلهم، ومن أولئك الشعراء أمية بن عبد العزيز الداني الذي " لما اشتدَّ مرضُ موته قال لِولده عبد العزيز:

عبــــد العزيـــــز خليفتـــــي — ربُّ الـــسماءِ عليـــكَ بَعـــدي
أنـــا قـــد عهـــدتُ إليـــكَ مـــا — تَدريـــهِ فـــاحفظْ فيـــه عَهـــدي

---

(١) الوافي بالوفيات: ١٤/ ١٣٢.
(٢) تحفة القادم: ص ١٨٨.

فلـــئنْ عمـــلتَ بــه فإنَّــكَ   لا تـــزال حلـــيف رُشْـــدي
ولـئنْ نكـــثتَ لقــدْ ضـــللتَ   وقــد نَـصحتُكَ حَسْبَ جَهـدي "[1]

وواضحٌ في وصية الشاعر لِولدِه أنه لا يتعدَّى حدودَ الإسلام وحقوقه، ويريد منه أنْ يلتزمَ بِتعاليمه، ويُذكّرهُ بوجود الله رقيباً بعدَه إذا ما تحقَّقَ أجلُه. وإلى هذا ذهبَ الحافظ أبو عمر بن عبد البر في وصيتِه لابنه كذلك، ولكن يُفصِّلُ بعضَ الأمور التي يراها تقف في الأولوية من تعاليم الإسلام، كالتجافي عن الدنيا وتهوين قدرها وعدم الاغترار بها، والارتباط بالدين الحنيف بأقوى رابط، وتقوى الله في السر والعلَن، والشكر له دائماً، وترك ما لِغيرِ العقلاء من سلوك، واتخاذ سبيل الحقّ، واستغلال أيام العمر للعمل على ذلك:

تَجافَ عن الـدنيا وهـوّنْ لِقـدْرِها   ووفِّ سـبيلَ الـدينِ بـالعروة الـوثقى
وسـارِعْ بتقـوى الله سـراً وجهـرةً   فـلا ذمّـةٌ أقـوى هُـديتَ مـن التقـوى
ولا تـنسَ شـكرَ الله في كـل نعمـةٍ   يَمُـنُّ بهـا فالـشكر مـستجلبُ النُّعمَـى
فدعْ عنكَ مـا لاحـظٌ فيــه لِعاقـلٍ   فـإنَّ طريـق الحـقِّ أبلـجُ لا يَخفَـى
وشـحَّ بِأيـامٍ بقـينَ قـلائلٍ وعمـــرٍ   قـــصيرٍ لا يـــدومُ ولا يـــبقَى
ألَمْ تـرَ أنّ العمـرَ يـمضي مُولِّـياً   فَجدَّتُـــه تَبلَـــى ومُدَّتـــُه تَفـــنَى
نَخوضُ ونلهـــو غفلـةً وجهالـــةً   ونـــنشرُ أعمـــالاً وأعمارنـــا تُطـوَى
تُـواصلنا فيـــه الحـوادثُ بالـــردى   وتـنــتابنا فيـــه النوائـــبُ بـــالبلوى
عجبتُ لـنفسٍ تبـصرُ الحـــقَّ بَيِّنـاً   لـــديها وتـــأبى أنْ تفـــارِقَ مـــا تهـوَى
وتـــسعَى لِمـــا فيـــه عليهـــا مَـضَرَّةٌ   وقد علمتْ أنْ سوف تُجزَى بما تَسعَى

---
(1) ديوانه: ص ٨٣.

ذنـوبيَ أخـشاها ولـستُ بـآيسٍ وربـيَ أهـلٌ أنْ يُخـافَ وأنْ يُرجَـى
وإنْ كانَ ربي غافراً ذنبَ مَن يشا فإنّـيَ لا أدري أأُكْـرَمُ أمْ أُخْـزَى[1]

ومنهم مَن يُوصي، عند موته، أحد أصدقائه المقرَّبين بشيءٍ ما بعدَ موته، فقد أوصَى ابن شُهيد صديقَه ابنَ حزمٍ بِألاّ ينسَى تأبينَه، وأن يتذكَّرَ صداقته، وأخلاقه الكريمة، وأنْ يحثَّ على ذلك الأصدقاء ومَن يعرفهم من الأصحاب، بعدَ موته، فعسى أن يكون له في ذلك راحة وطمأنينة:

كأني وقد حانَ ارتحاليَ لـمْ أفُـزْ قـديماً مـن الـدنيا بِلمحـةِ بـارقِ
فَمَنْ مُبلِغٌ عنّي ابنَ حزمٍ وكانَ لي يـداً في مُلمَّـاتي وعنـدَ مضايقي
علـيكَ سـلامُ اللهِ إنّـي مُفـارِقٌ وحَـسْبُكَ زاداً مِـن حبيـبٍ مُفـارِقِ
فلا تـنْسَ تـأبيني إذا مـا فَقدتَنـي وتـذكارَ أيـامي وفَـضْلَ خلائقـي
وحرِّكْ لـه بـالله من أهـل فنِّنا إذا غيَّبـوني كـلَّ شـهْمٍ غُرانـقِ
عسى هامتي في القبرِ تسمعُ بعضَه بِترجيـعِ شـادٍ أو بتطريـبِ طـارقِ
فلي فِي ادّكاري بعدَ موتيَ راحةٌ فـلا تمـنعوها لـي عُلالـةَ زاهِـقِ[2]

كما أوصَى أبو زكريا يحيى بن هُذيل صديقَه لسان الدين بن الخطيب أنْ يدفنه، إذا مات، إلى جانب زوجته وكانت توفيتْ قبله، فقد جاء على لسان لسان الدين قوله: "وفُلِجَ المَذكور، فلَزِمَ منزلي لِمكان فضله ووجوبِ حقِّه، وقد كانت زوجُهُ توفّيتْ، وصحبَهُ عليها وجْد، فلمَّا ثقلَ وقربتْ وفاتُه استدعاني وكادَ لِسانُه لا يَبين، فأوصاني وقال:

إذا مُـتُّ فادفنّـي حـذاءَ حليلتي يُخـالطُ عظمـي في التـرابِ عِظامَهـا

---

(١) نفح الطيب: ٤/ ٢٨-٩.

(٢) ديوانه: ص١٠١-٢.

ولا تَدْفنـــنِّي في البقيــعِ فإنَّـــني | أُريــدُ إلى يــوم الحــسابِ التزامَهـــا
ورتِّبْ ضريحي كيفما شاءَه الهـوَى | تكـــونُ أمـــامي أو أكـــونُ أمامَهـــا
لعـلَّ إلاهَ العـرشِ يجبـرُ صَـدْعتي | فَيُعلـــي مَقــامي عنـــدَه ومقامَهـــا[1]

أما أبو إسحاق الألبيري فيوصي أصحابه وهو في سكرات الموت، على غرار ما فعلَ ابنِ شُهيد في وصيته لابن حزم، طامعاً بالذكْر الحسَن عندَ حضورهم جنازته، والدعاء له، وتناسي هفواته، فإنه روحَه يسمعهم، وسيكون مسروراً بذلك:

كأني بِنفسي وهْيَ في السكَراتِ | تُعـــالجُ أنْ ترقَـــى إلى اللهـــواتِ
وقد زُمَّ رَحلي واستقلَّتْ ركـائبي | وقـــد آذنـــتني بالرحيـــلِ حُداتـــي
وأقلقَـني أنـي أمـوتُ مُـفرِّطـاً | علـــى أنَّـــني خُلِّفْـــتُ بعـــدَ لِـــداتي
فيا إخوتي مَهما شـهدتُمْ جنـازتي | فقومـــوا لِربِّـــي واســـألوهُ نجـــاتي
وجِدّوا ابتهالاً في الدعاء وأخلصوا | لعـــلَّ إلاهـــي يقبـــلُ الدعـــواتِ
وقولوا جميلاً إنْ علمتمْ خِلافَـه | وأغـضوا علـى مـا كـان مـن هفـواتي
ولا تـصفوني بالـذي أنـا أهلـه | فأشـقَى وحَلُّـوني بِخـير صِـفاتِ
ولا تتناســوني فَقِــدْماً ذكـرتُكم | وواصلتُـــكمْ بـــالبر طـــولَ حيـــاتي
وبـالرغمِ فارقـتُ الأحبـةَ مـنكمُ | ولمّـــا تُـــفارقْني بكـــمْ زفراتـــي
وإنْ كنتُ مَيْتـاً بـينَ أيـديكمُ لَقـىً | فَروحـــيَ حـــيٌّ ســـامعٌ لِـــنُعاتي[2]

(1) نفح الطيب: ٥/ ٤٩٧.
(2) ديوانه: ص٥٩-٦٣.

٢- الاستشفاع:

شفاعة الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام هي واحدٌ مما يُتوصَّلُ به إلى رضا الله سبحانه وغفرانه، وقد يستشفع به المسلمون وهم في بُعدٍ عن زيارته، وكانَ كثيرٌ من الأندلسيين أعدُّوا العدة للحج وزيارة قبر الرسول طالبين شفاعته، فقصدوا المشرقَ ليفوزوا بذلك، فمنهم مَن رجعَ إلى الأندلس، ومنهم من لم يُمهله الموت ليرجع، ومنهم مَن أحبَّ المُجاورة، أو البقاء سائحاً في بلاد المشرق فبقِي فيها حتى قضى نحبه.

أما الشعراء منهم فسواءٌ أفازوا بالقرب من قبر الرسول أم لَم يفوزوا فإنهم يجعلون من الاستشفاع به آخر ما يفعلونه في حياتهم، أو يتمنون أن يكون كذلك، فهذا ابن حجاج الغافقي الأشبيلي قد فاز بالوصول إلى القبر المبارك، وبذلك حصل على كل مبتغاه من الدنيا، بل أصبح يستعذب الموت عندَ هذا الوصول:

لَمْ يبقَ لي سُؤلٌ ولا مطلبُ ... مُذْ صرتُ جاراً لحبيبِ الحبيبْ
لا أبتغي شيئاً سوى قُربِهِ ... وها أنا منه قريبٌ قريبْ
مَنْ غابَ عن حضرةِ محبوبِهِ ... فلستُ عن طَيْبةَ ممنْ يغيبْ
لا تسأل المغبوطَ عن حالهِ ... جارٌ كريمٌ ومحلٌّ خصيبْ
العيشُ والموتُ هنا طيِّبٌ ... بِطَيْبَةَ كلُّ شيءٍ يطيبْ[1]

ويطلبُ ابن فركون الشفاعة بين يَدَيْ قبر الرسول الكريم بقولٍ صريح:

ألا يا رسول الله دعوة نازحٍ ... له في النوى والقرب فكرٌ مُقسَّمُ
يراكَ بمكنون الضمير فقلبُهُ ... عليك وما حلَّ المنازلَ يقْدُمُ
أنا المذنب الجاني وأنتَ شفيعُهُ ... ومثلكَ مَن يُرجَى ومثلي يُرحَمُ

---

(١) نفح الطيب: ٢/ ٤٤.

فما لـي إذا لاقيتُ ربِّـي وسيلةٌ ... ســوى أنــني أرجــو وأنّــيَ مُــسلمُ

وما ضاقَ عفوُ الله عن مذنبٍ وإنْ ... تعــاظمَ منـه الـذنبُ فـالعفوُ أعظـمُ(١)

أما لسان الدين ابن الخطيب فيتشوّق إلى هذه الزيارة، لاسيما وقد أحسَّ بانقضاء العمر، وأصبحتْ تراودهُ فكرة الرحلة إلى المشرق وتحقيق هذه الأمنية، ويتساءلُ فيما لو يستطيعُ ذلك:

إلى كـم أرانـي في البطالـة قانعـاً ... وعمريَ قـد ولّـى، ووزريَ قـد عـدّا

تقضّى زمـاني في لعـلّ وفي عسَى ... فـلا عــزمةٌ تمـضي ولا لوعـةٌ تَهـدا

حـسامُ جبـانٍ كلمـا شِـيمَ نـصلُه ... تراجـعَ بعــد العـزمِ والتـزمَ الغمـدا

ألا ليتَ شعري هـل أرانـي ناهـداً ... أقودُ القلاصَ البُدنَ والـضامرَ النَّهْـدا

رضيع لبـانِ الـصدقِ فـوقَ شِـملّةٍ ... مُـضَمَّرةٍ وُسِّـدْتُ مـن كورهـا مَهْـدا

فتُهدي بأشواقي السراةَ إذا سـرتْ ... وتُحدي بأشعاري الركـابُ إذا تُحْـدى

إلى أنْ أحُطَّ الرحْلَ في تُرْبكَ الذي ... تَــضوَّعَ نَــدًّا مــا رأينــا لــه نِــدًّا

وأُطفـئُ في تلـك المـواردِ غُلّتــي ... وأَحسِبُ قرباً مهجةً شكتِ البُعْـدا(٢)

وعلى نهج الشعراء المهتمين بعناصر الطبيعة يتأثَّرُ أبو الحجاج المُنتشافري بسجع الحمام، وكأنه بُكاءٌ على مفارقة حبيبٍ، ولكنه يرى أنّ البكاء عليه أولى وأحَقُّ، إذ انقضى عمره وهو في سُكر التصابي:

سَجَعَ الحمامُ بشوقِ ترجيع الهـوى ... فأثــارَ شــجوَ مــشوقهِ بِمَــشوقِهِ

وبكــتْ هـديلاً راعَهـا تفريــقُهُ ... ويحــقُّ أن يبكــي أخــو تفريقِــهِ

---

(١) ديوانه: ص ٣٢٤.

(٢) نفح الطيب: ٦/ ٤٥٤.

وبُكـاء أمثالـي أَحـقُّ لأنَّـني   لمْ أقـضِ للمـولَى أكيـدَ حقوقـهِ
وغفلتُ في زمن الشبابِ المنقضي   أقـبحْ بِنـسخِ بـروره بِعقوقـهِ
وبدا المشيبُ وفيه زجر ذوي النهى   لـو كنـتُ مزدجـراً لـشيم بروقِـه
حسبي ندامةُ آسفٍ مـما جـنى   يـصلُ النـشيجَ لـوزره بِـشهيقهِ[1]

ثمَّ يتوصلُ إلى مدح الرسول وطلب شفاعته وهو يسترسلُ في البكاء على عمره الضائع:

ومعـي رجـاءُ توسُّـلٍ أعددتُـهُ   ذخـراً لِـصدمات الزمـانِ وضـيقِهِ
حبي ومدحي أحمد الهادي الذي   فـوزُ الأنـامِ يـصحُّ في تـصديقِهِ
أسمَى الورى في منصبٍ وبمنسبٍ   من هاشـمٍ زاكـي النجـار عريقُـهُ

ويسترسلُ في ذكر معجزات النبي عليه الصلاة والسلام، ثمّ يتطرق إلى غايته من الاستشفاع به، إذ هو بإزاء ملاقاة ربه سبحانه وتعالى، خاصةً وقد جدَّ الدهرُ بتمزيقِ عمره، على طريق المناجاة:

يـا خـيرةَ الإرسـال عنـد إلاهـهِ   يـا محـرز العليـا علـى مخلوقـهِ
علَّقـتُ آمـالي بِجاهـك عُـدَّةً   والقـصدُ لـيس يخيـبُ في تعليقِـهِ
وعَلِقْتُ من حبل اعتمادي عمدةً   لتمـسُّكي بقويِّـهِ ووثيقـهِ
ولـئن غـدوتُ أخيـذَ ذنـبي إنَّـني   أرجـو بِقـصدكَ أنْ أُرَى كطليقـهِ
وكسادُ سوقي مذ لجأتُ لِبابكم   يقـضي حـصولَ نفـوذهِ ونفوقِـهِ
ويحـنُّ قلـبي وهـو في تغريبـهِ   لِمـزارهِ لِرُبـاكَ في تـشريقِهِ

(1) نفح الطيب: ٦/ ١٤٠.

وتزيد لوعتُهُ متى حثَّ السُّرى حادٍ حدا بجماله وبنوقِهِ
وأرى قشيبَ العمر أمسى بالياً ومرورَ دهري جدَّ في تمزيقِهِ

وهو يخشى أنْ يُدركه الموتَ قبل أنْ يحظَى بزيارة قبره (ص)، ويُمرِّغ خدَّه بتُربته، فيفقد بذلك أمنيةً عزيزةً عليه:

وأخافُ أنْ أقضي ولم أقضِ المُنى بنفوذ سهْمِ منيَّتي ومُروقِهِ
فمتى أحطُّ على الورى رحْلي وقد بلغتْ ركابي للحِمى وعقيقِهِ
وأُمرِّغ الخدَّين في تُربٍ غداً كالمسكِ في أَرَجٍ شذا منشوقِهِ

وقد أسهمت القصائد المولديات التي شاع نظمُها في الأندلس في مناسبة ذكرى مولد النبي محمد عليه الصلاة والسلام والاحتفال بذلك في كل عام في هذا الاتجاه[1]، وكذلك مدْح الرسول الكريم في غير هذه المناسبة، كما فعل أبو الحسن علي بن الجياب الغرناطي، إذ رثى نفسه في مقدمة قصيدةٍ في هذا الغرض. يقول مخاطباً نفسه:

أهزلاً وقد جدّتْ بك اللَّمَّةُ الشَّمطا وأمناً وقد ساورتِ يا حيَّةً رَقطا؟
أغرَّكَ طولُ العمرِ في غير طائلٍ وسرَّكَ أنَّ الموتَ في سيرِهِ أبطا ؟
رويداً فإنَّ الموتَ أسرعُ وافدٍ على عمرِكَ الفاني ركائبهِ حطَّا
فإذْ ذاك لا تستطيعُ إدراكَ ما مضى بحالٍ، ولا قبضاً تُطيقُ ولا بسطا
تأهَّبْ فقد وافى مشيبُكَ مُنذراً وها هوَ في فَودَيك أحرفَه خطَّا
فوافقتَ منه كاتبَ السرِّ واشياً لهُ القلمُ الأعلى يخطُّ بهِ وَخطا
معمَّى كتابٍ فكُّهُ "احذرْ" فهذهِ سفينةُ هذا العمرِ قاربتِ الشطَّا
وإنْ طالما خاضتْ به اللججَ التي خبطتَ بها في كلِّ مُهلكةٍ خبطا

(١) أنظر في ذلك على سبيل المثال ميلادية لسان الدين بن الخطيب في نفح الطيب: ٦/ ٤٤٩-٤٥١.

ومــا زلــتَ في أمواجهــا متقــلّباً	فآونــــةً رفْــعاً وآونــــةً حطًّــا
فقد أوشكتْ تلقيك في قعرِ حفرةٍ	تــشدُّ عليــكَ الجــانبين بهــا ضــغطا
ولستَ على علمٍ بما أنتَ بعدها	مــلاقٍ، أرضــواناً مــن الله أن ســخطا
وأعجبُ شيءٍ منكَ دعواكَ في النُّهى	وهذا الهوى المردي على العقلِ قد غطَّى
قــسطتَ عــن الحــقِّ المــبينِ جهــالةً	وقد خالفتــكَ الــنفسُ فادعــتِ القــسطا
وطاوعــتَ شــيطاناً تُجيــبُ إذا دعــا	وتَقبــلُ إنْ أغــوَى، وتأخــذ إنْ أعطَــى
تناءى عن الأُخرى، وقد قربتْ مدىً	تدانى من الــدنيا، وقــد أزمعــتْ شــحطا
وتمنحهــا حبّــاً وفــرطَ صــبابةٍ	ومــا منحــتْ إلاّ القتــادةَ والخرطــا
فها أنتَ تهوَى وصلَها وهي فاركٌ	وتأمــلُ قربــاً مــن حِماهــا وقــد شــطَّا
صــراطُ هُــدىً نكَّبــتَ عنــه عَمايــةً	ودارُ ردىً أوعيتَ في سُحتها سرطا[1]

ثمَّ يتوصَّلُ من هذه المقدمة إلى مدح الرسول الكريم (ص):

فما لكَ إلاَّ الــسيدُ الــشافعُ الــذي	لهُ فضلُ جــاهٍ كــلّ مــا يَرتجــي يُعطَــى
دليــلٌ إلى الــرحمنِ، فــانهجْ سبيلَــه	فمَن حادَ عن نهجِ الــدليلِ فقــد أخطــا
محبَّتُه شــرطُ القَبــولِ، فمَــن خلــتْ	صحيفــتُهُ منهــا فقــدْ فَقَــدَ الــشَّرطا

القصيدة...

(١) نفح الطيب: ٥/ ٤٤٠-١.



الإتجاه الثالث: الدنــيا

وهناكَ بواعثُ على رثاء النفس لا علاقة لها بغير الدنيا وتجارب الشعراء الشخصية في حيواتهم الخاصة، وهي كما يأتي:

١- الحُبّ – حُبّ الآخَر:

كان أبو بكر الزبيدي في صحبة الحكم المستنصر، وكان قد استدعاه، فلما اشتاق الزبيدي إلى امرأةٍ كان يحبها حباً جمّاً تُدعَى "سَلمَى"، استأذن الحكمَ المستنصرَ في الرجوع إلى أشبيلية، حيثُ مسكنهما ومثواهما، فلم يأذنْ له، فجزِعَ جزعاً شديداً، وشعر بأنَّ الموتَ عليه أهونُ من ذلك، وأما بقاؤه بعد ذلك حيّاً فلم يكن إلاّ كالصبر على الموت، فقال يُخاطبها مُحاولاً أنْ يهوِّن عليها هذا القَدرَ، ولكنه، في الواقع، كان يحاول التهوين على نفسه، وكيفَ يكونُ التهوين مع قوله: "وكلٌّ وصلٍ إلى انقطاعِ"؟:

ويحَكِ يا سَلمُ لا تُراعي ... لا بُدَّ للبَينِ مِن زَماعِ
لا تحسبيني صَبرتُ إلاّ ... كصبرِ ميْتٍ على النزاعِ
ما خلقَ اللهُ من عذابٍ ... أشدَّ من وقفةِ الوداعِ
ما بينها والحِمام فَرقٌ ... لولا المناحاتُ والنواعي
إنْ يفترقْ شملُنا وشيكاً ... من بعدِ ما كانَ ذا اجتماعِ
فكلُّ شَملٍ إلى افتراقٍ ... وكلُّ شعْبٍ إلى انصداعِ
وكلُّ قُربٍ إلى بعادٍ ... وكلُّ وصلٍ إلى انقطاعِ(١)

ومما يُعَدُّ في مَصارع العُشّاق قصة حُبّ أحمد بن كُليب النحوي، وهو شاعرٌ مشهور، لِـ "أسلم بن أحمد بن سعيد قاضي الجماعة، وقد اشتدَّ كَلَفَهُ بهِ، وفارقَ صبرَهُ، واشتُهِرتْ حالُهُ حتَّى اختفَى أسلم، وتركَ الخروجَ مِن منزلِهِ"(٢).

---

(١) بغية الملتمس: ص ٦٧، والمغرب في حلى المغرب: ١/ ٢٥٦، ونفح الطيب: ٤/ ٧، و٧ / ٤٠.

(٢) بغية الوعاة: ١/ ٣٥٤.

قال الضبّي في كتابه "بغية الملتمس"[1] عن أحمد بن كليب النحوي: "أديب شاعر مشهور الشعر ولاسيما في أسلم، ولم يزل به الإفراط في حبه حتّى أدَّاهُ ذلك إلى موته، وخبرُه في ذلك طريف، أخبرَ أبو محمد علي بن أحمد قال: نا أبو عبد الله المذحجي قال: كنتُ أختلفُ في النحو إلى أبي عبد الله محمد بن خطاب النحوي في جماعةٍ، وكان معنا عنده أسلمُ بن أحمد بن سعيد قاضي الجماعة أسلم بن عبد العزيز صاحب المُزَني، والربيع قال محمد بن الحسن: وكان مِن أجمل مَنْ رأتْهُ العيون، وكان يجيءُ معنا إلى أحمد بن كليب وكان من أهل الأدب البارع والشعر الرائق، فاشتدَّ كَلَفُهُ بِأسلمَ وفارقَ صبرَه، وصرَّفَ فيه القول مستتراً بذلك إلى أنْ فَشَتْ أشعارُهُ فيه، وجرتْ على الألسنة، وتُنوشِدَتْ في المحافل، فلِعهدي بِعرسٍ في بعض الشوارع بقرطبة والنكوري الزامِر قاعد في وسط الحفل، وفي رأسه قلنسوة وشي، وعليه ثوب خزّ عبيدي، وفرسه بالحِلية المُحلاّة وغلامُه يُمسكه، وكان فيما مضى يزمر لعبد الرحمن الناصر وهو يزمر في البوق بِقولِ أحمد بن كُليب في أَسلمَ، وهوَ:

وأسلمَني في هواهُ ... أسلمُ هذا الرشا
غزالٌ له مُقْلةٌ ... يصيبُ بِها مَن يَشا
وشى بيننا حاسدٌ ... سيُسألُ عمّا وشَى
ولو شاءَ أنْ يرتشي ... على الوصلِ روحي ارتشى

ومُغنٍّ مُحسِنٌ يسايرهُ فيها، فلما بلغَ هذا المبلغ انقطعَ أسلمُ عن جميع مجالس الطلب، ولَزِمَ بيتَه والجلوس على بابه، فكانَ أحمد بن كليب لا شُغلَ له إلاّ المرور على باب دار أسلمَ سائراً ومُقبلاً نهارَه كلَّه، فانقطعَ أسلمُ عن الجلوس على باب داره... قال محمد بن الحسن: وأخبرني أبو عبد الله محمد بن خطاب شيخنا قال: فَعُدْتُهُ فوجدتُهُ بأسوإ حال فقلتُ له: ولِمَ لا تتداوَى؟ فقال: دوائي معروف، وأما الأطباء فلا حيلة لهم فيَّ البتَّةَ.

---

(١) ص ٢٠٢-٦.

فقلتُ له: وما دواؤك؟ قال: نظرةٌ من أسلم، ولو سعيتَ في أنْ يزورني لأعظمَ اللهُ أجرَك بذلك، وكان هو والله أيضاً يُؤجَر.

قال: فرحمته، وتقطَّعتْ نفسي له، ونهضتُ إلى أسلمَ، فاستأذنتُ عليه فأذن لي، وتلقَّاني بما أحِب، فقلتُ له: ليَ حاجةٌ، قال: وما هي؟ قلتُ: قد علمتَ ما جمعكَ مع أحمد ابن كُليب من ذمام الطلب عندي، فقال: نعم!، ولكن تعلم أنه برَّح بي، وشهر اسمي، وآذاني. فقلتُ : كل ذلك يُغتَفَرُ في مثل الحال التي هو فيها، والرجلُ يموت. فتفَضَّلْ بِعيادتِهِ، فقال: والله ما أقدر على ذلك فلا تُكلِّفني هذا، فقلتُ له: لابدَّ، فليسَ عليك في ذلك شيء، وإنما هي عيادة مريض. قال: ولَمْ أزلْ بهِ حتىَّ أجاب، فقلتُ: فقُمْ الآن! فقال لي: لستُ والله أفعل ولكن غداً، فقلتُ له: ولا خُلْفَ؟، قالَ: نعم.

قال فانصرفتُ إلى أحمد بن كليب وأخبرتُهُ بِوعدِهِ بعدَ تأبِّيه، فَسُرَّ بِذلك، وارتاحتْ نفسُه. قال: فلما كان من الغد بكَّرتُ إلى أسلمَ، وقلتُ له: الوعد، فوَجَمَ، وقال: والله لقد تحملني على خُطّةٍ صعبةٍ عليَّ، وما أدري كيفَ أُطيقُ ذلك، قال: فقلتُ له: لابدَّ من أنْ تفيَ بِوعدِك لي. قال: فأخذَ رداءه ونهضَ معي راجلاً، فلما أتينا منزل أحمد بن كليب، وكان يسكنُ في آخر دربٍ طويلٍ. وتوسَّطَ الدربَ، وَقَفَ واحمرَّ وخَجِلَ وقالَ لي: الساعةَ والله أموتُ وما أقدرُ أنْ أنقلَ قدمي، ولا أستطيعُ أن أعرضَ هذا على نفسي، فقلتُ: لا تفعل بعدَ أنْ بلغتَ المنزل وتنصرف؟! فقالَ: لا سبيلَ، والله، إلى ذلك البتَّةَ. قال: ورجعَ هارباً فاتبعتُهُ فأخذتُ بِردائهِ فتمادَى وتمَزَّقَ الرداءُ، وبقيتْ قطعةٌ منه في يدي لِشدَّة إمساكي له، ومضى ولَمْ أُدركْهُ، فرجعتُ ودخلتُ إلى أحمد بن كليب، وقد كان غلامُه دخلَ عليه إذ رآنا مِن أول الدرب، مُبشِّراً، فلما رآني دونَهُ تغيَّرَ وجهُهُ وقال: وأينَ أبو الحسن؟، فأخبرتُهُ بالقصَّة فاستحالَ مِن وقتِهِ، واختلطَ، وجعلَ يقولُ ويتكلَّمُ بكلامٍ لا يُعقَلُ منه أكثرُ من الترجُّع، فاستبشعتُ الحال، وجعلتُ أترجَّع وقمتُ، فثابَ إليه ذهنُهُ وقال لي: يا عبد الله!، قلتُ: نعم!، فقالَ: اسمعْ منّي واحفظْ عنّي، ثمَّ أنشأَ يقول:

أسْــلَمُ يــا راحـــةَ العليـــلِ   رِفقـــاً علـــى الهـــائمِ النَّحيـــلِ

وصْـــلُكَ أشـــهَى إلى فـــؤادي   مِـــن رحمـــة الخـــالقِ الجليـــلِ

قال: فقلتُ له: اتّقِ اللهَ، ما هذه الكبيرة؟!، فقال لي: قدْ كان. قالَ: فخرجتُ عنهُ فوالله ما توسَّطتُ الدربَ حتَّى سمعتُ الصُّراخَ عليه وقد فارقَ الدنيا"[1].

وقد ذكرنا هذه القصة لِتكون دلالةً على أنَّ موت أحمد بن كليب مِن أجل معشوقِه أسلمِ كان موتاً حقيقياً، وأنَّ رثاءَهُ لِنفسه لم يكنْ، تبعاً لِذلك، رثاءً بلاغيّاً وحسب.

٢- حُبُّ الحياة:

إنَّ حبَّ الحياة كان باعثاً قويّاً، لدى كثيرٍ من الشعراء الأندلسيين، لِرثاء أنفسهم، حيثُ يشعرونَ، في بعض حالاتٍ تمرُّ بهم، بأنهم يجب ألاّ يموتوا فيفارقوا الحياة بما فيها من ملذّاتٍ ومسرّاتٍ ومُتَع، مهما كان تحصيلهم منها. يقول أبو الحسن بن الفضل الأريولي:

فــوا أســفاً أتُــدركُني المنايــا ولمْ أبــلُغْ مِــن الــدنيا مُــرادي؟

ومـا هـوَ غـير أنْ أُدعَـى وحـسبي حيـا الإخـوان أو حـرب الأعـادي[2]

فهو لا يريد أنْ يُصدّق أنَّ الحياةَ إلى زوال، بلْ يتمنَّى ألاّ يُدركه الموتُ، فإنَّ ذلك يستحق الأسف منه حقّاً، فلولاه لاستمرَّ يستمتع بمسرّات الحياة وملذّاتها. ويتّفقُ أبو عامر بن يَنَّق الشاطبي معه تماماً في تمنّي عدم الموت، دوام الحياة في دورةٍ تشبه اكتمال القمر ثم نقصانه فاكتماله مرةً أخرى وهكذا دائماً، ولكنه يؤكّدُ في الوقتِ نفسه أنْ لا سبيلَ إلى الخلود، فيقول:

ما أحسنَ العيشَ أو أنَّ الفتى أبـداً كالبـدرِ يرجـو تمامـاً بعـدَ نقـصانِ

إذْ لا ســبيلَ إلى تخلــيدِ مأثــرةٍ إذْ لا ســبيلَ إلى تخــليدِ جثمــانِ[3]

---

(١) أنظر في هذه القصة كذلك:مصارع العشاق:١/ ٢٩٧-٣٠٠، و معجم الأدباء: ٤/ ١١٥، والبداية والنهاية: ١٢/ ٣٨.

(٢) زاد المسافر: ص ٢٥٥، وأدباء مالقة: ص ٣٣٠.

(٣) نفح الطيب: ٣/ ٥٩٦.

وإذا هو لم يتحدَّثْ إلاّ عن نفسه فإنَّ أبا عبد الله الخشني (محمد بن عبد السلام بن ثعلبة) قد وجَّه الحديثَ، وهو يعاني سكرات الموت، إلى الآخر ينصحه بأنْ يتزوَّد من تلك الملذّات قبل أن يهجم عليه الموت:

بلَى، وكأنَّ الموتَ قد قضَّ مضجعي ... فَحوَّلَ منّي النفسَ بينَ تراقي
أخي إنما الدنيا محلّةُ فُرقةٍ ... ودار غرورٍ آذنتْ بفراقِ
تزوَّدْ أخي من قبل أنْ تسكن الثرى ... وتلتفّ ساقٌ للنشور بِساقِ[1]

ولكنَّ هذه النصائح لم يقبلها كلُّ الشعراء الأندلسيين، فهذا حُميد الأنصاري الذي شعر بالموتِ فأعرضَ عن الدنيا ولكنَّ صاحبتَه نصحتْه بأنْ لا يبكي الحياة قبلَ وقوع الموت، وأنْ يستمتع بما فيها من ملذّاتٍ حقَّ الاستمتاع، ولكنَّه رأى أنَّ ذلك إغراء لا سبيل إلى الانتصاح به:

ولمّا رأيتُ الشيبَ بيَّنَ صُبحَهُ ... وليلَ شبابي قد مضى لِسبيلِهِ
أقمتُ على نفسي فناء دليلها ... فضِرتُ بِوجهٍ مُعرِضٍ عن دليلهِ
وقالت: "تمتَّعْ من زمانكَ ساعةً ... ولا تبكيَنَّ الهولَ قبلَ نزولهِ
وبادرْ إلى لذاتِ ذاتِكَ واغتنمْ ... طلوعَ مُحيَّا البدرِ قبلَ أُفولِهِ
وغرَّتْ وما برَّتْ، ولكنْ أجبتُها ... "وكم ناصحٍ لي ما أَصختُ لِقِيلِهِ"[2]

وما فعله الأنصاري من ترك النصح في الإقبال على الحياة ومفاتنها، رفضَه كثيرون ممن يرونَ أنَّ في الحياة بقيةً يجبُ أنْ تُستهدَف، وأنَّ لديهم أمانيَ لم تتحقَّقْ بعدُ، وما أحراهم بتحقيقها إن استطاعوا. ومن أولئك الشعر محيي الدين بن سُراقة الذي يُمنِّي نفسَه كثيراً من الآمال، حتّى أنّ العمرَ ينقضي دون انقضائها:

إلى كمْ أمنّي النَّفْسَ ما لا تنالُه ... فيذهبُ عمري والأمانيُّ لا تُقضَى[3]

(١) جذوة المقتبس: ص٦٩، وبغية الملتمس: ص١٠٣-٤.
(٢) تاريخ الأدب العربي (فروخ): ٦/ ١٨٩ (عن الذيل والتكملة١/ ١٣٨-١٤٣).
(٣) فوات الوفيات: ٣/ ٢٤٥، ونفح الطيب: ٢/ ٦٤.

أما أبو الحجاج البلوي فيشكُّ في تحقُّقِ آمالِه في الحياة قبلَ أنْ يأزفَ الموت، مع حرصه الشديد على ذلك سواءٌ أكان في ذلك خيرٌ أمْ شرّ:

أُؤمّــلُ آمــالاً ولــستُ بِــعارفٍ ... أَأَبلُــغُها أمْ يبلــغُ المــوتُ قــبلَها
وللمَرءِ نفسٌ لا تـزالُ بِحرصِـها ... تَمَنَّــى وتَهــوَى أنْ تُبلِّــغَ سُؤْلَــها
وليستْ تُبالي مَـن سـفاهةِ رأيهـا ... أكـانَ عليهـا ذلـك الأمْـرُ أمْ لهـا[1]

ومَنْ يقرأ رثاءَ أبي عبد الرحمن بن طاهر لِنفسهِ "وقد نيفَ على التسعين"[2]، لا يجد عجباً في حرص سواه على الحياة، والتشبُّثِ بها. قالَ ابن طاهر عندما حضرتْه الوفاة:

هــذا الــذي خفــتُ أنْ يكــونْ ... إنّــا إلى الله راجعــونْ[3]

٣- الغُربـة:

شَدَّ كثيرٌ من الأندلسيين الرحال صوبَ المشرق لأسبابٍ مختلفةٍ تتراوحُ بين طلب الحجِّ، وطلب العِلْم، وطلب الرزقِ، وطلب السياحة، وطلبِ الأمْن، ونوازع شخصيةٍ أخرى. وهم في أثناء ذلك يُواجهونَ أنواعاً مختلفةً من المصاعب والمتاعب والمكابدات، قال أبو يحيى بن عاصم الغرناطي: (كان الابتلاء بما يُلقَى في السفر والاغتراب من أحوالٍ شديدة، ومشاقّ عظيمة، ومتاعب فادحة، ولواحق غائظة، حتى قِيلَ: "السفر قِطعةٌ من العذاب"، وقال صلى الله عليه وسلَّم: "المُسافر ومتاعُهُ على قَلَتٍ إلاّ ما وقَى الله"، القَلَتُ: الهلكة)[4]، ولهذا السبب قُرِنَ أمر الغياب والسفر بأمر الموت، قال ابن رشيق القيرواني: "ليسَ بين الغائبِ والميِّت إلاّ رجاء الأوبة"[5].

---

(١) أدباء مالقة: ص ٤٠٦.

(٢) قلائد العقيان: ص١٤٧.

(٣) نفسه.

(٤) جنة الرضا: ٢/١٤٣.

(٥) نفسه.

وقد عبَّر غير قليلٍ من الشعراء الأندلسيين عن الغربة بشكلٍ ما، غير أنَّ البعضَ الآخر رثى نفسه من خلالها، وهذا ما يهمنا هنا. مـن أولئك الشعراء حسّان بن أبي عبـدة، إذ هاجَ به الشوق وهو في حال السفر والاغتراب، وأصبح كلُّ شيءٍ يُذكّرُهُ بأهله ووطنه:

سـقَى بلـداً أهلـي بـهِ وأقاربـي ... غــوادٍ بأثقــالِ الحيــا وروائــحُ

وهبَّتْ عليهم بالعـشيِّ وبالـضحى ... نواســمُ مِــن بــردِ الظـلالُ فوائــحُ

تذكَّرتُهم والنأيُ قد حـالَ دونهـم ... ولم أنـسَ لكــن أوقَـدَ القلـبَ لافـحُ

ومما شـجاني هـاتفٌ فـوقَ أيكـةٍ ... ينــوحُ ولْمْ أعلــمْ بمــا هــو نائــحُ

فقلتُ اتَّئدْ يكفيكَ أنّـيَ نازحٌ وأنَّ الذي أهواهُ عنّيَ نـازحُ[1]

بل لقد أخذت تساوره الظنون بالموت قبل أن تطأ أرجله ترابَ الوطن مرةً أخرى، وقبلَ أن يلقَى صبيتَه الذي هم في انتظاره وليس لهم سواه:

ولـي صـبيةٌ مثـلَ الفـراخِ بقــفرةٍ ... مـضى حاضـناها فاطَّحتْهـا الطـوائحُ

إذا عصفتْ ريحٌ أقامـتْ رؤوسَـها ... فلــمْ تلــقَها إلاّ طــيورٌ بَــوارحُ

فَمَـنْ لِـصغارٍ بعـدَ فَــقْدِ أبــيهمُ ... سوى سانحٍ في الـدهرِ لـو عـنَّ سـانحُ

أما ابن خفاجة فهو يستشعر الغربة بعمقٍ شديد عندما تعصف به الذكريات وتختزل له حياته الماضية في معاهد لهوه وصباه في جزيرة شُقْر في صورةٍ متحركةٍ واحدة، وهو يُعاني من البعد عنها، والتشوّق إليها، وتنسلُّ أجزاء هذه الصورة عن جزيرةٍ جميلةٍ ذات نهرين وملتقى لهما، وعلى شُطآنها يُسمع غناء الطيور حيثُ الأشجار والظلال الوارفة، ويميِّزها مرجٌ أخَّاذ وكنيسةٌ تطلُّ على الشاطئ، وهي تكاد تأخذ العقول بجمالها حيث يحلو

---

(١) بغية الملتمس: ص٢٧١.

التسلّي والمرح والتثنّي في ثناياها رواحاً ومجيئاً، في الأماسي والصباحات كما تتثنّى غصونها الخضراء، ويطيب العيش:

بيـنَ شُـقْرٍ ومُلتقَـى نَهرَيهـا ... حيـثُ ألقـتْ بنـا الأمـاني عَـصاها
ويُغنّـي المُكَّـاءُ في شـاطئيها ... يـستخفُّ النُّهَـى فحلَّـتْ حُباهـا
عيـشةٌ أقبلـتْ يُـشهّى جَناهـا ... وارفٌ ظلُّهـا لـذيذٌ كَراهـا
لعبـتْ بـالعقول إلاّ قليـلاً ... بَـينَ تأويـبها وبَـينَ سُراهـا[1]
فانثنينـا مـع الغـصون غُـصوناً ... مَرَحـاً في بطاحهـا ورُبـاها

ولكنَّ هذه الصورة الزاهية سرعان ما فقدتْ وهجَها ورونقها، وأصبحتْ ذكرياتٍ مجرَّدة، ليس لها إلاَّ الذهن مأوى:

ثـمَّ ولَّـتْ كأنهـا لم تكـدْ ... تلبـثُ إلاّ عَـشيَّةً أو ضُحـاها
فانـدب المَـرْجَ فالكنـيسةَ ... فالـشطَّ وقُـلْ آهِ يـا مُعيـدَ هواهـا

وما هذا الوصف الذي يُقدِّمُهُ الشاعر إلاَّ تمهيدٌ ينوي من خلاله الولوج إلى بيت قصيده، وهو التعبير عن شعوره بالغربة والفراق الأزلي:

آهِ مـن غُربـةٍ تُرقـرقُ بثّـاً ... آهِ مـن رحلـةٍ تطـولُ نواهـا
آهِ مـن فُرقـةٍ لِغـيرِ تـلاقٍ ... آهِ مِـن دارٍ لا يُجيـبُ صَـداها

ولكنْ أيّ غربةٍ يتحدَّثُ عنها الشاعر وأي فُرقة، وأيّ رحلة؟، إنها غُربة النفس في هذا العالم، وفُرقة الشاعر بالحياة "لغير تلاق"، والرحلة عنها إلى الحياة الآخرة "رحلة تطول نواها"، وإذا كان الشاعر مهووساً بالطبيعة، فهل يمكنُ أنْ يكون المطرُ إلاَّ بُكاء على هذه الحياة الفانية، ومن الأجدر أنْ تبكيها عيناه إذا كان مِن وراء ذلك رَجاء:

---

(١) ديوانه: ص٣٦٤-٥.

لستُ أدري ومدمع المُزنِ رَطْبٌ   أبـكَاها صَـبابةً أم سَـقاها؟
فتعالَي يا عينُ نَبْكِ عليها   مِنْ حياةٍ إنْ كان يُغني بُكاها

وما ذاك إلاّ لأنَّ حياة الشاعر أصبحتْ في مأزق التلاشي والانتهاء، مع أنه مازال يتمنّاها، ويتعلّقُ بها قلبُهُ بأقوى الأسباب:

وشبابٍ قد فاتَ إلاَّ تناسيهِ   ونفْسٍ لم يبقَ إلاَّ شَجاها
ما لِعيني تبكي عليها وقلبي   يَتمنَّى سَوادُهُ لو فَداها؟

وهكذا يُصبح شعور ابن خفاجة بالغربة عن معاهد صباه معادلاً موضوعياً لشعوره بالغربة عن الحياة، ويكون مدخلاً لشعور الشاعر بتوديعها وشيكاً الوداع الأخير.

٤- الفخر:

رأى بعض الشعراء الأندلسيين في أنفسهم شيئاً غير قليلٍ من عزّة النفس والإباء والتحصيل، فحاولوا أنْ يفخروا بما لديهم من هذا على وفقِ تجاربهم وظروفهم الخاصة، فقد افتخرَ سعيد بن عبد ربه بأنَّ كبرياءَهُ لن تسمحَ له بأنْ يطلبَ رزقاً من مَخلوقٍ مهما كانت منزلته، " وكان جميلَ المذهبِ منقطعاً عن الملوك "[١]، لاسيما وقد وهبه الله كثيراً من العلوم والمواهب:

أَمِن بعدِ غوصي في علوم الحقائقِ   وطُولِ انبساطي في مواهبِ خالقي
وفي حين إشرافي على ملكوتهِ   أُرَى طالباً رزْقاً إلى غيرِ خالقي؟[٢]

ثمَّ إنه يرى أنَّ عمرَ الإنسان يمضي مسرعاً، بلْ لقد مضى عمرُهُ هو وأشرفَ على الموت الذي لا مفرَّ منه:

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ١/ ٤٩٠.
(٢) نفسه.

وأيـامُ عمـر المـرء مُـــتعةُ ساعـــةٍ تجـيءُ حثـــيثاً مثـــلَ لـــمحةِ بـــارقِ
وقد آذَنَتْ نفسي بِتقويضٍ رحلـها وأسـرعَ في سَـوقي إلى المـوتِ سـائقي
وإني وإنْ أوغلتُ أو سرتُ هاربـاً من الموتِ في الآفـاقِ فـالموتُ لاحقـي

وهذا الشعورُ نفسُه نجدُه منتشراً كثيراً في شعر ابن الحدّاد الوادي آشي، ومن ذلك الكثير ما وردَ معه ذكر الموت، وهو يفخر بما لديه من تبريزٍ في العلوم والفنون، ويرى أنَّ ذلك سيجعله خالداً على مدى الدهر بعدّ موته المُحَقَّق:

إلى الموتِ رُجعي بعدَ حينٍ فإنْ أَمُـتْ فقـدْ خلُـدتْ خُلْـدَ الزمـانِ مناقبي
وذكـــري في الآفـــاقِ طـــارَ كأنَّـــهُ بِكـلِّ لـسانٍ طِيْـبُ عـذراءَ كاعِـبِ
فـفي أيِّ عِلْـمٍ لمْ تُبـَرِّزْ سـوابقي ؟ وفي أيِّ فـــنٍّ لمْ تُبَـــرِّزْ كتـــائبي ؟[1]

٥- **الوصف:**

كانَ الوصفُ، على اختلاف أنواعه، باعثاً لمجموعةٍ من الشعراء لرثاء أنفسهم، وذلك من خلال المقارنة والتشبيه والتذكير، فقد ذكَّرتْ شمعةٌ، وهي تحترق وتذوب، ابن هانئ الأندلسي بِحالهِ الذي يُشبهها من حيثُ جملة أُمورٍ تتضح من خلال النصّ:

لقـد أشـبهتني شمعـةٌ في صـبابةٍ وفي هَـولِ مـا ألقَـى ومـا أتوقَّـعُ
نحـولٌ وحُـزنٌ في فَنـاءٍ ووَحـدةٍ وتـسهيدُ عَـينٍ واصـفرارٍ وأدمـعُ[2]

كما أوحَى حَمَّامٌ لابن حمديس أنْ يُشبّهه بنار جهنَّم، فقفزتْ إلى ذاكرته صورة تلك النار وكأنها تتَّقدُ في عظامه، فكان ذلك مما دفعَه إلى الاستغفار:

وحمَّـامِ سـوءٍ وخـيمِ الهـواء قليـلِ الميـاه كـثيرِ الزحـامِ

(١) مطمح الأنفس: ص ٣٣٧، ونفح الطيب: ٤/ ٤٩.
(٢) ديوانه: ص ٢١٠.

فمـــا للقيـــامِ قعـــودٌ بـــه ولا للقعـــودِ بـــهِ مِـــن قيـــامِ
حنيّاتُـــهُ قانـــصاتٌ لِنفـــسي وقَطْراتُـــهُ صـــائباتُ الـــسهامِ
ذكـــرتُ بـــهِ النـــارَ حتّـــى لقِـــدْ تخيَّلـــتُ إيقادَهـــا في عظـــامي
فيـــا ربِّ عفـــوَكَ عـــنْ مُـــذنبٍ يخـــافُ لقـــاءَكَ بعـــدَ الحِمـــامِ[1]

أما وصف الطبيعة فإنَّ للشعراء الأندلسيين الباعَ الطُّولى فيه، ولم يكن رثاءُ النفس استثناءً من ذلك، حيثُ وجدوا في عناصر الطبيعة ما يعاضد مشاعرهم وحالاتهم التي هم فيها، حتى تلك التي تتصلُ بالأسف والحزن على مفارقة الحياة. وهم هنا ينظرون إلى عناصر الطبيعة المتحركة خاصةً، فيعقدون التشبيهات والمقارنات المناسبة لذلك.

يسمعُ الألبيري حمامةً تُصوِّتُ فيرى في ذاك التصويتِ بُكاءً منها على مُصابٍ، فيسألها عما أصابها وأطالتْ بُكاءَها من أجله، ومهما يكُنْ من أمرٍ فإنه يشعر بِأنَّ ما فيه أضعاف ما فيها من الأسَى، فهو يبكي ما تعاظمَ من ذنوبِهِ، ويطلب من أجل ذلك رحمةَ ربه الذي هو مُلاقيه، وهي تبكي فراقَ مُؤنسها، ولذلك فالأمر، في نهاية المطاف، شتَّان بينهما:

أحمامــةَ البَيـــدا أطلـــتِ بُكـــاكِ فَبِحُسْنِ صـوتِكِ مـا الـذي أبكـاكِ؟
إنْ كانَ حقّاً مـا ظننـتُ فـإنْ بـي فـوقَ الـذي بـكِ مـن شـديدِ جـواكِ
إنّـي أظنُّـكِ قـد دُهيـتِ بِـفُرقةٍ مِـن مـؤنسٍ لـكِ فارتمـضتِ لِـذاكِ
لكنَّ ما أشكوه مـن فـرطِ الجـوى بِخـلاف مـا تجـدينَ مِـن شـكواكِ!
أنـا إنمـا أبكـي الـذنوبَ وأسـرَها ومُنـايَ في الـشكوى منـالُ فَكـاكي
وإذا بكيـتُ سـألتُ ربّـي رحمـةً وتجـاوزاً، فبُكـايَ غـيرُ بُكـاكِ ![2]

(١) ديوانه: ص ٥٥٩-٥٦٠.
(٢) ديوانه: ص٣٨-٩.

وكان المعتمد بن عبّاد قد أسهمَ في هذا الاتجاه أيضاً، ففي إحدى قصائدهِ بعد محنتهِ، ينظر إلى سرب القطا، ويحاول أنْ يعقد مقارنةً بين حاليهما، حيثُ سربُ القطا حرٌّ طليقٌ، وهو مكبّلٌ في الأسر، ويحنُّ إلى أيامٍ كان فيها مثل حال الحمائم الآن:

بكيتُ إلى سرب القَطا إذ مررنَ بي ... سوارحَ، لا سجنٌ يعوقُ ولا كَبْلُ
ولم تكُ - واللهِ المُعيدُ - حَسادةً ... ولكنْ حنيناً أنَّ شكْلي لها شَكْلُ
فأسرحُ، لا شملي صديعٌ، ولا الحشا ... وجيعٌ، ولا عيناي يُبكيهما ثُكْلُ
هنيئاً لها أنْ لم يُفَرَّقْ جَميعُها ... ولا ذاقَ منها البُعدَ مِن أهلِها أهلُ
وأنْ لم تبتْ مثلي تطيرُ قلوبُها ... إذا اهتزَّ بابُ السجنِ أو صلصلَ القفلُ
وما ذاكَ مما يعتريني، وإنّما ... وصفتُ الذي في جِبْلةِ الخَلْق مِن قبلُ

وهو يشعر أنَّ حياتَه لا تستوي مع هذه الحال، إنما الموتُ أهونُ وأسهل عليه من ذلك، ويشبّه القيودَ في ساقَيه بالحجالِ التي تلبسها النساء في سيقانهنَّ، وهُنَّ مَن يُحببنَ العيشَ معها وليسَ هو، فضلاً عن أنه لا يستطيع في حاله هذه أنْ يوفّرَ الحماية لِعائلته وبناته، أفليسَ هذا ما يستحقُّ معه أنْ يتمنّى الموت ؟:

لِنفسي إلى لُقيا الحِمامِ تشوُّقٌ ... سوايَ يُحبُّ العيشَ في ساقهِ حِجْلُ
ألا عَصَمَ اللهُ القَطا في فراخِها ... فإنَّ فِراخي خانَها الماءُ والظلُّ[1]

أما ابن خفاجة فله القِدْحُ المُعلّى في وصف الطبيعة، ولمْ يَفُتْهُ - طبعاً - أنْ يُخاطب عناصر الطبيعة في أشد حالاتِ توهُّجهِ الذهني ومعاناته الحيويّة، فعندما بلغ الستين من عمره وأحسَّ بِقرب نهاية حياته لجأَ إليها محاولاً أنْ يُشركها فيما هو فيه من الحسرة والألم والبكاءَ على عمره الذي ضاع بضياع شبابه، ولم يعد يملك غير الذكريات:

---

(١) ديوانه: ص ١١٠-١١١.

ألا ساجلْ دُموعي يا غَمامُ ... وطارحْني بشجْوِكَ يا حَمامُ
فقد وفَّيتُها ستّينَ حولاً ... ونادتْني ورائي هلْ أمامُ ؟
وكنتُ ومِن لُباناتي لُبَينَى ... هناكَ ومِن مراضعيَ المُدامُ
يُطالعنا الصباحُ ببطنِ حُزْوَى ... فيُنكرنا ويَعرفُنا الظلامُ

ولدى ابن خفاجة ميلٌ إلى معرفة ما سيحصل بعدَ موتِه، ولاسيما مع عناصر متعته المُحبَّبة في الحياة، فيذكر البشام، وهو شجرٌ طيب الراحة كانتْ له معه ذكريات تعزُّ على النسيان، ليدلَّ به على بقية العناصر التي ذكرها قبل قليل، وهو يودِّع الحياة-الشباب::

وكانَ ليَ البشامُ مَراحَ أُنسي ... فماذا بَعدَنا فعلَ البشامُ ؟
فيا شرخَ الشباب ألا لِقاءٌ ... يُبَلُّ به على يأسٍ أُوامُ ؟!
ويا ظلَّ الشبابِ وكنتَ تَندَى ... على أفياءِ سَرحَتكَ السلامُ! (١)

ولابدَّ من التعريجِ على قصيدتِه الشهيرة في وصف الجبل التي يتعرض من خلالها إلى فلسفة الحياة والموت، فقد اتخذَ من هذا الوصف ذريعةً لرثاءِ نفسه. وابن خفاجة، كما أرى، لم يكن يقصدُ وصفَ الجبلِ وصفاً مجرَّداً كما اعتاد الشعراء أنْ يصفوا عناصر الطبيعة، بل لقد اتخذَ من الجبلِ معادلاً موضوعياً لِشخصه، فلم يكن الجبل سوى ابن خفاجة نفسه!، فهو في لحظةٍ من لحظات التأمُّل والركون إلى النفس جعلَ يُحدِّثُ نفسَه، يُحدِّثُ ابنَ خفاجة- الجبل، فبماذا حَدَّثَ وماذا قال ؟:

وقالَ: إلى كمْ كنتُ ملجأَ فاتكٍ ... وموطنَ أوّاهٍ تبتَّلَ تائبِ
وكمْ مرَّ مِن مدلجٍ ومؤوِّبٍ ... وقالَ بظلّي مِن مطيٍّ وراكبِ
ولاطم مِن نُكبِ الرماح معاطفي ... وزاحمَ مِن خُضر البحار غواربي؟

---

(١) ديوانه: ص٦٤-٦٥.

لقد حدَّثَ ابنُ خفاجة-الجبلُ عمّا مرَّ بهِ من تجارب مع الآخرين في مختلف الحالات الإنسانية، وهو يتطلَّعُ إلى نهايةٍ لِما كانَ يحدثُ، ولاسيما أنَّ أولئك "الآخرين"، وهم أصحابُه ومريدوه، قد غيَّبهم الموت، فما عسى أنْ يفعل سوى أنْ يذرف الدموعَ حزناً على فراقهم الأبديّ:

فما كانَ إلاّ أنْ طوتْهم يدُ الردى ... وطارتْ بهم ريحُ النوى والنوائبِ
فما خَفْقُ أيكي غير رجفة أضلعٍ ... ولا نوحُ وُرْقي غير صرخة نادبِ
وما غيَّضَ السلوانُ دمعي، وإنما ... نزفتُ دموعي في فراق الأصاحِبِ

وبعدَ أنْ لم يبقَ له صاحبٌ، فإنه يشعر بأنَّه لابدَّ لاحقٌ بهم جميعاً، فليس من المنطقِ في شيءٍ أن يغادر الجميعُ الحياةَ ويبقى هو على حالٍ من الترقُّبِ والملل:

فحتَّى متَى أبقَى ويضعنُ صاحبٌ ... أودِّعُ منه راحلاً غيرَ آيبِ؟
وحتَّى متَى أرعَى الكواكبَ ساهراً ... فمِنْ طالعٍ أُخرى الليالي وغاربِ؟

وما دامَ الأمر متعلّقاً بالإحساس بمُغادرة الدنيا بعدَ أولئكَ الأصحاب، فإنَّ طلبَ الرحمة من الله سبحانه وتعالَى يكونُ وغاية ولزاماً:

فرُحماكَ يا مَولايَ دعوةَ ضارعٍ ... يَمدُّ إلى نُعماكَ راحةَ راغبِ

وأخيراً استطاع الجبل- ابن خفاجة أنْ يُقنعَ الشطرَ الثاني منه، بالوعظِ وسرد التجارب الشخصية والجدل المنطقي، أنَّ الحياةَ على الأرض هي موزَّعةٌ على مَن يُقيمُ مِنهم فيها، ومَنْ يُغادرها، فاقتنعَ واطمأَنَّتْ نفسُهُ:

فأسمعَني مِن وعظِهِ كلَّ عِبرةٍ ... يُترجمُها عنه لِسانُ التجاربِ
فسلَّى بِما أبكَى، وسرَّى بما شجى ... وكان على ليلِ السرى خيرَ صاحبِ
وقلتُ ومن نكَّبْتُ عنه لِطيَّةٍ ... سلامٌ فإنّا مِنْ مُقيمٌ وذاهبِ![1]

---

(١) ديوانه: ص٢١٦-٧.

وهكذا استغلَّ ابن خفاجة الطبيعة استغلالاً رائعاً في التعبير عن تجاربه في الحياة، وآخرها تجربة الموت، وحقّاً "استطاعَ في هذه القصيدة أن يُناجي الطبيعة على نسقٍ جديد لم يعهده الشعر العربي القديم"[1].

٦- الإخوانيات:

رسَّخَ أبو عامر بن شُهيد تقليدَ رثاء النفس من خلال مخاطبة أصدقائه المقرَّبين بالشعر، وهم شعراء كذلك، فاستدعَى ذلك هزَّ مشاعرهم والجواب على ما بدرَ منه شعراً، وكان قد "أنشأ في قرطبة علاقات إخوانية طيبة"[2]، و"اكتسب ودّ العديد من رجال العلم والأدب"[3] فيها.

قال ابن بسّام في كتابه "الذخيرة"[4]: "ونقلتُ من خطّ الفقيه أبي محمد عليّ بن حزم الشافعي قال: كتبَ إليَّ أبو عامر بن شهيد في علَّتِه التي اعتلَّها بهذه الأبيات:

ولمّا رأيتُ العيشَ ولَّى برأسهِ ... وأيقنتُ أنَّ الموتَ لاشكَّ لاحقي
تمنيتُ أني ساكنٌ في غيابةٍ ... بأعلَى مهبّ الريح في رأسِ شاهقِ
أذرُّ سقيط الحبِّ في فضل عيشةٍ ... وحيداً وحَسْيُ الماءِ تَبيُ المفالقِ
خليليَّ مَن ذاقَ المنيَّةَ مرةً ... فقد ذقتُها خمسينَ قولة صادقِ
كأني وقد حانَ ارتحاليَ لم أَفُزْ ... قديماً من الدنيا بلمحةِ بارقِ
فَمَنْ مُبلغٌ عنّي ابنَ حزْمٍ وكانَ لي ... يداً في مُلمّاتي وعندَ مَضايقي
عليكَ سلام الله إنّي مُفارقٌ ... وحسبُكَ زاداً مِن حبيبٍ مُفارقِ

(١) في الأدب الأندلسي: ص١٠٨.
(٢) تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة: ص ٢٨٣.
(٣) ملامح الشعر الأندلسي: ص١١١.
(٤) ٢٠٢/١.

فلا تنسَ تأبيني إذا ما فقدتَني ... وتذكار أيامي وفضلَ خلائقي
فلي في ادّكاري بعدَ موتيَ راحةٌ ... فلا تمنعونيها عُلالةَ زاهقِ"

فما كان من صديقه ابن حزم إلاّ أنْ أجابَه بهذه الأبيات:

أبا عامرٍ ناديتَ خِلاً مُصافياً ... يُفدِّيكَ مِن دهمِ الخطوب الطوارقِ
وألفيتَ قلباً مخلصاً لكَ مُمحضاً ... بودِّكَ موصولَ العُرَى والعلائقِ
شدائدُ يجلوها الإلاهُ بلطفِهِ ... فلا تأسَ إنَّ الدهرَ جمُّ المضايقِ
وربَّ أسيرٍ في يد الدهر مُطلَقٌ ... ومنطلِقٌ والدهرُ أسوقُ سائقِ
سفينةُ نوحٍ لم تَضِقْ بحلولِها ... وضاقَ بهم رحبُ الفلا المُتضايقِ
فإنْ تَنجُ قلتُ الحمد لله مخلصاً ... فَمِن أعظمِ النُّعمَى بقاءُ المَصادقِ[1]

ولم يكتفِ ابن شهيد بالكتابة إلى ابن حزمٍ في هذا الموضوع، وإنما كتبَ إلى غيره من الأصدقاء، وممن سمَّاهم في قصائده هذه شخصٌ اسمه "عمرو"، قال يُخاطبه:

أقرِ السلامَ على الأصحابِ أجمعهمْ ... وخُصَّ عمراً بأزكى نورِ تسليمِ
وقلْ له: يا أعزَّ الناسِ كُلِّهمُ ... شخصاً عليَّ وأولاهمْ بتكريمِ
الله جارُكَ من ذي مَنْعةٍ ظفرتْ ... منه الليالي بِعِلْقٍ غيرِ مذمومِ
ما كان حبّكَ إلاّ صوبَ غاديةٍ ... طيباً وحاشا لِحبّي فيكَ مِن لُومِ
إنْ شاءَ صرفُ الردى تقديمَ أطوعنا ... فقد رضيتُ – حماكَ الله – تقديمي
وإنْ أحبَّ الشرى جسماً لِيأكلَهُ ... أسمحْ بجسمي له يفديكَ تعظيمي
عشنا أليفينِ في برِّ الهوى زمناً ... حتَّى زَقَا بنوانا طائرُ الشومِ

(١) نفسه: ١/ ٢٠٣.

فـشتَّتتْ نُــوبُ الأيــامِ أُلفتَــنا   قَــسْراً ولم يُغنِهــا ظنّــي وتنجيمــي[1]

وكتبَ إلى شخصٍ آخر وصَفَه بالكوكب ولم يُسَمِّهِ:

أســتودعُ الله إخــواني وعــشرتهمْ   وكــلَّ خــرقٍ إلى العليــاءِ ســبَّاقِ
وفتيــةً كنجــومِ القــذفِ نيّــرُهم   يَهــدي، وصــائبهم يــودي بــإحراقِ
وكوكبــاً لــيَ مــنهم كــانَ مغربــه   قلــبي، ومــشرقه مــا بــين أطواقــي
الله يعلــمُ أنــي مــا أُفارقُــهُ   إلاّ وفي الــصدر منّــي حــرُّ مــشتاقِ
كنّــا ألــيفَينِ خــانَ الــدهرُ أُلفتنــا   وأيُّ حُــرٌ علــى صَــرْف الــردى بــاق؟
فــإنْ أعــشْ فلعــلَّ الــدهرَ يجمعُنــا   وإنْ أمُــتْ فسيــسقيهِ كــذا الــساقي
لا ضَــيَّعَ الله إلاّ مَــن يُــضيِّعُهُ   ومَــن تخلَّــقَ فيــه غــير أخلاقــي
قد كان بَرْدي إذا مـا مَـسَّني كلـفٌ   لا يــثلمُ الحــبُّ آدابــي وأخلاقــي
حتّى رمتْنا صروفُ الدهرِ عن كثبٍ   ففرَّقتنــا، وهــلْ مِــن صــرفِهِ واقــي ؟
إنّــي لأرمُقُــهُ والمـوتُ يـضغطـني   فأقتــضي فرجــةً مُرتــدَّ أرمــاقي[2]

غير أننا لم نعثرْ على ردودٍ على قصائده الأخرى التي وجَّهها إلى أصدقائه وإخوانه غيرِ أبيات ابن حزم المذكورة، فلعلهم لم يكونوا شعراء، أو لم يردُّوا عليه بالشعر، أو أنَّ ردودهم الشعرية قد ضاعتْ مع ما ضاع، وما أكثرَ ما ضاع، وهذا ما أُرجِّحُهُ، كما أرجِّحُ أنْ يكونَ قد كتبَ قصائد أخرى على هذا النهجِ، وفي هذا الموضوع ولكنها لم تصلْ إلينا، كما لم يصلْ إلينا ديوانٌ له مجموعٌ في وقتِه وبعد وفاته، كما يحقُّ لشاعرٍ مثله.

---

(١) ديوانه: ص١٢١.

(٢) ديوانه: ص١٠٤.

وقد التزمَ ابن شُهيد بقواعد الشعر الإخواني في إخوانياته، من حيثُ توجيه الخطابِ إلى شخصٍ بِعينه، فيناديه بضميره، أو يذكر اسمه، ويعبِّر له عن مشاعر شخصية، كما التزمَ ابنُ حزمٍ بها مِن حيثُ التطرُّقُ إلى موضوع إخوانية ابن شُهيد نفسه، ومن حيثُ النظم على القافية والوزن أنفسهما، في الإخوانية التي ردَّ بها.

٧- التذييل والإجازة:

كان للتذييلات والإجازات الشعرية إسهامٌ في إضافة نصوصٍ جديدة أُخرى إلى ما وصل إلينا في هذا الغرض، ففي باب التذييل ما ذكره ابن خميس المالقي في كتابه "أُدباء مالقة" في ترجمة محمد بن عبد الله الأنصاري المعروف بالبلنسي، قال[1]: "وحدَّثني -رحمه الله – أبو عمرو بن سالم، قال: حدثني الأديب أبو عبد الله البلنسي المذكور قال: كنتُ بقرطبة مع القاضي ابن الصفّار، فسقطتْ لهُ سِنُّهُ، فأنشد:

وفي كـلِّ يـومٍ يفقـدُ المـرءُ بعـضَهُ ... ولا بُـدَّ أنَّ الكـلَّ منـه سـيذهبُ[2]

قالَ: فارتجلتُ:

وفي كـل يـومٍ سـتزيدُ منيّتـي ... دنـوّاً وغـيري راحـلٌ ومـودِّعُ
أُشيِّـعُ أيّـامي وألـهو بغيرهـا ... كـأنَّ الـتي ولَّـتْ إلـيَّ سترجـعُ"

وذكرَ ابن حيّان الأندلسي في كتابه "المقتبس في تاريخ الأندلس"[3] في ترجمته لموسى بن محمد بن حدير حكايته في مجلس الأمير عبد الله بن محمد، قال: "شهدَ مجلس مذاكرة الأمير عبد الله بن محمد يوماً من ذلك، وهو حافلٌ بأهل الأدب والمعرفة وقد أفاضوا فيما كانوا يفيضون فيه من أبواب المذاكرة حتّى مرَّ ذكرُ الشيب وذمّه وكان الأمير

---

(١) ص١٠١-٢.

(٢) أظنُّ أنَّ الأصلَ: ستُزمعُ بدلاً من: ستذهبُ، لضرورة التذييل ارتجالاً.

(٣) ص٥٥.

عبد الله شديد الكُره له، فقال لجلسائه: أيّ شيء ترونه في ذمٍّ الشيب أبلغ؟، فلم يحضرْ لأحدٍ شيءٌ إلاّ موسى بن محمد فقال: أحسنُ ما قيلَ عندي قول الأول:

أقول لضيف الشيب إذْ حلّ مفرقي ... نصيبُكَ مني جفوةٌ وقُطوبُ

حرامٌ علينا أنْ تنالك عندنا ... كرامةُ برٍّ أو يمسَّكَ طِيبُ

فاستحسنها الأمير وقال: أكتبها لنا يا موسى، وزدنا إنْ كانت فيها عندك زيادة، فقال له: والله يا سيدي ما عندي فيها مزيد، وتباطأ الوصيفُ بإحضار الدرج والدواة إلى موسى، وموسى مُطرقٌ إلى أنْ تأتأ له القول في الزيادة التي استمطرها منه الأمير، فقال: قد جاءني، يا سيدي، بِسَعدكَ، بعضُ الذي أردته، واندفعَ فوصَلَ البيتين:

فيا شرَّ ضيفٍ حلَّ بي وحلوله ... يخبّرني أنَّ الممات قريبُ

وأنَّ جديدي كلَّ يومٍ إلى بِلَى ... وأنيَ من ثوب الشبابِ سليبُ

فما طيب عيش المرء إلاّ شبابه ... وليس إذا ما بان عنه يطيبُ

سأقريكَ يا ضيف المشيب قِرى القِلَى ... فمالكَ عندي في سواه نصيبُ

وأبكي على ما قد مضى من شبيبتي ... بُكاءَ محبٌّ قد جفاهُ حبيبُ

مضى مُسلِماً لهفي عليه مدى المدى ... فليس إلى يوم التنادي يؤوبُ[1]

فسُرَّ الأمير عبد الله بما أتاه ... من موسى وأثنى على قريحته."

وجاء في "نفح الطيب"[2] للمقّري ذكر قول بعض قدماء الأندلس:

سئمتُ الحياة على حبها ... وحُقَّ لذي السقم أن يسأما

فلا عيشَ إلاّ لذي صحةٍ ... تكونُ له للتُّقى سُلّما

---

(١) في الأصل:سأرقيك، ويؤب.

(٢) ٤/٣٤٣.

فذيَّله آخرُ منهم فقال:

ولا داءَ إلاّ لمـــن لم يـــزلْ ... يُقـــاربُ في دينـــه مأثمـــا

فلـــستَ تُعـــالج جـــرح الهـــوى ... هُـــديتَ بمثـــل التُّقـــى مَرهـــما

ومن طريف التذييلات ما ذيَّلَه ابن النشا الوادي آشي لبيتِ شعرٍ سمعه من هاتفٍ أنشده له في المنام قبلَ موته، والبيت هو:

يـــا لهـــفَ قلـــبي علـــى شبابـــي ... كنـــتُ أليفـــاً فعُـــدتُ لامـــا

فذَيَّلَه بقوله:

وقـــد ذهـــبَ الأطيبـــانِ مـــني ... وانـــصرمتْ لـــذّتي انـــصراما

ورقَّ جلـــدي ورقَّ عظمـــي ... وأشـــبهتْ لُمَّـــتي الثـــغاما

وقـــلَّ نـــومي فليـــتَ أنـــي ... بُـــدِّلتُ مـــن عيـــشتي الحِمامـــا

فلـــيس لـــي في الحيـــاة خـــيرٌ ... ولـــستُ أرجـــو لـــه دوامـــا

فكيـــفَ ألهـــو بهـــا وسُـــقمي ... قـــد خـــالطَ الجـــسم والعظامـــا

ونـــاظري مـــا يحـــقُّ مـــرأى ... ومـــسمعي مـــا يعـــي كلامـــا

وقـــوتي قـــد وهـــتْ فمـــا إنْ ... أُطيـــقُ مـــشياً ولا قيامـــا

يُبـــدلُ مَـــن عـــاش مـــن قـــوامٍ ... حنـــاً ومـــن صـــحةٍ ســـقاما

ولـــيس ذا منكـــراً علـــى مَـــن ... مـــرّتْ عليـــه سبعـــون عامـــا

وعـــن قريـــبٍ أُحـــلُّ قـــبراً ... أُطيـــل في قعـــره المُـــقاما

فبلّـــغوا مَـــن لقيتمـــوه ... بَعـــدي يـــا أخـــوتي الـــسلاما[1]

---

(١) بغية الوعاة: ١/ ٤١٧.

أما الإجازات فمنها إجازة ابن مرج الكحل لقول رجلٍ "الحمدُ لله على كل حال"، فقيلَ له: هذا موزونٌ فأجِزْهُ، فأجازَه ولكنه رثى نفسه من خلال ذلك:

الحمـدُ لله علـى كـلِّ حـالْ   بِحـالِ حـلٍّ وبِحـالِ ارتحـالْ
بَـدأَنـا عـنْ قُـدرةٍ أوَّلاً   ثـمَّ يُعيـدُ البَـدءَ بعـدَ اسـتحالْ
أرواحُنـا دَيـنٌ لآجالنـا   ومَلِـكُ المـوت عليهـا مُحـالْ
يقتادنـا المـوتُ وأعمـارُنا   كأنهـا العـيسُ ونحـنُ الرحـالْ
يـا تاركـاً أوزارَهُ بَعـدَهُ   باقيـةً لم تـستحلْ واسـتحالْ
إنـا إلى الله وإنّـا لـهُ   نُعامِـلُ الله بهـذا المحـالْ
هـل ينفـعُ النفسَ علـى ضعفها   مِـحالها عنـدَ شـديد المحـالْ
لا تنتحـلْ غـيرَ التُّقـى خطَّـةً   فـإنّ تقـوى الله خـير انتحـالْ[1]
واسـتغفر الله علـى مـا مـضى   وجـدِّد التوبـةَ في كـل حـالْ
واذكـرْ إذا حلْـتَ فكـمْ نـادمٍ   لمْ يُغنـهِ مِـن نـدمٍ حـينَ حـالْ
قـرَّتْ عيـونٌ شـاهداتٌ لهـا   بِنـورِ مَـن تـشهدُ فيـه اكتحـالْ[2]

ومن ذلك ما أورده ابن الأبار في كتابه "تحفة القادم"[3] في ترجمة أبي بكر بن ولاّد حيثُ "كان لابن ولاّد هذا حفيدٌ صغير يتعلَّمُ في الكُتّاب فتغدّى معه يوماً وقد خَبَرَ منه نُبلاً وفِطنةً، فسأله إجازةَ قوله:

أكلنـا الخُبـزَ مـصبوغاً بزيـتِ

(١) في الأصل: غير انتحال.

(٢) ابن مرج الكحل سيرته وشعره: ص١٣٣، وشعر ابن مرج الكحل-جمع وتوثيق وتقديم مصطفى الغديري- مجلة كلية الآداب- وجدة- العدد الخامس-١٩٩٥.

(٣) ص٣٧.

فقال الصبي:

غـــذاءً نافعـــاً في وسْـــطِ بيـــتِ

فقال ابن ولّاد:

فلـــو شـــيءٌ يـــردُّ الميـــتَ حيَّـــاً

فقال الصبي:

لكـــانَ الخبـــزُ يُحيـــي كـــلَّ مَيْـــتِ"

٨- موت الآخر- الاعتبار:

كان الإسهامُ في جنازةٍ، أو في مراسم دفنٍ، أو رؤية ميتٍ، أو مجرَّد السماع بميِّتٍ باعثاً قويّاً لكثير من الشعراء على رثاء أنفسهم، وكأنَّ ذلك تذكيرٌ لهم بالموت، أو هو باعث على شعورهم بأنهم في الأثر من ذلك الميت، ويدخل ذلك في باب الاعتبار.

كان يحيى بن حكم الغزال يسكن إلى جانب مقابر الربض والنهر بقرطبة، فأثار مشاعره إحدى مراسم الدفنِ في تلك المقابر، وهو في حالٍ خاصةٍ من حالاته، فنظمَ هذه القصيدة التي يصفُ فيها حاله ومسكنه بالقرب من تلك المقابر، وكيف أن الذي يدخل فيها من الموتى، على مرأىً منه، لا يعود، وكيفَ أن عليه أن يتفكَّر، فلابد من أنه يوماً سيكون بينهم:

أيا لاهيـاً في القـصر قـربَ المقـابرِ ... يــرى كــلَّ يــومٍ وارداً غــيرَ صــادرِ

كأنك قد أيقنتَ أنْ لـستَ صـائراً ... غـداً بيـنهم في بعـض تلـك الحفـائرِ

تراهم فيلهو بالشرابِ وبعـض مـا ... تـــلذُّ بـــهِ مـــن نقـــرِ تلـــكَ المزاهـــرِ

وما أنتَ بالمغبون عقلاً ولا حجـىً ... ولا بقليـــلِ العِلـــمِ عنـــدَ التخايـــرِ

وفي ذاك ما أغناكَ عن كـل واعـظٍ ... شـفيقٍ، ومـا أغنـاك عـن كـل زاجـرِ

وكم نعمةٍ يعصي بهـا العبـدُ ربَّـه ... وبلـوى عدتْـه عـن ركـوب الكبـائرِ

ستـرحلُ عـن هـذا وإنـك قــادمٌ		وما أنتَ في شكٌ على غـير عـاذرِ![1]

وعندما مات صديقٌ للألبيري أسهمَ في دفنه فانتابه شعور بأنه لاحقٌ به، لاسيما هو لم يكن الأول من بين أصحابه الذين يودعهم لهذا السبب، وقد تجسَّد لديه هذا الشعور في هذه الأبيات:

تمـرُّ لِـداتي واحــداً بعـدَ واحـدِ		وأعلــمُ أنــي بعــدَهم غــيرُ خالــدِ
وأحمــلُ موتــاهم وأشــهدُ دفـنَهم		كــأني بعيــدٌ مــنهمُ غــيرُ شــاهدِ
فهـا أنـا في علمـي بهـم وجهـالتي		كمــستيقظٍ يرنــو بمُقلــةِ راقــدِ[2]

والشيءُ نفسه حدثَ مع ابن أبي زمنين، فقال:

الموتُ في كـل حـينٍ تنـشرُ الكَفَنـا		ونحــنُ في غفلــةٍ عــما يُــرادُ بنــا
لا تطمـئنَّ إلى الـدنيا وبهجــتها		وإنْ توشّــحتَ مــن أثوابهــا الحّــسَنا
أينَ الأحبَّةُ والجيران؟ ما فعلـوا		أيــن الــذين هــمُ كــانوا لنــا سكنــا
سقاهمُ الموتُ كأسـاً غـير صـافيةٍ		فــصيَّرتْهم لأطبــاق الثــرى رُهُــنا
يبكي المنـازل مـنهم كـلٌ منسجمٍ		بالمكرمــات وتــرثي الــبرَّ والمنــنا
حسْبُ الحِمام لَوَ ابقاهمْ وأمهلـهمْ		أنْ لا يظــنَّ علــى معلــوَّةٍ حَــسَنا[3]

قال ابن بسَّام في كتابه "الذخيرة"[4] عن ابن شُهيد وهو في أثناء مرضه قبل موته أنه لما نُعي إليه أبو جعفر اللمائي قال قصيدته التي منها:

---

(١) ديوانه: ص٨١-٢.

(٢) ديوانه: ص١١٨، ونفح الطيب: ٤/ ١١٣.

(٣) نفح الطيب: ٣/ ٥٥٤.

(٤) ١/ ٢٠٣.

أهدى اللمائيُّ من أزهار فكرتهِ نشراً فقال الدجى: مرَّ اللمائيُّ
فقيلَ مات فقال الليل قارب ذا فانهلَّ من مقلتي نوءٌ سِماكيُّ
وبتُّ فرداً أُناجي مقلتي شغفاً كأنني في ثقوب الدار جنيُّ
لا عشتُ إنْ متَّ لي يا واحدي أبداً وموتنا واحدٌ لا شكَّ مَرئيُّ
إنَّ الكريم إذا ما مات صاحبُهُ أودى به الوجد والثُّكلُ الطبيعيُّ
إني إلى الله من عُقبَى بُليتُ بها جرى بها الحكمُ والأمرُ الإلهيُّ

وعندما نُعيَ أبو عامر ابن شهيد نفسُهُ إلى أبي الحسن عبد الرحمن بن راشد الراشدي قال:

لمّا نعى الناعي أبا عامرِ أيقنتُ أنّي لستُ بالصابرِ(١)

وأنشدَ محمد بن سعد بن لب بن حسن بن بقي في إثر مواراة جنازة:

كم أرى مُدمِنَ لهوٍ ودَعَةْ لستُ أخلو ساعةً مِن تَبِعةْ
كان لي عُذرٌ لدى عصر الصبا وأنا آملُ في العُمر سَعَةْ
أوَما يُوقظنا مِن حالِنا ألف لقبرهِ قد شيَّعَهْ(٢)
فدعوني ساعةً أبكي على عُمُرٍ أمسيتُ ممن ضَيَّعَهْ(٣)

ومما يجري في هذا المجرى ما رواهُ المقّري في كتابه "نفح الطيب"(٤) قال: "خرج الوزير أبو بكر ابن عمّار والوزير أبو الوليد ابن زيدون ومعهما الوزير ابن خلدون من

(١) بغية الملتمس: ص ٧٧، ونفح الطيب: ٣/ ٢٦٣.
(٢) هذا العجز مختل الوزن.
(٣) نيل الابتهاج بتطريز الديباج: ص ٤٦١.
(٤) ٣/ ٢٤٢-٤.

أشبيلية إلى منظرةٍ لِبني عبّاد بِموضعٍ يُقالُ له الفَنْت تحفُّ بها مروجٌ مشرقة الأنوار، متنسّمة الأنجاد والأغوار، متبسّمةٌ عن ثغور النُّوَّار، في زمان ربيعٍ سقت الأرضَ السحُبُ فيه بوسميِّها ووليِّها، وجَلَتها في زاهر ملبسها وباهر حليها، وأرداف الربى قد تأزرت بالأُزرِ الخضر من نباتها، وأجياد الجداول قد نظمَ النُّوار قلائدَهُ حولَ لبّاتها، ومجامر الزهر تعطر النسائمِ عندَ هبّاتها، وهناكَ من البهار ما يُزري على مَداهن النُّضار، ومن النرجس الريّان ما يهزأ بنواعس الأجفان، وقد نوَوَا الانفراد للهو والطرب، والتنزُّه في روضي النبات والأدب، وبعثوا صاحباً لهم يُسمَّى خليفة وهو قوام لذتـهم، ونظام مسرتـهم، لِيأتـيَهم بِنبيذٍ يُـذهبون الـهمَّ بِذهـبِه في لُجين زُجاجه، ويرمونـه منه بما يقضـي بِتحريكه للهَـرب عن القلوب وإزعاجـه، وجلسوا لانتظـاره، وتَـرقُّب عَوْده على آثـاره، فلمّـا بصروا به مقبلاً من أول الفـجِّ بادروا إلى لقائـه، وسارعوا إلى نحوهِ وتلقائه، واتفقَ أنَّ فارساً من الجندِ ركضَ فرسُهُ فَصدَمه ووطِئَ عليه فهشَّمَ أعظمَه وأجرى دمَه، وكسرَ قُمعُلَ النبيذ الذي كان معه، وفرَّقَ من شملهم ما كان الدهرُ قد جَمعَه، ومضى على غُلوائه راكضاً حتى خفيَ عن العين، خائفاً من متعلقٍ به يحين بِتعلقهِ الحَين، وحين وصل الوزراء إليه، تأسفوا عليه، وأفاضوا في ذكر الزمان وعدوانه، والخطب وألوانه، ودخوله بِطَوَامٍّ المضرات، على تمام المسرَّات، وتكديره الأوقات المنعمات، بالآفات المؤلمات، فقال ابن زيدون:

أنلـهو والحتـوفُ بِنـا مُطِيفَـهْ ... ونـأمنُ والمَنـونُ لَنـا مُـخيفهْ ؟

فقال ابن خلدون:

وفي يـومٍ ومـا أدراكَ يـومٌ ... مـضَى قمعالُنـا ومـضى خليفـهْ

فقال ابن عمّار:

هُـما فَـخّارتا راحٍ وروحٍ ... تَكـسَّرتا فأَشْـقافٌ وجِيفـهْ"



٩- رثاء الآخر – الفَقْد:

كان فقد الأحباب والأقرباء والأصدقاء ممن لهم مكانة خاصة في نفوس بعض الشعراء باعثاً قوياً للإحساس بالنهاية الحقيقية للحياة، التي هي نهاية السرور وانطفاء جذوة الأمل وذبول زهرة الأماني، ونراهم، لهذا السبب، يعبِّرون عن هذا الفقد بلوعةٍ وأسىً شديدين، من خلال قصائد الرثاء التي ينظمونها، حتَّى تستحيل هذه القصائد التي تندرجُ في غرض رثاء الآخر إلى رثاءٍ للنفس، لما تتضمنه من قوَّةٍ في العاطفة، وصدقٍ في الأحاسيس والمشاعر، وما تتضمنه كذلك من عباراتٍ صريحةٍ في ذلك، وهذا هو الذي يجعلنا نخصُّها بالذكر والدرس دون سواها من قصائد رثاء الآخر. إنها قصائد تتقطَّر منها سيولٌ من الآهات الملتهبة، وتطفح بحزن الفاقد، ولوعة الفقد الذي هو غالباً فقدٌ للذات أيضاً.

ولعلّنا لا نجدُ فقداً أعظم في إيلامهِ من فقد الأبناء، وهو شيءٌ يؤكِّدُهُ الشاعر ابن عبد ربه وهو أبٌ فقَدَ اثنين من أبنائه:

واكَبِدا قد تقطَّعتْ كَبِدي ... وحَرَّقتْها لواعجُ الكَمَدِ

ما ماتَ حيٌّ لِميِّتٍ أسَفاً ... أَعذرُ مِن والدٍ على وَلَدِ

وما أكثر ما يفقد الآباء الشعراء العرب، فضلاً عن الأندلسيين، أبناءهم ويسجلون هذا الفقد في قصائدهم، فكيف رثى الشعراء الأندلسيون أنفسهم من خلال رثائهم لأبنائهم؟.

تُحيط بابن عبد ربه ذكرى وفاة أحد ولديه وهو أبو بكرٍ ويُسمَّى يحيى، ولكنَّ أساه يتجدد وكأنَّ فقْدَه حدثَ تواً، ولذلك فهو دائم البكاء فاقد الصبر ولاسيما أنَّ اللقاء به متَعَذّرٌ بعدُ، وأخيراً فهو يتمنَّى لو يتوسَّد القبرَ بدلاً منه:

بليتْ عظامُكَ والأسَى يتجدَّدَ ... والصبرُ ينفدُ والبُكا لا ينفدُ

يا غائباً لا يُرتجَى لإيابهِ ... ولقائهِ دون القيامةِ مَوعدُ

مـا كـان أحـسنَ مَلْحَـداً ضُـمِّنَتْهُ	لـو كـانَ ضَـمَّ أبـاكَ ذاكَ المَلْحَـدُ!

وعندما فقدَ أبو الوليد الباجي ابنه محمداً أُصيبَ بالفجاءة، فقد كان يظنُّ أنه سيموت بعده، وما دام ماتَ ولدُه فإنه لاحقٌ به، وخلال ذلك أخذتْ تتضاعف أحزانه، وأصبح يرى خياله ويسمع صوته في كل مكان، بل يراه في كل قبر:

فلقـد علمـتُ بـأنني بـكَ لاحـقٌ	مِـن بعـد ظـني أنـني متـقدِّمُ
لله ذكـرٌ لا يـزال بِخاطـري	متـصرِّفٌ في صـبره مـتحكِّمُ
فـإذا نظـرتُ فشخـصُهُ مُتخَيَّـلٌ	وإذا أصـختُ فـصوتُهُ مُتـوَهَّمُ
وبكلِّ أرضٍ لي من اجلـكَ لوعـةٌ	وبكـلِّ قبـرٍ وقفـةٌ وتلـوُّمُ(1)

وقد رثى ابن حمديس نفسه قبل أن يرثي ابنتَهُ في قصيدةٍ طويلةٍ تفيضُ أسىً ولوعةً وشجَناً يصف فيها الموت وكأنه شخص يراه، ويحسُّ به في حركة يديه ورجليه، أما نَفَسُهُ الذي يصعدُ وينـزلُ شهيقاً وزفيراً فما هو من أجل نَفْسٍ باقية، خاصةً وقد بلغ الثمانين من عمره:

أرى الموتَ في عيني تَخيَّلَ شخصُه	ولـي عـمُرٌ في مثلـهِ يتَّقـي مثلـي
وكادتْ يدٌ منـهُ تـشدُّ علـى يـدي	ورِجْلٌ له بالقرب تمشي علـى رجلـي
وفي مـدِّ أنفاسـي لـديَّ وجزرهـا	بـقاءٌ لِـنفسٍ غـيرُ متَّـصل الحبْـلِ
ثمـانون عامـاً عـشتُها ووجـدتُها	تـهدمُ مـا تـبني وتخفـضُ مَـنْ تُعلـي

وبعدَ ستة أبياتٍ يدخلُ في ذكر مُصابه بابنتِهِ التي خطفَها الموتُ غدراً، بعدَ أنْ أحسَنَ صَونها وتربيتها على التُّقى، وزوَّجَها رجلاً كريماً ما أخَلَّتْ بعِشْرتِهِ شيئاً، راجعاً مرةً أُخرى إلى ذكر الموت، ولكنَّ رجوعه هذه المرة من أجلها:

---

(1) قلائد العقيان: ص٤٦١، والذخيرة: ٢/ ٥٩، ونفح الطيب: ٢/ ٧٥.

رجعــتُ إلى ذكــر الحِمــامِ فإنــه لــه زَمَــنٌ مــلآنُ بالغــدرِ والخَــتْلِ
وكم لَقْـوةٍ مـن قلـة النيـقِ حطَّهـا إلى حيــثُ تُفنيهــا الذبابــةُ بالأكــلِ
وقـسورةٍ أفـضى إلى نـزعِ روحـه وشــقّ إليهــا بــينَ أنيابــه العُــصْلُ
فمـا للـردى مـن منهـلٍ لا نُـسيغُهُ وواردُهُ يغنــى عــن العــلِّ بالنَّهْــلِ
فيـا غرسـةً للأجـرِ كنـتُ نقلتُهـا إلى كنَفَــيْ صَــوني وألحفتُهــا ظلّــي
وأنكحتُها مِن بعلِ صـدقٍ حَمدتُـهُ كريمـاً فلـمْ تَـذمُمْ معاشـرة البَعْـلِ[1]

ويسترسلُ في بُكائيته هذه بينَ مُتذكرٍ لما كان من خبر موته الذي بلغها فناحتْ وأقامتْ مأتماً من أجله، ولم يتحققْ موته، ومن خبر موتها الذي تنَاهَى إليه، وكيفَ دبَّ الموتُ فيها، ونواحه من أجلها حقيقةً، وبينَ مناجاتها والتعبير لها عما حصلَ له من مصابٍ فيها، وما تركته وراءها من أطفالٍ صغارٍ كأفراخ الحمامة وقد صيدتْ من قبل نسر، وبين الدعاء لها والاستسقاء لقبرها[2].

وعلى نحو ما فعل ابن حمديس من تقديم رثائه لِنفسه وهو يرثي ابنتـه، فعلَ ابن الجياب الغرناطي في خلال رثائه لِولدِهِ أبي القاسم، في قصيدةٍ طويلةٍ أيضاً منذ البيت الأول، مقرراً أنَّ فراقه الأبدي قد حصلَ فعلاً، ولذلك فإنَّ من اللازم أن يموتَ أسىً عليه، ومن اللازم عليه أن يلومَ نفسه، وقد فعل، إذا لم يـمُتْ، فقد كان أبو القاسم بمثابة روحـه وقد أودعَها القبر، فما معنَى أنْ يعيشَ بعدَه؟:

هو البينُ حتماً، لا لعلَّ ولا عسى فما بالُ نفسي لم تَفِضْ عندَه أسـى؟
وما لِفؤادي لم يَـذُبْ منه حسرةً فَتَـبَّاً لهـذا القلـبِ سَـرعانَ مـا قَسَا !
ومـا لِجفـوني لا تفـيض مـورَّداً مِـن الـدمع يهمـي تـارةً ومورَّسـا؟

---

(١) في الديوان: من بعد صدق.

(٢) أنظر ديوانه: ٣٦٤-٣٦٧.

ومـا لِـلـساني مُفـصـحاً بِخطابِـه		ومـا كـان لـو أوفـى بعهـد لِـينبـسا؟
أَمِن بعد ما أودعتُ روحيَ في الثرى		ووسَّـدتُ مـني فلـذةَ القلـبِ مَرمَـسـا

وهو بعد أن ودَّع ابنَه أبا القاسم الوداع الأخير لم في الحياة ما يؤمِّلها فيها، ويستوي عندَه الموت والحياة، ولهذا السبب أصبحتْ دُنياه قبراً لا يجد فيه غير الخواء والإفلاس من كل شيء:

وبعد فراقِ ابنيْ أبي القاسمِ الـذي		كـسانيَ ثـوبَ الثُّكْـلِ لا كـان مَلبَـسـا
أؤمِّـل في الـدنيا حيـاةً وأرتـضـي		مَقـيـلاً لــدى أبـنائهـــا ومُعَـرَّســـا
فآهـاً وللمفجـوعِ فيهـا استراحةٌ		و لا بـــدَّ للمـــصدورِ أن يتنفَّـــسا
علـى عُــمُرٍ أفنيـتُ فيـه بـضاعتي		فأسـلَمني لِلقبـــرِ حـــيرانَ مُفلِـــسا

وتستمرُّ القصيدةُ على نحوٍ تتفطَّر مِن أجله القلوب، من اللوعة المريرة والحزن البالغ، ومُناجاةٍ لابـنه، ووصفٍ لِما خلَّفه له من ضروب القهر والمعاناة[1].

ومثل هذه اللوعة والمشاعر الفيَّاضة بالأسى والحزن المرير يتقَدَّمُها رثاء النفس، لا نجدها في رثاء الأبناء لآبائهم إلاّ نادراً. ومن قصائد رثاء النفس في رثاء الآباء قصيدة ابن مطروح التجيبي التي يبدأها بتوجيه الخطاب إليه بهدوءٍ واستسلامٍ يسيطر عليه الطابع الديني المطمئن لِقضاء الله ومشيئته وقدره، في إطارٍ من الإيمان بأنَّ الأرواح دَينٌ للدائن حقٌّ استرداده متى يشاء، متحدِّثاً بضمير الجماعة:

دعـــاكَ فلبَّـــتَ داعـــي الـــبلا		وفارقـــتَ أهلـــكَ لا عـــن قِلـــى
رمتْـكَ وسـهم الـردى صـائبٌ		شَـــعوبٌ فمـــا أخطـــأتْ مَقـــتلا
تقاضـــاك منّـــا الغـــريمُ الـــذي		أبَـــى قَـــدَرُ الله أنْ يـمطلـــا
أيـــا ضـــاعناً هـــدَّنا فَـــقدُهُ		جميعـــاً ألَمْ يـــأنِ لأنْ نَـــقفُلا؟

(١) أنظر القصيدة في نفح الطيب: ٥/ ٤٣٨-٤٤٠.

ثمَّ ينتقل إلى الحديث بضميره هو فيُبدي ما أثَّره فيه فقدُ أبيه من الحنينِ والذهول ساعةَ ذكراه:

أحـــنُّ إلى مَـــوردٍ أَمَّـــه   وإنْ لم يكـــنْ مَـــورداً سلـــسلا
وأُذهـــلُ مهمـــا دعـــوا باسمـــه   وحُـــقَّ لِـــمثليَ أنْ يـــذهلا

وأخيراً يتوصل إلى رثاء نفسه والتعبير عن مأساته في فقد أبيه، ويضعُ لها المبرر الذي يراه لازماً، من حيثُ أن أباه كان أصلاً له، وبانهدام أصله لابد من أن ينهدمَ هو وشيكاً، وهذا هو الذي هوَّن عليه فقْدَه:

وهـــوَّنَ وجـــدي علـــى فَقْـــدِه   لحـــاقي بِـــه بعْـــدُ مُـــستعجِلا
إذا جـــفَّ مِـــن شـــجرٍ أصـــلُهُ   فلابـــدَّ للفـــرعِ أنْ يذبُـــلا[1]

وابن مطروح في قصيدته هذه يبدو منظَّم الأفكار، واعياً لما يفعل، فقد أحكمَ فيها التسلسل العاطفي، وأودَعها المنطق، وغلَّفها بالإيمان والاستسلام للحدَث، ولم يكن حزنُه كافياً للإخلال في ذلك، وهذا ما بَدَّدَ حرارة العاطفة فيها.

ولا يَصدقُ هذا في قصيدة ابن الزقاق البلنسي في رثاء أخيه "حَسَن" وقد ذكر اسمه في القصيدة كما يذكر الآباء أسماء أبنائهم خلال رثائهم لهم، فقد افتتحَـها بمطلعٍ قويٍّ، وضمَّنها كلَّ حارٍّ وصادقٍ وهائجٍ من العواطف، وبقيتْ حتى آخر بيت فيها على مستوىً واحدٍ من اللوعة والحزن والإحساس بفداحة الفقد.

يعبِّر ابن الزقاق عن مُصابه بفقد أخيه وكيفَ أفقدَه الإحساس بالحياة وما فيها من ملذّات على الدوام، في القسم الأول من القصيدة:

مُصابكَ ما كـرَّ الجديـدانِ سـَرمدُ   ويومُـكَ لا يُنـسيهِ يـومٌ ولا غَـدُ
ثكلتُـكَ ثُكـلَ المَـشرفيِّ غُـروبَـه   وبـالغربِ يَـسطو المـشرفيُّ المُـهنَّدُ

(١) الوافي بالوفيات: ١٧/ ٥٥٤.

فرحتَ كَمَنْ راحتْ بنانُ يمينهِ عن اليدِ فاعتلَّتْ لِفرقتها اليدُ
وقد كنتَ كالعذبِ الزلال إذا صفا فلمْ يصفُ لي مُذْ غِبتَ يومٌ ولا غدُ
ولا راقني سهلُ البلاد وحَزْنُها ولو أنَّ ما يَخضرُّ منها زبرجدُ
أُقابلُ منها كلَّ حُسنٍ وبهجةٍ كما قابلَ الشمسَ المُنيرةَ أرمدُ

ويسترسلُ على هذا النحو من توصيف مُصابه والسلام على قبره والاستسقاء له، حتى يصل إلى رثاء نفسه من خلال نفاد صبرهِ وتجلُّدِه، ثمَّ شعورهِ بوشكِ موته على أثره، فلم يعد يعنيه من الحياة شيء بعدَه، ولا تستطيع أنْ تعوِّض عنه بِشيء حتَّى الخلود فيها، ناصّاً على اسمه:

على "حَسَنٍ" أُفني دموعيَ حَسرةً ومِن بعضِ ما أُفني: العَزا والتجلُّدُ
سأبكيهِ ما حجَّ الحجيجُ وما دعا هديلاً على الأيكِ الحَمامُ المُغرِّدُ
يقولونَ عاثتْ في أخيكَ يدُ البلى فواحرَّ قلبي مِن أسىً يَتجدَّدُ
لئنْ نَفِدتْ أيّامُهُ إنَّ لوعتي على قِدَمِ الأيام ما ليسَ تَنفَدُ
أفكِّرُ في نأْيِ اللقاءِ وبُعْدِهِ وأعلمُ أنَّ الصبْرَ أنأَى وأَبعَدُ
ويُخبرني وَشْكُ الردى بِلحاقِهِ فأرتاحُ لليومِ [الذي فيهِ أُلْحَدُ](١)
وما زهرةُ الدنيا تَفي بِذهابِهِ ولو قِيلَ: أَبشِرْ أنتَ فيها مُخَلَّدُ

وهكذا يستمرُّ تدفُّق أحاسيسِ ابن الزقاق البلنسي الطافحة بالألم والحسرة و الحزن على مدى ثمانيةٍ وعشرين بيتاً أُخرى تالية، دونَ أنْ تَفتُر.

وتُنافسُ هذه القصيدةَ في قوة النظمِ وحرارة العاطفة وصدقها وغرضها قصيدة مقدم بن معافَى المالقي التي يرثي بها أخاً له يُكنَى أبا مروان ويرثي نفسه منذ البيت الأول، وهي طويلة(٢) يقول في أولِّها:

---

(١) ما بين المعقوفين من عندنا تقديراً.

(٢) أنظر أدباء مالقة: ص ١٩٧-٨.

عليكَ أبا مروانَ يومَ النوى كـدتُ أمـوتُ ولـو أنـي أمـوتُ تروَّحْـتُ

حتى يقول:

مُصابُ أبي مروان أفنَى تـجلُّدي فـصبريَ مقطـوعُ الحبائـلِ مُنـبَتَّ
تجـرَّعَ كـأسَ المـوتِ دونـيَ ليتَـهُ يُـؤخَّرُ عـن ذاك المقـامِ وقـدْ مـتُّ
بـهِ كنـتُ ألتـذُّ الحيـاةَ وإنْ غـدا صـريعَ المنايـا مـا أُبـالي متَـى مـتُّ
فقدتُ بفقدي شخـصه كـل راحـةٍ وكـلَّ سـرورٍ يـومَ ودَّعَ ودَّعْـتُ
وعُوِّضْتُ من أُنسي به الحزنَ والأسَى ومـن جمـع شملـي بـالتفرُّقِ عُوِّضـتُ
سأبكي عليه مـا بقيـتُ وإنْ أمُـتْ سيبكيه من بعدي الرثـاءُ الـذي قلـتُ

وقصيدة أبي بكر بن رُحيم الطويلة[1] أيضاً التي يرثي بها ثلاثةً من إخوانه تَخَطَّفَهم الموتُ على التوالي هم: أبو العباس ورحيم ويحيى، ويرثي نفسه من خلال ذلك قائلاً:

لِذلكَ سلَّ البرقُ صفحةَ نَصلِهِ وصلصلَ صوتُ الرعدِ خوفـاً علـى فَقـدي
ألَمْ يـأنِ للأيـامِ أنْ تقـضيَ النـوى وتبكي كما يبكي الغمامُ علـى بُـعدي؟
طوى التّربُ أنجـاداً بِتُـدميرَ دارِهـا فيا ليتَ شعري أينَ يُحفَرُ لي لِحـدي؟

ويقتربُ من مثل هذه الأحاسيس، وهذا المستوى من قوة النظم وحرارة العاطفة، عبد الله بن أبي عاصم القيسي في قصيدته التي رثى بها خالَه، ومطلعها:

هو الخطْبُ هل عجَّتْ بهِ قيسُ غـيلانِ نشيج الحجيج استقبلوا شِـعبَ نعمـانِ

---

(١) انظر قلائد العقيان: ص ٣٠٤-٣٠٥.

وقد رثى في آخرها نفسه، حيثُ كان يشعرُ بأنَّ روحَهُ يسكنُ في قبرِ خاله، وإنْ لم يكنْ جُثمانُه كذلك، ومع ذلك فهو متأكِّدٌ من أنه لاحقٌ بخالِه، غير لابثٍ في الحياة، وقد كان يظنُّ مِن قبلُ أنَّ الحياة هي الجنَّة على الأرض، قال:

ولكنني أغشاهُ بالروحِ زائراً وإنْ لمْ يَزُرْهُ مُذْ خبا الحدُّ جثماني
وإنّي بهِ عمَّا قريبٍ لَلاحِقٌ وظَنِّيَ أنَّ الدار جنَّةُ رضوانِ

وهي قصيدةٌ طويلةٌ أيضاً بلغت الخمسين بيتاً[1]، قالَ عنها أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر: "هي قصيدة بارعة"[2].

أما رثاء الزوجات فيبدو باعثاً قوياً لِرثاء النفس في الشعر الأندلسي، فقد صدَرَ الشعراءُ فيه عن عاطفةٍ قويةٍ ومشاعر حبٍّ صادقة، وعن ألمٍ مُمضٍّ، وحسرةٍ ولوعةٍ جبّارتَين لِفَقْدِهنَّ، فجاءت قصائدهم تنبضُ بالحرارة، وقوة النظم، وسيولة القريحة، وجَودة السبك، وطول النَّفَسِ الشعري، وقد رأينا أنْ نختارَ ثلاثة نماذج من النصوص الشعرية، لِتدلَّ على جملة ما قيلَ في هذا الغرض.

فَعلى مدى سِتِّين بيتاً رثى أبو إسحاق الألبيري[3] زوجتَه في مُقدمتها، ثمَّ عرَّجَ على رثاء نفسِهِ. أحاطَ الألبيري قبرَ زوجته بمعاني التعطُّر بالتُّقَى والتعفُّف والإعراق والطهارة، وهي صفاتها، وهذه الصفاتُ تَنُمُّ عن القبر وتدلُّ عليه كالعَرفِ العاطر، أما هو فمصدوعٌ بموتها صدعاً لا جابرَ له، وهو مع ذلك يشعر وكأنها مازالتْ على قيد الحياة، يُوفِّيها حقوقها، ويُوفي بعهودها أبدَ الدهر، إذْ لم يرَ منها إلاّ أكرمَ عِشرةٍ وأبرَّ مُعاشِر:

عُجْ بالمطيِّ على اليبابِ الغامرِ واربَعْ على قبرٍ تضمَّنَ ناظري

---

(١) أنظر نثير فرائد الجمان: ص ٣١٤-٣١٨.

(٢) نفسه: ص ٣١٤.

(٣) ديوانه: ص٩٠-٩٤.

فستـــستبينُ مكائـــه بـــضجيعِهِ ويــنمُّ منــع إليــكَ عَــرفُ العاطـــرِ
فلكـم تـضمَّنَ مِـن تُقـىً وتعفُّـفٍ وكـــريمِ أعـــراقٍ وعِـــرضٍ طاهــــرِ
واقرِ السلامَ عليـه مـن ذي لوعـةٍ صَــدَعتْهُ صــدعاً مــا لــه مــن جــابرِ
فَعساهُ يسمحُ لي بوصلٍ في الكرى مُتعاهـــداً لـــي بالخيـــال الزائـــرِ
فأُعلـلُ القلـب العليـلَ بِطيفـــهِ علّــي أُوافيـــهِ ولـــستُ بِغـــادرِ
إنــي لأســتحييه وهـــو مُغَـــيَّبٌ في لـــــحدهِ فكأنـــــه كـــــالحاضرِ
أرعــى أذمَّتَـــه وأحفـــظُ عهـدَه عنـدي فمـا يجـري سـواهُ بِخـاطري
إنْ كـانَ يَـدثُرُ جـسمه في رمـسهِ فـــهوايَ فيـــه الـــدهرَ لـــيسَ بِداثِـــرِ
قطع الزمـانَ معـي بِـأكرمِ عِـشرةٍ لَـــهفي عليـــهِ مِـــن أَبَـــرِّ مُعاشِـــرِ

ثُمَّ يتمنَّى لو انه ماتَ يومَ ماتتْ زوجتُه، فلو كانَ فعلَ ذلك لكان مُنصِفاً، وهو معَ ذلك لا يرتجي دوامَ العيش وقد أصبحَ شيخاً بلغَ الستّينَ من العمر، بل يرتجي أنْ يلقَى ربه في المعاد وقد وفّى ما بِذمتِه من حقوقه، لاسيما وقد أصابَ من الحياةِ كفايته من الحاجات المادية والمعنوية، ولم يبقَ إلاَّ التلاقي في سباق الآخرة، وهناكَ يُختَبَرُ الإيمان الحقُّ، ويُرَى مَن هو بالجنة والمغفرة أولَى:

ولـــو انـــني أنـــصفتُهُ في ودّهِ لَقــضيتُ يــومَ قــضَى ولمْ أســتأخرِ!
وشققتُ في خِلْبِ الفـؤادِ ضَـريحَه وسقيتُـــهُ أبـــداً بِمـــاء محـــاجري
مَنْ جـاوزَ الـستّينَ لمْ يَـجمُلْ بـهِ شُـــغلٌ بِجُمْـــلٍ والـــربابِ وغـــادرِ
بـــلْ شُغلُـــهُ في زادهِ لِـــمَعادِهِ فـــالزادُ آكَـــدُ شُـــغلِ كُـــلِّ مُـــسافِرِ
ولقد أصبتُ من المطـاعمِ حـاجتي ومِـن الملابـسِ فـوقَ مـا هـوَ سـاتري
وأنـــا لعمـــركَ مُكـــرَمٌ في جيرتـــي ومُــــعَظَّمٌ ومُـــبَجَّلٌ بِعـــشائري

وغــداً بميـدانِ الـسباقِ سـنلتقي   فَــيُرى الثقيـلُ مِـن الخفيـفِ الـضامِرِ
والويلُ كل الويـل لـي إنْ لم يكـنْ   مـولايَ في تلـك الـشدائدِ ناصـري!

وعلى نحو ما صنعَ الألبيري في رثاء زوجته، صنعَ لسان الدين بن الخطيب في رثائه لزوجته التي تُوفيتْ وهو يُعاني من مرارة الغربة والنكبة في مدينة سلا، وقد نسبَ إليها في مقدمة قصيدته جملةَ أوصافٍ معنوية، قال[1]: "طرقني ما كدَّرَ شُربي ونغَّصَ عيشي من وفاة أم الولد عن أصاغر زُغبِ الحواصل بين ذكرانٍ وإناث في بلد الغربة وتحت سرادق الوحشة، ودون أذيال النكبة، فجلَّتْ عليها حسرتي واشتدَّ جزعي، إذْ كانتْ واحدة نساء زمانِها جزالةً وصبراً ومكارمَ أخلاقٍ، حازت بذلك الشهرة حيثُ حلَّتْ في القطرين، فدفنتُها بالبستان المتصل بالدار بمدينة سلا، ووقفتُ على قبرها الحبسَ المغلّ لِمتولّي القراءة دائماً عليها، وصدرَ عني مما كُتبَ على ضريحها وقد أغرى به التنويه والاحتفال:

روَّعَ بـالي وهـاجَ بلـبالي   وسـامني الثُّكـلَ بعـدَ إقبـالِ
ذخيرتـي حـين خـانني زمـني   وعُـدَّتي في اشـتدادِ أهـوالِ
حفـرتُ في داري الـضريحَ لهـا   تَعلُّـلاً بالمُحـالِ في الحـالِ
وغِبطـةٌ تُـوهمُ المقـام مـعي   وكيـفَ لـي بعـدَها بإمهـالِ
سـقَى الحيـا قـبرَكِ الغريـبَ ولا   زالَ مناخـاً لكـلِّ هطَّـالِ
قد كنتِ مـالي لما اقتضى زمني   ذهـابَ مـالي وكنـتِ آمـالي
أمـا وقـد غـابَ في تـرابِ سـلا   وجهُـكِ عنّـي فلـستُ بالـسالي
والله حزنـي لا كـانَ بعـدُ علـى   ذلـك الـشباب الجديـد البـالي

(١) نفاضة الجراب في علالة الاغتراب: ص٢٠٥.



وبعدَ هذا الرثاء الهادئ لزوجته ينتقل ابن الخطيب إلى رثاء نفسه في إطار من مناجاتها على وجهٍ من أوجه الشوق إليها، وإلى اللحاقِ بها والسكن لديها، مقرراً أنَّ ذلك سيكون عمّا قريب، ولذلك يطلبُ منها انتظارَه في قبرها:

فـــانتظريني فالـــشوقُ يُقلقُـــني — ويقتـــضي ســـرعتي وإعجـــالي

ومَهِّـــدي لـــي لـــديكِ مـــضجعاً — فعـــنْ قريـــبٍ يكـــونُ ترحـــالي"

وتنمُّ هذه القصيدة، بما فيها من برودٍ وهدوء، عن نفسية ابن الخطيب الهادئة المطمئنة إلى قدرها المحتوم، حتَّى لَيُخيَّل إلى القارئ أنها قصيدة تقليدية تخلو من حرارة العاطفة، وصِدْق المشاعر، وما ذاك إلاّ لأنَّ ابن الخطيب كان في منتهى اليأسِ وانقطاع الأمل، وربما كان موتُ زوجته هو فقدان آخر ما يملك في الدنيا، بعدَ أن اهتزَّتْ به، وزلزلتْ كيانه، وفقدَ كلَّ ما كان يرجوه منها، وأصبح يشعر في هذه المرحلة، وهو السياسي المُحنَّك، والأديب الخبير، أنَّ ما يستقبلُ من الزمان هو أسوأُ مما مضى منه، وأنَّ مجده إلى زوالٍ نهائيّ.

هذا فضلاً عن أنَّ عُمْرَ ابن الخطيب، وقد تقدَّمَ، ووضعَه ووضع زوجته الاجتماعي والمعنوي لم تكنْ لِتسمح له بما سمحتْ لابن حمديس، إذْ انتشلَ موجُ البحرِ زوجته "جوهرة" من أمام عينيه، بعد أنْ عَطِبَ المركبُ الذي كانا فيه معاً لِمغادرة الأندلس إلى إفريقية، وكانتْ، على ما يبدو من قصيدته التي رثاها بها[1]، صغيرةَ العمر، فائقة الجَمال، وهذا ما جعلَه يبدأ رثاءه لها بما يُشبه الغزل، بلْ جعلَ هذا لوناً تلوَّنتْ به مُعظمُ أجزاء القصيدة، وهو غزلٌ مشحونٌ بالأسى واللوعة والحزن، تدفَّقتْ فيه المشاعرُ حارةً صادقةً.

وكلُّ وصفٍ أو تشبيه فيه لِزوجته ممتزجٌ بآهةٍ وسيلٍ من الدموع، وعلى هذا النحو امتزجتْ، كذلك، براعةُ ابن حمديس الفنية في إحكام نسيج القصيدة وبنائها، بآلامه

(١) ديوانه: ص٢١٢-٣.

المُمضّة، وحزنه الشديد على فقْدِه لها، فجاءت القصيدة وكأنها لوحةٌ فائقة القدرة على التجسيد، دقيقة التعبير بالألوان المتناسقة على الرغم من كثرتها وتداخلها وتضاربها.

ولعلَّ الإطالة في التغزُّلِ بالزوجة المرثية وإبراز محاسنها ومفاتنها الجسدية وكأنها حيةٌ ترصدها العيون، ليسَ أمراً شائعاً في الشعر العربي على النحو الذي طرقه ابن حمديس، أو هو ليس بالأمر المُستساغ في مثل هذه المواقف، مواقف الحزن والفجيعة، وقد أراد ابن حمديس بذلك تعظيمَ مُصابه بموتها، فكما يُظنُّ أنها لم تُخلِّفْ له أبناء، وصغرها لم يتركْ له كثيرَ ذكريات، مع قصر مدة الزواج بها، فلم يبرزْ أمامَ عينيه وهو يرثيها غير صفاتها المادية وشيءٍ قليلٍ من صفاتها المعنوية اكتفَى بالإشارة إليها:

أيا رشاقة غصن البانِ ما هَصَرَكْ ؟ ... ويا تألُّفَ نظم الشمل مَنْ نَثَرَكْ ؟

ويا شؤوني، وشأني كُلُّهُ حَزَنٌ ... فُضِّي يواقيتَ دمعي واحبسي دُرَرَكْ !

ما خلتُ قلبي وتبريحي يُقَلِّبُهُ ... إلاَّ جناحَ قطاةٍ في اعتقالِ شَرَكْ

لا صَبرَ عنكِ وكيفَ الصبرُ عنكِ وقدْ ... طَواكِ عن عينيَ المَوجُ الذي نَشَرَكْ ؟

هلاّ، وروضةُ ذاكَ الحُسْنِ ناضرةٌ، ... لا تلحظُ العينُ فيها ذابلاً زَهَرَكْ

أماتَكِ البحرُ ذو التيّارِ مِن حَسَدٍ ... لمَّا دَرَى الدُّرُّ منهُ حاسداً ثَغَرَكْ!

وقعتُ في الدمعِ إذْ أُغرقتِ في لُججٍ ... قد كانَ يغمرُني منهُ الذي غمَرَكْ

أيُّ الثلاثةِ أبكي فَقْدَهُ بِدمٍ ... عميمَ خُلْقِكِ أمْ معناكِ أمْ صِغَرَك ؟

ويتجلَّى في هذه الأبيات رثاؤهُ لِرشاقة غُصن البان، وروضة الحُسن الناضرة، وذات الثغر الدريّ، الصغيرة ذات المعاني الباهرة، ولم يكتفِ بكل هذه الأوصاف الماديّة حتى استرسلَ في إضافة أوصافٍ أُخرى خلالَ مناجاته للبحرِ وعتبه إيّاه، فهو يفترضُ أنَّ تفتير مقلتها كان يجب أنْ يسحر البحرَ فيشغله عن ابتلاعها، كما أنَّ على حلاوة ريقها أنَّ تُخفّفَ من حِدَّة مائه الأُجاج، أمَّا بعدَ أنْ كُسفَ وجهُها البدر، وقد فارقَت الحياة جِسمَها فلا بدَّ له من الحزن الدائم:

أقولُ للبحرِ إذْ أغشيتُهُ نظري ... ما كدَّرَ العيشَ إلاَّ شُربها كَدَرَكْ
هلاَّ كففتَ أُجاجاً منكَ عن أُشَرٍ ... مِن ثغرِ لمياءَ لولا ضعفها أسَرَكْ!
هلاّ نظرتَ إلى تفتير مُقلتِها ... إني لأعجبُ منهُ كيفَ ما سَحَرَكْ!
يا وجه جوهرةَ المحجوب عن بصري ... مَن ذا يقيكَ كسوفاً قد علا قمرَكْ؟
يا جِسمَها كيفَ أخلو مِن جوى حَزَني ... وأنتَ خالٍ من الروحِ الذي عَمَرَكْ؟

أفلا يَستحقُّ فَقْدُهُ لكلِّ هذه الصفاتِ في "جوهرتِهِ" أنْ يرثي نفسه في مواجهة الموت؟، لقد فعلَ ذلك حقاً، فقد رأى أنه ليس من العيب أنْ يفنَى من أجلها، أو على إثرها، فقد كانَ يرى فيها شبابَهُ الذي لا عوضَ عنه، وبفقدِه فَقَدَ هو حياتَه كلَّها:

مِن أينَ يقبحُ أنْ أفنَى عليكِ أسىً ... والحُسنُ في كلِّ فنٍّ يقتفي أثَرَكْ ؟!
كنتِ الشبيبةَ إذْ ولَّتْ ولا عِوضٌ ... منها ولو رَبِحَ الدنيا الذي خَسِرَكْ!

وفي آخر الأمرِ فإنَّ الشاعر لم يكنْ راغباً في البقاء على قيد الحياة بعدَها، ولكنَّ عُمرَه قَصَرَ عمرَها على عكسِ ما كان يهوَى:

وما نجوتُ بِنفْسٍ عنكِ راغبةٍ ... وإنما مَدَّ عُمْري قاصِراً عُمُرَكْ!

وهو المعنى نفسُهُ الذي أكَّدَهُ الأعمى التُّطيلي في رثائه لِزوجتِه، ولكنَّه أضافَ إليه حُسْنَ تعليلهِ لِبقائه على قيد الحياة بعدَها، إذْ قال:

ولا تعذليني إنْ أقمتُ فربَّما ... تأخرَ بي سَعْيي وأثقلني وِزري![1]

وفي ختامِ كلامنا على بواعث رثاء النفس في الشعر الأندلسي لابدَّ لنا من أنْ نشير إلى أنَّ هناكَ باعثَين آخرين ، ولكنهما يندرجان في جملة البواعث الأخرى، فأما الباعث

---

(١) ديوانه: ص ٧٠.

الأول فهو الباعثُ الذاتي، وأقصدُ به أنَّ هناكَ دافعاً شخصياً محضاً يدفعُ الشاعرَ إلى رثاء نفسه، وهذا الباعث هو الذي جعل رعيلاً من الشعراء يرثون أنفسهم، بينما امتنعَ الآخرون، وما أكثرهم، عن رثاء أنفسهم.

وأما الباعثُ الثاني فهو التقليد، وأعني به أنَّ كثيراً من الشعراء الأندلسيين رثوا أنفسهم من باب تقليد شعراء سبقوهم، أو أنهم أرادوا أنْ يُسهموا في هذا الغرض كما كان لِغيرهم إسهامٌ فيه، نظراً لشيوع النظم فيه، أو قبول الناس له.

وهذان الباعثان لا يختصَّان بهذا الغرض الشعري دون سواه، كما أرى، ولكنهما يشملان كلَّ الأغراض الشعرية بنسبٍ متفاوتةٍ تُحدِّدُها عواملُ مختلفة كثيرة ليس هذا مكان الخوض فيها.

كما لا بُدَّ مِن الإشارة إلى أنَّ بواعث رثاء النفس في الشعر الأندلسي قد بلغتْ من الكثرة حَدّاً سمح للشاعر الأندلسي أنْ يرثيَ نفسه أكثرَ من مرةٍ أحياناً ، وربما عدةَ مرات، وذلك بحسب ظروفه وتجاربه الخاصة، والحالات التي يمر بها في مراحل حياته كما مرَّ بنا في هذا الفصل، فمرةً يزهدُ في الدنيا ويملها، ومرةً ثانيةً يتعرَّضُ لعقوبة السلطان، ومرةً ثالثةً يوصي بالكتابة على قبره، ورابعةً يحتضر، وهكذا، وهو في ذلك كَمَنْ يحرصُ على تسجيل أهم حوادثِ حياته حتى آخر لحظةٍ منها.

الفصل الثالث

الرثاء السياسي

يتناول هذا الفصل دراسة النصوص الشعرية المتعلقة بغرض رثاء النفس مما صدرَ عن طائفةٍ مختارةٍ مِن عِلْية القوم من رجال سياسةٍ وقيادةٍ ونفوذٍ وتأثيرٍ في الأندلس، في الحقب المختلفة. ولهذا السبب فإن هذا الفصل يُعنَى بالظروف السياسية التي أَلـمَّتْ بهؤلاء الرجال الشعراء (السلاطين)، وبظروف رثائهم لأنفسهم شعراً، وقد اشتمل البحثُ على أهم ما أمكنَ أنْ يشكِّلَ هذه الظاهرة مِن شعراء ومن نصوص شعرية، وأن يرسم لها صورةً شاملةً ودقيقة قائمةً على الترتيب الزمني.

١- هاشم بن عبد العزيز يرثي نفسه

كان هاشم بن عبد العزيز "خاصاً بالأمير محمد بن عبد الرحمن: يؤثرهُ بالوزارة، ويرشحهُ مع بنيهِ -ومفرداً- للقيادة والإمارة، وولاّهُ كورة جيان، وعلى يده بُنِيتْ أبدةُ وأكثرُ معاقلها المنيعة، وهو أحد رجالات الموالي المروانية بالأندلس"(١)، ولما تولّى المنذرُ بعدَ أبيه ولاّهُ الحجابة، ولكنه سرعان ما قَتَلَهُ "شَرَّ قتلةٍ، بعدَ السجن والعذاب"(٢)، حيثُ "وثبَ عليه، وسجنه وأثقلَه بالحديد، وذكرَهُ ما أسلفه مِن ذنوبه الموبقة، ثم أخرجه، وأتى به إلى دارٍ عظيمةٍ كان قد شيَّدها، وقصرَ عليها جميع أمانيه، وضربَ عنقَه فيها، وفتكَ في أولاده ومخلَّفيه أشدَّ الفتك، وشفى غيظَه الكامن"(٣).

ذكر ابن الأبار في كتابه "الحلة السيراء"(٤) " أنّ المنذر بن محمد استُخلفَ يومَ الأحد لثلاثٍ خلونَ مِن شهر ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين ومائتين، بعد وفاة أبيه بأربع ليالٍ، إذ كان غازياً بِناحية ريَّة، فأغذَّ السيرَ ودخلَ القصرَ يومَ الأحد وصلّى على أبيه ... ولما قدمَ المنذرُ نزلَ في السطح وقعدَ للبيعة في ثياب سفره، وربما اتّكأَ على فراشه لما كان أخذه من النصَب وألم السفر لِطيِّهِ المراحل. فلما دخل الناسُ قام هاشم

---

(١) الحلة السيراء: ١/ ١٣٧.
(٢) المغرب في حلى المغرب:٢/ ٩٤.
(٣) نفسه: ١ـ٥٣.
(٤) ١/ ١٣٨.

وبيده كتاب البيعة فافتتحَ قراءته، فلما بلغَ إلى ذكر الإمام محمد خنقتْه العبرةُ، فلم يبنْ كلامُه. ثمَّ استدركَ أمرَه ورجعَ مِن أول الكتاب، حتى إذا انتهى إلى الموضع الذي انتهى إليه أولاً أخذه أيضاً الحصرُ، فلحظه المنذرُ لحظةً منكرة، رآها منه هاشم فمضى في قراءة الكتاب حتى أكمله. فلم يشكَّ كلُّ مَن رأى تلك اللحظةَ أنه قاتلُه".

ولم تذكر المصادر الأسباب الحقيقية لحقد المنذر بن محمد عليه، غير أن ابن سعيد الأندلسي في كتابه "المغرب في حلى المَغرب"[1] ينصُّ على أنه "عظمَ قدرُهُ بِقرطبة عندَ سلطان الأندلس محمد بن عبد الرحمن، حتى صيَّرَه أَخصَّ وزرائهِ وأسندَ إليه أُمورَ بلادهِ وعساكره، وكانَ تيَّاهاً مُعجباً كثيرَ الاعتماد على ما يُحقِدُ بهِ قلوبَ العباد، حتى ملأَ الصدورَ مِن بغضِه. وقدَّمه محمد على جيشٍ توجَّهَ به إلى غرب الأندلس، فهُزِمَ، وحصلَ في الأسر، واضطربتْ الأندلس بسوء تدبيرهِ، ثم فداهُ السلطانُ، وعادَ إلى مكانه"، فلعلَّ عظيمَ ما حصل عليه هاشم بن عبد العزيز من السلطة والقدر في عهد محمد بن عبد الرحمن، مع سوءٍ في أخلاقه وفي تدبيره كان مما أوغر صدر المنذر عليه، فضلاً عما ذكره ابن الأبار من أنه " لما وُضعَ نعش الإمام محمد على قبرِهِ، ألقى هاشم رداءه وقلنسوته ودخل القبر وبكى بُكاءً شديداً، ثم قال متمثلاً وهو يقبر:

أُعــزّي يــا محمــدُ عنــكَ نفــسي　　　معــــاذَ الله والمِــــنن الجِــــسامِ
فهــــلاّ مــــاتَ قــــومٌ لم يموتــــوا　　　ودُوفِــعَ عنــكَ لــي كــأسُ الحِمــامِ

فكان ذلك مما أوقد عليه موجدة المنذر، والبيتان لأبي نواس الحسن بن هانئ يقولهما في محمد الأمين حينَ قُتل"[2]، فلعلَّ ذهن المنذر انصرفَ عند عبارة " قومٌ لم يموتوا" فظنَّ أنه يقصدُهُ بها.

ولكنَّ الغريب في الأمر حقاً أنْ يرفعَ المنذرُ من قدرهِ ويُعلي من شأنه حتَّى يوليه الحجابة، فيصبح الرجل الثاني في السلطة والدولة، ثم يفتكَ به وينكبه، فلعلَّ الأمرَ غير

---

(١) ٢/ ٩٤.

(٢) الحلة السيراء: ١/ ١٣٨.

ما يبرره بعض من يترجمون له بقولهم: " لأشياءَ حقدَها عليه في خلافة أبيه محمد، إذ كان يُخرجه معه قائداً للجيش وبعد ذلك"[1]، ولعلَّه لا يخلو من حسدٍ وغيرة، فضلاً عن أمورٍ أُخرى تستحقُّ هذه العقوبة.

وقد بدأت قصة نكبته عندما " أقبلَ صاحبُ الرسائل مستحثّاً له، فخرجَ هاشم ... وكان تحته فرسٌ رائعٌ أشقر، فلما أتى عند باب الجِنان[2] كبا الفرسُ بِهاشم فاستُقلَّ به ووقفَ وقد امتقعَ لونُه ساعةً، ثمَّ تقدَّمَ ودخل... فلم ينفضَّ أهلُ موكبِه حتَّى خرجَ راجلاً مكبَّلاً"[3] وأُودعَ في الحبس، وانتهتْ هذه القصَّة يومَ تمَّ قتلُهُ على يد المنذر حيثُ "غُطيتْ جثَّتُهُ ورأسه بِثوب، وبُعث به إلى أهله"[4]. وكان ذلك في العام ٢٧٣ هـ، ولا شكَّ في أنه كان يتوقَّع هذا المصير منذ أنْ قُبضَ عليه، كما توقَّعه أهلُ قرطبة جميعاً، حيثُ لم تخلُ دارٌ بها من بُكاءٍ عليه حينئذٍ[5]. ولهذا لابدَّ من أن يكون قد رثى نفسه بغير ما وصل إلينا من القصائد والمقطعات وهو ما يزالُ في حبسهِ.

أما ما وصلَ إلينا من رثائه لِنفسهِ فهو بائيَّتُهُ التي خاطبَ فيها زوجته "عاج"[6]، يعتذرُ فيها عن عدم قدرته على زيارتها وقد حُبس في المُطبق وهو سجن تحتَ الأرض في قرطبة كأنه القبر، وقد أُغلقَ عليه بابٌ بإحكامٍ شديد، ويتوقَّعُ أنها تعجَّبتْ مما حلَّ بِهِ من نكبةٍ مريرة، ويبرر لها ما حدثَ بِأنْ ليسَ مع ما يفعله الدهرُ بِمقدرات الناس وأقدارهم ما يُتعجَّبُ منه:

وإنـي عـداني أن أزوركِ مطبـقٌ ... وبـابٌ منيـعٌ بالحديـد مُـضـبَّبُ
فإنْ تعجبي يا "عاجُ" ممـا أصـابني ... ففـي ريـب هـذا الـدهرِ مـا يتعجَّـبُ

---

(١) الحلة السيراء: ١/ ١٣٩.

(٢) وهو من أبواب قصر الإمارة الخلفية المفضية إلى حدائق القصر.

(٣) الحلة السيراء:١/ ١٣٩.

(٤) نفسه: ١/ ١٤٠.

(٥) أنظر: الحلة السيراء: ١/ ١٣٩.

(٦) أنظر الحلة السيراء: ١/ ١٤٠-١.

كما يشكو لها حاله في الحبس، ويندمُ على أنه لم يحسب حساب هذه العاقبة، وقد كان قادراً على أن يتفاداها قبل أن تقع، فكانَ من نتائج ذلك أنْ وقعَ ما كان يحذرهُ ويخشاه:

وفي النفس أشياءٌ أبيتُ يغمّها كأني على جمرِ الغضى أتقلّبُ
تركتُ رشادَ الأمر إذ كنتُ قادراً عليه فلاقيتُ الذي كنتُ أرهبُ

ويجدرُ به وهو يخاطبُ امرأته أن يفخر بنفسه و أن يبدو أمامها شجاعاً قديراً على تلقّي ما يأتي به القدر، فليس الفرارُ من صفات الشجعان، وليس هو إلاّ ذلٌّ وهوان:

وكم قائلٍ قالَ: انجُ ويحكَ سالماً ففي الأرضِ عنهم مُستراد ومذهبُ
فقلتُ له إنَّ الفرارَ مَذلّةٌ ونفسي على الأسواءِ أحلى وأطيبُ

ثم ينتقلُ الى بيت قصيدهِ وهو التيقُّنِ بحلول عقوبة الموت به، والإقرار بأنْ لا مهربَ من قضاء الله وقدرِه، ولكنه في الوقت نفسه يحذّرُ المتشفّين بموته من أنّ سرورهم به لا يدومُ، فلن يطول الزمن قبلَ أن يُدركهم الموت أيضاً:

سأرضى بحكم الله فيما ينوبني وما من قضاء الله للمرءِ مَهربُ
فمَنْ يكُ مسروراً بحالي فإنّهُ سينهلُ في كاسي وشيكاً ويشربُ

ومهما يكنْ من أمر فإنَّ الحاجب هاشم بن عبد العزيز " اجتمعتْ فيه خصال لم تجتمع في سواه من أهل زمانه، إلى ما كان عليه من البأس والجود والفروسية والكتابة والبيان والبلاغة وقرض الأشعار البديعة، إلى ما له من القديم والبيت والسابقة"، كما يقول ابن الأبار[1].

---

(١) الحلة السيراء: ١/ ١٣٧.



٢- سعيد بن جودي يرثي نفسه

هو أبو عثمان سعيد بن سليمان بن جودي السعدي، أمير أندلسي ثائر، يُعدُّ من أدباء الملوك. نصَّبْته العرب لإمارتها في العام ٢٧٧هـ، و"كان شجاعاً وفارساً مِحْرَباً، قد تصرَّفَ مع فروسيته في فنون العلم، وتحقَّقَ بضروبِ الأدب، فاغتدَى أديباً نحريراً، وشاعراً محسناً، تُعدُّ عشرُ خصالٍ تفرَّدَ بها في زمانه لا يُدفع عنها: الجودُ، والشجاعة، والفروسية، والجمال، والشعر، والخطابة، والشدّة، والطعن، والضرب، والرماية"[١].

ذكر ابن الأبار في كتابه "الحلة السيراء"[٢] " أنَّ الأمير عبد الله بن محمد أسجلَ له على كورة ألبيرة، لما ظهرت العرب على حاضرتها. فاتصلَ قيامُهُ بأمر العرب، إلى أنْ قُتِلَ غيلةً بأيدي بعض أصحابه في ذي القعدة من سنة أربع وثمانين ومائتين"، وقد "ذلَّت العربُ بعد مقتل سعيد بن جودي واضطربَ أمرها وانكسرت شوكتها وهانت على محاديها المولّدين المناضلين لهم بحاضرة ألبيرة"[٣].

تعرَّضَ سعيد بن جودي للأسر على يد عمر بن حفصون "رأس الفتنة بالأندلس ومُضرم نارها وركنُ العصبية للعجم والمولدين"[٤]، وقد نظمَ خلال هذا الأسر قصيدةً رثى بها نفسه رثاء يختلط بالفخر بنفسه وشجاعته، وبالأمل بالنجاة الذي جعله مفتتحاً لهذه القصيدة، من خلال التحلِّي بالصبر على هذا الخطب العسير، فهو ما يحتاج إليه الأحرار في مثله:

خليليَّ صبراً، راحةُ الحُرِّ بالصبرِ ... ولا شيءَ مثلُ الصبرِ في الكربِ للحُرِّ

فكم مِن أسيرٍ كان في القِدِّ مُوثقاً ... فأَطلَقَهُ الرحمنُ مِن حَلَقِ الأسْرِ[٥]

---

(١) الحلة السيراء: ١/ ١٥٥.

(٢) ١/ ١٥٦.

(٣) المقتبس في تاريخ الأندلس: ص١٤٢.

(٤) الحلة السيراء: ١/ ١٥٩.

(٥) المقتبس في تاريخ الأندلس: ص١٤٩.

ثُمَّ يتوصَّل من ذلك إلى الفخر بنفسه، ويقول بأنه لَمْ يُؤخَذْ للأسر بعد مقاتلةٍ ودخولٍ في حربٍ واشتباكٍ، وإنما كان ذلك نتيجة خيانةٍ وغدر، ولو كان يخشَى الوقوع في الأسر غدراً لكان احتاط بما يكفل له وقايته منه، وذلك شيءٌ يسير، ولكنه يُعدُّ نفسه لشيءٍ أعظم من ذلك، فهو البطل والفارس المقدام في المواقف الشديدة، كما يعلم الجميع ذلك:

ولو كنتُ أخشى بعضَ ما قد أصابني ... حَمَتْنيَ أطرافُ الرُّدينيةِ السُّمْرِ

فقد علِمَ الفتيان أنّي كَميُّها ... وفارسُها المِقدامُ في ساعة الذُّعرِ

وعلى الرغم مما في نفس هذا الأمير العربي الثائر من الشجاعة والإقدام، كما هو بادٍ بوضوحٍ في قصيدته، وكما هو في الواقع، إلاَّ أن يأسَه من الحياة وشعوره بالضياع وبوشك الموت سريعاً كان بادياً بجلاءٍ أيضاً، ويبدو أنَّ هذا الشعور لديه وهو تحت وطأة الأسر هكذا كان شديداً جداً، بحيثُ أخذت فكرة الموت مُعاقَباً من قبل الآسِر تُراودُهُ بإلحاحٍ بعد قليلٍ من الأبيات، فيودِّعُ أقرب الناس إليه: والدَيه الفاقدَين له وزوجته المُصابة، ويَعِدُهم باللقاء في الآخرة، ويخصُّ زوجتَه باعتذارٍ عما أصابها بسبب أسرهِ من الهمِّ والحزن، ويقول لها بأنه سيلقَى ربَّه بهذا الهم الذي هو أشدُّ عليه من القتلِ والأسر:

فيا ظاعناً أبلِغْ سلامي تحيَّةً ... إلى والديَّ الهائمَينِ لدى ذكري

وأَدِّ إلى عرسي السلامَ وقُلْ لها: ... عليكِ تحياتي إلى موقفِ الحَشرِ

بِهَمِّكِ ألقَى خالقي يومَ موقفي ... وكَرْبُكِ أقضى لي من القتلِ والأسرِ

وهو لا يدري بأيّ وسيلةٍ سيموتُ وكيف سيكون قبره، ويبدو أنه كان متوقِّعاً أنْ يُمَزَّقَ جسدُهُ إرباً فلا يبقَى منه ما يستحقُّ الدفن، وفي هذه الحال سيكون غذاءً للنسور، ولذلك فهو يُهوِّن هذا الأمر ويدَّعي أنَّ فيه ما يُعلي من شأن الأبطال بعدَ الموت، ويكون مدعاة لسؤددهم:

وإنْ لم يكنْ قبـرٌ فأحسنُ موطئاً   مـن القـبرِ للفتيـان حَوصلةُ النـسرِ

لكن فتى الفتيان الثائر هذا ينجو من هذا الأسر وما كان يُحتمَلُ أن يُصاحبه من عقوبة الموت، ولكنه لا ينجو منَ الموتِ غيلةٍ بعد ذلك، كما مرَّ، بسبب أبياتٍ "من الشعر قالها في غمص الأئمة من بني مروان. منها، قال لعبد الله:

يـا بـني مـروان جِـدُّوا في الهَـرَبْ   نَجَـمَ الثـائرُ مـن وادي القـصبْ
يـا بـني مـروان خَـلُّوا مُلكَـنا   إنمـا المُـلْكُ لأبنـاءِ العَـرَبْ"[1]

وواضحٌ ما في هذا النصِّ من انتقاصٍ للأمراء المروانيين، وتهديدٍ لهم من قبله شخصياً بأنْ تطالهم ثورتُه، فلم يُمهلوه ليرثيَ نفسه مرةً أخرى!.

٣- الأمير عبد الله يرثي نفسه

وليَ الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأندلسَ بعد أخيه المنذر في العام ٢٧٥هـ ودامَت خلافته خمساً وعشرين سنةً شهدت خلالها الأندلس أحلكَ أيامها، حيثُ الفتن والاستبداد بالمناطق والإمارات، ونشوء الدول المناوئة لحكم الأمويين في الأندلس، فضلاً عن محاولات التآمر عليه ولاسيما من لدن أخوته، وقد قتلَ نفراً منهم، "وفي أيامه اضطرمت نار لفتنة بالأندلس فتنغَّصَ عليه مُلكُه"[2].

وفي لجج هذه الظروف السياسية المضطربة والمؤلمة عاش أمير الأندلس الشاعر المطبوع لحظاتٍ أحسَّ فيها بالموت يراوده ويقترب منه، فحاول تسجيل هذه اللحظات من خلال عدسته الشعرية الحساسة في نصين شعريين، يخاطب في الأول منهما نفسه ويلومها، إذ يرى أنه قد تغافلَ عن الموتِ بالأمل في طول الحياة، حتى لكأنه قد ماتَ فعلاً، وهو في حاجةٍ إلى النجاة التي لا يبلغها الغافلون، ثمَّ إنه لا دوامَ لما يتمنى المرء في حياته:

---

(١) الحلة السيراء: ١/ ١٥٦.

(٢) الحلة السيراء: ١/ ١٢٠.

يـا مَـن يُراوغـهُ الأجَـلْ حتَّـامَ يُلـهيكَ الأمـلْ؟
حتَّـامَ لا تخـشى الـردى وكأنـه بـكَ قـد نـزلْ
أغفلـتَ عـن طلـبِ النجـاة ولا نجـاةَ لِمَـن غفـلْ ؟
هيهـات يـشغلكَ الـرجـاءُ ولا يـدومُ لـكَ الـشُّغُلْ
فكـأنَّ يومـكَ لم يكـنْ وكـأنَّ نَعيـكَ قـد نـزلْ [1]

أما النصّ الثاني فيحمل ملامح اليأس الشديد من الحياة والزهد فيها لدى الأمير، فبعد أنْ يقرَّ بحتمية فناء الدنيا وضرورة التخلّي عن شيءٍ سرعان ما يصير إلى فناء، يتخيَّل نفسه وكأنه مات وحُمل على النعش وقد شمله البلى والفناء في الدنيا، فلم يبقَ لديه إلاَّ النواح والبكاء على نفسه:

أرى الـدنيا تـصير الى فنـاءِ ومـا فيهـا لِـشيءٍ مـن بـقاءِ
فبـادرْ بالإنابـةِ غـيرَ لاوٍ علـى شـيءٍ يـصيرُ إلـى فنـاءِ
كأنـكَ قـد حُملـتَ علـى سـريرٍ وصـار جديـدُ حُـسنكَ للبـلاءِ
فنفـسَك، فابكِهـا أو نُـحْ عليهـا فَرُبَّـتَما رُحمـتَ علـى البكـاءِ [2]

ونحن لا نعلم بالضبط متى نظم الأمير عبد الله هذين النصين، وأُرجِّح أن يكون قد نظمهما قبيل وفاته وقد تجاوز عمره السبعين واقترب من السنة الخامسة والعشرين من حُكمه. والنصان ينمان عن روحٍ فيّاضٍ بنفحاتٍ من الإيمان والتديُّن، وهما مما كان يطبع شخصيته.

---

(١) الحلة السيراء: ١/ ١٢٢، والبيان المغرب: ١/ ١٥٢.

(٢) الحلة السيراء: ١/ ١٢٢، والبيان المغرب: ٢/ ١٥٥.



٤- الحاجب المصحفي يرثي نفسه

كان الحاجب جعفربن عثمان المصحفي أحد رجال دولة الناصر خليفة الأندلس (ت ٣٥٠هـ)، إذ كان والياً على جزيرة ميورقة، ثم استوزرَهُ الخليفة الحكَمُ المستنصر بعدَهُ. وبعدَ أن تولَّى هشام الخلافة بعدَ أبيه الحكَم رفعَ من شأن المصحفي، وفاءً لأبيه، فأسندَ إليه الحِجابة في العام ٣٦٦هـ. ولما حاولَ المنصور بن أبي عامر الاستبداد بالحُكم في الأندلس وقد نال حظوةً من لدن أُم هشام بن الحكَم ووكالتها، وتمَّ له ذلك، وكانَ هشام حينئذٍ صغيرِ السنِّ لم يتجاوز التاسعة من عمره، "مكرَ بأهل الدولة، وضربَ بينْ رجالها، وقتلَ بعضاً ببعض.... كلّ ذلك عن أمر هشامٍ وخطّه وتوقيعه، حتى استأصلهم وفرّقَ جموعهم، وأول ما بدأ بالصقالبة الخصيان الخُدَّام بالقصر، فحملَ الحاجب المصحفي على نكبتهم، فنكبهم وأخرجهم من القصر، وكانوا ثمانمائةً أو يزيدون، ثمَّ أصهرَ إلى غالب مولى الحكَم، وبالغَ في خدمته والتنصُّح له، واستعانَ به على المصحفي فنكبهُ ومحا أثرَهُ مِن الدولة"[١]، وحبسَه في المُطبقِ، أيضاً، " إلى أن تكوَّرتْ شمسُه، وفاضتْ بين أثناء المِحَنِ نفسُه"[٢] وكان ذلك في العام ٣٧٢هـ.

ومِن طريف ما يُذكر في قصة الحاجب المصحفي ما نقله أبو نصر الفتح بن خاقان[٣] عن محمد بن إسماعيل كاتب المنصور قوله " رأيتُه يُساقُ إلى مجلس الوزراء للمُحاسبة راجلاً فأقبلَ يدرم، وجوارحه باللواعج تضطرم، وواثق الضاغط ينهرُه، والزَّمعُ والبُهرُ قد هاضاه، وقصَّرا خُطاه، فسمعتُه يقول: رفقاً بي فستدرك ما تحبُّ وتشتهيه، وترى ما كنتَ ترتجيه، ويا ليتَ أنَّ الموت يبِعَ فأغلى الله سَومَه، حتى يَرِدَهُ مَن قد أطال الله حَومه، ثم قال:

---

(١) نفح الطيب: ١/٣٩٦-٧.

(٢) مطمح الأنفس: ص ١٥٦.

(٣) مطمح الأنفس: ص ١٦٣-٤.

لا تـأمننَّ مـن الزمـان تقلُّبـاً إنّ الزمـــانَ بأهـــلِه يتقلَّـــبُ
ولقــد أرانــي والليــوثُ تهــابني وأخــافني مِــن بعــد ذاك الثعلــبُ
حَسْبُ الكــريم مذلَّــةً ومهانــةً ألاَّ يـــزال إلى لـــئيمٍ يُطلَـــب[١]

فلما بلغَ المجلسَ جلسَ في آخره دونَ أنْ يُسلِّم على أحد، أو يومئ إليه بِعينٍ أو يد، فلما أخذ مجلسَه تسرَّعَ إليه الوزير محمد بن حَفص بن جابر فعنَّفَه واستجفاه، وأنكرَ عليه ترك السلام وجفاه"، ولكنَّ الوزير أبو الوليد محمد بن جهور ردَّ على محمد بن حفصٍ مُبرراً تصرُّف الحاجب المصحفي فقال: " أسأتَ إلى الحاجب، وأوجبتَ عليه غير الواجب، أوما علمتَ أنَّ منكوبَ السلطان لا يُسلِّمُ على أوليائه، لأنه إنْ فعل ألزَمَهم الردَّ لِقولِه تعالَى: (وإذا حُيِيتم بِتحيةٍ فَحيُّوا بِأحسنَ منها أو رُدُّوها"، فإن فعلوا أطافَ بِهم مِن إنكار السلطان ما يُخشَى ويُخاف، لأنه تأنيسٌ لِمَن أوحش، وتأمينٌ لِمَن أخاف، وإنْ تركوا الردَّ أسخطوا الله فصارَ الإمساكُ أحسن، ومثلُ هذا لا يخفى على أبي الحسن،[٢] فانكسرَ محمد بن حفص، وخجل مما أتى به من النقص"[٣].

وذكرَ ابن بسام الشنتريني[٤]، بِشأن إيداعه الحبس، عن ابن حيان قوله: "لما أمر بِضمِّه إلى المُطبق بالزهراء ودَّعَ أهله وولده وداعَ الفرقةِ، وقال: لستم تروني بعدَها حياً، فقد أتى وقتُ إجابة الدعوة وأنا أرتقبه منذ أربعين سنة. وذلك أني أسرفتُ على فلان -- رجل سُجنَ بعهد الناصر- وما أطلقُه إلاّ برؤيا، قيلَ لي: أطلقْ فلاناً فقد أُجيبتْ فيكَ دعوتُه، فأطلقتُه وأحضرتُه وسألتُه، فقال: نعم، دعوتُ على مَن شاركَ في أمري أنْ يُميتَه الله في أضيق السجون. فعلمتُ أنها قد أُجيبتْ، وندمتُ بحيثُ لا تُغني الندامة. فأطلقتُ الرجل.

---

(١) النساء: ٨٦.
(٢) يعني الحاجب المصحفي.
(٣) مطمح الأنفس: ص١٦٥-٦.
(٤) الذخيرة: ٤/ ٤٢.

قالوا: فما لبثَ[1] في محبسه إلاّ قليلاً وأُخرجَ ميتاً، فسُلِّمَ إلى أهله في أقبح صورة".

وكان في نفس المصحفي في مدة حَبسِه، مع ذلك، بارقةٌ من أملٍ في النجاة من عقوبة الموت التي كان متأكداً من وقوعها بعد حين على يد المنصور بن أبي عامر، حُباً منه في الحياة وطمعاً بها، ولذلك بعثَ إليه بقصائد الاستعطاف والتوسُّل درءاً للموت، ومن ذلك قوله:

عفــا الله عنــكَ ألا رحــمةٌ ... تجــودُ بِعفــوكَ إنْ أبعــدا

لَـئنْ جـلَّ ذنـبٌ ولمْ أعتمـدْهُ ... فأنــتَ أجــلُّ وأعلَــى يــدا

ألمْ تــرَ عَبـداً عـدا طَـورَه ... ومَــولىً عفــا ورشــيداً هــدى

ومفــسد أمــرٍ تـلافيــتَهُ ... فعــادَ فأصــلَحَ مــا أفــسدا

أَقِــلْني أقالَــكَ مَــنْ لم يــزَلْ ... يَقيــكَ ويــصرفُ عنــكَ الــردى[2]

ويتجلَّى في البيت الأخير من هذه المقطوعة إيمانه القاطع بموته على يد المنصور، ولذلك تشبَّثَ بالدعوة له بِصرف الردى عنه مقابلَ صرف عقوبة الموت عنه، وهو يعلمُ عِلمَ اليقين بتحقُّقِها.

ويلجأُ المصحفي أحياناً وهو في قبره المؤقت-المُطبق إلى التعلُّق بذكرى ماضيه السعيد، شأنه في هذا شأن الذين مرُّوا بتجربته من ذوي الشأن من الشعراء، كما مرَّ في الفصل الثاني من هذا الكتاب، تخفيفاً من هول النكبة وشدّة مرارتها:

تأمّلتُ صرفَ الحادثـات فلـمْ أزلْ ... أراهــا تــوفّي عنــدَ موعــدها الحُــرَّا

فلِلــه أيــامٌ مــضتْ بِــسبيلـها ... فإنــي لا أنــسى لهــا أبــداً ذِكْــرا

تجافـتْ بهـا عنَّـا الحـوادثُ بُرهــةً ... وأبـدتْ لنــا منهــا الطلاقــةَ والبِـشرا

---

(١) يعني المصحفي.

(٢) مطمح الأنفس: ص١٦٠.

ليالَ لم يدرِ الزمانُ مكانها ولا نظرتْ منها حوادثُه شَزرا
وما هذه الأيامُ إلاّ سحائبٌ على كلِّ أرضٍ تُمطِرُ الخيرَ والشرَّا[1]

ويصفُ، بِدهشةٍ، ما أصابه مِن الذلِّ والمهانة بعدَ العزِّ والكرامة، وذلك عنده مما يُفضي إلى زوال الحياة بعدَ زوال السلطان، ولكنه يتمنَّى مع ذلك أنْ يكون هذا الزوال بشيءٍ من الكرامة:

صبرتُ على الأيام حتَى تولَّتِ وألزمتُ نفسي صبرَها فاستمرَّتِ
فواعجباً للقلبِ كيفَ اعترافُهُ وللنفسِ بعدَ العزِّ كيفَ استذلَّتِ
وما النفس إلاّ حيثُ يجعلها الفتى فإنْ طمعتْ تاقتْ وإلاّ تسلَّتِ
وكانتْ على الأيامِ نفسي عزيزةً فلمّا رأتْ صبري على الذلِّ ذلَّتِ
فقلتُ لها يا نفسُ مُوتي كريمةً فقد كانت الدنيا لنا ثمَّ ولَّتِ[2]

ولم يبلغ الحاجب المُصحفي الغاية القصوى من اليأس من الحياة إلاّ بعدَ أنْ كتبَ إلى المنصور يستعطفه:

هَبني أسأتُ فأينَ الفضلُ والكرمُ إذْ قادني نحوكَ الإذعانُ والندمُ
يا خيرَ مَن مُدَّت الأيدي إليهِ أما ترثي لِشيخٍ نعاه عندَكَ القلمُ؟
بالغتَ في السخطِ فاصفحْ صفحَ مقتدرٍ إنَّ الملوكَ إذا ما استُرحموا رَحموا[3]

فما كانَ من المنصور إلاّ أنْ أجابه بقصيدةٍ من نظم عبد الملك الجزيري، منها:

---

(١) مطمح الأنفس: ص١٦١.
(٢) نفح الطيب: ١/ ٦٠٤.
(٣) الذخيرة: ٤/ ٤٣.

الآنَ يـا جـاهلاً زلَّـتْ بـكَ القــدمُ تَبغـي التكـرُّمَ لـمّا فاتَـكَ الكَـرَمُ
أَغريـتَ بـي ملكـاً لـولا تـثبُّـتُهُ مـا جـازَ لـي عنـدَه نُطـقٌ ولا كلِـمُ
نَـدمتَ إذْ لم تفُـزْ منّـا بطائـلةٍ وقلَّمـا ينـفعُ الإذعـانُ والنـدَمُ
فايأسْ مِن العيشِ إذْ قد صِرتَ في طبقٍ إنَّ الملـوكَ إذا مـا استنقموا نقمـوا
نفسي إذا جمحـتْ ليستْ براجعـةٍ ولو تشَفَّعَ فيكَ العُـرْبُ والعجَـمُ! (١)

وعندَ ذاك لم يجد المصحفي أيَّ مبررٍ للتشبُّثِ بالحياة، أو ببارقةٍ من الأمل في البقاء على قيدها، ولهذا السبب رثى نفسه بأسلوبٍ هادئٍ رزينٍ يتناغمُ مع استسلامه لقضائه وقدرِه، وكأنه يُسلِّمُ روحَه رويداً، فلا يخشى بعد ذلك أيَّ خطرٍ يطرأ:

لـي مـُدةٌ لابـدَّ أبلغُهـا فـإذا انقـضتْ أيامهـا مُـتُّ
لـو قابلتـني الأسـدُ ضـاريةً والمـوتُ لـم يـدنُ لمـا خِفـتُ

وهو يرغبُ في أنْ تكونَ تجربتُه هذه عِبرةً لِـمَنْ يعتبر:

فـانظرْ إلـيَّ وكُـنْ علـى حَـذرٍ فَبمثـلِ حالِـكَ أمـسِ قـد كنـتُ (٢)

وهذا ما فحدثَ فعلاً، فقد أمر المنصورُ بِهِ "فَجُعِلَ في تابوتٍ وأُحرِقَ بالنار حتّى مات" (٣).

وقد ارتكبَ المصحفي في مخاطبته المنصور في هذه القطعة خطأين، أولهما بحق المنصور عندما قال له " هبْني أسأتُ" وكأنه لم يُسئْ، وفي ذلك إشارة إلى أن المنصور ظلمه، وهذا مما لا يُخاطَبُ به الملوك وذوو السلطان، وثانيهما بحقّه هو نفسه عندما

(١) نفسه، ونفح الطيب:١/ ٤٠٨.
(٢) الذخيرة: ٤/ ٤٣-٤٤، ونفح الطيب: ١/ ٦٠٣.
(٣) الحلة السيراء: ١/ ٢٦٦.

وصف المنصور بأنه "خير مَن مُدَّت الأيدي إليه"، وكان قد وصفه يومَ محاسبته بـ"اللئيم" كما مرَّ، فعبَّرَ عما لم يكنْ في قرارة نفسه وفي مكنون ضميره بإزاء المنصور.

نقلَ أبو نصر الفتح بن خاقان قول محمد بن إسماعيل بشأن موت الحاجب المصحفي وتسليم جثته ما نصُّه: " سرتُ بأمره لتسليم جسد جعفر إلى أهله وولده، وليس عليه شيء يواريه، غير كساء خَلَق لبعض البوّابين، فدعا له محمد بن مسلمة بِغاسل، فغسله -والله- على فردة بابٍ اقتُطعَ من جانب الدار، وأنا أعتبر من تصرُّف الأقدار، وخرجنا بنعشه إلى قبره، وما معنا سوى إمام مسجده المستدعى للصلاة عليه، وما تجاسر أحد منّا للنظر إليه، وإنَّ لي في شأنه لخبراً ما سمعَ بمثله طالبُ وعظ، ولا وقعَ في سمعٍ ولا تُصوِّرَ في لحظ، وقفتُ له في طريقه من قصره، أيّامَ نهيِهِ وأمرِه، أروم أنْ أناوله قصّة، كانتْ به مُختصّة، فوالله ما تمكّنتُ من الدنوّ منه بِحيلةٍ لِكثافة موكبه، وكثرة مَن حفَّ به، وأخذ الناس السكك عليه وأفواه الطرق داعين، وجارين بين يديه ساعين، حتى ناولتُ قصّتي بعض كُتّابه الذين نصبهم جناحَي موكبه لأخذ القصص، فانصرفتُ وفي نفسي ما فيها من الشَّرق بِحاله والغَصَص، فلم تطل المدّة حتّى غَضِبَ عليه المنصور واعتقلَه..." [1]

٥- عبد الله بن عبد العزيز يرثي نفسه

هو أبو بكر عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن أمية بن الحَكَم الربَضي الملقَّب بالحجر. " أَمَّرهُ هشام المؤيد في بعض الأوقات، وسدَّ به الثغر، وفوّضَ إليه أمر طُليطلة وقلّدَه إياها مع خطّة الوزارة"[2]، أيامَ استبداد المنصور بن أبي عامر بالسلطة، ولكنه اتُّهِمَ بالإسهام في مؤامرةٍ ضدَّ المنصور مع ابنه عبد الله ومع آخرين، وعندما لم تنجح المؤامرة فرَّ هو ولجأ إلى "برموندو" الثاني ملك ليون، كما فرَّ الآخرون، ولكنَّ المنصور ظفرَ بعبد الله بن عبد العزيز بعد أن أَجبر برموندو على تسليمه له، ونكبَه، إذ أمر بالطواف به على جملٍ وهو مقيَّد وحبسَه في المطبق.

---

(١) مطمح الأنفس: ص ١٦٠.

(٢) الحلة السيراء: ١/ ٢١٦.

وليس عبد الله بن عبد العزيز مستثنى من الشعور بنهايته عند حلوله في المطبق معاقباً من قبل السلطان، وقد عبرّ عن هذا الشعور بوضوحٍ في قصيدتين، أولاهما قصيدته التي يُخاطب فيها المنصور، ويُبدي في قسمها الأول أسفه لعدم إحكامه الفرار من رهبة الموت الذي ينتظره على يَد المنصور عقوبةً له على الخيانة، وسوء تدبيره في ذلك، وكأنَّ ما تمَّ قد تمَّ بأمر الله[1] :

(١) نسب ابن الأثير (الكامل في التاريخ ٨/ ٤٦) والمقّري (نفح الطيب:٢/ ٦٥٩) الخمسة الأبيات الأولى من هذه القصيدة إلى أبي ركوة الوليد بن هشام من ولد المؤيد هشام بن الحكَم الأموي عندما وقع في قبضة الحاكم بأمر الله حاكم مصر بعد معارك دارت بين عساكر الحاكم وعساكر الوليد وكان قد استقلَّ ببرقة وما جاورها وخُطبَ له بالخلافة بعدَ أن هرب من بطش المنصور بن أبي عامر الذي أخذ يلاحق مَن يمتُّ إلى المؤيد هشام بن الحكم بصلة القرابة خشية الاستيلاء على الحكم من بعده بعدَ أنْ أخفاه واستقلَّ هو بحكم الأندلس، فقصد الوليد مصر، وقد طيف به على جملٍ بعد انكسار عساكره والقبض عليه في حكاية مشابهة لحكاية عبد الله بن عبد العزيز هذا كما يرويها ابن الأثير، فيما عدا بعض التفصيلات، منها النهاية المأساوية لحياة الوليد، حيثُ أُلبِسَ طرطوراً وجُعِلَ خلفه قردٌ يصفعه، ثم حُملَ إلى ظاهر القاهرة ليُقتل ويُصلب ولكنه تُوفيَ قبل وصوله، فقُطعَ رأسُهُ وصُلب. وفي نسبة الأبيات إلى الوليد هذا من قبيل الوهم والخلط كما أرى، وقد يكون سبب هذا الوهم والخلط تشابه الحكايتين وحدوثهما في وقتين متقاربين جداً وحقبة زمنية واحدة، وقد تصدقُ نسبة القطعة النثرية الصغيرة التي بعثَها الوليد إلى الحاكم بأمر الله إليه في رقعةٍ زُعم أنها كانت مقدمة للأبيات وهي: "يا مولانا الذنوب عظيمة وأعظمُ منها عفوك، والدماء حرام ما لم يُحلّلها سخطك، وقد أحسنتَ وأسأتُ وما ظلمتُ إلاّ نفسي، وسوء عملي أوبقني"، كما ينص عليها ابن الأثير. إنّ ابن الأثير لم يذكر سوى خمسة أبياتٍ من القصيدة، ثم أن أبا ركوة لم يكن لديه الوقت والظرف ليكتب هذه القصيدة ويرسلها إلى الحاكم المصري مع رسالة نثر، وفضلاً عن ذلك إيراد ابن الأبار لجواب المنصور بن أبي عامر على هذه القصيدة وإشارته للفرار الذي اقترفه ابن عبد العزيز ولم يلجأ إليه أبو ركوة، وقد ذكرتُهُ في المتن في آخر الكلام على عبد الله بن عبد العزيز، وابن الأبار أندلسي وهو أقرب إلى المصادر الأندلسية الموثوق بها من ابن الأثير وأقرب إلى أحداث الأندلس زمناً، ولذلك كله رجحتُ رواية ابن الأبار وأهملتُ رواية ابن الأثير، ولم أجعل ابن ركوة من بين الأندلسيين الذين رثوا أنفسهم شعراً من أصحاب السلطان.

فررتُ فلم يُغنِ الفرارُ، ومَن يكنْ ... مع الله لا يُعْجِزْهُ في الأرضِ هاربُ

ووالله ما كان الفرارُ لِحالةٍ ... سوى حذر الموت الذي أنا راهبُ

ولو أنني وُفِّقتُ للرشدِ لم يكنْ ... ولكنَّ أمر الله لابدَّ غالبُ

ويصفُ في القسم الثاني من القصيدة حاله وقد اقتيدَ إلى المنصور، ووقعَ في قبضته، وهنا لابدَّ من أن يكون خبر الموت حقيقةً لاشكَّ في وقوعها، خاصةً وقد أجمعَ كل الناس على أن المنصور قاتله لا محالة، وذلك نتيجة طبيعية لمثل هذه الحالات:

وقد قادَني جرًّاً إليك بِرُمّتي ... كما اجترَّ مَيْتاً في رُحى الحربِ سالبُ

وأجمعَ كلُّ الناس أنّكَ قاتلي ... وربَّتَ ظنٌّ ربُّهُ غيرُ كاذبِ

وما هو غير الإنتقامِ فتشتفي ... وتركك منه واجباً غير واجبِ

ولا يفوته، شأنه في ذلك شأن مَن في مثل حاله، أن يطلبَ العفو تشبثاً منه ولو بأملٍ كاذب، طلباً مشفوعاً بكيلٍ من المديح الذي هو في نفسه أكذبُ من هذا الأمل، وجعَلَ ذلك في القسم الثالث من القصيدة فكان أطول الأقسام لأهميته لديه:

وإلاّ فَعفوٌ يرتضي الله فِعلَهُ ... ويجزيكَ منه فوقَ ما أنتَ طالبُ

ولا نفسَ إلاّ دون نفسكَ، فليكنْ ... على قدرها قدرُ الذي أنت واهبُ

فما خابَ مِن جدواكَ -مُذ كنتَ- سائلٌ ... ولا رُدَّ دونَ المُبتغى عنكَ راغبُ

وقد منحتْ كفّاك ما يُعجزُ الورى ... وعمّتْ عمومَ الغيث منك المواهبُ

وإنْ حُمَّ تأخيرٌ لنفسيَ فليكنْ ... لِمُتلِفها من حاجب الملكِ حاجبُ

فما زالَ سبّاقاً إلى كلِّ خَصلةٍ ... يسيرُ بها في الأرضِ ماشٍ وراكبُ

فلا انفكَّ لي مولىً ألودُ بِعِزِّهِ ... فيصرفُ عنّي الخطبَ والدهرُ عاتبُ

وثاني القصيدتين قصيدته التي خاطبَ فيها المظفر عبد الملك ابن المنصور طالباً شفاعته لدى أبيه، وفيها يأسٌ شديدٌ من البقاء حياً، واستشعارٌ بالموت وهو يُثخنه ويُحيط به من كل جانب، وقد أكَّد ذلك بقوةٍ في ثلاث عبارات، ففي البيت الثاني "أثخنتْه المَنون"، وفي البيت الخامس "هو الدفين"، وفي البيت السادس "الموتُ لي مستبين"، أما البيت الأول فلابدَّ من أن يكون من حصة المستَشفَع به وحدَه:

ألا أيهــا الحاجــب الــمُرتجَى وأكــرم مَــن كــان أو مَــن يكــونْ
دعوتُــكَ دعــوةَ مُستــصرخٍ أحاطــتْ بــه وأثخنتْــهُ الــمَنونْ
فــإنْ لمْ تُغــثني فمَــن ذا الــذي يلــوذُ بــه الخــائفُ المُــستكينْ ؟
جمعــتَ التقَــى والعُلَــى والنُّهَــى فمــالٌ مُــذالٌ وعِــرضٌ مَــصونْ
وتفــريجُ غَمَّــاءَ عــنْ حــائنٍ يعــودُ بــه الحــيّ وهــو الدفيــنْ
فقــلْ لــي: لَعــاً! مِــنْ عثــارٍ لــهُ أُناديــكَ والمــوتُ لــي مُــستبينْ
وإنْ جــلَّ ذنــبي فأنــتَ الجــليلُ وهــل لــكَ فيمــنْ عليهــا قــرين؟

والقصيدتان تطفحان بمعاني اليأس من الحياة ورثاءٍ للنفس بقوةٍ ومرارةٍ شديدين.

ومن حسن حظِّ عبد الله بن عبد العزيز أنْ أبطأ المنصور في تنفيذ عقوبة الموت في حقّه، أو نسيَه، فبقيَ في حَبسِه في المطبق حتى مات المنصور، ولما وليَ بعده ابنه المظفر بن عبد الملك الحجابة لِهشام، "أطلقه، واستحلَّه لأبيه، وخلع عليه وولاَّه الوزارة وخُصَّ به، فلم تطلْ حياته، وتوفي غازياً مع عبد الملك غزاته الأولى سنة ثلاث وتسعين بمدينة لاردة"(١)، وكان " أحد رجالات المروانية، عقلاً وشهامةً وأدباً وغزارةَ عِلمٍ وإمتاعَ حديثٍ وطيبَ مُجالسة"(٢).

---

(١) الحلة السيراء: ١/ ٢١٩-٢٢٠.

(٢) الحلة السيراء: ١/ ٢١٧.

وصفَ ابن الأبار جانباً مِن يوم القبض على عبد الله بن عبد العزيز، فقال: (لـمّا أسلمَه برمند ملكُ الجلالقة مُضطراً إلى ثقات المنصور وطِيْفَ بـهِ، كانَ قُدّامـهُ مَنْ يُنادي: "هذا عبد الله بن عبد العزيز، المُفارقُ لِجماعة المسلمين، النازعُ إلى عدوّهم، المُظاهِرُ لهُ عليهم ! "، فكانَ هـو يردُّ عليه ويقول: " كذبتَ! بلْ نفسٌ خافتْ ففرّتْ تَبغي الأمْنَ مِن غير شِركٍ ولا رِدَّة ")[1].

٦- عبد الملك الجزيري يرثي نفسه

هو أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري الخولاني. كان واحداً من وزراء الدولـة العامرية، وشاعراً مبرِّزاً من شعرائها وأحد المعدودين من كتّابها. كان المنصور بن أبي عامر يُعجبُ بشعره، حتى أنه " أنهضه يومئذٍ للشرطة"[2] بعدَ استحسانه لأبياتٍ قالها، ثمَّ ولاّه ديوان (وزارة) الإنشاء، وكان قد "سجَنَه في مُطبَق الزاهرة مدةً، فاستعطفه من الرسائل والأشعار بما أثمر تسريحه...فُسُرَّ المنصور بذلك، وأعاده إلى حاله، وأطلقَ له ما اعتقل من ماله"[3].

وبقي أبو مروان الجزيري في الوزارة إلى عهد ابنه المظفَّر، ويبدو أنَّ الأيامَ عبستْ في وجهه لهذا العهد، إذ تورَّطَ في مؤامرةٍ ضدَّ عيسى بن القطاع وهو أكبر وزراء المظفر مع فتاه الصقلبي طَرَفة، فغضبَ عليه المظفَّر واعتقله، مرّةً أخرى، في برجٍ عالٍ بطرطوشة[4]، ولكنه لم يخرج من معتقله هذه المرّةَ إلاّ ميتاً، وكان ذلك في العام ٣٩٤هـ.

قال صاحب المطمح[5] يصفُ معتقله: " ...فَحُطَّ عن الرُّتب، وحُمِلَ إلى طرطوشة على القَتَب، فبقيَ هناكَ مُعتقلاً في بُرجٍ من أبراجها نائي المُنتهَى، كأنما يُناجي السُّها، قد

---

(١) الحلة السيراء: ١/ ٢٢٠.

(٢) المغرب في حلى المغرب: ١/ ٣٢٢.

(٣) إعتاب الكتّاب: ص١٩٦.

(٤) وهمَ الدكتور حسين مؤنس فذكرَ أن المظفر اعتقلَ أبا مروان الجزيري في "نفس المطبق الذي مات فيه جعفر المصحفي"، أنظر الحلة السيراء: ١/ ٢٦٦، الهامش ذا الرقم ٣.

(٥) ص ١٧٧-٨.

بعدَ ساكنه عن الأنيس فَعُدَّ من النجمِ بِمنزلة الجليس، تمرّ الطيور دونه ولا تجوزه، ويُرى منه الثّرى، ولا يكاد يحوزه، فبقيَ فيه دهراً لا يرتقي إليه راق، ولا يرجى لِبثّه راق، إلى أنْ أُخرجَ منه إلى ثراه واستراح مما عَراه، فمن بديع ما قاله، قوله يصف المعقل الذي اعتُقل:

يـأوي إليـه كـلُّ أعـور نـاعقٍ وتهـبُّ فيـه كـلُّ ريـحٍ صَرصَـرِ
ويكـادُ مَـن يرقَـى إليـه مـرةً مِـن عمـرهِ يـشكو انقطـاع الأبهـرِ"

وقد رثى الجزيري نفسه خلال معتقله في بُرجِه العالي، بعد أن بلغَ منه اليأس من النجاة غايته القصوَى، حيثُ تحوَّلَ أمرُه مِن القوة والشدة إلى الضعف وسهولة الانكسار، ومِن الصبر إلى اليأس، وقد عدمَ اللقاءَ بمن يحب أو بأيٍّ من الناس، ثم قد جفاه النومُ جُملةً، وما حياتُه سوى صحيفة نُشرتْ، فلم يعدْ له رجاءٌ فيها البتّة:

شحطَ المزارُ فلا مَـزارَ، ونـافرتْ عيـني الهجـوعَ فـلا خيـالٌ يَعـتري
أَزرَى بِصبري وهو مشدودُ القُوى وأَلانَ عـودي وهـو صُـلبُ المكْـسرِ
وطـوَى سـروري كُـلَّهُ وتلـذُّذي بـالعيشِ طـيَّ صـحيفةٍ لمْ تُنـشَرِ [1]

وقال صاحب الذخيرة[2] في وصف قتله: " كتبَ عيسى الوزير إلى مفرّج العامري وإلى عبد الملك بن مسلمة، وكانا مِن أعداء ابن الجزيري، وحرَّضهما على إبادتِه، فأُدخلَ عليه في مُطبقه[3] قومٌ من السودان وخَنَقوه، وأُشيعَ موتُه، وأُخرجَ ميتاً بعد أيام، وأسلمَ إلى أهله ولا أثرَ به"، وقال[4]: "أخبرني خلف بن حُسين قال: سألتُ الذي تولَّى قتلَ ابن الجزيري في محبسه فجعلَ يصفُ لي سهولة ما عاناه منه لِقضافته وضعفِ أسرِه

---

(١) مطمح الأنفس: ص١٨٠، ونفح الطيب: ١/ ٥٨٨.
(٢) ٤/ ٣٢-٣٣.
(٣) هذا وهم لم يتنبَّه المحقق عليه، فالجزيري لم يحبَسْ في المطبق بقرطبة، والصواب ما ذكرناه آنفاً.
(٤) الذخيرة: ٤/ ٣٣.



ويقول: ما كان الشقيّ إلاّ كالفرّوج في يدي، دققتُ رقبَتَهُ بركبتي فما زاد أنْ نفخَ في وجهي. فعجبتُ من جهل هذا الأسود".

ولاشكَ في أنَّ حبسه في مكان شاهقٍ لا يكاد يصل إليه أحد كان من أهمّ الأسباب في عدم تحصيلنا على مجمل ما نظَمَه في هذا الحبس الغريب، ومن ذلك باقي رثائياته لِنفسه، فلا يُعقَل ألاَّ يكون قد كتبَ أكثر مما بَلَغنا، وهو " فارس نثرٍ ونظام" كما وصفه ابن بسام[1].

٧- **مروان الطليق يرثي نفسه**

هو أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر، من أمراء بني أمية. لم يتمتع بالحياة كما تمتع بها أمثالُه من الأمراء الأندلسيين، إذْ "سُجِنَ وهو ابن ست عشرة سنة، ومكثَ في السجن ست عشرة سنة، وعاشَ بعدَ إطلاقه ستَّ عشرة سنة، وهذا من نادر الاتفاق. ومات قريباً من سنة أربعمائة"[2].

وقد ذكرت المصادر المتوفرة لدينا أن سبب سجنه هو أنه " كان يتعشَّقُ جاريةً، كان أبوه قد ربَّاها معه، وذكرها لهُ، ثمَّ بدا لهُ فاستأثرَ بها، وأنه اشتدَّتْ غيرتُهُ لذلك، فانتضى سيفاً، وانتهزَ فُرصةً في بعض خَلَوات أبيه معها، فقتلَهُ، وعُثِرَ على ذلك، فسُجِنَ. وذلك في أيام المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر. ثم أُطلِقَ بعدَ ذلك فلُقِّبَ الطليقَ لذلك"[3].

كان مروان الطليق "أديباً شاعراً مُكثراً وأكثر شعره في السجن"[4]، وهو "في بني أُمية كابن المعتز في بني العبّاس، ملاحةَ شعرٍ وحُسنَ تشبيه"[5] ، ولاشكَّ في أن السجن

---

(١) أنظر الذخيرة: ٤/ ٣٢.

(٢) الحلة السيراء: ١/ ٢٢١، والمغرب في حلى المغرب: ١/ ١٩١. وقد رجَّح الدكتور إحسان عباس سنة ٣٩٦ تاريخاً لوفاته (أنظر تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة ص٢٢٤).

(٣) المغرب في حلى المغرب: ١/ ١٩١. وانظر: بغية الملتمس: ص٤٦٢، والحلة السيراء: ١/ ٢٢٠-١.

(٤) بغية الملتمس: ص٤٦٢.

(٥) نفسه.

عمَّقَ تجربته الشعرية باعتبار المعاناة التي تكبَّدها فيه، وطول الفُسحة التي وفَّرها له، وهو مما يحتاجه أي مبدع للتفكُّر والتأمُّل. والغريب أنَّ المصادر لم تذكر له إلاَّ القليلَ من أشعاره، مع ما تذكر عنه من الإكثار مع الإجادة في النظم، أما عدم العثور على ديوانٍ يضمُّ شعرَه مجموعاً، فذلك مما لا يُتعجَّبُ له مع ما نعرف من ضياع الكثير من الدواوين، فضلاً عن المصادر الأخرى.

ومهما يكن من أمر، فقد وفَّرَ لنا ابن الأبَّار[1] قطعة من شعره مؤلفة من أربعة أبيات، نظمها وهو في معتقله، ويبدو فيها حكيماً عاقلاً، ذا فلسفةٍ في الحياة والموت، غذَّاها بشيء غير قليلٍ من الحزن وذكر الموت والفناء، وهو يُبشِّرُ الدهرَ بالبلى والفناء، لأنه هو الذي ناكَدَهُ وقادهُ إلى هذا المصير:

ألاَّ إنَّ دهـراً هادمـاً كـلَّ مـا بَـنِي ... سَيَبلَى كمـا يُبْلـي، ويَفنَـى كمـا يُفنـي

أما الحياة فيستحيلُ على المرء أنْ يفوز بملذَّاتها دون أنْ يُصيبه شيء من مرارتها:

وما الفوز في الدنيا هو الفوز، إنمـا ... يفـوز الفتَـى بـالربحِ فيهـا مـع الغَبْنِ

وأمام كل نعيمٍ فيها يوجد بؤس، وقد ترتفعُ درجة هذا البؤس إلى الموت، جزاء ما تجني يد المرء:

يُجازَى ببؤسٍ عـن لذيـذِ نعيمِهـا ... ويَجنِـي الـرَّدَى مما غـدتْ كفُّـهُ تَجنِـي

ويلتفتُ إلى غاية الحزن في النفس الإنسانية، وكأنه يشير إلى نفسه هو، ويقرِّرُ أنْ لابدَّ لهذا الحزن من نهايةٍ حتَّى وإنْ كانت النفس يائسةً من هذه النهاية:

ولاشـكَّ أنَّ الحـزنَ يجـري لِغايـةٍ ... ولكـنَّ نفـسَ المـرءِ سيِّـئةُ الظـنِّ

ويبدو واضحاً أنَّ الأمير الشاعر هنا يُعزِّي نفسه بالخلاص مما هو فيه، لاسيما وقد سُجِنَ في عهد المنصور بن أبي عامر شديد البطش والبأس والقوة. وتتناغم هذه القطعة

(١) الحلة السيراء: ١/ ٢٢١.

الشعرية مع حالته التي يعيشها بين جدران السجن، وتشي بامتلاء نفسه بالشعور بالموت والانتهاء، ويبدو أنه نظمها بعد أن أمضى مدةً غير يسيرة في معتقله المظلم.

ولا شك في أنّ الطليق قد نظم غير قصيدةٍ يرثي بها نفسه قبلَ أنْ يُطلَق، ولاسيما في الأيام الأخيرة من اعتقاله، واقترابه من سن الاكتهال، ولكننا لم نعثر له على غير ما ذكرنا من ذلك.

٨- أبو عامر بن شُهيد يرثي نفسه

هو أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شُهيد الأندلسي القرطبي، من كبار الأندلسيين أدباً وعلماً. عاشَ في مرحلتين من مراحل التاريخ الأندلسي المهمة، هما حُكم العامريين وحُكم ملوك الطوائف، فعاصرَ ماجريات التاريخ السياسي الهادئ مرةً والمضطرب مراتٍ في قرطبة كلها حتى وفاته، إذْ لم يُغادرها إلى مدينة أخرى لفرط ولعه بمدينته، على الرغم مما لقيَ فيها من مضايقات ومحن، ولاسيما في أيام الفتنة البربرية "الكبرَى"، وأسهم شيئاً في الحياة السياسية.

عاش أبو عامر بن شُهيد في بيت وزارةٍ ورئاسة، ولم يُستَشنَ هو من هذا المنصب السياسي الرفيع، فقد بلغَهُ في عهد عبد الملك المظفَّر قبل الفتنة في قرطبة وزوال الدولة العامرية، ثم بَلَـغه في عهد المستظهر عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار الأموي، بعدَها. وفي غضون هاتين المرحلتين من التاريخ نُكبَ ابن شُهيد وأودعَ السجنَ أيامَ توثَّقتْ علاقتُه بالحموديين، بسبب ما تعرَّضَ له من تُهمٍ بالفسق والفساد والفجور، فضلاً عن آرائه في البربر[1]، وهذه الأخيرة وحدها تكفي الحاكمَ مسوِّغاً لِسَفْك دمه. فأمّا الذي اتّهمه وسعَى به فهم حُسَّادُهُ، وأما الخليفة الذي نكبَهُ واعتقلَه فهو المعتلي بالله يحيى بن علي بن حمود، الذي بُويعَ بقرطبة سنة ٤١٢هـ.

قال الفتح بن خاقان[2] في أمر اعتقاله: "ودبَّتْ إليهِ أيّامَ العلويين عَقارب، برئتْ بها من أباعد وأقارب، واجَهَهُ بها صَرفٌ قطوب، وانبرتْ إليه منها خُطوب، نَبا لها جَنْبُه عن

(١) أنظر ديوانه: ص ٣١.

(٢) مطمح الأنفس: ص١٩٨.

المضجع، وبقيَ بها يأرقُ ولا يهجع، إلى أنْ عَلِقتْهُ من الاعتقال حباله، وعَقَلَتْهُ في عِقالٍ أذهبَ مالَه، فأقامَ مُرتهنا، ولقِيَ وهـنا".

في الحبس شعرَ أبو عامر بن شُهيد بما شعرَ به أقرانه ممن ذاقوا مرارة الاعتقال، فهو لم يستبعد أي عقوبةٍ محتملة، بما في ذلك الموت إما في السجن أو إعداماً على يد الحاكم، ولم يَفُتْه أنْ يسجِّلَ شعوره هذا في صفحة من صفحات شِعره، إذْ كتبَ قصيدته الدالية التي بعثها إلى المعتلي يعتذر منه ويستعطفه، ولكنه يبدأها في وصف حاله في معتقله، ولعله فعلَ ذلك من أجل أن يستدرَّ عطفَه، فهاهوَ في موضعٍ قريبٍ من الهوان، بعيد عن مسرح حياته، أصبحَ مُجيداً للشكوى لفرط ما به من الحزن، دَفعَه إلى هذا المصير عدوٌّ حاسدٌ لأمثاله من أبناء الكرام، مع أنَّ ما صدرَ منه لا يتعدَّى المزاح، فطوَّقتْ عظائم الأمور صدرَهُ، على أنَّ غيرهُ متنعِّمٌ بمباهج المُلك:

قريـبٌ بِمحتـلِّ الهـوانِ بعـيدُ ... يجـودُ ويـشكو حُـزنَهُ فيُجيـدُ
نعَـى ضُـرَّهُ عنـدَ الإمـامِ فَنالَـهُ ... عـدوٌّ لأبنـاءِ الكـرامِ حسـودِ
ومـا ضـرَّهُ إلاَّ مُـزاحٌ ورقّـةٌ ... ثَنـتْهُ سَفيهَ الـذكرِ وهْـوَ رشـيدُ
جنَى ما جنَى في قُبّةِ المُلكِ غيرُهُ ... وطُـوِّقَ منـهُ بالعظيمـةِ جِيْـدُ[1]

وليسَ لديه غير الشعر يضمِّنُهُ معاني الحب والغرام فيطيرُ بين الناس الذين يستحسنونه لِحسنِ معانيه عندهم فيكون ذلك مدعاةً لنظم المزيد منه، دون أنْ يكون نابعاً من تجربةٍ شخصية، وليس له أساسٌ من الواقع، ولذلك فالشاعر سعيدٌ بشعرِهِ الماجن على وجه الحقيقة لِشهرته وذيوعه، شقيٌّ بما يتضمنهُ من المعاني على وجه المجاز والتخيُّل، وهو، على أية حال، ليس أول العشاق العقلاء الذين أزرتْ أعينُ الحِسانِ وخدودُهنَّ بعقولهم فهاموا بها، ونظمَ الشعراءُ منهم في ذلك الأشعار، فهل ينبغي معاقبة جميع أولئك؟، وإلاَّ فلماذا أنا هو المُعاقَبُ من أجل ذلك؟.

(١) ديوانه: ص٦٣.

بعد هذه المقدّمة التي يبدو فيها مُخبِراً عن حالِه، ومفنِّداً مزاعمَ حُسّادِهِ، يعودُ فيعلِّل ما حلَّ به مما ذكرَهُ في مطلع القصيدة، فهو يعيش تحت وطأةِ الفراق لأهله وأحبائه وما اعتادَ في حياته، وما يُصاحب ذلك من شجوٍ واشتياق، فضلاً عن الذلِّ والهوان:

فـراقٌ وشـجوٌ واشـتياقٌ وذِلَّـةٌ وجبَّـارُ حُفَّـاظٍ علـيَّ عـتيدُ

ويُخبرُ أهلَه وذويه وأصحابه بأن ما يعيشُ فيه وحيداً، منذ فارقَهم، إنما هو مكان منعزل سمَّاهُ "دار الظالمين"، وهو المعتقل، وكأنه يستنجد بهم، أو يودِّعهم وكأنْ لا أملَ في اللقاء ثانيةً وقد حلَّ في هذه الدار، لاسيما وأنَّ مواصفاتها لا تَشي بالنجاة، فكيف يمكنُ له أن ينجو في دارٍ يقومُ ويقعد فيها على جمر الموت، فما تحتويه في جنباتها من أفاعٍ تروح وتجيء، ويُسمَع لحركتها على الأرض ترجيعٌ كترجيع الصدى هو كافٍ للموت في أية لحظة:

فَمَنْ مُبلغ الفتيان أنـيَ بعدَهم مُقـيمٌ بـدار الظـالمينَ وحـيدُ
مُـقيمٌ بِـدارٍ ساكنوها مِن الأذى قيـامٌ علـى جَـمْرِ الحِمـامِ قُعـودُ
ويُـسمَعُ لِلحِيَّـانِ في جنباتِهـا بـسيطٌ كترجيـعِ الـصدى ونـشيدُ

وفي قوله "فمن مبلغ الفتيان" تذكيرٌ بقول عبيد الله بن الحر الجعفي عندما سجنه مصعب بن الزبير في جملة أبيات:

فمَـنْ مُـبلغُ الفتيـان أنَّ أخـاهمُ أتـى دونَـهُ بـابٌ شـديدٌ وحاجِبُـهْ(١)

ولعلَّه يُلمح هنا إلى معنى بيتِه:

وما كان ذا من عظمِ جرمٍ جرمتُـهُ ولكـنْ سعَى الساعي بمـا هـو كاذِبُـهْ

وزادَ في أنْ استخدمَ الإيقاع الشعري نفسه، ليكون في ذلك مقارنة مساواة بين الحالين والموقفين.

---

(١) الكامل في التاريخ (الشيباني): ٤/ ٨١.



وقد استخدمَ ابن شهيد العبارة نفسها وهو يرثي نفسَه في أيامه الأخيرة، أو يلفظ أنفاسه الأخيرة، بل استعار الشطر الأول كله من بيت الجعفي المذكور:

فَمَـنْ مبلـغُ الفـتيانِ أنَّ أخـاهـمُ ... أخـو فتكـةٍ شـنعاءَ مـا كـانَ شِـكلُها

عليكم سلامٌ من فتىً عَضَّهُ الردى ... ولم يـنسَ عينـاً أثبتـتْ فيـهِ نَـبْلَها

يُـبينُ وكـفُّ المـوتِ يخلـعُ نفسَهُ ... وداخلُهـا حُـبٌّ يهـوِّنُ ثُكـلَها[1]

ويستمرُّ ابن شهيد في رسم صورة هذه الدار-السجن وما تُوحيه له أحياناً، فإنه ما إنْ يَسمع اهتزاز باب السجن حتَّى يتبادرَ إلى ذهنه أن السجَّان سيقودُهُ إلى الإعدام على يد الخليفة الذي ينعتُه بالإمام، وليسَ إلى العفو عنه ونوله الحرية، فالإمام ساخطٌ عليه سخطاً يلازمه الشعورُ به ملازمة القيد للسجين، ويبدو أنَّه يائس من عفوه:

وما اهتزَّ بابُ السجن إلاَّ تفطَّرتْ ... قلـوبٌ لنـا خـوفَ الـردى وكـبودُ

ولـستُ بـذي قَـيدٍ يـرنُّ وإنَّـما ... على اللَّحظِ من سخطِ الإمامِ قيودُ

وينتقل بإحساسه المُرهف إلى الحَمام الصادح، فيتناهَى إليه وكأنه نوحٌ وبكاء على حبيبٍ مفارق، ويُخاطبه محاولاً أنْ يعقد مقارنةٍ بين حالـه هو وحال هذا الحَمام، فيصف هـذا الحبيب بأنّ سلطاناً شديداً هو الذي منعه من لقاء محبه، كما أن سلطاناً شديداً منع الشاعر من لقاء مَن يحب، وكلاهما وحيدان، ولذلك فقد أخذَ كلٌّ منهما يـبكي الآخر، وهو مُتَّقدٌ شوقاً لِمَن يُحب:

وقلتُ لِصدَّاح الحَمـامِ وقـد بكـى ... علـى القـصرِ إلفـاً والـدموعُ تَجـودُ

ألا أيها البـاكي علـى مَـن تُحبُّـهُ ... كـلانا مُعـنًّى بالخـلاءِ فريـدُ

وهلْ أنتَ دانٍ من مُحبٌّ نـأى بـه ... عـن الإلْـفِ سُلطانٌ عليـه شديـدُ

---

(١) ديوانه: ص١١٠.

فصفَّقَ من ريشِ الجناحين واقفاً　　　على القرب حتَّى ما عليهِ مزيدُ

ومـا زال يبكيني وأبكيه جاهداً　　　وللشوقِ مـن دون الضلوعِ وقودُ

وفي قوله عن الحَمامِ " قد بكى على القصر"، ولم يقل "على السجن" إشارة إلى أن المعتقلَ كان جُزءاً من أبنية قصر الخليفة، مُلحقاً به، وربما يكون في ذلك معنى التشديد في العقوبة، لكون المُعاقَب (بفتح القاف) قريباً من يد المُعاقِب (بكسرها) تحتَ نظره.

وبهذا يكون ابن شُهيد مثل غيره من شعراء الأندلس الذين يُشركون عناصر الطبيعة المتحركة في رثائهم لأنفسهم، بل إنَّه تجاوزَ ذلك إلى إشراك العناصر الجامدة وتحريكها في هذا الرثاء، إذْ إنه أشركَ جُدران السجن وبابه الحديديَّ وشخَّصَها، فصارت الجدران تبكي من طول ما أخذه الشجو مع الحَمام، كما أخذَ مِصراعا الباب الحديديانِ يجهشان بالبكاء:

إلى أنْ بكَى الجُدران من طولِ شجونا　　　وأجهـشَ بـابٌ جانباهُ حديدُ

إنَّ تشخيص العناصر الجامدة من قبل ابن شهيد في رثائه لنفسه، على هذا النحو، يؤكّد جسامة ما بلَغَه من الخوف والحزن اليأس.

ومن هنا ينتقل الشاعر إلى مدح الخليفة:

أطاعتْ أميرَ المؤمنينَ كتائبٌ　　　تَصَرَّفُ في الأموالِ كيفَ تُريدُ

فَلِلشمسِ عنها بالنهارِ تأخُّرٌ　　　ولِلبدرِ عنها بالظلامِ صُدودُ

ولم يتجاوزْ مدحُهُ هذين البيتين حتى يعود للحديث عن نفسه، ليتخلَّصَ منه إلى الممدوح مرةً أخرى بشكلٍ غير مباشر عبرَ حِكمةٍ يُبديها، وحوارٍ يصطنعُهُ لِيُحسنَ منه التخلُّص، وليؤكّدَ جَهلَه بِمصيره، وهو مما يُفضي به إلى اليأس:

ألا إنها الأيامُ تلعبُ بالفتى　　　نُحوسٌ تَهَادَى تارةً وسُعودُ

وما كنتُ ذا أيدٍ فأُذعنُ ذا قوىً ... من الدهر مُبدٍ صَرفُهُ ومُعيدُ
وراضتْ صِعابي سطوةٌ عَلَويةٌ ... لها بارقٌ نحو الندى ورُعودُ
تقولُ التي من كفّها كُفَّ مركبي ... أقُربُكَ دانٍ أمْ نَواكَ بعيدُ؟
فقلتُ لها: أمري إلى مَن سَمَتْ بهِ ... إلى المجدِ آباءٌ له وجدودُ
إلى المُعتلي عاليتُ همّيَ طالباً ... لِكَرَّتِهِ إنَّ الكريمَ يَعودُ
همامٌ أراهُ جُودُهُ سُبُلَ العُلا ... وعَلَّمَهُ الإحسانُ كيفَ يَسودُ
نفى الذَّمَّ عنهُ أنَّ طيَّ برودِهِ ... عفافٌ على سنِّ الشبابِ وَجودُ
تُؤدّي إلينا أنه سِبطُ أحمدٍ ... مَخايلُ فيه لِلهُدى وشُهودُ

ثمَّ يُوجِّه الكلامَ إلى الممدوح مباشرةً يستعطفه، وما يهمُّنا من كلامه هذا بيتان، يعبِّرُ في الأول منهما عن انهياره ونفاد قُدرته على الصبر، وأنَّ مصائبه قد تجاوزت العدَّ، ويعبِّرُ في ثانيهما عن حاجته القصوى لِهواء الحرية والخلاص، متسائلاً عما إذا سيتحقَّق شيء من ذلك على يديه أم لا:

حنانيكَ إنَّ الماء قد بلغَ الزُّبى ... وأنحتْ رزايا ما لهنَّ عديدُ
ظمِئتُ إلى صافي الهواء وطَلْقِهِ ... فهلْ ليَ يوماً في رضاكَ وُرودُ؟

ويُمهله الحظُّ فيعفو عنه المعتلي ويُخلي سبيله، لِيستنشق الهواء الطلق حتى يرثي نفسه مرةً، بلْ مراتٍ أخرى، عند اعتلاله بالفالج في الأشهر الأخيرة من وفاته في العام ٤٢٥هـ، كما مرَّ بنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

آل عبّاد يرثون أنفسهم

لفتَ انتباهي أنَّ بني عبّاد خلالَ حُكمهم مرّوا بتجاربَ تكادُ تكونُ واحدةً، وكأنَّ التاريخ يُعيد نفسَه في شخوصهم، فمَنْ يكونُ مُعاقِباً -بكسر القاف- في الأمس يكونُ

مُعاقَباً – بِفتحِها – اليوم، وهم جميعاً عانوا الحالَينِ جميعاً في حيواتهم، بإستثناء مؤسس دولتهم القاضي أبي القاسم الذي لم يُعانِ، بطبيعة الحال، إلاّ الحالَ الأولى، إذْ لم يسبقْه حاكمٌ قبلَه، فنجا من الحساب والعقاب على ما اقترفَه من هناتٍ وأخطاء. وبما أنهم شكّلوا سلسلةً مترابطةً ترابطاً وثيقاً، من هذه الناحية، بلْ شكّلوا ظاهرةً صاحبَها غريبُ الاتّفاق، وطريفُ الترتيب، فقد رأيتُ أنْ أجمعهم تحتَ عنوانٍ واحد، وفي تسلسلٍ متتابع.

٩- المعتضد بالله يرثي نفسه

هو أبو عمر عباد بن محمد بن إسماعيل اللخمي، صاحب إشبيلية في عهد ملوك الطوائف. كان يقود جيش أبيه القاضي أبي القاسم في قتاله لبني الأفطس وغيرهم، ثم وليَ الحكمَ بعد أبيه، وتسمَّى مثله بالحاجب، " واستطاع أنْ يفرضَ نفسه كطاغية يُطاعُ ويُحترم عن خوفٍ على المستوى الداخلي والخارجي "[١]. وشأنه شأن غيره من الملوك والحكّام " كانت سياسته تستهدف إبادة كل مَن كان خطراً على سياسته "[٢].

عندما غضبَ القاضي أبو القاسم على ابنه عباد هذا ضاقتْ الأرضُ به بما رحبتْ، ولم يعد يرى للحياة طعماً أو مسوِّغاً، وهو قد عرف، لاشكَّ، من قبلُ أنَّ الملوك لا يصدُّهم عن قتل أبنائهم إذا أذنبوا أيُّ شيء، لاسيما إذا تعلَّقَ الأمرُ بالحُكم والسلطة، أليسَ هو الذي قتلَ ابنه إسماعيل بيديه لأنه رفضَ قيادة الجيش الإشبيلي في الهجوم على قرطبة سنة ٤٥٠هـ ؟!، ولم يجد، آنذاك، غير الشعر يرقّق به مشاعرَ أبيه، فأرسل إليه بائيتَه[٣] التي بدأها بالمفارقة بين محْضِ طاعتِه لأبيه وعدم حصوله على غير اللوم والتقريع ثواباً على تلك الطاعة:

أطعتُكَ في سرّي وجهريَ جاهداً   فلمْ يكُ لي إلاّ الملام ثوابُ

---

(١) التاريخ السياسي والاجتماعي لأشبيلية في عهد الطوائف: ص ٥٦.

(٢) نفسه.

(٣) الحلة السيراء:٢/ ٤٦-٧.

وأعملتُ جهدي في رضاكَ مشمِّراً ... ومـن دون أن أفـضى إليـه حجـابُ

وعندما لم ينجح في استحصال رضا أبيه انطفأ وهجُ الدنيا في عينيه، ولم يعد مقامه فيها سائغاً، ثم فقد صبره، فوق ذلك، على هذه الحال التي لم تحمل إليه غير قسوته ومحاسبته له، ففرَّ منه فوزاً بالنجاة مما كان يخشاه من مفارقة الحياة على يديه:

ولما كَبا جَدّي إليكَ ولم يسُغْ ... لنفسي علـى سـوء المقـامِ شـرابُ

وقلَّ اصطباري حينَ لا ليَ عندكمْ ... مِـن العَـطفِ إلاّ قـسوةٌ وعتـابُ

ولم يكنْ في شيءٍ من قدراته الشخصية أنْ يعصي لأبيه أمر المثول أمامه، فأسرعَ إلى إجابته كأنه محمولٌ على جناحِ طائر العُقاب:

فـررتُ بنفسي أبتغـي فرجـةً لهـا ... علـى أنَّ حلـوَ العيش دونـكَ صـابُ

ومـا هزَّني إلاّ رسـولكَ داعـياً ... فقلـتُ: أمـيرُ المؤمنـينَ مُـجابُ

فجئـتُ أغـذُّ السيرَ حتّـى كأنّمـا ... يطـيرُ بـسرجي في الـفلاةِ عُقـابُ

وقد كانَ يحسبُ أنَّ فراره من أبيه هو آخر عهده بلقائه، وما ذاك إلاّ الموتُ في ذاته، فلا حياة له إلاّ بالقرب من أبيه راضياً عنه، إذْ هو غير قادرٍ، في الواقع، على الإفلاتِ من قبضته مهما بالغَ في التخفّي:

وما كنتُ بعدَ البَينِ إلاّ موطِّناً ... بِـعزمي علـى أنْ لا يكـونَ إيـابُ

ولكنكَ الدنـيا علـيَّ حبيـبةٌ ... فمـا عنـكَ لـي إلاّ إليـكَ ذهـابُ

ويمضي عباد، المعتضد بالله فيما بعد، في وصف حاله المتأرجحة بين اليأس من الحياة والتوسل بأبيه والمبالغة في امتداحه من أجل الفوز بها، فيتحقّقُ له ذلك مِن بعدُ، ويمتدُّ به العمر، ويقوم بالحكم بعدَ موت أبيه.

ومِن طريف ما رُوِيَ في عن قضاء أيام حُكمه، أن استدعَى الصقلّي المُغنّي، وكان قد قَدُمَ عهدُه به، فأجلَسَه وأمرَه أن يغنّي فغنَّاه خمسة أبياتٍ أوَّلُها:

نُطوي الليـاليَ عِلمـاً أنْ ستطوينا   فشعْـشعيها بِمـاءِ المُـزنِ واسـقينا

فما كانَ منه إلاّ أنْ تطيَّرَ واستشعرَ زوالَ مُلكِهِ وانقراضِ أيامه، فماتَ بعدَ خمسة أيامٍ وهو عدد الأبيات الخمسة التي غنّاه إيّاه المغنّي[1].

١٠- المعتمد بن عباد يرثي نفسه

هو أبو القاسم محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل اللخمي. تولَّى المعتمد الحكمَ بعدَ أبيه المعتضد عندما توفِّيَ في العام ٤٦١هـ، وقد عَرَكَ الحياة السياسية والعسكرية والأدبية بِعُمقٍ فكان أديباً وشاعراً مبرِّزاً، قالَ ابنُ بسّام[2] في حقّه " وكان مع اشتغاله بالحرب، وسعة مجاله بين الطعن والضرب، وعلى أنَّ أباه عباداً ما انفكَّ يُديرُ عليه الرّحَى، ويقرعُ إليه كلّما قرعتْ عصاً عصا، حتى صارَ أسوةً لِنجومِ ليلها، وجَلْساً لِمتونِ خَيلها،... فقد كان متمسكاً من الأدب بِسبب، وضارباً في العلم بِسهم، وله شعر كما انشقَّ الكمامُ عن الزهر، لو صدّرَ مثلُه عمَّن جعلَ الشعرَ صناعة، واتخَذَه بِضاعة، لكان رائعاً معجباً، ونادراً مستغرباً، فما ظنك برجلٍ لا يجدُ إلاّ راثياً، ولا يُجيدُ إلاّ عابثاً، وهو مع ذلك يرمي فيصيب، ويَهمي فيَصُوب، وشعره يُوضحُ ما شرح ويعبر عما ذكر،... والعجبُ من المعتمد أنه مَرَى سحابه في كلتا حالَـيْه فصاب، ودعا خاطره فأجاب، ولا تراجع له من طبع،، ولا بعدَ الخلع، بلْ يومُهُ في هذا الشأنِ دهر، وحسنته في هذا الديوان عشر، فإنْ أجادَ فما أولَى، وإنْ قَصَّرَ فعُذرُهُ أوضح وأجلَى".

وقد رثَى المعتمدُ نفسَه بِشعره في مرحلتين متباعدتين من مراحل حياته، الأولى في حياة أبيه المعتضد مملوكاً عندما كان قائداً لِجيوشه، ثم رثَى نفسه بعدَ ذلك ملكاً عندَ

---

(١) أنظر الحلة السيراء: ٢/ ٥٣-٥٤.

(٢) الذخيرة: ٢/ ٢١-٢٢.

زوالِ مُلكِه على يد المرابطين، أما الرثاء الأول فكانَ عندما هُزمَ وهو يقودُ جيشَ أبيه للاستيلاء على مالقة وأفلتَ من يديه زمامها، فما كانَ من أبيه إلاّ أنْ غضبَ عليه، ففرَّ المعتمد، ولم يكنْ قد تسمَّى بهذا اللقب آنذاك، ولجأ إلى رُندة، وهناكَ أحسَّ بالخطر الشديد من أبيه المعتضد، وغاية ما بلغه المعتمد من هذا الإحساس هو قتل أبيه له، وما الذي يمنعُه من ذلك وقد كان قد قتلَ أخاه إسماعيل من قبلُ ؟، بل لقد حاول أنْ ينكِّلَ به هو من قبلُ عندما عرفَ مقدارَ ما بلغَه حبُّ اعتماد الرميكية في قلب ابنه " أول ما اشتراها، فتوجَّه إليه عازماً على عقابِه ومعتقداً التنكيلَ به، والمعتمد إذ ذاك بِشلْبٍ عاملٌ له، وقد ولدتْ منه أكبر أولاده سراج الدولة عَباداً. فأمرَها أنْ تـتلقَّاه به لِـتعطفه رؤيتُهُ عليها، فكان ذلك كذلك، ورقَّ له المعتضدُ وفَتَرَ عزمُهُ على الإيقاعِ به "[1].

عندما تيقَّنَ بالموتِ على يد أبيه رثَى المعتمدُ نفسه رثاءً مزَجه، كما فعل غيرُه، بالمُغالاة في المديح، فما بعد فَقْد الروح مِن فقْد، في رائيةٍ طويلة بلغت أبياتُها أربعينَ بيتاً[2]، ومن اللافت للقارئ الناقد أنه لم يبدأها بمديح أبيه، بل بالحديث عما يؤرِّقُهُ من التفكير بالموت الذي ينتظره على يده، ولم يشرْ إليه إلاَّ بعد البيت السادس من القصيدة، وهذا ما دلَّ على بلوغه من اليأس أقصاه، وعلى ضعف أمله في النجاة، على الرغم من كثرة أبيات المديح في أبيه، ولذلك جعلَ من الاعتذار قضية ثانيةً، ولذلك فهو تأخيرٌ بسببٍ نفسي غير متعمَّد، وإلاَّ ما كانَ عليه تأخير ذكر أبيه على ذكر نفسه في موضع الاعتذار وهو الأمير بن الأمير حفيد الأمير، وهو أعرفُ من سواه بأصول المخاطبة في حضرة الملوك. ثمَّ هو يتذبذبُ بينْ ذكر أبيه وبين مواساته لِنفسه على غير نسَق، على مدى القصيدة، ولهذا دلالةٌ واضحةٌ على مدى اضطرابه النفسي وخوفه الشديد.

ومهما يكنْ من أمر، فإنَّ المعتمد بدأ رائيته بمخاطبة نفسه محاولاً تهدئتها، وتخفيف حدة الخوف من عقوبة الموت على يد أبيه المعتضد:

---

(١) الحلة السيراء: ٢/ ٧٠-٧١.

(٢) أنظر ديوانه: ص٣٦-٤٠.

سَكِّنْ فؤادكَ لا تذهبْ بكَ الفِكَرُ ماذا يُعيدُ عليكَ البثُّ والحذَرُ ؟

وازجرْ جفونَكَ، لا ترضَ البكاءَ لها واصبرْ، فقد كنتَ عندَ الخَطْبِ تصطبرُ

فهوَ يُحاولُ أنْ يكون شجاعاً وأنْ يُبعدَ عن باله فكرةَ الموت، ويدعو جفونَه إلى أن تكفَّ عن البكاء استناداً إلى ورود تلك الفكرة، والى التحلّي بالصبر، ولكنّه سرعانَ ما يُقرُّ بِتوقُّعَ الموت، في البيت التالي، واستسلامه له، مستخدماً كلمة "القدر" للتعبير عن الموت، وكلمة "الوطر" للتعبير عن الحياة:

وإنْ يكنْ قَدَرٌ قد عاقَ عن وَطَرٍ فلا مَرَدَّ لِما يأتي بهِ القَدَرُ

فإذا انتقلَ إلى مديح أبيه جعلَ منه أسَداً وفارساً يفترسُ الفرسان، ويطلبُ منه، بل يتمنّى ألاّ يكونَ هو أيضاً فريسةً له، وألاّ يبطشَ به كما يبطشُ بالأبطال، فهو ابنه الذي هو بمثابة نابه وظفره، وصَونُهُ أولَى من إهلاكه:

يا ضيغماً يقتلُ الفرسانَ مفترساً لا تُوهِنَنّي، فإنّي النابُ والظُّفُرُ

وفارساً تحذرُ الأبطالُ صولته صُنْ عبدَكَ القِنَّ فهو الصارمُ الذكَرُ

بلْ إنه وصلَ إلى أعلى مراحل اليأس من الحياة التي هي مرحلة الجزَع، ويذكر الإمارات على ذلك، حتى لم يبقَ بينه وبين الموت إلاَّ بقية أملٍ بالعفو عنه:

فالنفس جازعةٌ، والعَينُ دامعةٌ والصوتُ منخفضٌ، والطَّرفُ منكسِرُ

وحُلتُ لوناً، وما بالجسمِ من سَقَمٍ وشِبتُ رأساً ولم يَبلغْنيَ الكِبَرُ

ومُتُّ إلاَّ ذَماءً فيَّ، يُمسكُهُ أنّي عَهِدتُكَ تعفو حينَ تقتدرُ

ويعادِلُ المعتمد بينَ رضا أبيه الذي يعيشُ على أملِهِ ويسعَى من أجله وبين الموت، فإذا أخفقَ سَعيُهُ وعَدِمَ رضاه فُجِعَ بالموت، ولم تبقَ للعُمرِ مِن فُسحة:

رضاكَ راحةُ نفسي لا فُجِعتُ بِها | فهوَ العتادُ الذي للدَّهْرِ يُدَّخَرُ
هو المُدامُ التي أسلو بِها فإذا | عَدِمتُها عَبِثَتْ في قلبِيَ الفِكَرُ
وإنما أنا ساعٍ في رضاكَ، فإنْ | أخفقتُ فيهِ، فلا يُفسَحْ لِيَ العُمُرُ !

ولكنَّ سعيَه يُكلَّل بالنجاح ويفوز بِفسحةٍ طويلةٍ من العمر يقفُ فيها من ابنيهِ الراضي والرشيد موقفَ أبيه منه في موضع التقصير والزلل، كما سيأتي بعد قليل.

وأما الرثاء الثاني لِنفسه فقد كان رثاءً ذا جوانبَ مختلفةٍ، مرَّ جانبٌ منها في الفصل الثاني من هذا الكتاب، وكان جانباً بعيداً عن السياسة غرضاً، وإنْ كانت السياسةُ له سبباً، وما يهمنا في هذا الفصل هو دراسة الجانب السياسي في هذا الرثاء الذي كان زوال المُلك والسلطان هو السبب الرئيس الذي دفعَ المعتمد إلى رثاء نفسه، إذ أنَّ المُلك هو

المعادل الموضوعي للحياة، ليس لدى المعتمد وحدَه، وإنما لدى جميع الملوك والأمراء وذوي السلطة في الأندلس، فإذا زال المُلك لم يَعُدْ للحياة أيُّ معنًى، ولو أُتيحَ الانتحار ماديّاً أو دينياً لما تأخَّرَ عنه أحدٌ منهم.

تعرَّضَ المعتمد إلى تهديدات خارجية قاهرة اضطرَّ معها إلى الاستعانة بالمرابطين في المغرب مرتين، حسمت المرة الثانية منهما الوضعَ نهائياً في إشبيليه معقل المعتمد، إذ رأى المرابطون عدم أهلية المعتمد للحكم، لعدم قدرته على الهيمنة على البلاد، وعدم قدرته على صدّ الهجمات الخارجية، والوقوف بوجه تهديدات الفونسو السادس، فاتجهتْ جيوشهم بإمرة يوسف بن تاشفين، ليسَ إلى نجدته هذه المرة وإنما القضاء على مُلكه وسلطته، فأفزعتْ إشبيليه، وحاصرتْه وأجبرتْه على الاستسلام " وحُملَ مقيداً، مع أهله، على سفينة، وأُدخلَ على ابن تاشفين، في مراكش، فأمرَ بإرساله ومَن معه إلى أغمات، وهي بلدةٌ صغيرة وراء مراكش... وبقي في أغمات إلى أنْ مات "[1]، وكان ذلك في العام ٤٨٨هـ.

---

(١) الأعلام: ٦/ ١٨١.

وقد رثى المعتمد نفسه في هذه المرحلة بعددٍ من القصائد، فضلاً عن قصائد الزهد والحكمة التي لم تجد إلى شاعريته طريقاً إلاّ بعدَ أنْ امتُحِنَ وأُذلَّ على أيدي المرابطين، وبعدَ أن يئسَ من حياة الدعة والرفاه، أو من حياة السلطة. وأهمُّ رثائياته لِنفسه المتعلقة بسلطانهِ رائيتهُ[1] التي مطلعها:

غريبٌ بأرضِ المَغربينِ أسيرُ ... سيبكي عليه منبرٌ وسريرُ

وقد بدأ برثاء نفسه منذ المطلع، كما يبدو واضحاً، ويتضح في هذا المطلع موازنته بين الابتعاد عن السلطة وبين الموت موازنةَ تعادُل، فهو هنا ليس أكثر من أسير، ولكنَّ منبره وسريره وهما رمز سلطته، مع ذلك، يبكيانه وكأنه قد غادر الحياة، ثم يبكيه بعد ذلك السيوفُ والرماح في ساحات المعارك وتندبُهُ، وكذلك الزاهي والزاهر وهما من مُزيِّنات قصور إشبيليه، ومرتاديه وعَرفُ أزاهيره:

وتَندبُهُ البيضُ الصوارمُ والقنا ... وينهلُّ دمعٌ بينهنَّ غزيرُ

سيبكيه في زاهيهِ والزاهر الندى ... وطلاّبُهُ، والعَرفُ ثمَّ نكيرُ

ثمَّ يحاولُ أنْ يُعزِّي نفسَه مِن خلال تذكُّرِ التجارب السابقة المُشابهة لِتجربته في الحُكم، وفي الحياة، ويردُّ على مَن يتعجَّبُ مما حلَّ به وبدولته وشأنه بِأنَّ رأيَه فاسدٌ، فمتَى دامَ أمرٌ للصالحين في الدهور السابقة؟، إنَّ أمر انقراض دولته أمرٌ مسبوقٌ إليه، فلا عجبَ مما حلَّ به:

إذا قيلَ في أغمات قد ماتَ جودُهُ ... فما يُرتَجَى للجُودِ بعدُ نُشورُ

مَضَى زمنٌ والمُلكُ مُستأنِسٌ بهِ ... وأصبحَ عنهُ اليومَ وهْوَ نَفورُ

بِرأيٍ من الدهرِ المُضلِّلِ فاسدٌ ... متَى صلحتْ للصالحينَ دُهورُ ؟

---

(١) ديوانه: ٩٨-٩٩.

ويشبه نفسَه ببني ماء السماء وهم ملوك الحيرة وما يليها من جهات العراق قبلَ الإسلام، وينصُّ على الإذلال الذي تعرَّضَ له، وما ذاكَ بالأمر الهيِّن:

أذلَّ بـني مـاءِ السماءِ زمانُـهم   وذُلُّ بـني مـاء السماء كثيـرُ

ولا ينسَى أنْ يستشعرَ العظمة، وإنْ فقدتْ محتواها الآن، ولكنه لا يستسهلُ فَقْدَها، ولذلك فهو يُشركُ عناصر الطبيعة في رثائه لنفسه، فليسَ مطرُ السماء الغزير إلاَّ دموعها بُكاءً على فقْدِهِ:

فما ماؤها إلاّ بُكاءٌ عليهمُ   يَفيضُ على الأكبادِ منهُ بُحورُ

ثمَّ يلجأُ إلى ماضيه السعيد، كما فعلَ غيرُه ممن لهم ماضٍ سعيد في مثل هذا الموقف، فيستذكرُ ما كان من هذا الماضي وما تَحصَّلَ فيه من سعادات، ويتلذَّذُ بذكر بعض المواضع والمواقف الأثيرة لديه في حالاتٍ متنوعة مما كان هذا الماضي مشتملاً عليه، لِيُخفِّفَ عن نفسه وطأة التفكير بمحنة الزوال من المُلك-الحياة، وليكون ذلك تعويضاً، أو بعضَ تعويضٍ عن الحرمان على المستوى النفسي، حتى إنه يُمنِّي نفسَه بنوال شيءٍ من تلك السعادات بالرجوع إلى ذلك الماضي مع أنه يعلمَ أنَّ النجومَ أقرب إليه من ذلك:

فيا ليتَ شعري هلْ أبيتنَّ ليلةً   أمامي وخَلفي روضةٌ وغَديرُ
بِمُنبتةِ الزيتون موروثةِ العُلا   تُغنِّي قيانٌ أو ترنُّ طيورُ
بِزاهرِها السامي الذرا جادَه الحيا   تُشيرُ الثُريَّا نحوَنا ونُشيرُ
ويلحظنا الزاهي وسَعدُ سُعودِهِ   غيورَينِ والصَّبُّ المُحبُّ غيورُ
تُراهُ عسيراً أمْ يسيراً مَنالُه   ألا كلُّ ما شاءَ الإلهُ يَسيرُ !

وفي ختام رثائه لنفسه يرسُمُ صورةً مأساوية شديدة القتامة لِخاتمته، حيثُ يُقرِّرُ أنَّ موتَه الحقيقي كانَ في إشبيليه -ويُسمِّيها باسمها البلاغي التشبيهي "حِمْص"- عندما فقدَ

سلطانه، وهناكَ تبعثرَ قبرُهُ وقبورُ أهله جميعاً، وقد صدَقَ حَدسُهُ في قضية "تبعثُر القبور"، إذْ اشتملت أشبيليه على بعض من قبور أهله بينما تفرَّقَت قبور الباقين منهم في المغرب.

ومن طريف ما رُويَ بِشأن زوال مُلكه أنَّ شخصاً " رأى في منامه أنَّ رجلاً صعدَ منبرَ جامع قرطبة واستقبلَ الناس يُنشدهم:

رُبَّ رَكْبٍ قد أناخوا عِيسَهمْ ... في ذُرى مَجدِهمْ حينَ بَسَقْ

سكتَ الدهرُ زماناً عنهمُ ... ثمَّ أبكاهمْ دماً حينَ نَطَقْ

فلما سمع المعتمد ذلك أيقنَ أنه نَعْيٌ لِمُلْكِهِ، وإعلامٌ بما انتثرَ مِن سِلكِه"[1]. أما بِشأن موته فقد ذكر المقّري[2] (مِن الغريب النادر أنه نُودِيَ في جنازته " الصلاة على الغريب" بعدَ عظم سُلطانه، وسعة أوطانه، وكثرة صقالبته وحُبْشانه، وعظم أمره وشانه، فتباركَ مَن له العزّةُ والبقاء والدوام").

١١- الراضي بن المعتمد يرثي نفسه

هو أبو خالد يزيد بن محمد بن عباد، أصغر أولاد المعتمد، ولاَّهُ أبوه الجزيرةَ الخضراء، وكانَ " من أهل العلمِ والآدب، كَلِفاً بالمُطالعة والدراسة،... وهو شاعر بني عباد بعدَ أبيه، على أنه أقوَى عارضةً منه، وأبوهُ ألطف طبْعاً وأرقُّ صُنعاً"[3].

ويبدو أنَّ صرامة أبيه المعتمد كصرامة مَن سبقَه من ملوك بني عباد في مواضع الزلل، وأنَّ قتلَ ذي الزلّة في الحُكم هو من أقوى الخيارات لديهم، وقد مرَّ بنا جانبٌ من ذلك مع المعتضد أمامَ أبيه القاضي أبي القاسم، ومع المعتمد أمامَ أبيه المعتضد، ويتكرَّرُ هنا معَ الراضي أمامَ أبيه المعتمد، كما إنَّ الشعرَ كان من أقوى وسائل النجاة من عقوبة الموت

---

(١) الحلة السيراء:٢/ ٦٣-٤.

(٢) نفح الطيب: ٤/ ٢٥٩.

(٣) الحلة السيراء: ص ٧١.

لدى هؤلاء جميعاً، وأكبر دليلٍ على هذا أنَّ إسماعيل بن المعتضد لم يتَّخذ الشعر سبيلاً لـه يُخاطبُ به أباه ويطلبَ عفوَه من خلاله، كما فعلَ أخوه المعتمد، فلم ينجُ من هذه العقوبة.

وقد تعرَّضَ الراضي إلى سخطٍ طويل الأمد من لدن أبيه المعتمد سمحَ لقريحته الشعرية أنْ تجودَ بقصائدَ كثيرةٍ يستعطفهُ بها، وهذا ما جعلَ ابن الأبار يقول[1]: " وجلّ شعرهِ في استعطافِ أبيه المعتمد لِطولِ موجدتِهِ عليه، والاعتذار في كلّ حينٍ إليه". وقد تراوحَتْ مشاعرُهُ بين الأمل بالنجاة من قبضة أبيه والتنكيل به وقتْلِه، وبين اليأسِ التام من ذلك، لاسيما عندَما لا يجدُ أيَّ استجابةٍ من لدنِه، فيكون ذلك الباعث المباشر على رثاء نفسه.

ومن تلك القصائد قصيدتان تجلَّى بهما يأسُهُ من النجاة من عقوبة الموت، ولذلك ذكرها بوضوحٍ فيهما. ففي القصيدة الأولى[2] يُعزِّي الراضي نفسَه منذُ مطلعها ويُعلِّقها بخيطٍ من أملٍ ضعيف مغلَّفٍ بسَورةٍ من الحكمة، ودعوةٍ إلى التحلِّي بالصبر:

سجيَّةُ ذي الدنيا عداوةُ ذي الفضلِ ... ورَومُكَ نقلَ الطبعِ من أعظمِ الجهْلِ
فصبراً على ضِيقاتِها فلعلَّها ... تُفرَّج يوماً، والعُقودُ إلى حَلِّ

ويستخدمُ كلمة "الثُكْل" للدلالة على الموت، وهو يحاولُ أنْ يستبعدَ التفكيرَ به، فلا حياة مع تفكيرٍ كهذا:

ولا تُضمِرَنَّ الثُكْلَ إنْ كنتَ ذا حِجا ... فليسَ لبيباً مَن يَبيتُ على ثُكْلِ

(١) الحلة السيراء: ٢/ ٧٣.

(٢) الحلة السيراء: ٢/ ٧٣.

ويعترفُ بقسوة أبيه خلالَ شكواه إليه، ويصفُ، في تشبيه رائع، هذه الشكوَى بأنها كشكوى الجريح إلى السيف الذي جُرِح به، فماذا عساه أنْ يَجني غيرَ المزيد من الجراح وربما القتل:

سأشكو إلى مُشكي فؤادي بِعَتْبِهِ ومِن عَجَبٍ شكوَى الجريحِ إلى النَّصْلِ

ويرجو أباه أنْ يحقِنَ دمَهُ، فطالما حقَنَ الملوكُ قبلَه دماء الآخرين في حين أنَّ سفكَها أشهَى لديهم مِن العسَل، وهنا يتجلَّى إيمانُهُ بما ينتظرُهُ من مصيرٍ على يد أبيه:

وكمْ حَقَنَ الأملاكُ قبلَكَ مِن دَمٍ وكانَ لديهمْ سَفكُهُ كَجَنَى النَّحْلِ

ويُبدي الراضي أشدَّ الجَزَع في قصيدته الثانية التي يُخاطبُ فيها أباه ويعجبُ مِن أنه لم يفُزْ منه برِضا إلى الآن، على أنَّ سخطَ أبيه هو الموتُ بِعَينِهِ (حزّ بِالْمُدى):

مالي حُرِمتُ رضاكَ لي، وهْوَ الذي قد كنتُ أرهبُ من زمانٍ أنكَدا؟

إنّي وحقِّكَ واجدٌ بينَ الحشا مِن أجلِ سخطِكَ مثلَ حَزٍّ بِالْمُدى!

وهو أخيراً بين حالينِ، حال الرضا حيثُ الحياة، وحال الغضبِ حيثُ الموت (فقد بانَ الردَى):

إنْ كانَ لي ذنبٌ فَعفوُكَ واسعٌ أو إنْ يكُنْ بُغضٌ فقدْ بانَ الردى

ثمَّ يحاولُ – يائساً– أنْ يستدرَّ عطفَ أبيه فيصوِّر له المُفارقة بين أنْ يكون على هذه الحال المُهينة المُطلَّة على مصيرٍ فاجع، وبين أنْ يكون محسوداً على ما هو فيه من رفاه ودعةٍ وسيادةٍ كأبناء الملوك:

قد كانَ مِن حقّي لَعمرك أنْ أُرَى مِن بين أبناءِ الملوكِ مُحَسَّدا

وقد نفعَه هذا الفيضُ الشاعري إذْ عفا أبوه عنه ولم يقتلْهُ، بلْ أرجعَ إليه قدرَه السابق وملَّكَه رُندة، ولكنَّ جيشَ المرابطين هو الذي قتلَه، إذْ " استُنزِلَ الراضي مِن رُندة عندَ خَلْع أبيه، وبعدَ مخاطبتهِ إيّاه بِذلك على عهودٍ أُخفرتْ ومواثيقَ نُقضتْ، فقُتلَ صبراً في رمضان سنة أربع وثمانين وأربعمائة "[1]، وهو تاريخ سقوط الدولة العبادية.

١٢- ابن زيدون يرثي نفسه

هو ذو الوزارتين أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي. كان وزيراً في دولة ابن جهور في قرطبة وسفيراً بينه وبينْ باقي الأندلس، ثمَّ ولاّه المعتضد في إشبيليه وزارته وفوَّضَ إليه أمرَ مملكتِه، إلى أن تُوفِّيَ في أيام المعتمد ابنه في العام ٤٦٣هـ.

وكانَ سبب انخلاعه عن دولة ابن جهور وانقطاعه إلى دولة المعتضد هو أنَّ الأول اتَّهمَه بالميْلِ إلى الثاني، وربما كان السبب هو اتّهامُه بمؤامرةٍ لاسترجاع الحُكم الأُموي في الأندلس، وفي كلّ الأحوال كان للدسائس والوشايات فعلُها المؤثّر. وقبلَ أن يلجأ ابن زيدون إلى المعتضد ويتولَّى إدارة دولته دارتْ عليه دائرة العقوبة، فأودعه ابن جهور في غيابة سجنه. وقد أطالَ ابن جهور مدة حبس ابن زيدون، وحسَناً فعَلَ، فلولا ذلك ما أبدعتْ عبقرية ابن زيدونْ وشاعريته الفذّة هذه الباقة من أعذب القصائد وأجملها في غرض الاستعطاف ورثاء النفس مما اشتملَ على مختلف المشاعر الإنسانية ومتلوِّن الأحاسيس.

وكان ابن زيدون يشعر بالزمنِ شعوراً عميقاً، وزمنٌ كالذي مرَّ به وهو يعاني الحبس لَثقيلٌ حقاً، يكاد يستشعر كلَّ دقيقةٍ من دقائقه، وكل ساعةٍ من ساعاته فضلاً عن الأيام والسنين، وهاهو يعدُّ ما مرَّ من زمنٍ في غيابة السجن:

(١) الحلة السيراء: ٢/ ٧١.

مِئينٌ مِن الأيّـامِ خَـمسٌ قَطعتُهـا أسيراً، وإنْ لَمْ يَـبدُ شَـدٌّ ولا قَـمْطُ[1]
أَفَصبرٌ مِئينَ خَمساً مِنَ الأَيَّـامِ؟ ناهـيكَ مِـن عـذابٍ ألـيمِ[2]

تراوحتْ قصائده الاستعطافية بين الاستعطاف المجرَّد، والتبرير لما حدثَ من أمر اتهامه وملابساته، والإشارة إلى الحسد والوشاية اللذين نالا منه الكثير واتَّجها إلى شخصه بسبب رفعة قدرِه وسمو أدبه وعلوّ ثقافته فضلاً عما أُحيطَ به هو من مناصبَ عاليةٍ ومكانة رفيعة في الدولة، طمعاً في أنْ يُخفِّفَ من شدة غضب ابن جهور عليه وحَملِهِ على العفو عنه، وبينَ اليأس واليأس الشديد من هذا العفو، بلْ من الحياة مع طول مُدَّة الحَبْس، فكان هذا هو السبب المباشر لرثائه لِنفسِه.

ومن القصائد التي عبَّرتْ عن تفكير ابن زيدون بِالموت من غير يأسٍ شديد من الحياة قصيدته التي يقول في مطلعها:

ما جالَ بَعدَكِ لَحظي في سَنا القَمَرِ إلاّ ذكرتُـكِ ذِكـرَ العَـينِ بِالأثـرِ[3]

وقد استرسلَ ابن زيدون طويلاً في هذه القصيدة في وصف مشاعره وما يضمره بِإزاء مختلِف الأمور مما يخالج نفسه، فجاءتْ ممزوجةً بالغزَل منذ المطلع الأول، والذكرى والفخر والردّ على الشامتين والشكوى والاعتذار وتبرير ما حدثَ والاستشفاع وهو آخر ما عرَّجَ عليه في القصيدة التي جعلَ منها هذا التنوُّع طويلةً بلغتْ سبعةً وخمسين بيتاً، وهي أطول قصائده الاعتذارية. وغاية ما حاولَ ابن زيدون أنْ يُبرزَه هو الحال المريرة التي هو عليها وتعلُّقه بينَ الموت والحياة، بين اعترافه بِأفولِ نجمِهِ ونَوْل الأقدار والرزايا منهُ

(١) ديوانه ورسائله: ص ٢٨٩.

(٢) نفسه: ص٢٨٢.

(٣) ديوانه ورسائله: ص٢٥٠. وفي سرح العيون: ص١٨ بفتح كاف "بعدك" و "ذكرتك"، وهو من أوهام المحقق.

على حين غرّة وانطواء عمره الغضّ وانعدام الأمل في عودة ما كان كما كان، وبين تعلُّق أمله بالنجاة من مصيرٍ يُزمعُ ابن جهور أنْ يدفعُه إليه:

لا لَهـْوُ أيّامـِهِ الخـالي بِـمُرتَجَعٍ — ولا نَـعيمُ ليـاليـهِ بِمُنـتَظَرِ !
مَنْ يسأل الناسَ عَن حالي فـشاهدُها — مَحضُ العيانِ الـذي يُنـبي عـن الخَبـرِ
لَمْ تطوِ بُـردَ شبابـي كَـبرةٌ، وأرى — بَرقَ المشيبِ اعتلَى في عـارضِ الـشَّعَرِ
قبلَ الثلاثينَ، إذْ عهْدُ الصبا كثَبٌ — ولـلـشبيبةِ غُـصنٌ غـيرُ مُهتَـصَرِ
ها إنّها لوعةٌ في الـصدرِ قادحـةٌ — نـارَ الأسَـى، ومـشيبي طـائرُ الـشَّرَرِ
يا لَلرزايا ! لقدْ شـافهتُ مَنهلَـها — غَمْـراً، فَمـا أشـربُ المَكـروهَ بِـالغُمَرِ
حوادثُ استعرضَتْني، ما نذرتُ بها — غـرارةً ثُـمّ نالـتْني علـى غِـرَرِ

ثُمَّ يفخر بنفسه من خلال إقراره أنَّ ما حصلَ له إنما بسبب ما نالَه من سؤدد وما توشَّحَ به مِن مجد، وهو يردُّ بذلك على الشامتين الواشين به:

لا يُهنِّـئِ الـشامتَ المُرتـاح خـاطرُهُ — أنّـي مُـعَنّى الأمـاني ضـائعُ الأثَـرِ
هل الرياحُ بِنجمِ الأرضِ عاصفةٌ؟ — أم الكـسوفُ لِغـيرِ الـشمسِ والقَمَـرِ؟
إنْ طالَ في السجنِ إيداعي فلا عَجبٌ — قدْ يُـودَعُ الجَفْـنَ حـدُّ الـصارمِ الـذَّكَرِ

ويشيرُ إلى حالَيه بين عفو الحاكم-الحياة وإلاّ فالقَدَر-الموت:

وإنْ يُثَـبِّطْ أبا الحزمِ الرضى قَـدَرٌ — عَن كشفِ ضُرِّي فلا عَتْبٌ على القَدَرِ
فاشفعْ أكُـنْ مثـل ممـطورٍ ببلدتِـهِ — جَـذلانَ بالوطـنِ المـألوفِ والوَطَـرِ

وابن زيدون يُكرِّرُ هذا المعنى في أغلب قصائد الاستشفاعية ومنها قصيدتهُ الميمية:

هـوَى في طلـوع تلـكَ النجـــومِ والمُنــــى في هبـــوبِ ذاكَ النـــسيمِ[1]

إذْ يقول إنَّ بإمكان حاكمه أَنْ يُنجيه من الموت وأنْ تكون نارُه كنار إبراهيم، إذْ قال الله سبحانه وتعالى " قلنا يا نارُ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم "[2]:

بِـأبي أنـتَ ! إنْ تـشَأْ تـكُ بَـرداً وســــلاماً كَنــــارِ إبــــراهيمِ

وفي هذه السَّورةِ من المشاعر الهائجة المتضاربة تتسلَّلُ قصيدتُه الطائية التي مطلعها:

شَحَطنا، وما للدارِ نأيٌ ولا شَحْطُ وشَطَّ بِمَنْ نَهوَى المَزارُ، ومـا شـطُّوا[3]

وقد نظمها بعدَ أنْ فرَّ من حَبسِهِ، أملاً في النجاة من بَطشِ السلطان، وأنَّى له ذلك؟!، فها هو يرسمُ حاله المُفضي إلى هبوط كبريائه التي تعاضمتْ قبلَ الآن، وعندما كان في الحبس، إلى الحضيض، فلمْ يبقَ في جعبتِهِ غير البكاء ونفث الحسرات والزفرات، إذْ أنَّ ذلك الفرس الجَموح منعتْها القيود من الحركة فلم تعد جموحاً ولا ماشيةً على أرجلٍ أربع، وأنَّ ذلك "الصارم الذكر" الذي افتخرَ به في قصيدته الرائية الماضية لم يعدْ كذلك:

إذا ما كتابُ الوجدِ أشكَلَ سطرُهُ فَمِن زفرتي شَكلٌ ومِن عَبرتـي نَقْـطُ

ألا هـل أتـى الفِتـيانَ أنَّ فتاهُـمُ فَريسةُ مَنْ يَعدو، ونُهـزةُ مَـنْ يـسطو؟

وأنَّ الجوادَ الفائـتَ الـشأْوِ صـافِنٌ تَخَـوَّنَهُ شَـكْلٌ وأزرَى بـهِ رَبْـطُ ؟

وأنَّ الحُسمَ العَضْبَ ثـاوٍ بِجَفْنِـهِ ومـا ذُمَّ مِـن غَرْبَـيْهِ قَـدٌّ ولا قَـطٌّ ؟

---

(١) نفسه: ص٢٨٣.

(٢) الأنبياء: ٦٩.

(٣) نفسه: ص٢٨٥.

ويستمرُّ على وصف حال البؤس والحرمان اللذين أمسى يُعانيهما مع ما يعانيه من خوفٍ شديدٍ من وشْكِ القبض عليه، في أبياتٍ طويلةٍ تالية فكأنّه يحاول من خلال ذلك أنْ يرقّقَ قلب حاكمه ويستجدي منه العطفَ به، إذْ يقول يخاطبه وكأنه يُعاتبُه:

فمـا لـكَ لا تَختَـصُّني بِـشفاعةٍ يلوحُ علـى دَهـري لِميسمِها عَلـطُ؟!

يَفـي بِنسيم العنـبرِ الـوَرْدِ نَفْحُهـا إذا شعـشعَ المِـسْكَ الأحـمَّ بِـهِ خَلْـطُ

ويُقارنُ، أيضاً، بين عَفوٍ ونجاةٍ، وبين يأسٍ وتسليم لِما قدَّرَ الله، فإليه هو راجع:

فإنْ يُسعف المَولَى فَنُعمَـى هنيئـةٌ تُنـفِّسُ عَـن نفـسٍ أَلَــظَّ بهـا ضَـغطُ

وإنْ يأْبَ إلاَّ قَبْضَ مبسوطِ فَضلِهِ ففي يَدِ مَـوْلَى فوقَـهُ القـبضُ والبَـسْطُ

أما بلوغه اليأس الشديد الذي بعثَه على رثاء نفسه بإمعان فيتجلَّى في قصيدته اللامية الرائعة " ألَمْ يأن" التي بلغت الخمسين بيتاً[1]، ويبدو أنه نظمها قبيلَ هربه من سجنه، وبعدَ أنْ يئسَ من عفو ابن جهور نهائياً، ولعلَّ هذا اليأس الشديد هو الذي دفعَ به إلى الهرَب فيما بعد، ثمَّ ربما أُشيعَ إليه أنَّ ابن جهور عازمٌ على قتله، تدلُّ على ذلك معاني قصيدته نفسها، وهو باعثٌ يُضافُ إلى نظمه هذه القصيدة في رثاء نفسه، وإلى هربه معاً.

يؤكّدُ ابن زيدون أنَّ الوقتَ قد حانَ للبُكاء عليه وإقامة المآتم عليه وندبه والأخذ، بعد ذلك، بثأره، وبما أنَّ المقتول هو شاعر مبرِّز وكاتبٌ مُبدع وأديبٌ كبير ورجل دولة مؤثِّر فلابدَّ مِن أن تُناطَ هذه المهام إلى الطبيعة بعناصرها البارزة المؤثِّرة: البكاء لِلغمام، والبرقُ لأخذ الثأر، والنجوم للندبِ في المآتم في الآفاق المختلفة:

ألَمْ يأنِ أنْ يبكي الغَمـامُ على قَتلـي؟ ويَطلبَ ثأري البرقُ مُنصلِتَ النَّصْلِ ؟

(١) ديوانه: ص٢٦١-٢٧٣.

وهَلاّ أقامتْ أنـجُمُ الليـلِ مأتــماً لِتندبَ في الآفاق ما ضاعَ مِـن تَـتْلي؟

ويُساوي بينه وبين هذه العناصر في علوِّ قَدْره وعظيم همّته، ولهذا السبب فإنَّ ما يصيبه من الذلِّ لابدَّ منْ أنْ يشملَها أيضاً، وما اجتمعَ منها وتلك هيَ نجوم الثريّا فلها أنْ تتفرَّقَ كما تفرَّقَ شملُه، أخذاً بمبدإِ الإنصاف:

ولو أنصفتْني- وهي أشكال هِمَّتي- لألَقتْ بِأيـدي الـذلِّ لّمـا رأتْ ذُلّـي
ولافترقتْ سبْعُ الثريَّـا وغـاضَـها بِمطلعِها مـا فَـرَّقَ الـدهْرُ مِـن شَـملي

ويلقي باللوم على الليالي، ويقصد حظَّه من المقادير وصروف الدهر، فقد طالما رمَتْ بسهامها ولكنها أصابتْ النُّبلَ وهي صفة حَسَنة على أنها كان يجبُ أنْ تُصيبَ الصفات الرديئة، لاسيما وقد تحلَّتْ هي نفسُها بصفات الحَسَنة وهي كثيرةٌ نصَّ على عددٍ منها، وكأنَّ الزمانَ يقفُ بالمرصاد لأصحاب المواهب:

لَعمرُ الليالي إنْ يكنْ طالَ نَزْعُـها لقدْ قرطَسَتْ بِالنَّبْلِ في موضعِ النُّبْلِ
تَـحلَّتْ بِآدابـي، وإنَّ مآربـي لَـسانِحةٌ في عَـرضِ أُمنيَّـةٍ عُطْـلِ
أَخَـصُّ لِفَهْـمي بِـالقِلَى، وكـأنما يبيتُ لِذي الفَهْمِ الزمانُ على دَخْـلِ!
وأجفَى على نَـظمي لِكُـلِّ قـلادةٍ مُـفصَّلةِ الـسمطينِ بِالمنطـقِ الفَصْـلِ

ويُعـبِّرُ عن مدى أسفِه لأنَّ أصحاب العِلمِ والأدب والمعرفة لا يأخذون حظَّهم من الحياة كما ينبغي، بلْ همْ مظلومونَ محسودون مبخوسو الحقوق، بينما يَنعُمُ سواهم بلذيذ العيشِ وحُلو الحياة، حتىَّ إنه يتمنَّى أنْ يشتري الجهلَ بالعِلمِ، لِيُـرضيَ بِذلك أعداءه فينجو من مثل ما أصابه، وأنّى له ذلك؟!. وهو هُنا يصفُ لنا ما كان يعتورُ الحياة الاجتماعية والسياسية في زمانه من الأخلاق والممارسات:

ولو أنّي أسطيعُ كيْ أُرضيَ العِـدا شَريتُ بِبعضِ العِلْمِ حظًّا مِن الجَهْـلِ!

وبعدَ ذلك يتوجَّه بالخطاب إلى أُمِّـهِ وهي والهٌ قد أصابها الجزع حُزناً على ثُكْلِها إيَّاه، ويُحاول التخفيف عنها وُمواساتها، ويطلب منها الإقلالَ من البكاء عليه، فهي ليستْ أول أُمٍّ تفقدُ ابنها، وليسَ هو أوَّلَ نجمٍ يَهوي، ويضرب لها أُمَّ النبي موسى عليه السلام مثلاً، "إذْ رَمتْ به إلى اليمِّ في التابوت"، ويطلب منها الاعتبار بذلك والتسلِّي:

أمَقتولةَ الأجفـانِ مالَـكِ والِـهاً؟ أَلَمْ تُـرِكِ الأيّـامُ نَجمـاً هـوَى قَبْـلي؟
أَقِـلِّي بُكـاءً، لـستِ أوَّلَ حُـرَّةٍ طَوَتْ بالأَسَى كَشْحاً على مَضَضِ الثُّكْلِ
وفي "أُمِّ موسَى" عِـبرةٌ إذْ رَمَـتْ بِـهِ إلى اليمِّ في التـابوتِ، فاعتـبري واسْلي

وعلى مدى ثمانيةٍ وثلاثين بيتاً هي ما بقِيَ من القصيدة يتوجَّه ابن زيدون إلى حاكمهِ ابن جهور يكيلُ له المديح ويعتذر منه ويتذلَّلُ له ويدور في لُججٍ من الظنون والوساوس، ويَنفي عن نفسه ما وُجِّهَ إليه من التهم، ويُلقي باللائمة على الحُسَّاد والوشاة في وسط ما أشرنا إليه من إحساسه باليأس الشديد.

ويجدرُ بنا أنْ نُشيرَ هنا إلى أنَّ هذه القصيدة، على طولها، خَلَتْ من معاني الغزل والهوَى واللهو الشباب، وهو مما اعتاد أنْ يُعرِّجَ عليه ابن زيدون حتَّى في قصائده الاستشفاعية غيرَ ما ندَر، إذا استثنينا تشبيهه البارع في قوله:

أَلا إنَّ ظنِّـي بـينَ فِعْـلَيْكَ واقـفٌ وقوفَ الهـوَى بـينَ القطيعـةِ والوَصْـلِ

وهذا حَقيقٌ بأنْ يدلَّ على اللون القاتم الذي يُغلِّفُ مشاعره، والظلام الذي تَغيبُ في أرجائه روحه في حال نظم القصيدة[1]. كما يجدرُ أن نُشير الى أنَّ جميع هذه القصائد، غير

---

(١) هناكَ اختلاف في رواية هذه القصيدة في مصادرنا. ينظر على سبيل المثال: جنة الرضا: ٢/ ٢١٩، والذخيرة: ١/ ٢١٦-٧.

ما ندر، اشتملتْ على افتخار ابن زيدون بنفسه والتذكير بصفاته الحسنة. وهو فضلاً عن ذلك يُقدِّم ذكرَ نفسه على ذكر مَن يستشفع بهم ويكيلُ لهم المديح في قصائده هذه.

وقد انطوتْ هذه الصفحة القاتمة في حياة ابن زيدون "إذْ إنَّه أعملَ لِنفسه في الخلاص من سجنه حِيَلاً، واتَّخذَ الليل للهرب جَمَلاً، فقطعَ في ليلةٍ واحدة ما بين قُرطبة وأشبيلية من المفاوز والمراحل، ومسافتها ثلاثة أيام لِواخدات الرواحل. ولَمّا اتَّصلَ خبرُ وصوله بِأبي عمرٍو عبّاد، وهو يومئذ سلطان تلك البلاد، تلقَّاه في جماعة من جماهير الكُماة، ومشاهير العلماء والقُضاة، فألقَى مقاليدَ وزارتِهِ وجميع أُمور دولتِه إليه، وأفاضَ الخِلَع والسوابغ عليه"[1]، فتنفَّسَ الصُّعداء، وأشرقتْ صفحة حياته من جديد، وانقطعَ هذا الوتر الحزين في قيثارته الشعرية.

١٣- أبو بكر ابن عمّار يرثي نفسه

هو ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن عمّار المَهري الشلبي، كان وزيراً للمعتمد بن عباد ومستشاره ونديمه، ثمَّ خلعَ عليه خاتم المُلك ولَقَّبه بِالإمارة، واستنابه على "مُرسية" فعصَى بها وتملَّكَها، فاحتالَ المعتمد حتَّى أوقَعَه في قبضته فحبسَه ثمَّ قتَلَه بيديه في إشبيليه.

قال عنه ابن بسّام في كتابه "الذخيرة"[2]: "كان شاعراً لا يُجارَى، وساحراً لا يُبارَى، إذا مدحَ استنزلَ العُصْمَ، وإنْ هجا أَسمَعَ الصُّمَّ، ولاسيما في المُعذَّرين من الغِلمان، أَسمعَ سحراً لا يعرفه البيان، وكيفَ لا يُرغَبُ في شعرِه، ويُتنافَسُ فيما ينفثُ به من سحره، وهو يضربُ في أنواع الإبداع بأعلَى السهام، ويأخذُ من التوليد والاختراع بأوفر الأقسام"، وقال عنه ابن الأبار في كتابه الحلة السيراء[3] " كان ابن عمار شاعرَ الأندلس غير مدافَع ولا منازِع، إلّا أنَّ مساوئ أفعاله ذهبتْ بِمحاسن أقواله: أدمنَ الخمرَ، وهوَّنَ على نفسه الغدر، فأداه ذلك إلى رَداه".

---

(١) المطرب: ص١٦٨.

(٢) ٢/ ٢٢٢.

(٣) ٢/ ١٣٤.

وقال عنه ابن دحية في كتابه "المطرب"[1]: " كانت ملوك الأندلس تخافُه لِبذاءة لِسانه، وبراعة إحسانه، لاسيما حين اشتملَ السلطان المعتمد على الله وأنهضَه جليساً وسميراً، وقدَّمه وزيراً ومُشيراً، ثم خلعَ عليه المُلك ووجَّهه أميراً، وقد كان أتى عليه حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، فتتبعتْه المواكب والمضارب، والنجائبُ والجنائب، وانقادتْ له العساكرُ والكتائب والجنود، وضُربتْ خلفَه الطبول ونُشرتْ على رأسه الراياتُ والبنود، فملَكَ مدينة تُدْمير، وأصبحَ راقيَ منبرٍ وسرير، مع ما كان فيه من عدم السياسة وسوء التدبير، ثم انتزَى على مالِكِ رقِّهِ، ومستوجِبِ شُكرِهِ ومستحقِّه. فبادَرَ إلى عقوقِهِ وبَخْسِ حقِّه، فتَحيَّلَ المعتمدُ عليه، وسدَّدَ سِهامَ المكايدِ إليه، حتَّى حَصلَ في قبضتِه قنيصا، وأصبحَ لا يجدُ له مَحيصا، إلى أنْ قتَلَه المعتمدُ في قصرِه ليلاً بيده، وأمرَ مَنْ أنزَلَهُ في مَلحدِه، وذلك سنة سبعٍ وسبعين وأربعمائة".

كان ابن عمّار قد استبدَّ به حُبُّ السُّلطةِ والطغيان منفرداً بهما، وقد أشارَ ابن سعيد الأندلسي إلى هذا بقوله[2] " داخَلَ ابنَ عمَّار العُجْبُ، وسمَتْ به نفسُه إلى مُجاذبة رداء المُلك، فوثَبَ على مُرسية لَمّا أخذَها لابن عبّاد، وانفردَ بها بِنفسِه"، كما أشار ابن الأبار إلى حاله بعد استيلائه على مرسية بقوله[3]: " قعدَ بها مقعدَ الرؤساء، وخاطبَ سُلطانَه مُخاطبة الأكفاء، مستظهراً على ذلك بِجرِّ الأذيال، وإفساد قلوب الرجال، معتقداً أنَّ الرئاسة كأسٌ يشربها، وملاءة مجونٍ يسحبها".

وقد فعلَ ابنُ رشيق قائدُ ابن عمّار وخليفتُهُ على مرسية عندما قصَدَ ابنُ عمّار طليطلة محاولاً الاستيلاء عليها، ما فعلَه سيِّدُهُ، حيثُ استغلَّ فرصةَ غيابِه واستبدَّ بِمُرسية وأغلقَ أبوابها بِوجهه، فلجأَ ابن عمار عند ذالك إلى مُرسية ومَلِكِها المؤتمن بن هُود، وعاشَ في كنفِهِ بين عامَي ٤٦١-٤٧٧هـ.

---

(١) ص ١٦٩.

(٢) المغرب في حلى المغرب: ١/ ٣٨٩-٣٩٠.:

(٣) الحلة السيراء: ٢/ ١٣٤-٥.

وقد حاولَ ابن عمّار التقرُّبَ إلى المؤتمن من خلال إظهاره الاستعداد لإعادة الحصون التي خرجتْ من طاعتِه إليه، وقد نجحَ فعلاً في إعادة حصْنٍ من حصونه، إلاَّ أنه لم ينجحْ في إعادة قلعةِ شَقُورة، إذْ احتالَ أهلُها عليه وأسقطوهُ في قبضتِهم وألقَوهُ في سجنهم، حتَّى استطاعَ المعتمد شراءه بالمالِ وتحصيلِه وإيداعه في سجنه.

وكان ابن عمار قد رثَى نفسه مرتين، كانت أولاهما في العام ٤٧١هـ عندما اتهمه المعتمد بن عباد في معركةٍ اعتُقلَ ابنُهُ الرشيدُ رهينةً لدى صاحب إشبيليه بسببها، واضطُرَّ إلى فدائه بأموالٍ طائلةٍ فيما بعد[١]. وقبلَ نجاة الرشيد بالفدية كتبَ ابن عمار إلى المعتمد قصيدةً[٢] يستشفعه فيها مستشعراً الخطر الشديد بسبب اتّهام المعتمد له في ذلك، لأنه هو صاحب فكرة تجييش الجيوش والخروج إلى الاستيلاء على مرسية مع الرشيد.

يرثي ابن عمار نفسه في هذه القصيدة منذ البيت الأول، فعبارتُه "أُصدِّقُ ظنِّي" تدلُّ على أنه كان يظنُّ أنَّ المعتمد سيعاقبه بالموتِ على أنَّ الآخرين من أصحابه لا يرون ذلك، وهو لهذا السبب في حيرةٍ بين الأمرين وبين أمرين آخرين ذواتَي علاقةٍ بهذين: أيقبلُ على المعتمد أم يفرُّ منه؟:

أُصدِّقُ ظنِّي أمْ أصيخُ إلى صحبي؟ وأقضي غريمي أمْ أعوجُ مع الركبِ؟

إذا انقدتُ في رأيي مشيتُ مع الهوَى وإنْ أتعَقَّبْهُ نكصتُ على عقْبي

ويمضي ابن عمار في التعبير عن القدر الذي بلغَه من اليأسِ، وعن مقدار ما غلَّفَ قلبه من الحزن لِما آلَ إليه حاله أمام صديقه (الودود) الملِك، حتَّى يبلغَ الغايةَ من التصريح بخوفه وشبه يقينه من حَتفِه على يد المعتمد، وله الحقُّ في ذلك، عندما يقول:

أخافُكَ للحقِّ الذي لكَ في دَمِي وأرجوكَ للحبِّ الذي لكَ في قلبي

---

(١) انظر في ذلك الحلة السيراء: ٢/ ١٢٠ وما بعدها.

(٢) الذخيرة: ٢/ ٢٤٤، والحلة السيراء:٢/ ١٣٥.

يبدو أنَّ المعتمد رقَّ قلبُه لِصديقِه ابن عمار فكتبَ إليه قصيدةً معارضاً فيها قصيدته[1] على عادته السابقة أيام كان هو وابن عمّار شابين صغيرين يقتسمان المتعة ويتبادلان المشاعر بالأشعار، فأدخلَ الطمأنينة في قلبه، وكان ذلك تأخيراً لِمصيره على يديه ستَّ سنوات، وعندَئذٍ رثى نفسَه للمرّة الثانية.

وعلى الرغم من أنَّ مدة اعتقال ابن عمار لم تطُلْ كما طالت مدة اعتقال ابن زيدون، إلا أنَّ ابن عمار أتحفَنا بِطائفةٍ رائعة من رثائيات النفس التي وصفتْ المراحل التي مرَّ بها حالُه من طلبه واعتقاله. ويبدو أنَّ أول مرحلةٍ من تلك المراحل عندما هربَ الى المؤتمن وتولّى وزارته، ثمَّ "تجافَى عنه مع ذلك فأقامَ على البطالة مقبلاً"[2]، فسئمَ تلك الحالة فرحلَ إلى صاحب لاردة المظفر حسام الدولة أبي عمر يوسف بن سليمان المستعين، ويبدو أنَّ المقام لم يطب له، فرحلَ إلى سرقسطة[3]، وفي هذه الأثناء أحسَّ بالضياع، حيثُ لا حافظَ له من سطوة المعتمد، والقبضِ عليه، فكتبَ رائعته الميمية " عليَّ وإلاَّ "، التي "تنيفُ على تسعين بيتاً"[4] وفيها أقرَّ بحقيقة موته منذ البيت الأول منها:

عليَّ وإلاّ ما نُياح الحمائمِ ... وفيَّ وإلاّ ما بُكاءُ الغمائمِ
وعنّي أثارَ الرعدُ صرخةَ طالبٍ ... لِثأرٍ وهزَّ البرقُ صفحةَ صارمِ
وما لبستْ زهرُ النجومِ حِدادها ... لِغيري ولا قامتْ لـه في مآتمِ
وهلْ شقّقتْ هُوجُ الرياحِ جيوبها ... لِغيريَ أو حنَّتْ حنينَ الروائمِ[5]

(١) أنظر جواب المعتمد في ديوانه: ص٥٢.

(٢) الحلة السيراء: ٢/ ١٤٦.

(٣) أنظر نفسه: ٢/ ١٤٦-٨.

(٤) الحلة السيراء: ٢/ ١٤٨.

(٥) الذخيرة: ٢/ ٢٢٣.

وهو في هذه المقدمة مثل غيره من أصحاب الشأن من الشعراء في مثل حالته، فهو يرى أنَّ حدثاً مثل موته لا يمرُّ بهدوء كما يمرُّ موت الناس العاديين البسطاء، دونَ أنْ تشتركَ عناصر الطبيعة في إقامة الحداد وإعلان الحزن الشديد عليه، فما هديلُ الحَمامِ إلاَّ نواحٌ، وما مطَر السماء إلاَّ بُكاءٌ، وليستْ أصوات الرعد إلاّ أصواتٌ ارتفعَتْ لِتطلبَ الثأرَ له، وما ذاك البرقُ إلاَّ التماعةُ سيفٍ سُلَّ لهذا الغرض، أمّا النجوم فلم تجتمع في كبد السماء، ولم تتوشَّحْ بِظلام الليل إلاّ حداداً عليه، ولْم تُقِمْ مأتماً لِسواه، ومِثلها الرياح العاصفة التي شقَّتْ جيوبها و حنَّتْ حنين الظباء لِمَن تفقد.

وهو مثل مَن سبَقَه يُحاول أنْ يتَّكِئَ على ذكرياته وماضيه السعيد لِيُخفِّفَ مِن وطأة التفكير بالموت على نفسه، وفي ذلك إشارةُ توديع لِدنياه التي تُشكِّل ذكرياتُه الجانبَ الأهمَّ منها، إذْ أنَّ استحضار مثل هذه الذكريات هو شيءٌ يحتاجُه مَن يحضرُهُ الموت ويزمع توديعَ الحياة بوصفها أعزَّ شيءٍ لديه، وتتردَّدُ ذكرياتُ ابن عمّار الجميلة بين شِلْب حيثُ مسقطُ رأسه في أحدى قُراها: شَنَّبُوس، وحِمْص (إشبيليه) حيثُ ملاعب الشباب ومسرح السلطة مع صديقه محمد بن عباد في الحالين، ولا مَنجى لديه من نار الشوق إلى تلك العهود بأيامها ولياليها، وهو شوقٌ لا يستطيع أحدٌ أنْ يَثنيَه عنه:

أَشِلْبٌ ولا تنسابُ عَبرةُ مُشفِقٌ — وحِمصٌ ولا تَعتادُ زَفرةُ نادِمِ
كساها الحيا بُردَ الشباب فإنها — "بلادٌ بها عقَّ الشبابُ تمائمي "
ذكرتُ بها عهدَ الصبا فكأنما — قدحتُ بنار الشوقِ بينَ الحيازمِ
لياليَ لا ألوي على رُشْد لائمٍ — عناني، ولا أَثنيه عن غيٍّ هائمِ
أنالُ سُهادي عن جفونٍ نواعسٍ — وأجني عذابي من غصونٍ نواعِمِ

ويرسُمُ في هذه القصيدة ملامح وصوراً من تلك العهود، ولكنه يستخدم ضمير المتكلّمين "نا"، وكأنه يريدُ بذلك مغازلة مشاعر المعتمد، حيثُ كان وإيّاه يقتسمان تلك

الملذات وينسجان خيوط تلك الحياة العابثة، قبلَ أن يُصبح المعتمدُ ملكاً وبعد ذلك، تلك الحياة التي أصبحت ذكرياتٍ يتحدَّثُ عنها ابن عمار الآن:

وليلٍ لنا بالسُّدِّ بين معاطفٍ … من النهرِ ينسابُ انسياب الأراقمِ
بحيثُ اتَّخذنا الروضَ جاراً تزورُنا … هداياه في أيدي الرياح النواسمِ
يُبلِّغنا أنفاسَه فنردّها … بأعطر أنفاسٍ وأذكَى لِناسِمِ
تسير إلينا ثمَّ عنّا كأنها … حواسدُ تمشي بيننا بالنمائمِ
سقتْنا بها الشمسُ النجومَ ومَن بدتْ … له الشمسُ في قِطْعٍ مِن الليل فاحمِ
وبتنا بلا واشٍ يُحَسُّ كأنما … حَلَلْنا مكانَ السرِّ مِن صدرِ كاتمِ

ويستمرُّ ابن عمار على هذه الوتيرة وينتقلُ منها إلى الشكوَى، ويعرفُ أنَّ شكواه يجب أن تتوجَّه إلى سامعٍ راحمٍ، وإلاَّ فهي ذلٌّ مجرَّد، ولكنه في الوقت نفسه يستحي أنْ يُواجه المشكو إليه لِما اقترفَه من ذنبٍ في حقّه، ولذلك فهو يتمنَّى البُعدَ عنه ولا نجاة له مع ذلك من المصير الذي ينتظره، كما يتمنَّى هذه النجاة بمساعدة "الدهر" وهو ظالمُه على أية حال، فلا سبيل أيضاً إلى ما يتمنَّى، لأنَّ المعتمد- "إخوان الصفاء" قد أوقعَ اللوم عليه، ونسيَ ما كانَ منه من إخلاص سابقٍ:

وإنّي لأدعو لو دعوتُ لِسامعٍ … مُجيبٍ، وأشكو لو شكوتُ لِراحمِ
أريد حياة البَيْنِ، والبينُ قاتلي … وأرجو انتصار الدهر، والدهرُ ظالمي
ونُبِّئتُ إخوان الصفاءِ تغيروا … وذمّوا الرضَى من عهديَ المتقادمِ

ويسترسلُ في عَرض تمنّيه عفوَ المعتمد، ويتذلّل له غاية التذلُّل، طمعاً في بلوغ هذا العفو، وهو لا يجرؤ على اللجوء إليه قبل بلوغه، ففي ذلك إحقاقٌ للمصير المتوقَّع:

ولو أنَّ عفواً مِن هنالك زارني … لَزرتُ، وما عَدْوُ الزمانِ بِدائمِ

ومـا هــو إلاّ لَــثْمُ كَـفٍّ محمَّـدٍ وتمكــينُ كفّــي مِــن نواصــي المظــالِمِ

ثم يستنفدُ باقي أبيات القصيدة في كيل المديح للمعتمد وأبيه ونسبه، ويبالغ في ذلك كلَّ المبالغة، مُخالفاً ما يعتقده ويؤمن فيه، أليسَ هو القائل مِن قبلُ:

ممّـا يُقبِّحُ عنـدي ذكـرَ أنـدلسٍ سَـماع معتـضدٍ فيـها ومعتمـدِ

أسمـاء مملكـةٍ في غـير موضـعها كالهرِّ يَحكي انتفاخـاً صـولَةَ الأسَدِ(١)

عندما فشل ابنِ عمّار في استخلاص شقورة من أيدي أهلها لصالح ابن هود، كما مرَّ، فوقعَ في أيديهم، ثمَّ آلَ حالُهُ إلى أنْ عَرضوه لِلبيع من رؤساء الأندلس، فتثاقلوا جميعاً عن ذلك، وأسرعَ ابنُ عباد إلى شرائه بكلِّ ما طُلب من الأموال، وأرسلَ ابنَه الراضي لِيتسَلَّمَه، "وانصرفَ إلى أبيه المعتمد وهو بقرطبة، وابن عمّار بين يديه مقيَّد بين عِدلَيْ تِبْنٍ علـى هُجُنِ زوامل العسكر، ومِيلَ بِهِ إلى سجنٍ قد أُعِدَّ له"(٢).

ومِن سجنه في قرطبة هذا كتب إلى المعتمد في إشبيليه قصيدته الحائية "سجاياك"(٣)، وفيها يستشفعه ويرجو عفوَه، ولكنه في الوقت نفسه يؤكِّد مصيرَه المحتوم: الموت على يد صديقه وسيده عاجلاً أمْ آجلاً، ويرثي نفسه ولكنْ ليسَ في أول القصيدة. إنه أراد فيها أنْ يتوجَّه إلى عاطفته، ويستمطر كرمَه في العفو، ويرقِّق قلبَه من خلال التذلُّل لأجل ذلك، ولكنه ليس من أجل الخلاص من الحبس، وإنما الخلاص من الموت:

سجاياكَ إنْ عافيتَ أندَى وأسمـحُ وعُـذرُكَ إنْ عاقبـتَ أجلَـى وأوضـحُ

(١) وفيات الأعيان: ٤/ ٤٢٨، وفي المصادر الأخرى بعض خلاف طفيف في رواية النص.

(٢) الحلة السيراء: ٢/ ١٥٠-١.

(٣) ذكر الفتح بن خاقان (قلائد العقيان: ص٢٣٢) أنَّ ابن عمار قرأ هذه القصيدة للمعتمد عند زيارته له في سجنه ثم قتله بعد فراغه من قراءتها، وهو غير صحيح، والصحيح ما عليه بقية المصادر وأوردناه.



وإنْ كان بينَ الخطّتين مزيّةٌ فأنتَ إلى الأدنى من الله أجنَحُ
حنانيكَ في أخذي برأيكَ، لا تُطعْ وشاتي، ولو أثنَوا عليَّ وأفصحوا[1]

وأول إشارةٍ إلى موته تردُ في قوله:

وإنَّ رجائي أنَّ عندَكَ غيرَ ما يخوضُ عدوّي اليومَ فيه ويمرحُ
وقالوا: سيجزيه فلانٌ بِذنبه فقلتُ: وقد يعفو فلانٌ ويصفحُ

فهو يرجوه ألاَّ يُحقّقَ لأعدائه ما يتشدّقون به مِن أنه سيقتلهُ، ويدعوه إلى أنْ يكذّبَ ظنَّهم هذا، وهو مع ذلك متردِّدٌ بين إقراره بحقيقة قتله (بطشاً)، وبين أملٍ ضعيفٍ هو قيد الظنِّ والغيب يطلب الشفاعة بسببه من المعتمد ويخاطبه بلقب "المؤيد" وهو أحد ألقابه الأخرى:

ألا إنَّ بطشاً للمؤيّد يرتمي ولكنَّ بَطشاً للمؤيد يرجحُ

أما البيت التالي فيُقرُّ فيه ابن عمار بيأسه من الحياة دون شكٍّ ودون أملٍ له باقٍ:

وبين ضلوعي مِن هواهُ تَميمةٌ ستنفعُ لو أنَّ الحِمامَ يُجلِّحُ

وفي البيت إشارة خفيَّة إلى بيت أبي ذؤيب الهُذلي:

وإذا المنيَّة أنشبتْ أظفارَها ألفيْتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ[2]

وقد انتبه المعتمد نفسُه إلى هذا فقال لِمَن كان في حضرته ساعة وصول القصيدة إليه: "مهما سَلَبَه الله من المروَّة والوفاء، فلم يسلبْه الشعر، إنما قلبَ بيتَ الهذلي فأحسَنَ"[3].

(١) الحلة السيراء: ٢/ ١٥٣.
(٢) ديوان الهذليين: ص٣.
(٣) الذخيرة: ٢/ ٢٥٢.

ويؤكِّدُ هذا الإقرار في البيت الأخير من القصيدة، إذْ بدا وكأنَّه يودِّعُ المعتمد ويودِّع معه الحياة التي لم يعدْ فيها بقية بالنسبة إليه، وبذلك أيضاً تبلغُ القصيدةُ نهايتها:

ويَهنـــيهِ إنْ مُـــتُّ الـسلوُّ فـإنني أمـوتُ وبـي شـوقٌ إليـهِ مُبَـرِّحُ

وفي عجز هذا البيت يُراهنُ ابن عمار على ما بينه وبين المِلِك-الصديق مِن صداقة ومودّة سابقة قبلَ أنْ يَنـتزي هو عليه في مرسية، محاولاً تغليبَ تلك الصورة الرائعة التي كان فيها صديقاً وفياً على صورةٍ استجدَّتْ برزَ فيها خائناً. وهذا ما فعله في كل قصائده الاستعطافية ما رثَى بها نفسه وما لم يفعلْ.

وفي هذه الأثناء كتبَ إلى المأمون بن المعتمد قصيدةً يهزُّ فيها سجاياه "الحميدة" ويستمطر قُدرته على التوسُّط لدى أبيه، مِن خلال مخاطبته لِنفسه، وهنا لا ينسَى، طبعاً، أنْ يَذكره بلقبه، ويردِّد هذا اللقب ثلاث مرَّاتٍ، لِيُشعرَه بجدِّية الاستشفاع ولِيُعمِّقَ مِن مسؤوليته إزاءه، وكأنَّه يطلبُ منه أنْ يكونَ حقيقاً بما ينطوي عليه لقبُه "المأمون" من معنَى، كما يذكرُ له لقبَه الآخر "الفتح"، لِيُعظِّمَ فِعْلَ استعطافه استناداً إلى معنى هذا اللقب، ولهذا، من ناحيةٍ أُخرى، دلالة نفسية على أنَّ الشاعر يُعلِّقُ كلَّ الآمال بالنجاة من عقوبة الموت على المأمون وكأنه الشفيع الوحيد الباقي:

هــلاّ ســألتَ شــفاعةَ المأمــونِ أو قلـتَ مـا فـي نَفـسِهِ يَكفينـي

مـا ضـرَّ لـو نبَّـهتَه بتحيـةٍ يَسـري النسـيمُ بهـا علـى داريـنِ

وهـزَزتَ منـه فقـدْ يُقلِّـبُ سيفه يـومَ الجِـلادِ الحَـينَ بعـدَ الحَـينِ

مـالي أُنبِّـهُ نـاظراً لم يغـفُ عـنْ حَظِّـيْهِ مِـن دنيـا ولا مـن ديـنِ

وأهـزُّ مـن عِطـفٍ ثنـاهُ عَطفُـهُ حتَّـى خشيتُ عليـهِ فَـرطَ اللّـينِ

بيـدي مِـن المـأمون أوثـقُ عِصمةٍ لـو أنَّ أمـري في يـدِ المأمـونِ

كما لا ينسَى أنْ يكيلَ المديح إلى أبيه وجدّه، ولكنَّ ما يهمنا من هذه القصيدة وسواها هو رثاؤه لنفسه، وهو هنا يصفُ حالَه من خلال ما كان مِن أمره وما آلَ إليه مع أبيه، ويصفُهُ بالبحر ذي الحالَين من العطاء عندَ الوفاء والبطش عندَ الذنب:

بحـرٌ إذا ركـبَ العُفـاةُ سـكونه ... وهـبَ الغنَـى في عِـزَّةٍ وسـكونِ
وإذا طمَـى للـذنبِ لم يـسمعْ بـه ... إلاّ الـدعاء يُـعانُ بالتأمـينِ

وقد كان هذا البحر يَروي عطشَه بالماء العَذْبِ، ويُغني فَقْرَه باللؤلؤ المكنون، ولكنَّه الآن على أشدِّ حالةٍ من الهياج، وقد تلاعبتْ أمواجُه بسفين (مَصير) ابن عمّار، وقد بعدتْ سواحلُهُ عنه، فلمْ يعدْ يشكُّ في أنه غارقٌ لا محالة:

كَمْ أسكَبَ العَذبَ الفراتَ على فمي ... ورمَـى يـدي بـاللؤلؤ المكنـونِ
واليـومَ قـد أصبحتُ في غَمَراتِـهِ ... إنْ لَمْ تُغِـثْني رَحمـةٌ تُنجينـي
بَعـدتْ سواحـلُهُ علـيَّ وأدركـتْ ... أمواجُـهُ فتلاعبـتْ بِـسفيني
لاشـكَّ في أنّـي غريـق عُبابِـهِ ... إنْ لَمْ يمـدَّ الفـتْحُ[1] لـي بيمـينِ

ويستمرُّ ابن عمار في استعطاف المأمون حتى آخر القصيدة.

ويبدو أنَّ المأمون لم يُسعفْه بشفاعةٍ، أو أنَّ شفاعته لم تُجدِ عفواً، فاستدار إلى الرشيد ابنه الآخر للغرضِ نفسه، متوصِّلاً إليه من خلال عنصرٍ سريع ومؤثِّرٍ من عناصر الطبيعة هو البرق الذي وجدَ فيه ما يُضاهيه من الصفات: القلبُ الخافق المضطرب من الخوف، وضجيج السلاسل التي تُقيِّدُه:

قـلْ لِبَـرقِ الغَمـامِ مِطْـوِ البريـدِ ... قاصـداً بالـسلامِ قـصرَ الرشـيدِ
فتقلَّـبْ في جـوِّه كـفؤادي ... وتنـاثرْ في صـحنِهِ كالفريـدِ

(١) الفتح هو لقبٌ آخر للمأمون.

والجذبُ في صلاصلِ الرعدِ تحكي ضَـــجَّتي في سلاســـلي وقيـــودي[1]

ويتوصَّل بعدَ أبياتٍ إلى رثاء نفسه، حيثُ يُرديه هذه المرَّة طائرٌ من كواسِر الطَّير قويّ المخالِب هو العُقاب، وهو الآن في حالة انقضاض:

وأنـا اليـومَ تـحتَ ظِـلٍّ عُقـابٍ لَقْـــوةٍ مُخْـــوتِ الجنـاحِ صَـيودِ

وتستمرُّ القصيدةُ على نحوٍ آخر هو كيل المديح للرشيد دون التعريج على أبيه حتَّى نهاية القصيدة، مُغازلاً بهذه الطريقة الجانب الذاتي الفردي في شخصيته، فلعلَّ في ذلك تحريكاً أقوَى لأريحيته ونزوعه إلى التوسُّط لدى أبيه في هذا الشأن.

بعدَ أنْ أقامَ ابن عمّار في قرطبة لياليَ عدداً جاء به الراضي الى إشبيليه مقر حُكم المملكة فسجَنه المعتمد "في بيتٍ خاملٍ من بيوت القصر أياماً، ثم قتلَه بيده. وكان أسرُه بِشقُورة لِستٍّ بقينَ من شهر ربيع الأول سنة سبعٍ وسبعين وأربعمائة، وقدومُ الراضي به على قرطبة يوم الجمعة السادس من رجبٍ فيها"[2]، ولذلك فإنَّ إقامته أسيراً في شقورة (عدة أشهر) أطول كثيراً من مدة حبسه لدى المعتمد في قرطبة وأشبيليه (عدة أيام).

وكان قد ثقلَ على ابن عمار أنْ يلقَى المعتمد بعد الذي حصَلَ، وقد اعتملتْ في نفسه، وقد تأكَّدَ من مقتله، مشاعر قوية التناقض والتضارب والارتباك إزاء المعتمد، وقد أحسنَ في وصفها غاية الإحسان:

والله مــــــــا أدري إذا قـــالوا: غـــداً يـــومُ اللقـــاءِ
مــا أقـــتلَ الحـــالَين لـــي إنْ كـــانَ خَـــوفي أو حيـــائي؟!

"فما أصغَى إليه ولا أبقَى عليه"[3].

---

(١) الذخيرة: ٢/ ٢٥٥.

(٢) الحلة السيراء: ٢/ ١٥٨.

(٣) الحلة السيراء: ٢/ ١٥٤.

تحدثَ ابن الأبار عن حال ابن عمار يومَ المجيء به إلى إشبيليه فقال: "وقيل إنَّ القادمين به مع الراضي لمّا سلموه إلى القصر، دُعوا ذلك اليوم بعدَ العصر في سلاحٍ شاكٍ وتعبئةٍ ظاهرة، ليصحبوه إلى إشبيليه، فأقاموا على ذلك إلى الليل ينتظرون تسليمَه إليهم، ثمَّ لم يَرُعْهم إلاَّ خروج المعتمد والشمع بين يديه، والحُرَمُ حواليه، وابن عمّارٍ بينهنَّ على بغلٍ، وهنَّ يهزأن به ويتضاحكنَ منه، فأعربتْ حالُه يومئذٍ بمبادئها عن سوء العاقبة فيها. ووردَ على المعتمد غيرُ ما خطابٍ فيه بالشفاعة، فسدَّ الباب في ذلك وشدَّ صفادَه هنالك"[1].

وكاد المعتمد أن يعفوَ عن ابن عمار بعد استعطافه لولا ما كان منه من مخاطبة الرشيد بن المعتمد وإخباره بوعد أبيه له بالعفو عنه، ولم يكن المعتمد راغباً في إفشاء خبر هذا العفو، فكان ذلك هو السبب المباشر لقتل المعتمد له[2] إذْ "أخذَ طبرزيناً[3]، وجاء إلى موضع ابن عمار الذي كان فيه مسجوناً، ودخلَ إليه، ففزِعَ -كما كان في قيوده- إلى تقبيل رجليه، فضربَه به، ثمَّ أمرَ أنْ يتمَّ عليه، وأُخرجَ ووُريَ في قيوده، خارج باب القصر المبارك المعروف في إشبيليه بباب النخيل"[4].

وذكر ابن الأبار أنَّ "اعتماد الرميكية" حظية المعتمد "وكان مفرطَ الميل إليها حتَّى تلقَّبَ بالمعتمد لينتظمَ اسمُه حروفَ اسمها، ... هي التي أغرتْ سيدَها بِقتل ابن عمار لِذكره إيَّاها في هجائه المعتمدَ الذي أوله:

ألا حـيٌّ بـالغربِ حيًـا حِـلالا ... أنـاخوا جِمـالاً وحـازوا جَمـالا"[5]

---

(١) الحلة السيراء: ٢/ ١٥٨.

(٢) انظر في ذلك الذخيرة: ٢/ ٢٥٧، والحلة السيراء: ٢/ ١٥٩.

(٣) هو فأسٍ ذو حدَّين مُرهفين كان يستخدمه الحرس.

(٤) الذخيرة: ٢/ ٢٥٧.

(٥) الحلة السيراء: ٢/ ٦٢-٣.

ويضيف ابن سعيد الأندلسي إلى هذه الحادثة أنَّ المعتمد "كان ليلةً يشربُ، فذكَّرتْهُ الرميكيةُ به، وأنشدتْه هجاءه فيه، وقالتْ له: قد شاعَ أنكَ تعفو عنه، وكيفَ يكونُ ذلك بعدَ ما نازعَكَ مُلكَك، ونالَ مِن عِرضِ حُرَمِك؟ وهذان لا تحتملهما الملوك. فثارَ عند ذلك، وقصدَ البيت الذي هو فيه، فهشَّ إليه ابنُ عمار، فضربَهُ بِطبرزين شَقَّ به رأسَه، ورجعَ الى الرميكية، وقال: تركتُه كالهُدهُد"[1] ، كما يُضيفُ الفتح بن خاقان أنَّ هذا الطبرزين "كان أدفونش قد أهداه إلى ابن عمار فأهداهُ هو إلى المعتمد"[2] !.

وتمام قصيدة ابن عمار في هجاء المعتمد هو :

"وعــرِّجْ بيــومينِ أُمَّ القــرى ... ونَــمْ فعــسَى أنْ تراهــا خيــالا

ويومين: قرية بأشبيلية كانت منها أوليَّة بني عباد، وفي هذه القصيدة يقول معرِّضاً بالرميكية:

تخيَّرتَــها مِــن بنــات الهجــانِ ... رُميكيــةً مــا تُــساوي عقــالا

فجــاءتْ بكــل قــصير العِــذارِ ... لئــيمِ النجــارينِ عمًّــاً وخــالا

قِــصارِ القــدودِ ولكــنّهم ... أقــاموا عليهــا قرونــاً طــوالا

أتــذكرُ أيــامَنا بالــصبا ... وأنــتَ إذا لحــتَ كنــتَ الهــلالا

أُعــانقُ منــكَ القــضيبَ الرطيــبَ ... وأرشــفُ مِــن فيــكَ مــاءً زُلالا

وأقنــعُ منــكَ بــدون الحــرامِ ... فتُقــسمُ جهــدَكَ أنْ لا حَــلالا

ســأهتكُ عِرضَــكَ شــيئاً فــشيئاً ... وأكــشفُ ســترَكَ حــالاً فحــالا

ومنها:

فيــا عامــرَ الخيــلِ يــا زَيدَهــا ... منعــتَ القــرى وأبحــتَ العيــالا

(١) المغرب في حلى المغرب: ١/ ٣٩٠-١.

(٢) قلائد العقيان: ص٢٣٢.

وسببُ قول ابن عمار هذه القصيدة أنَّ المعتمد ندّر به ... وسخرَ به في أبياتٍ مشهورة "[1] ولا شكَّ في أنَّ أبيات ابن عمَّار لا يحتملُها ملكٌ مثل المعتمد ولا محظيةٌ مثل اعتماد.

ومِن طريف ما يُروَى في حكاية ابن عمار مع المعتمد " خبرٌ غريب المسموع، في ذلك الأوان، وحديثٌ ظريفٌ من الحِدْثان، أُخبرتُ به عن غيرِ واحدٍ من وزراء المعتمد، وذلك أنه لما مضَتْ لقتلِ ابن عمار أيام، حضروا مع المعتمد في مجلس أُنس، فلما طابت الأنفُس، وأخذت منهم حُميَّا الأكؤس، وارتاح المعتمد وهزَّ عِطفه، وبدا على قسماته عطفه، سُئلَ عن هذا الخبر المستظرف، الذي كانوا سمعوه من بعض السلَف، وأقسموا عليه بتخليد مُلكه في أنْ يحدِّثهم بحديثٍ كان إليه يُنسب، وقالوا: هو مِن فمِ مولانا أطيب، فقال لهم كلاماً معناه لعلَّ هذا الاستخبار عن شأن ابن عمّار، قالوا: أجلْ، وطفقوا يُفدُّونه بالأنفُس، وأكثروا في وداده من شُرب الأكؤس، فأخبرَهم أنه كان أيام مُقامه بِشِلْبٍ، قد غلبَ ابنُ عمارٍ على نفسه، وأخذَ بمجامع أُنسه فأمرَه وأخذَ عليه -إذا دعا أصحابه- أنْ يكونَ أول داخلٍ وآخرَ خارج، لِيأنسَ به ويتمتع بِأدبه، فيجده ينفرُ نفار الشارد، ويتسلَّلُ من مجلسِه تسلُّلَ الطريدة من يد الصائد، فلما أَبى إلاّ اطِّراداً عن أصلِه، وطال ذلك عليه من فعله، تقدَّمَ ليلةً إلى أصحاب سُدَّتِه ليلةً في ترقُّبِه، ومَنْعِهِ من مذهبه، وأنذرَ وتهدَّد، وأقامَ في ذلك وأقعد، وقامَ ابن عمار كعادته، فلم يحفل المعتمد ليلته بمكانه، لما كان قَدَّمَ في شانه، فلما انفضَّ مَن كان عنده، التمسه ففقدَه، وطلبَه مُنتهَى جهده فما وجَدَه، وأحضرَ مَن كانَ أوصَى فيه إليه، فأخبرَ أنه لم تقعْ له عينٌ عليه، فرابَه أمرُهُ، وخفيَ عنه سِرُّهُ، فشهرَ فيما بلغني سيفَه وأخذَ الشمع بينَ يديه وجعلَ يطلبُه حيثُ يحسبُه ولا يحسبُه، فلما انتهَى الى بعض الدهاليز، إذا بحصيرٍ مَطويّ، وابن عمار فيه أَغمض مِن سرّ خفيّ، عريان كأنه أفعوان، فأمرَ بِحملِه وهو قد تعجَّبَ مِن فِعلِه، فلما استقرَّ بالمعتمد المجلس، جعلَ يبسطُ جانبَ ابن عمار ويؤنس، وابنُ عمارٍ يبكي فيُضحك، ويشكو فيُشكِّك، فلما سكنَ قليلاً، وأفرخ رَوعه، ورقأ دمعه، سألَه عن شأنِه فأخبرَ أنه

(١) نفح الطيب:٤/ ٢١٢-٣.

كلما كانت تأخذُ منه الشمولُ يَسمعُ كأنَّ قائلاً يقول: "يا مسكين، هذا يقتلك ولو بعدَ حين"[1].

كما أنَّ من طريف الرثاء قول عبد الجليل بن وهبون في رثاء صديقه ابن عمار:

عَجَباً لِمَنْ أبكيهِ ملءَ مدامعي   وأقولُ: لا شُلَّتْ يمينُ القاتلِ!

وذلك لأنَّ "قلوب الناس لم ترقَّ لمقتل ابن عمار، وخصوصاً بعد أنْ اشتهرَ عنه أنه كان يُداخل ملوك الأسبان لانتزاع المدن من أيدي ملوك الأندلس حتَّى يستبدَّ هو بحُكم تلك المدن أو يضيفها إلى مُلك بني عباد أو حتَّى تخرج من يد أصحابها المسلمين لِتدخل في حُكم الأسبان"[2].

---

(١) الذخيرة: ٢/ ٢٥٨، وانظر كذلك الحلة السيراء:٢/ ١٦١-٢.

(٢) تاريخ الأدب العربي (فروخ): ٤/ ٦٤٠.



١٤- المعتصم بن صمادح يرثي نفسه

هو أبو يحيى المعتصم محمد بن معن بن محمد بن صُمادِح التجيبي، وليَ حُكم المرية بعدَ أبيه في العام ٤٣٣هـ وكان عمره أربع عشرة سنة فتولّى عمُّه الوصايةَ عليه حتّى بلغَ الثامنةَ عشرةَ فاستقلَّ بالمُلك في ألمرية وبجاية الأندلس وما حَولَهما. (وقد كان أبوه أخذ البيعة له في حياته وأحكمَ أمرَها، بعد أن عرضَها على أخيه أبي عُتبة صُمادِح فدفعَها وأبَى قبولَها، فتمَّتْ له الإمارة بعدَ أبيه وسمّى نفسه بـ"معزّ الدولة". فلما تلقَّبَ سائر أمراء الأندلس بالألقاب الخلافية، تلقَّبَ هو أيضاً بـ"المعتصم بالله" و"الواثق بفضل الله": لقبين من ألقاب خلفاء بني العباس)[1]. كان أديباً شاعراً رقيقَ الشعر عَذبَه، مُقلّاً، محبّاً للعلم والأدب وأهلهما.

وكان المعتصم بن صمادح منصرفاً إلى لذّاته، لم يُعرفْ عنه جهادٌ ولا دفاعٌ عن بلاد. قال ابن بسام عنه: "لم يكن أبو يحيى هذا من فحولة ملوك الفتنة، أخلدَ إلى السَّعَة، واكتفَى بالضيق من السَّعَة، واقتصرَ على قصرٍ يبنيه، وعِلْقٍ يقتنيه، وميدانٍ من اللذّة يستولي عليه ويبرزُ فيه"[2]. وقد تُوفِّيَ المعتصم عندما بلغَ زحفُ المرابطين المرية "فحاصروه وقاتلوه من مقامه في قصبة المرية وهو يعالج الموت"[3]، وعند ذاك رثَى نفسه، ولكنَّ الوقتَ والظرف الطارئ لم يُسعفا قريحته لِتجودَ بأكثر من بيتٍ واحد، فضلاً عن أنه كان مُقلّاً كما مرَّ. روى ابن بسام عن "أروَى" وهي إحدى حظايا المعتصم أنها قالت: "إني لَعندَهُ وهو يُوصي بشأنه، وقد غُلبَ على أكثر يده ولسانه، ومعسكرُ أمير المسلمين يومئذٍ بحيثُ نَعُدُّ خيماتهم، ونسمع اختلاط أصواتهم، إذ سمعَ وجبةً من وجباتهم، فقال: لا إله إلاّ الله، نُغِّصَ علينا كلُّ شيءٍ حتّى الموت!. قالتْ أروَى: فدمعتْ عيني، فلا أنسَى طرفاً إليَّ يرفعُه، وإنشادهَ إيّاي بصوتٍ لا أكادُ أسمعُه:

ترفَّقْ بدمعِكَ لا تُفْنِهِ ... فبينَ يديكَ بُكاءٌ طويلْ!"[4]

---

(١) الحلة السيراء: ٢/ ٨١.

(٢) الذخيرة: ١/ ٤٥٧، وانظر المغرب في حلى المغرب: ٢/ ١٩٥.

(٣) الحلة السيراء: ٢/ ٨٣.

(٤) الذخيرة: ١/ ٤٥٨-٩، وانظر المغرب في حلى المغرب: ٢/ ١٩٦.

وكأنه يخشى على الدمع أن يُستنفَدَ ساعةَ احتضاره وقد يُحاجُ إليه في إجراءات تلي الموت، أو هو لا يرغبُ في أن يرى أحداً يبكي عليه فوقَ ما يشعرُ به من فضاعة مفارقة الحياة.

كان ذلك في العام ٤٨٤هـ، "فكانتْ مدَّة إمارته بالمرية أربعين سنة"[١].

١٥- أبو عيسى بن لبون يرثي نفسه

هو ذو الوزارتين أبو عيسى لَـبُّون بن عبد العزيز بن لبُّون. كان وزيراً للمأمون بن ذي النون و لأخيه في طليطلة، ثم والياً على قلعة عبد السلام قرب وادي الحجارة، ثم استبدَّ بحُكم مُربيطر على الساحل من شمال بلنسية. وعندما خدَعَه عبد الملك بن هذيل أمير السهلة وأخذَ مربيطر منه على أن يُعوِّضَه منها بلداً آخر ولم يفعلْ عزَفَ ابن لبُّون عن القتال من أجل المُلك، إذ هو لم يستطعه، "ثُمَّ ندمَ بعدَ ذلك"[٢]، ولجأَ إلى العيشَ في سلامٍ ودعةٍ، وانتقلَ الى شنتمريّة لهذا الغرض.

وقد رثى ابن لبون سُلطانَه الضائع في المرحلة الأولَى من رثائه لنفسه، فهاهوَ يتَّكئُ على تذكُّر الماضي السعيد، كما فعلَ غيرُه في توديعهم للحياة، وقد تخلَّى عن الحسِّ المادي الذي يُحيط به، وهربَ منه إلى ما هو أبعد بكثير، إلى الحياة الجاهلية التي غابَتْ مادتها ولم يبقَ منها غير الروح، كما لم يبقَ منه غير روحه، فيحاول أن يضعَ الروحين في كفَّتَيْ تعادُل، ويستعير من تلك الحياة ألفاظاً وصوراً وأسلوباً ووقفةً على أطلال، وفي هذا دلالةٌ على حالة النكوص التي يعيشها الآن بعدَ فَقْده سلطانه:

خليليَّ عُوجا بي على مسقط اللوى ... لعلَّ رسوم الدار لنْ تتغيَّرا
فأسألُ عنْ ليلٍ تولَّى بِأُنسِنا ... وأندبُ أياماً تقضَّتْ وأعصُرا[٣]

(١) الحلة السيراء: ٢/ ٨٤.

(٢) الحلة السيراء: ٢/ ١٦٨.

(٣) قلائد العقيان: ص٢٤١.

وإذ هو يستخدمُ كلمة "أندبُ" وهو من ملازمات الموت، فإنه يندبُ حياته التي تقضَّتْ، وهو هنا يؤكِّد أيضاً معنى زوال الحياة بزوال السلطان، فقد كان غُصن العيش "أخضر" وذلك دلالة على الحياة، فماذا بقيَ منها إذْ لم يعُدْ كذلك؟، ومثل ذلك "الأمان":

لياليَ إذْ كان الزمانُ مسالماً ... وإذْ كان غُصنُ العيشِ فَينانَ أخضرا

وإذْ كنتُ أُسقَى الراحَ مِن كفِّ أغيدٍ ... يناولنيها رائحاً ومُبكِّرا

أُعانقُ منه الغُصنَ يهتزُّ ناعماً ... وألثمُ منه البدرَ يطلعُ مُقمِرا

وقد ضربتْ أيدي الأمان قبابَها ... علينا وكفَّ الدهرُ عنَّا وأقصَرا

فما شئت مِن لهوٍ وما شئتُ من دَدٍ ... ومِن مبسمٍ يجنيك عذباً مؤشَّرا

وما شئتُ مِن عودٍ يغنِّيكَ مفصحاً ... (سما بكَ شوقٌ بعدما كان أقصرا)

هذه هي عناصر الحياة وملامحها التي يتساءل عن سبب ذهابها، فلماذا تغيَّرتْ الدنيا وانقلبَ كلُّ شيءٍ إلى خلاف ما كان؟، أفكانتْ الدنيا تُخادعُ أهلَها؟، ثمَّ يُعادِلُ بين تحصيله تلك الحياة بعناصرها المذكورة وبين دولته-سُلطانه:

ولكنها الدنيا تُخادعُ أهلَها ... تغرّ بِصفوٍ وهي تَطوي تكدّرا

لقد أوردتْني بعدَ ذلك كلِّه ... موارد ما ألفيت عنهنَّ مَصدرا

وكمْ كابدتُ نفسي لها مِن ملمَّةٍ ... وكمْ بات طرفي من أساها مسهَّرا

خليليَّ ما بالي على صِدقِ عزيمتي ... أرَى مِن زماني ونْيةً وتعذُّرا

ووالله ما أدري لأي جريمةٍ ... تجنَّى ولا عن أيّ ذنبٍ تغيَّرا

ولم أكُ عَن كسب المكارمِ عاجزاً ... ولا كنتُ في نيلٍ أُنيلَ مقصِّرا

لئنْ ساءَ تمزيقُ الزمان لِدولتي ... لقدْ ردَّ عن جهلٍ كثيرٍ وبصَّرا

وأيقظَ مِن نومِ الغرارة نائماً ... وكسَّبَ علماً بالزمانِ وبالوَرَى

ويبدو أنه عاشَ طويلاً في ظلال هذه الذكريات التي كانت تستهلك الكثير من شعوره بالحياة التي ما كانت تستوي عنده إلاَّ حقيقةً يعيشها في الواقع لا سانحة من سوانح الخيال، ولذلك تقوّى عنده نزعة التمني (ليتَ) أن يُعيد التاريخ نفسه، وأن تستحيل الذكريات جميعها إلى واقعٍ مُعاش لا مُتخَيَّل، من حيث لا طائل من وراء هذا التمنّي:

يا ليتَ شعري وهل في ليتَ من أربٍ — هيهات لا تنقضي من ليتَ آرابُ
وأين تلك الليالي إذْ تُلمُّ بنا — فيها وقد نام حُرَّسٌ وحُجَّابُ
إنَّ الشموسَ التي كانت تُطالعنا — والجوّ من فوقه للّيل جلبابُ
تُهدي إلينا لُجيناً حِشْوُهُ ذهَبٌ — أناملُ العاجِ والأطرافُ عنَّابُ[1]

ويضيق صدرُه بالذكريات كما يضيقُ بالواقع الجديد الذي يفرض عليه حصاراً وكأنه سجين لا يقدر على الحركة بحرية الشخص العادي، فلابدَّ من أنْ تكون يدُ الحاكم الجديد قد بسطتْ سلطتها عليه، فيُطلق صرخةً قويةً تدلُّ على ما يختزنه روحه في وضعه المأساوي الجديد من ألمٍ وأسى، وما كان من وضعه الماضي من قوةٍ وحركة:

ذروني أَجُبْ شرقَ البلاد وغربها — لأشفيَ نفسي أو أموتَ بِدائي
فلستُ ككلبِ السوء يُرضيهِ مَربضٌ — وعَظْمٌ ولكنّي عُقابُ سماءِ
وكنتُ إذا ما بلدةٌ لي تنكّرتْ — شددتُ إلى أخرى مطيَّ إبائي
وسرتُ ولا ألوي على متَعذّرٍ — وصمَّمتُ لا أُصغي إلى النُّصحاءِ
كشمسٍ تبدَّتْ للعيونِ بِمشرقٍ — صباحاً وفي غربٍ أصيل مساءِ[2]

---

(١) قلائد العقيان: ص٢٤٠، والذخيرة:٣/ ٦٧، والمغرب في حلى المغرب: ٢/ ٣٧٧.

(٢) قلائد العقيان: ص٢٤٢-٣، الذخيرة:٣/ ٦٨.

وتتَّسعُ دائرة هذه المشاعر لدى ابن لبُّون، في المرحلة الثانية من رثائه لنفسه، إذْ ييأسُ تماماً من الحياة ويزمع على توديعها مِن غير ما ندمٍ أو أسف، فلم يرثْ منها غير حُطام بيتٍ وكتابٍ عوَّضَه عن الكثير من الناس الذين كانوا يتصلون به أيام كان له سُلطان، ولم يبقَ له غير أن يموت دون أنْ يعرف دافنوه حقيقته التي يعبر عنها ماضيه السعيد:

نفضتُ كفّي عن الدنيا وقلتُ لها ... إليكِ عنّي فما في الحقّ أغتبنُ

مِن كِسر بيتيَ لي رَوضٌ ومِن كتبي ... جليس صِدْقٍ على الأسرار مؤتمنُ

أدري به ما جرَى في الدهر مِن خبرٍ ... فعندَهُ الحقُّ مسطورٌ ومختزنُ

وما مُصابي سوى مَوتي ويدفنني ... قَومٌ وما لهمُ عِلمٌ بمَنْ دفنوا[1]

مات سنة ٤٩٠ هـ على وجه التقريب.

١٦- أبو بكر بن الصائغ يرثي نفسَه

هو أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ التجيبي السرقسطي، ويُعرف بابن باجَّة، من فلاسفة الإسلام ممن شغلوا أيضاً بالطبيعيات والفلك والطب والموسيقى وبرعوا في الشعر وفن التوشيح. استوزرَه أبو بكر بن إبراهيم والي غرناطة ثمّ سرقسطة، واستوزره يحيى بن يوسف بن تاشفين في المغرب بعد خروجه من الأندلس، وتوفيَ بفاس في العام ٥٣٣هـ.

وقد رثى ابن باجة نفسه مرتين، كانت أولاهما عندما اعتقله عماد الدولة عبد الملك بن يوسف بن هود صاحب سرقسطة بسبب سعايات بعض حساده وغيرها وكان وزيره. قال الفتح بن خاقان في كتابه "قلائد العقيان"[2] عن ابن باجة واعتقال عماد الدولة له: "ومن قلة عقله ونزارتِه، أنه في مدة وزارته، سفر بين الأمير أبي بكر وبين عماد الدولة

(١) قلائد العقيان: ص٢٤٣، والذخيرة: ٣/ ٦٨، والمغرب في حلى المغرب:٢/ ٣٧٧.

(٢) ص٧٣٦. وينظر كذلك نفح الطيب:٧/ ٢٣.

بن هود بعد سعايات عليه أسلفها، وذخائر كانت له على يديه أتلفها، فوافاه أوغر ما كان عليه صدرُه، وأصغر ما كان عنده قدرُه، فآلَ به ذلك إلى الاعتقال، فأقامَ فيه شهوراً يُغازله الحِمامُ بِـمُقلةٍ شوهاء، وتنازله الأوهامُ بفطرتِه الشوهاء".

وواضحٌ من كلام الفتح أنّ ابن باجة أمضى في الحبس عدة شهورٍ جعلته يشعر باحتمال بطش ابن هود به وقتله بين لحظةٍ وأخرى، وأوضحُ من كلام الفتح أبياتُ ابن باجة نفسه وهو يعبر عن هذا الشعور الفضيع، مخاطباً ذا الوزارتين أبا جعفر يزيد بن مجاهد، إذ يعجبُ من بقائه حياً:

لعلَّـك يـا يزيـدُ علمـتَ حـالي ... فـتعلم أيّ خطـبٍ قـد لقيـتُ
وإنـي أنْ بقيـتُ بمثـل مـا بـي ... فمِـن عجـب الليـالي أنْ بقيـتُ

ولا ينسى ذكر الشامتين به وهو على هذه الحال ويؤيدهم في ما يقولون، إذْ هو يائسٌ تماماً من النجاة من الموت، وعارف كيف يكون بطش الحاكمين:

يقـولُ الـشامتون شـقاءُ بخـتٍ ... لَعمـرِ الـشامتين لقـد شـقيتُ

ولكنه لا ينسى أيضاً أنْ يذكّرهم بمكر الزمان ودورته، ويحذّرهم من الاطمئنان إليه، ثمّ يحاول أن يُقرَّ حقيقة الموت الذي لا يفلتُ من قبضته أحد، وما القضية إلاَّ قضية وقتٍ فقط وسيدركهم الموتُ وإنْ كرهوا، فَلِمَ الشماتة بموته، وهو معنى شاع في هذا الغرض كما رأينا وسنرى:

أعنـدهمُ الأَمـانُ مِـن الليـالي ... وسـالَمَهم بهـا الـزمنُ المَقيـتُ؟
ومـا يُـدرَى أوانُهـمُ لِيُـسقَوا ... علـى كُـرهٍ بكـأسٍ قـد سُـقيتُ

أما المرةُ الثانية فهي عندما "عزمَ عماد الدولةِ يوماً على قتلِه، وألزمَ المُرقَبينَ به التحيُّل في ختْلِه، فنَمَى إليه ذلك الأمرُ الوعْر، وارتمَى في لُججِ البأسِ والذُّعر"[1]، فكتب

(١) نفسه ص ٧٣٧.

وهو على هذه الحال من الذعر بيتيه اللذين يُعبّر فيهما عن استسلامه لقَدَرِه، وعدم جدوى الاستمرار في الهرب الذي طالما لجأ إليه وتذرّعَ به، ولابدَّ من مواجهة ما هو محتومٌ مُقدَّر وهو الموت:

أقولُ لِنفسي حينَ قابلَها الردى ... فراغتْ فراراً منهُ يُسرى إلى يُمنَى

قَرِيْ تحمدي بعض الذي تكرهينهُ ... فقد طالَ ما اعتدتِ الفرارَ إلى الأهنَى

وفي البيتين يُحاول ابن باجة، بما يمتلكه من قدرة على التفلسف، إظهار الصراع بين التفكير العقلي والشعور النفسي، بين العقل والروح.

١٧- أبو جعفر بن عطيَّة يرثي نفسه

هو أبو جعفر أحمد بن جعفر بن محمد بن عطية القُضاعي، أصله من طرطوشة ثم دانية بالأندلس، ولكنه عاش وتعلَّم في مراكش حتَّى استوزَرَهُ عبد المؤمن بن عليّ مؤسس دولة الموحِّدين بالمغرب والأندلس، "وكانتْ وزارتُه زيناً للوقت، وكمالاً للدولة، وفي أيام توجُّهه للأندلس وجدَ حُسَّادُه السبيلَ إلى التدبير عليه والسَّعْي به، حتَّى أوغروا صدرَ الخليفة عبد المؤمن عليه، فاستوزرَ عبد السلام بن محمد الكومي، وانبرَى لمطالبة ابن عطية، وجدَّ في التماس عوراتِه، وتشنيع سقطاته، وطُرحتْ بمجلس السلطان أبيات منها:

قُل للإمام أطالَ اللهُ مُدَّتَهُ ... قولاً تَبينُ لذي لُبٍّ حقائقُهُ

إنَّ الزراجينَ قومٌ قد وترتَهمُ ... وطالبُ الثأر لم تُؤمَنْ بوائقُه

وللوزيرِ إلى آرائهمْ ميَلٌ ... لذاك ما كثرتْ فيهم علائقُه

فبادر الحزْمَ في إطفاء نارهمُ ... فربما عاقَ عن أمرٍ عوائقُه

همُ العدوُّ ومَنْ والاهمُ كهمُ ... فاحذرْ عدوَّكَ واحذرْ مَن يُصادقُه

اللهُ يعلمُ أنّي ناصحٌ لكمُ ... والحقُّ أبلجُ لا تَخفَى طرائقُه

قالوا ولما وقفَ عبد المؤمن على هذه الأبيات البليغة في معناها وَغِرَ صدرُهُ على وزيره أبي جعفر، وأسرَّ له في نفسه تغيُّراً، فكان مِن أقوَى أسباب نكبته "[1] وفي الأبياتِ اتّهامٌ واضحٌ لأبي جعفر بن عطية بالميل إلى المرابطين (الزراجين)، ونيته للأخذ بثأرهم، وكان عبد المؤمن بن علي قد قضَى على دولتهم، وقتلَ آخرهم إبراهيم بن تاشفين، وتمتْ له البيعة بالخلافة بعدَهم، وفيها أيضاً حضٌ قويٌّ على القضاء على ابن عطية وعلى آخرين يَفترضُ ناظم هذه الأبيات وجودَهم إلى جنبه في دائرة هذه الدعوَى (العداء)، ولا أشدَّ من تهمة المساس بالسلطة لِتودي بِصاحبها وتُفضي به إلى عقوبة الموت من لدن السلطان، أي سُلطان، فكيفَ يكون الأمر إذا كان السلطان هو عبد المؤمن بن علي الذي كان يُعاقب بأشدّ العقوبات على أبسط الذنوب ؟.

ويُقالُ أن الشاعر كان قد أفشَى سرّاً للسلطان عبد المؤمن "وانتهَى ذلك كلُّه إلى أبي جعفر وهو بالأندلس فقَلِقَ وعجّلَ الانصرافَ إلى مرّاكش، فحُجبَ عندَ قدومِه، ثمَّ قيدَ إلى المسجد في اليوم بعدَهُ حاسرَ العمامة، واستُحضرَ الناسُ على طبقاتهم، وقُرروا على ما يعلمون من أمره، وما صار إليهم منه، فأجابَ كلٌّ بما اقتضاهُ هواه، وأمرَ بِسجنه، ولُفَّ معه أخوهُ أبو عقيل عطية، وتوجَّه عبدُ المؤمن في إثر ذلك، زائراً إلى تربة المهدي بن تومرت، فاستصحبهما منكوبَين بِحالِ ثقافٍ... ولما انصرفَ من وجهته أعادَهما معه قافلاً إلى مراكش، فلما حاذَى تاقمرت أنفذَ الأمرَ بِقتلِهما بالشّعراء المتَّصلة بالحصن على مقربةٍ من الملّاحة هناك، فمضيا لِسبيلهما "[2].

وقد صدرتْ عن ابن عطية خلال هذه المحنة، ولاسيما عند تربة المهدي بن تومرت، نصوص شعرية ونثرية في سبيل التوسُّل بالسلطان واستعطافه، ومما يؤسَف له أنّ كثيراً من قصائد ابن عطية في هذا الشأن لم تصل إلينا، ومن ذلك قصيدة نونية ضمَّنها إحدى رسائله إلى السلطان، ولم نقع منها إلاّ على هذا البيت:

فعفواً أميرَ المؤمنينَ فَمَنْ لنا ... بِردِّ قلوبٍ هدَّها الخفَقانُ[3]

---

(١) نفح الطيب:٥/ ١٨٣-٤.

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة: ١/ ٢٧٤-٥.

(٣) نفح الطيب: ٥/ ١٨٥.

وفي عبارة "قلوب هدَّها الخفقان" ما يكفي لِرثاء نفسه، ولكنَّنا وقعنا على جملةٍ صالحة من نونيةٍ أخرى استشعرَ فيها الشاعر إيقاع عقوبة الموت عليه من قبل السلطان ابن عليّ، لذلك أراد أن يشتريَ حياته بأي ثمنٍ ومن ذلك لجوؤه إلى الإفراط في المديح، على نحوٍ قد لا يمتُّ بصلةٍ لما يعتقدُ به، لاسيما وقد اعترفَ بذنبه في هذه القصيدة نفسها، بعدَ أنْ استعطفَ ممدوحَه وأعربَ عن قدَرِه المُفضي إلى الحزن الشديد على ما سيؤول إليه مصيره بسبب نقمته عليه:

عطفاً أميرَ المؤمنين فقدْ ... بانَ العزاءُ لِفرط البثِّ والحَزَنِ
قد أغرقتْنا ذنوبٌ كلُّها لُججٌ ... وعطفةٌ منكمُ أنجَى من السُّفنِ
وصادفتنا سهامٌ كلُّها غَرَضٌ ... لها ورحمتُكمْ أوقَى من الجُنَنِ
هيهات للخَطْب أنْ تسطو حوادثُهُ ... بمنْ أجارتْه رُحماكمْ من المِحَنِ
مَن جاءَ عندكمُ يسعَى على ثقةٍ ... ينصره لمْ يخفْ بطشاً من الزمنِ
فالثوبُ يطهر بعدَ الغسلِ من دَرَنٍ ... والطرفُ ينهضُ بعد الركضِ من وسَنِ[1]

وهو في هذه الأبيات ينسبُ إلى عبد المؤمن ما يتمنَّى أنْ يتحقَّقَ فيه من إنجائه من الغرق، ووقايته من السهام، ورحمته وإجارته من المحن، ونصره على بطشِ الزمن، ثمَّ يتوصَّلُ إلى ذلك الإفراط في مديحه على نحوٍ يُذكِّرنا بمديح ابن هاني الأندلسي للخليفة المعز لدين الله[2]، فينسب إليه واحدةً من أهم صفات الخالق، فيبدو عبد المؤمن هنا واهباً لحياة الخلق جميعاً، والشاعر وأهله، بطبيعة الحال، منهم:

أنتمْ بذلتمْ حياة الخلق كلهمُ ... من دون منٍّ عليهم لا ولا ثمَنِ
ونحنُ من بعض مَن أحيتْ مكارمكمْ ... تلكَ الحياتَينِ مِن نفسٍ ومِن بَدَنِ

---

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة: ١/ ٢٧٦.

(٢) انظر القصيدة رقم ٥٣ من ديوان محمد بن هاني الأندلسي: ص ١٨١.

ويُحاولُ أن يستدرَّ عطفَه من خلال رسمهِ صورةً مأساويةً له، وهي صورة أطفاله وهم ينوحون عليه، بعدَ أنْ يتمَّ تنفيذ عقوبة الموت فيه، على أنَّ النواح كثيرٌ عليهم وهم في سنٍّ صغيرة ولم يألفوه من قبل، مؤكّداً معنى الخَلْق الذي نسبه إليه قبل قليل:

وصِبيةٍ كفراخ الوُرْقِ من صِغَرٍ لم يـألفوا النَّوْحَ في فرعٍ ولا فَنَنِ
قد أوجدتهمْ أيادٍ منكَ سابقةٍ والكلُّ لولاكَ لم يُوجَدْ ولمْ يكُنِ

ولكنَّ كلَّ ذلك لم يحرِّك مشاعر السلطان على نحوٍ إيجابي تجاهه، بل لقد وقَّعَ على القصيدة بعد أن قرأها بما نصُّه: "الآنَ وقد عصَيتَ قبلُ وكنتَ من المفسدين"[1]!. ويصل الشاعر، في قصيدةٍ أخرى له وهو في هذه الحال، إلى غاية جزعه وعدم قدرته على انتظار مصيره المحتوم الذي يتوقَّعه ولا يجد منه بُدًّاً، ولكنه، مع ذلك، لا يجد من الأمل في النجاة مهرباً، فيتردَّد خاطره بين النواح على نفسه ميتاً على يد عبد المؤمن لما يجده في نفسه من سخطٍ شديدٍ عليه، وبين انتظار صفحه بعدَ أن اعتذرَ له بما يُوجب الصفح، لو كان السلطان غير عبد المؤمن:

أنوحُ على نفسي أم انتظرُ الصَّفْحا فقدْ آنَ أنْ تُنسَى الذنوبُ وأنْ تُمحَى؟
فها أنا في ليلٍ من السخْطِ حائرٌ ولا أهتدي حتَّى أرى لِلرضى صُبحا[2]

ولكنَّ حاله في هذا كحال ابن عمَّار مع المعتمد، إذ لم ينفع الاستعطاف، ولم ينعطف كلا السلطانين إلى العفو. وكان عبد المؤمن مُعجباً أشدَّ الإعجاب بابن عطية، وهو القائل في ابن عطية بعدَ أنْ قتلَه في العام ٥٥٣هـ: "ذهبَ ابنُ عطية وذهبَ الأدبُ معهُ"[3]، كما كان المعتمد معجباً بابن عمّار، على ما هو معروف مشهور في علاقتهما.

---

(١) نفح الطيب: ٥/ ١٨٦.
(٢) نفح الطيب: ٥/ ١٨٦.
(٣) نفح الطيب: ٥/ ١٨٦.

١٨- المظفَّر بن عبد العزيز يرثي نفسه

هو أبو مروان عبد الملك المظفَّر بن المنصور عبد العزيز بن أبي عامر. كان أبوه المنصور عبد العزيز ملكاً على بلنسية، "وامتدَّتْ دولتُه في نعمةٍ متَّصلةٍ، ودامتْ إلى أن تُوفِّيَ سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة"[١]، فوليَ بعدَه ابنُهُ عبد الملك المظفَّر هذا "واستقرَّ أمرُهُ على ضعفِ ركنه، لعدم المال، وقلّة الرجال، وفساد أكثر الأعمال"[٢] ، وتملَّكَ شاطبة ولقنت أيضاً، ولم تُمهلْه المقادير طويلاً حتَّى فقدَ مُلكَه، إذْ "صادفَ في شرق الأندلس الأمير أبا محمد بن عياض أسد الحروب، وقطب القطوب، رجل الثغر شهرةً وشجاعة، قد ألقَى جميعُ تلك البلاد له بالسمع والطاعة، فهوتْ قلوبُ أهل بلنسية إليه، ورام ابن عبد العزيز صرفَهم عن ذلك فثاروا عليه"[٣] وهكذا فقدَ سُلطانه ثمَّ آلَ أمرهُ إلى الحبس في ميورقة على يد عدوِّه ابن غانية وتَمَّ له الخلاص بعدَ ذلك على أيدي الموحِّدين[٤].

ولم يكن المظفَّر سعيداً بنجاته من الموت على يد ابن عياض، بل قضَى حياتَه حزيناً على مُلكه الضائع راثياً له مستريحاً بذلك. قال ابن سعيد الأندلسي[٥]: "أخبرني أحد الأدباء الأعيان، ممن كان يُمازجُهُ يركنُ إليه، أنه كان دائمَ الحيرة على كونه لم يَطُلْ مُلكُهُ، وكان انجعافه مرة، وأنه كان يستريح في ذلك بما ينظمه".

ومن قصائده التي رثَى بها نفسَه-مُلكَه قصيدته الرائية التي عارضَ بها قصيدة المعتمد بن عباد في رثائه لنفسه "غريبُ بأرض المغربين"[٦]، وختمَ بمطلعها قصيدته.

---

(١) المغرب في حلى المغرب: ٢/ ٣٠٠.

(٢) (٣) الذخيرة: ٣/ ١٥٩.

(٣) المغرب في حلى المغرب: ٢/ ٣٠١.

(٤) أنظر نفسه.

(٥) المغرب في حلى المغرب: ٢/ ٣٠١.

(٦) ديوانه: ص٩٨-٩٩.

يقول المظفَّر إنَّ الدائرة دارتْ عليه فكُسِفَ بدرُه، ثمَّ نُوديَ به للترحُّل فخرجَ من الدنيا بعدَ أنْ كان يأمرها فتُطيعه، فأصبحتْ تجورُ عليه بعدَ أنْ هوَى نَجمُهُ:

علمتُ بأنَّ الدائرات تدورُ ... وقد كُسِفتْ منَّا هُناكَ بدورُ
ونادَى مُنادي البَيْنِ فينا ترحَّلوا ... فطارَ فؤادٌ للفراقِ صَبورُ
ونُثِّرَ سِلْكٌ طالَ في المُلكِ نَظمُهُ ... كذا كلُّ نَظمٍ بالزمانِ نَثيرُ
خرجنا من الدنيا وكانتْ بأسرها ... تُصيخُ لِما نُومي بهِ ونُشيرُ
نهضنا بها ما دامَ في السعدِ نَجمُنا ... فلمَّا هوَى جارتْ وليسَ مُجيرُ(١)

ويلجأُ، كالمُعتاد، إلى ماضيه السعيد الذي انقضَى، يستحضره ويندبُ نفسَه من خلاله:

فلا يَنسَ تسليم السِّماطينِ مسمعي ... بحيثُ القنا والمرهفاتُ سطورُ
وحيثُ بنو الآمال تكرعُ كالقطا ... وقد زخرتْ للمكرمات بحورُ
وقد قامت المُدَّاحُ تنثرُ نظمَها ... ودارتْ علينا للثناءِ خمورُ
ولله يومٌ قد نهضتُ بصدرِهِ ... وحَوليَ من صِيدِ الكُماةِ صُقورُ
أثارَ به ركضُ الفوارس قَسطلاً ... يُرصِّعُهُ للباتراتِ قَتيرُ
وقد جارَ جرَّارُ الذيولِ مَماصِعٌ ... وطارَ إلى نَهبِ النفوس مُغيرُ
وقد صمّت الأسماعُ إذْ طاشتْ النهَى ... وحامتْ على ما عُوِّدتْه طيورُ
وأصدرَت الرايات حُمراً كأنها ... صدور حسانٍ مَسَّهنَّ عبيرُ
ألا بأبي ذاك الزمانُ الذي قضَى ... وتَعساً لِدهرٍ جاءَ وهو عَثورُ
تُصابحنا فيه الرزايا فتارةً ... تُصمُّ صِماخاً أو تجيشُ صدورُ
لقدْ أسخنَ المقدارُ طَرفيَ بَعدَهُ ... وكمْ قرَّ بالآمال وهو قريرُ

---

(١) المغرب في حلى المغرب: ٢/ ٣٠٢.

ثمَّ يحاولُ أنْ يُعزِّي نفسه من خلال خلق حوارٍ بينه وبين مَن يسأله عما جرى له، ويؤكِّد أنَّه مسبوقٌ إلى ذلك، وليسأل الزمان عنه فإنه هو الخبير الذي يستطيع الجواب:

أيا مُهدياً نحوي التحية عن نوىً ... تُسائلني، إنَّ الزمانَ خبيرُ
فَسلْهُ عن الماضينَ قبلي فإنَّهُ ... على كلِّ حالٍ لا يزالُ يجورُ

ويرجعُ مرةً أخرى إلى الندبِ والنواح، وهو رجوعٌ يدلُّ على قدر ما في نفسه من الاضطراب والتشوُّش، ويشبِّه حالَه بحال المعتمد بن عباد الذي بكاهُ المنبرُ وسريرُ المُلك من قبلُ:

فلو أبصرتْ عيناكَ هَمِّيَ حالكاً ... وشُهبُ الدياجي في السماء تُنيرُ
ومِن أدمُعي زَهرٌ تناثرَ غُصنُهُ ... بِنكباءَ يُزجيها جَوىً وزَفيرُ
لأنشدتَ مِن طول التفجُّعِ والأسى ... وقدْ قصُرتْ عنّي مُنىً وقُصورُ
"غريبٌ بأرضِ المغربينِ أسيرُ ... سيبكي عليه منبرٌ وسريرُ"

توفِّيَ المظفَّر في العام ٥٧٨هـ.

١٩- لسان الدين بن الخطيب يرثي نفسه

هو ذو الوزارتين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الغرناطي الأندلسي، الشهير بلسان الدين بن الخطيب. استوزَره سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف ابن إسماعيل في العام ٧٣٣هـ، ثم ابنه الغني بالله مِن بعده، وعندما عظمتْ مكانته في السلطة والدولة توجَّه إليه الحاسدون بالسعاية والوشاية به، فما كان منه إلاَّ أنْ كاتبَ السلطان عبد العزيز في تلمسان برغبته في الرحيل إليه، وتركَ الأندلس وحيداً ثمَّ أرسلَ بطلب أهله وولده فالتحقوا به، واستقرَّ بمدينة فاس القديمة مكرَّماً مُعززاً.

وتشاء الأقدار أنْ يموت السلطان عبد العزيز ويخلفه ابنه السعيد بالله الذي لم يكن سعيداً حقاً، إذْ سرعان ما خُلعَ فتولّى السلطة السلطان أحمد بن إبراهيم المستنصر الذي ساعده الغنيّ بالله صاحب غرناطة على الوصول إليها على شروط منها أنْ يُسلّمه لسان الدين ابنَ الخطيب، ففعلَ إذْ قبضَ عليه، وكتب بذلك إلى الغني بالله، فأرسلَ هذا وزيره ابن زمرك، وكان تلميذاً لابن الخطيب، إلى فاس، فعقد بها مجلس الشورى، وأُحضرَ ابن الخطيب، فأُهينَ ووجِّهتْ إليه تهمة الزندقة والإلحاد والتفلسف، فأفتى بعضُ الفقهاء بِقتله، وأُعيدَ إلى السجن. ودسَّ له رئيس الشورى سليمان بن داوود بعضَ الأوغاد من حاشيته، "فطرقوا عليه السجنَ ليلاً، ومعهم زعانفةٌ جاؤوا في لفيف الخدم مع سفراء السلطان ابن الأحمر وقتلوه خنقاً في محبسه"[1] ولم يُكتفَ بذلك، بلْ أُخذتْ جثّتُهُ في اليوم التالي وأُضرمتْ فيها النار، فاحترق شَعره وبشرته، ثم دُفنت في ضاحية فاس في العام ٧٧٦هـ.

وكان لسان الدين بن الخطيب قد أحسَّ بالموت يقترب منه بين لحظةٍ وأخرى وهو في السجن، بل لقد أحسَّ بأنَّ حياته قد انتهتْ فعلاً، ولذلك لجأ إلى الشعر يرثي نفسه من خلاله بأسلوبٍ هادئ رصينٍ يشيع فيه الحزن الشديد، والأسف المُمضّ على ما في هذه الحياة من المفارقات، لا يخلو من قليلٍ من التفلسف، كما لا تخلو هذه الأبيات من الشعور بالكبرياء والفخر بما كان له من المجد والسؤدد:

بَعُــدنا وإنْ جاورتنــا البيــوتْ ... وجئنــا بــوعظٍ ونحــنُ صُــموتْ
وأنفاســـنا ســـكتتْ دفـــعةً ... كجهــرِ الــصلاة تــلاهُ الــسكوتْ
وكنّــا عظامــاً فــصرنا عظامــاً ... وكُنّــا نقــوتُ فهــا نحــنُ قُــوتْ
وكُنّــا شمــوسَ سمــاءِ العُــلا ... غــربْنَ فناحــتْ علينــا الــسموتْ
فكــم جــدَّلتْ ذا الحسامِ الظُّبـى ... وذو البخــتِ كــم جدَّلتْــه البخــوتْ
وكــمْ سِيــقَ للقــبرِ في خرقــةٍ ... فتــىً مُلئــتْ مــن كُساه التخــوتْ[2]

---

(١) نفح الطيب: ٥/ ١١١، وانظر الأعلام للزركلي: ٦/ ٢٣٥.

(٢) نفح الطيب: ٥/ ١١٢.

ولا ينسى ابن الخطيب أنْ يشير إلى أعدائه الذين سوف يتشفَّون بموته ويفرحون، ومنهم تلميذُه ابن زمرك الذي كان ابن الخطيب قد مهَّد له الطريق إلى بلاط ملوك بني الأحمر، والذي لقيَ فيما بعد ما لقيه ابن الخطيب من مصير، فسوف يغيب عن ساحة التنافس على المناصب واحد مَن أقوَى المرشحين لأعلاها منـزلةً، فإنَّ فرحَهم بموتِهِ لا مبرِّرَ له طالما هم سيموتون أيضاً، فمَن ذا الذي لا يموت ؟:

فقـل للعِـدا ذهـبَ ابـنُ الخطيـبِ وفـاتَ، ومَـنْ ذا الـذي لا يفـوتْ

ومَـنْ كـانَ يفـرحُ مـنهمْ لـهُ فقـلْ: يفـرح اليـومَ مَـنْ لا يمـوتْ !

إنَّ شعور ابن الخطيب بأنه مات فعلاً، جعَلَه لا يلجأ إلى الاستشفاع بأحد، أو التوسُّل إلى السلطان، رغبةً في البقاء على قيد الحياة، إذْ أنَّ هذه الحياة لم يَعُدْ لها من وجود عندَه حقّاً، ولذلك رثى نفسه بيقينٍ واستسلامٍ تامَّين.

٢٠- الملك يوسف الثالث يرثي نفسه

هو أبو الحجاج يوسف بن يوسف بن محمد الغني بالله بن يوسف النصري الملقَّب بالناصر من ملوك الأندلس بني نصر في غرناطة. كان وليَّ عهد أبيه، فلما توفِّيَ أبوه شاءَ القدر أنْ يستوليَ على السلطة أخٌ لـه أصغر منه اسمه محمد بدلاً منه، إذْ أبعَدَهُ عنها وحبَسَه في قلعة شلبونية من أعمال غرناطة مدةً تقرب من أربعة عشرَ عاماً، بعدها تُوفيَ أخوه في العام ٨١٠هـ، فتولَّى المُلكَ بعدَه حتى توفِّيَ هو في العام ٨٢٠هـ.

وقد نظمَ الملك المخلوع الشاعر عدةَ قصائد يندبُ فيها سلطانَه وحياته الزائلَين تضمَّنَها ديوانُه، في المدة بين خلعِهِ وتولِّيه السلطة بعدَ وفاة أخيه. ومن تلك القصائد تائيته التي يعبر فيها عن نكوصه بالرجوع إلى الأسلوب الشعري القديم في المخاطبة بضمير المثنَّى ولفظ "خليليَّ"، وبذكره للموت ومرادفاته وصيغه الأخرى، ويعقد مقارنةً بين حاله قبل زوال سلطانه وحاله بعده، ففي الحال الأولى كان هو الذي يُوقِع الموتَ على الآخرين، أو يُقيلَ الموتَ عنهم، وكان ملكاً يهابُهُ الملوك، وبطلاً ترهبُ الأبطال سطوته

وترتاع منه الأسود الضارية، وتفتديه الناس بأرواحها، أمّا في الحال الثانية فإنَّ الدهرَ يُقيلُ عثرةً لموته، أو هكذا يتمنَّى، وهو في عجبٍ من ذلك كلِّه:

خليليَّ لم يخشَ الردى حدُّ مُرهفي ... فيا عجباً والموتُ في صفحاته
وكيفَ يُقيلُ الدهرُ للموتِ عَثرةً ... ونحنُ نُقيلُ الدهرَ من عثراتِهِ؟
وإنّيَ مَن يردي الكُماةَ ثَباتُهُ ... وقد هدَّ ركن الصبر في وثباتِهِ
وإنّيَ مَن يخشَى الملوكُ نِزالَهُ ... ولم يخشَ صرفَ الدهرِ مِن عزماتِهِ
وإنّي لَمَن تهوَى الخلائقُ أنْ ترى ... وقدْ جُعلتْ طرّاً فداءً لِذاتِهِ
وإنّيَ مَن ترجو العُفاةُ نوالَهُ ... وتخشَى أُسودُ الحربِ حدَّ شباتِهِ
ومَن ترهبُ الأبطالُ سطوةَ بأسِهِ ... ويرتاعُ منه الليثُ في أجماتِهِ
ومَن يتّقي في بطشهِ بِعُداتِهِ ... ويُلفي الرضا في حلمِهِ وأناتِهِ
ومَن إنْ دجا ليلٌ وأظلمَ حادثٌ ... تطلعَ نور الصبح من قسماتِهِ
ومَن راقت الشهبان رفعةُ قدرهِ ... ومَن زهتِ الدنيا بِغُرِّ شِياتِهِ
ومَن يغمر الأنداء ترداد ذِكرهِ ... ومَن يعجزُ المُدّاحَ بعضُ صفاتِهِ[1]

ولكنَّه، في خاتمة الأمر، لا يجدُ بُدّاً من الاستسلام للموت الذي لم يجدْ منه مهرباً، ولم يبقَ له غير أنْ يتمنَّى حُسنَ العاقبة: رضوان الله سبحانه وتعالَى:

ولكنّني لمْ ألقَ للموتِ مهرباً ... يردُّ الذي قدْ خِيفَ مِن سطواتِهِ
عسى الله بالصبر الجميل يُعيننا ... ويمنحنا الرضوانَ بعضَ هباتِهِ

ومن الجدير بالنظر أنَّ شعر هذا الملك يغصُّ في أغلبه بالفخر بنفسه وبنسبه وأهله من الآباء والأجداد حتى في أبعد قصائده عن هذا الغرض، وقد رأينا كيف يفخر بنفسه وهو يرثيها في هذه القصيدة.

---

(١) ديوانه: ١٦-١٧.

وإذْ يتسنَّى للسلطان أنْ يتولَّى السلطة بعدَ يأسٍ منها، فإنه يطوي مرحلةً قاسيةً من مراحل حياته كانت باعثاً لنظم هذه القصيدة التي لم تكن، في الواقع، إلاّ رثاءً لسلطانه الزائل، الذي هو المعادل الموضوعي لِحياته التي لم تظهر أية إمارة على اقتراب زوالها في هذه المرحلة.

٢١- أبو عبد الله الصغير يرثي نفسه

هو أبو عبد الله محمد بن علي بن سعد بن يوسف بن الغني بالله محمد النصري، آخر ملوك الأندلس الذي على يديه انقرضت دولة الإسلام هناك. تولّى المُلك في غرناطة الأندلس بعدَ أبيه بدلاً من عمِّهِ (الزَّغَل). نشبتْ بينه وبين عمّه معارك استعان فيها بالأسبان، ثمَّ بينه وبين الأسبان أنفسهم بعدَ أنْ حاولوا بناء قوَّةٍ لهم في غرناطة وكثرتْ غاراتهم عليها على مدى سنتين حتَّى استطاعوا محاصرتها وتجويع أهلها وإنهاكهم، فمكَّنهم أبو عبد الله الصغير هذا من غرناطة في العام ٨٩٧هـ، وارتحلَ هو وأهله إلى مدينة فاس في المغرب، وبقيَ هناكَ حتى توفيَ في العام ٩٤٠هـ[١].

وقبلَ أنْ يرحل أبو عبد الله الصغير بقليلٍ إلى فاس لاجئاً أرسلَ إلى سُلطانها الشيخ الوطّاسي رسالةً سمَّاها: "الروض العاطر الأنفاس في التوسُّل إلى المولى الإمام سلطان فاس"[٢] يستنجده فيها، ويطلبُ منه الموافقة على اللجوء إليه، وكانتْ الرسالة من إنشاء محمد بن العربي العُقيليّ الذي كان كاتباً للإنشاء في بلاط الحمراء. تضمنتْ هذه الرسالة قصيدةً طويلةً نصَّ المقّري على مائةٍ وثمانيةٍ وعشرين بيتاً منها[٣]، على لسان الملك المغلوب على أمره، وهي أيضاً من نظم العُقيلي، إذْ لم يكن الملك شاعراً، ولكنه يعرف أهمية الشعر في التعبير عن القضايا ذات الأهمة في الحياة عند العرب، فأمرَ كاتبه الشاعر أنْ يعبِّر له عن قضيته: زوال السلطان، فضلاً عن طلب اللجوء لدى سلطان فاس، وهو أمر سار عليه ملوك الأندلس غير الشعراء قبله، وحتَّى الشعراء منهم أحياناً.

---

(١) أنظر نفح الطيب: ٤/ ٥٠٧ وما بعدها، والأعلام: ٦/ ٢٩٠.

(٢) نفح الطيب: ٤/ ٥٢٩.

(٣) أنظر نفح الطيب: ٤/ ٥٢٩-٥٣٤.

يُخاطب الملك سلطان فاس مستجيراً به، فاضحاً له، في شيء من المديح والتعظيم بما يقتضيه الحال، ما حلّ به من ذلّ ومهانة بعدَ عزّ وسلطان، وذلك أمر موكولٌ بمشيئة الله عزَّ وجلَّ الذي لا اعتراضَ على مشيئته:

مولَى الملوكِ ملوكِ العُربِ والعجَمِ ... رَعياً لما مثلُه يُرعَى من الذِّمَمِ
بكَ استجرنا ونعمَ الجار أنتَ لمنْ ... جارَ الزمانُ عليهِ جَورَ منتقِمِ
حتّى غدا ملكُهُ بالرغمِ مستلَباً ... وأفظعُ الخطبِ ما يأتي على الرّغمِ
حكمٌ من الله حَتْمٌ لا مَردَّ له ... وهلْ مَردٌّ لِحُكمٍ منه مُنحَتِمِ ؟
وهي الليالي وقاكَ اللهُ صولتَها ... تصولُ حتَّى على الآسادِ في الأجَمِ[1]

ثمَّ يوازي بين ما كانَ من أمره عندما كان زمام السلطة بيده وبين ما حلَّ به الآن مِن حرمانٍ منها، وزوالٍ لها، وليسَ هذا الزوال إلاَّ زوالاً للحياةِ نفسها، ولذلك فقارئ هذه الأبياتِ لا يُحسُّ بفرقٍ بين رثاء الملِك لِسلطانه الزائل ورثائه لِنفسه، وإلاَّ فما مقام "سهام الردى" و"أفجع حَتفٍ" و"يبكي عليه..." في هذه الأبيات:

فأيقضتْنا سهامٌ للردى صُيُبٌ ... يُرمَى بِأفجعِ حَتْفٍ مَنْ بهنَّ رُمي
فلا تنمْ تحتَ ظلِّ الْمُلكِ نومتَنا ... وأيُّ مَلْكٍ بظلِّ المُلكِ لم ينمِ؟
يبكي عليه الذي قد كان يعرفهُ ... بِأدمعٍ مُزجتْ أمواهُها بِدمِ
كذلك الدهر لم يبرحْ كما زعموا ... يُشمّ بوّ الصغارِ الأنفَ ذا الشممِ

وبعدَ أن يرسم لسلطان فاس هذه الصورة المأساوية، يطلب منه أن يبسط له جناح العطف والعفو عما كان ربما اقترفه من ذنوب أيامَ كان ملكاً، وهو هنا يشير إلى ما كان منه من تفريطٍ بمملكة الإسلام في الأندلس، فما ذلك إلاّ قدرٌ مكتوب لا يستطيع أحد

---

(١) نفح الطيب: ٤/ ٥٢٩.

على ردِّه، وأنْ لا يسمع لأقوال الوشاة، وأنْ يكون وفياً كالسموأل عندما أودع امرؤ القيس الكندي لديه أسلحةً ودروعاً ولم يسلِّمها السموأل لأعدائه وافتدَى بذلك ابنه، فضرب بذلك المثل "أوفَى من السموأل"[1]، ومُجيراً كالمُعلَّى بن تميم بن ثعلبة الطائي الذي أجارَ امرأ القيسَ نفسه ونجَّاه من المنذر بعدَ أنْ أخفاه في قُبَّة حرمه، فما كان من امرئ القيس إلاَّ أن امتدحه بقصيدةٍ وسمَّى قومه بني تميم بن ثعلبة "مصابيح الظلام" فاشتُهروا بعد ذلك بهذا اللقب[2]، وأنْ لا يُعاتبه على شيءٍ ذهبَ ولا سبيلَ إلى رجوعه:

وصِلْ أواصرَ قد كانت لنا اشتبكتْ ... فالملكُ بين ملوك الأرض كالرَّحِمِ
وابسط لنا الخُلقَ المرجوَّ باسطهُ ... واعطفْ ولا تنحرف واعذرْ ولا تلمِ
لا تأخذنّا بأقوال الوشاة ولم ... نُذنبْ ولو كثرتْ أقوالُ ذي الوخمِ
فما أطقنا دفاعاً للقضاءِ، ولا ... أردت أنفسنا ما حلَّ من نِقمِ
ولا ركوباً بإزعاجٍ لِسابحةٍ ... في زاخرٍ بأكفٍّ الموجِ مُلتطمِ
والمرءُ ما لم يُعنْهُ اللهُ أضيعُ مِنْ ... طفلٍ تشكَّى بفقدِ الأمِّ في اليتمِ
وكلُّ ما كان غير الله يحرسُهُ ... فإنَّ محروسه لحمٌ على وضمِ
كنْ كالسموأل إذ سار الهمامُ له ... في جحفلٍ كسواد الليل مرتكمِ
فلمْ يبحْ أدرعَ الكنديِّ وهو يرى ... أنَّ ابنه البرّ قد أشفَى على الرجمِ
أو كالمعلَّى مع الضلّيل الأروع إذْ ... أجارَه من أعاريبٍ ومن عَجَمِ
وصارَ يشكرُهُ شكراً يُكافئ ما ... أسدى إليه من الآلاءِ والنِّعَمِ
ولا تعاتبْ على أشياء قد قدرتْ ... وخُطَّ مسطورها في اللوح بالقلَمِ

---

(١) أنظر في المثل وحكايته مجمع الأمثال: ٢/ ٣٧٤.

(٢) أنظر الأعلام: ٧/ ٢٧١.

ويبالغُ في الخضوع والتوسُّل والتذلُّل وطلب الرحمة حتَّى يرضى لنفسه ولمنْ معه أنْ يكونوا خدماً "عُدَّ أحرارنا في جملة الخدَمِ" وعبيداً "وافاكَ العبيد" :

"وعَدِّ عمّا مضى إذْ لا ارتجاع له" وعُــدَّ أحرارنــا في جُملــة الــخدَمِ
إيهٍ حنانَيكَ يا ابنَ الأكـرمين علـى "ضيــفٌ ألمَّ بفــاسٍ غــير محتــشمِ"
فأنتَ أنتَ، ولولا أنتَ ما نهضتْ بنــا إليهــا خُطــا الوخَّــادة الرُّســمِ
رُحماكَ يـا راحمـاً ينمـي إلى رُحَمـا في الـنفس والأهـلِ والأتبـاعِ والحشمِ

ويتراوحُ باقي القصيدة بين رواية ما حدثَ في غرناطة وتسليمها إلى العدوّ والاعتذار عن ذلك، وبين تبريرٍ له، ودفعٍ للمسؤولية عنه، في إطارٍ من الفخر بماضيه السعيد، والاستشهاد بحوادث التاريخ، والمديح المبالَغ فيه لسلطان فاس مصرِّحاً بالأسماء والكنى والألقاب حتى الانتهاء بالصلاة والتسليم على النبي محمد عليه الصلاة والسلام وذكر شفاعته:

فكم مواقف صدقٍ في الجهادِ لنـا والخيــلُ عالكــة الأشــداقِ للُّجــمِ
والسيفُ يخضبُ بالحمرِّ مِن عَلَـقٍ ما ابيضَّ مِـن سبُلٍ واسـودَّ مِـن للَـمِ
ولا ترى صدرَ عضبٍ غير منقصفٍ ولا تــرى مــتنَ لــدنٍ غــير منحطــمِ
حتّى دُهينــا بـدهيا لا اقتـدار بهـا سوى على الصونِ للأطفالِ والحُـرَمِ
فقـال مَـن لـم يُـشاهدها فربَّتـما يخــالُ جامحهــا يقتــادُ بالخُطَــمِ
هيهات لو زَبَنَتْهُ الحـربُ كـان بهـا أعيَى يداً مـن يـدٍ جالـتْ علـى رَحِـمِ
تالله مـا أضـمرتْ غـشّاً ضمائرنـا ولا طـوتْ صـحّة منهـا علـى سَـقَمِ
لكنْ طلبنا من الأمر الـذي طلبـتْ وُلاتُنــا قبلــنا في الأعــصُرِ الدُّهُــمِ
فخاننا عنـده الجَـدُّ الخـؤونُ، ومَـنْ تقعــدْ بــه نكبــاتُ الــدهرِ لم يَقُــمِ

فاسودَّ ما اخضرَّ من عيشٍ دهتْهُ عِداً ... بـالأسمر اللـدنِ أو بـالأبيضِ الخـذمِ
وشتَّتَ البينُ شملاً كانَ منتظمـاً ... والـبينُ أقطـعُ للموصـولِ مِـن جَلَـمِ
فربَّ مبنَـى شـديدٍ قـد أنـاخَ بـهِ ... ركـبٌ الـبلا فقرتْـه أدمـعُ الـديمِ
قُـمنا لديـهِ أُصـيلاناً نُسائلُهُ ... أعيـا جوابـاً ومـا بالـربعِ مـن إرمِ
ومـا ظننَّـا بـأنْ نبـقي إلى زمـنٍ ... نـرى بـه غـررَ الأحبـابِ كالحمـمِ
لكنْ رضىً بالقضا الجاري وإنْ طويتْ ... منّـا الـضلوع علـى بـرحٍ مـن الألـمِ
لبّيكَ يـا مَـن دعانـا نحـو حـضرتِهِ ... دعـاء إبـراهمَ الحُجّـاجَ للحـرمِ
واعطِ الأمانَ الذي رُصَّتْ قواعـدهُ ... علـى أسـاسٍ وفـاءٍ غـير مُنهـدمِ
خليفـة الله وافـاكَ العَـبيدُ فَـكُنْ ... في كـلٍّ فـضلٍ وطَـولٍ عنـدَ ظنّهـمِ
وبينَ اسلافنا مـا قـد علمـتَ بـهِ ... مِـن اعتقـادٍ بحكـم الإرثِ مقتـسمِ
وأنتَ منهم كأصـلٍ مُطلِعٍ غُـصُناً ... أو كالـشراكِ الـذي قـد قُـدَّ مـن أَدمِ
وقد خَطوتَ خطـاهم في مـآثرهم ... فلـمْ يـذموا إذنْ فـيهم ولـم تـذمِ
وصيتُ مولى الورى الشيخ الإمامِ غـدا ... في النـاس أشـهر مـن نـارٍ علـى علَـمِ
سلالــة الأُمــراء الجـلّة الكُـبرا ... ءِ العِليـة الظهـراء القـادة البهـمِ
بنـو مـرينٍ ليـوثٌ في عـرين أبـوا ... رؤيـا قـرين لهـم في البـأس والكَـرمِ
النازلين من البيـضاء وسـطَ حمـى ... أحمَـى مـن الأبلـقِ الـسامي ومـنْ إرمِ
والجائـسين يـدُهْمِ الخيـل كـلّ ذرا ... والداعـسينَ بِـسُمرِ الخـطّ كـلّ كَمِـي
يريـكَ فارسُـهم إنْ هـزَّ عاملُـهُ ... في مـارقٍ بِلظـى الهيجـاءِ مـضطرمِ
ليثاً على أجدلٍ عـارٍ مـنَ اجنحـةٍ ... يـسطو بـأرقمَ لـدَّاغ بغـير فَـمِ
في الـلامِ يـدغمُ مـن عـسَّالة ألفـاً ... ولم نـجدْ ألِـفاً أصـلاً بِمـدَّغمِ

أهل الحفيظةِ يوم الروع يحفظهم ... من عصمة الله ما يُربي على العصمِ
يا من تطيرُ شرارٌ منه مُحرقةٌ ... لكلِّ مُدَّرعٍ بالحزمِ محتزمِ
هُمُ بطائفةِ التثليثِ قد فتكوا ... كمثلِ ما يفتكُ السرحانُ بالغنمِ
وإن يلثّمهم يوم الوغى رهجٌ ... أنسوكَ ما ذكروهُ عن ذوي اللثمِ
تضيء آراؤهم في كلّ معضلةٍ ... إضاءةَ السُّرج في داجٍ من الظُّلَمِ
هذا ولو من حياءٍ ذابَ محتشمٍ ... لَذابَ منهم حياءً كلُّ محتشمِ
طابتْ مدائحمْ إذْ طابت انفسهمْ ... فاشتقَّت النسمات اسماً من النسَمِ
للهِ درُّهمُ والسُّحْبُ باخلةٌ ... بدرهنَّ على الأنعامِ والنعمِ
بحيثُ الافقُ يُرى من لون حُمرتهِ ... كالشيبِ يخضبُ بالحنّاء والكتَمِ
هناكَ تنهلُّ أيديهمْ بصوبِ حياً ... يحيي بالأجداثِ ما فيها من الرِّمَمِ
وأنَّ بيتَيْ زيادٍ طالما ذُكِرا ... إذا ألمَّتْ أحاديثٌ بذكرهمِ
أحلامُ عادٍ وأجسامٌ مُطهَّرةٌ ... من لِلمَعَقَّةِ والآفاتِ والأثمِ
يرونَ حقاً عليهم حفظ جارهمُ ... فلمْ يُضَرْ نازلٌ فيهم ولمْ يُضَمِ
فروعه بالدواهي لا يراعُ، ولا ... يغمُّ منها بما يعرو من الغممِ
هُمُ البحارُ سماحاً غير أنَّ بها ... ما قد أنافَ على الأطوادِ من هممِ
وليس يسلمُ من حَتفٍ مُحاربُهم ... حتى يكون إليهم ملقيَ السَّلَمِ
كم فيهمُ من أميرٍ أوحدٍ نَدُسٍ ... يُقرطسُ الغرضَ المقصود بالفَهَمِ
ولا كسبطِ أبي حسُّون من حسنتْ ... أمداحه حُسنَ ما فيه من الشيمِ
هذاكم ابنُ أبي ذكرى الهمام فقلْ ... في أصلِهِ المُنتقى من مجدهِ العممِ
خليفة الله حقَّاً في خليقته ... كتائبٍ نابَ في حُكمٍ عن الحكَمِ

مهما تنزْ قسماتٌ منه نيِّرةٌ ... تنلْ بنازلهِ ما جلَّ من نعمِ
فوجهُهُ يدُجىً أو كفُّهُ بجَدىً ... أبهَى من الزهرِ أو أندَى من الديَمِ
وفضله وله الفضلُ المبينُ جرى ... كجري الامثال في الأقطار والأممِ
وجودهُ المتوالي للبريّةِ ما ... وجودهُ بينها طُرّاً بمنهدمِ
إذا ابتغتْ نِعَماً منهُ العُفاةُ لهُ ... لم يسمعوا كِلْمةً منه سوى نَعمِ
وإنْ يُعبّسْ زمانٌ في وجوههمُ ... لم يبصروا غير وجهٍ منهُ مبتسمِ
وجهٌ تبينُ سِماتُ المكرمات بهِ ... كما تبينُ سماتُ الصدقِ في الكَلِمِ
وراحةٌ لم تزلْ في كلِّ آونةٍ ... في نَيلِها راحةُ الشاكي من العَدَمِ
للهِ ما التزمتْهُ مِن نوافلِهِ ... أيَّامَ لا فرضَ مفروضٍ بملتزمِ
أنسى الخلائفَ في حلمٍ وفي شرفٍ ... وفي سَخاءٍ وفي عِلمٍ وفي فَهَمِ
فجازَ معتمداً منهمْ ومعتضداً ... وامتازَ عن واثقٍ منهمْ ومعتصمِ
وناصر الدين في الإقبال فاقَ، وفي ... محبّة العِلْمِ أزرى بابنِهِ الحَكَمِ
أفعالُ أعدائهِ معتلَّةٌ أبداً ... متى يَرُمْ جزمها بالحذفِ تنجزمِ
فويلُ أهلِ القلى من حيّةٍ ذكرٍ ... للمتلئبّ اللهامِ المجرِ ملتقمِ
راموا عداوةَ مَنْ إنْ شاءَ غادرَهمْ ... مثل الأحاديث عن عادٍ وعن إرمِ
فسوفَ يأكلهمْ من جيشه لَجِبٍ ... بكلِّ قَرمٍ إلى لحمانهم قَرِمِ
وإنّ الاعرابَ إذْ ساروا لِغايتِهِ ... لسائرونَ إلى لقمٍ على لقمِ
وهم كما قاله ماضٍ "أرى قدمي ... بسعيهِ نحو حتفي قدْ أراقَ دمي"
فقلْ إذنْ للمناوي الناوِ لانَ أذىً ... يا غرَّ غرَّك ما أبصرتَ في الحلمِ
لهُ صوارمُ لو ناجتْكَ ألسُنُها ... لَبشَّرتْكَ بعمرٍ منكَ منصَرِمِ

وإنَّ روحكَ عن قربٍ سيقبضُهُ قبضَ المسلّم ما قد حاز من سلمِ
فهو الذي ما لهُ ندٌّ يشابههُ من كلّ متّصفٍ بالذّهْـي متّسمِ
يدبّرُ الأمرَ تدبيراً يُخلّصُهُ ممّا عسَى أنْ يرى فيه من الوهَمِ
ويبصرُ الغيبَ لحظُ الذهنِ منه إذا تعمَى عن ادراكهِ ألحاظُ كلّ عمي
وينعمُ النظرَ المفضي بناظرهِ لصَوبِ وجهِ صوابٍ واضح اللقمِ
ذو منطقٍ لمْ تزلْ تجلو نتائجه عن مبطلٍ بخصامِ المبطلِ الخصمِ
ومِسْمعٍ ليسَ يُصغي للوشاةِ فلمْ ينفقْ لديه الذي عنهم إليه نمي
فعقلُهُ لا توازيهِ العقولُ، وهلْ يوازنُ الطودَ ما قد طالَ من أكمِ
إيهٍ بجميعَ الورى من بدوٍ او حضرٍ نِداءَ مرتبطٍ بالنصر مرتسمِ
شدّوا وجدّوا ولا تعنوا ولا تهنوا قد لفَّها الليلُ بالسوّاقة الحُطمِ
هذا الإمامُ المرينيّ السعيد لهُ سعدٌ يؤيّدهُ في كلّ مصطدمِ
قد أقسمتْ أنّه المنصورُ ألسنةٌ من نخبةِ الأوليا مبرورة القسَمِ
فشيّعوهُ ووالوهُ تروا عَجَباً وتَظفروا معَهُ بالأجرِ والغنَمِ
والحمدُ للهِ إذْ أَبقَى خلافتهُ كَهفاً لنا من يخيّمْ فيهِ لم يرمِ
حِرزٌ حريزٌ وعزٌّ قائمٌ وندى غمرٌ دراكٌ بلا منٍّ ولا سأمِ
دامتْ ودامَ لها سعدٌ يساعدها في كلّ مبتدإٍ منه ومختتمِ
فالله عزَّ اسمُهُ قد زانها بحلى من غُرٍّ أمداحِه كالدرِّ في النظمِ
الواهبُ الألف بعد الألفِ من ذهبٍ كالجمرِ يلمعُ في مستوقد الضرَمِ
والفاعلُ الفعل لم يهممْ بهِ أحدٌ والقائلُ القول فيه حكمةُ الحكمِ
ذاكمْ هو الشيخُ فاعجبْ إنّه هَرِمٌ جوداً وحاشاهُ أنْ يُعزَى إلى هَرِمِ

وحسبنا أنَّ أيدينا بـه اعتصمتْ مـن حبلِـهِ بوثيـقٍ غـيـر مُنفـصمِ
فمـا مخالفـهُ يومـاً بـمـضطهـدٍ ولا موالفـــهُ يـــوماً بـمهتـــضمِ
ولا موافيـهِ في جهـدٍ بـمطَّرحٍ ولا مُـصافيهِ في ودٍّ بـمتَّهـمِ
ولا محيَّـا محيِّيـهِ بـمنكـسفٍ ولا رجـاءُ مُرجِّيـهِ بـمنخـرمِ
ومـا تكرُّمُـهُ سـراً بـمنكـشفٍ ولا تنكُّـرُهُ جـهراً بـمكتـتمِ
ولـيسَ لامـحُ مـرآهُ بـمكتـئبٍ ولـيسَ راضـعُ جَـدواهُ بـمنفـطمِ
ولا مُقـبِّلُ يمنـاهُ الكريمـة في محـلٍّ ممتـهنٍ بـلْ دسْتُ محـترَمِ
وما وسيلتنا العُظمَى إليهِ سوى ما ليسَ يُنـكرُ مـا فـيها من العظمِ
وإنما هـيْ وما أدراكَ مـا هـيَ مـن وسـيلةٍ ردُّهـا أدهَـى مـن الوخـمِ
نبيُّنا المصطفَى الهادي بخيرِ هُـدى محمـدٌ خـيرُ خَلـقِ اللهِ كلِّـهـمِ
داعي الورى من أولي خيمٍ وأهل قِرى إلى طـريقِ رشـادٍ لاحـبٍ أَمَـمِ
عليه منّـا صـلاة الله مـا ذُكـرتْ "أمِـنْ تذكُّـر جـيرانٍ بذي سَلَمِ"
ومـا تـشَفَّعَ فيهـا بالـشفيعِ لـهُ دخيـلُ حـرمتهِ العليـاءِ في الحـرَمِ

كان هذا آخر نصٍّ شعري أندلسي في رثاء النفس يُنظم تحت وطأة الظرف السياسي، وقد ترافق مع آخر حدث سياسي خلال الوجود العربي السياسي في الأندلس، بل خلال ساعاته الأخيرة. ويمكنُ عدُّ هذا النص وثيقة سياسية وشعرية أندلسية مهمة جداً، إذْ يمكن أن يُزوِّدَ الحدث بحقائق إضافية لو أُريد تحليله تحليلاً شاملاً ودقيقاً فيما يتعلَّق بالأيام الأخيرة للوجود العربي في الأندلس، والظروف النفسية التي كان عليها آخر الملوك الأندلسيين، الذي فقد من بين يديه هذا الفردوس الجميل.


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الرابع

فلسفة الحياة والموت

تناول الشعراء الأندلسيون قضية الحياة والموت تناولاً يتفق غالباً وما جاءت به العقيدة الدينية الإسلامية وفلسفتها على نحو ما سنرى:

١- حتمية الموت

أجمع الشعراء الأندلسيون على أنَّ الموت شيء لابد من وقوعه إنْ عاجلاً أم آجلاً، وأنَّ للمرء عمراً محدوداً لا يتعداه مهما طال، وكأنهم يضعونَ آي القرآن الكريم نصب أعينهم وهم يعبرون عن هذا المعنى، ويذكرون قوله تعالَى: "أينما تكونوا يُدرككم الموتُ ولو كنتم في بروج مشيَّدةٍ"[١]، وقوله تعالى: "كل نفس ذائقة الموت"[٢].

يؤكِّد أبو عثمان ابن عبد ربه الطبيب، وهو ابن أخي ابن عبد ربه الشاعر أنَّ الموت حقيقة لابد من إدراكها والإيمان بها، وأنه واقعٌ لا محالة:

أبعدَ نفوذي في علوم الحقائقِ ... وطولِ انبساطي في مواهبِ خالقي
وفي حين إشرافي على ملكوتهِ ... أُرى طالباً رزقاً إلى غير خالقي
فأيامُ عمرِ المرءِ متعةُ ساعةٍ ... تمرُّ سريعاً مثل لمعةِ بارقِ
وقد آذنتْ نفسي بتقويض رحلها ... وأسرعَ في سوقي إلى الموتِ سائقي
وإني وإنْ أوغلتُ أو زُغتُ هارباً ... من الموتِ في الآفاقِ فالموتُ لاحقي[٣]

وفي هذا إشارة إلى قوله سبحانه: ﴿قلْ لن ينفعكم الفرارُ إنْ فررتمْ من الموتِ أو القتلِ وإذا لا تُمتَّعون إلاَّ قليلا﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿قل إن الموت الذين تفرون منه فإنه مُلاقيكم ثمَّ تُردُّونَ إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾[٥].

---

(١) النساء: الآية ٧٨.

(٢) آل عمران: الآية ١٨٥.

(٣) طبقات الأمم: ص١٨٨-٩، جذوة المقتبس: ٤٠٠، وبغية الملتمس: ٥٢٧، والوافي بالوفيات: ٢٣٨/١٥.

(٤) الأحزاب: الآية ٦١.

(٥) الجمعة: الآية ٨.

وقول أبو محمد بن حذام في يوم عيد:

يقولـون لـي خـلِّ عنـك الأسَـى ... ولُـذْ بالـسرور فـذا يـومُ عيـدْ
فقلـتُ لـهمْ والأسَـى غالـبٌ ... ووجـديَ يحيـى وشـوقي يزيـدْ
توعَّـدَني مالِـكي بـالفراقِ ... فكيـفَ أُسَـرُّ وعيـدي وَعِيـدْ؟[1]

وكذلك أبو بكر بن منخل في قوله:

مضتْ ليَ ستٌّ بعد سبعين حجَّةً ... ولـي حركـاتٌ بَعـدَها وسـكونُ
فيا ليتَ شعري أينَ أو كيفَ أو متى ... يكـونُ الـذي لابـدَّ أنْ سـيكونُ[2]

ويرى الحُميدي أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الأزدي أنه بعد أنْ قضى من الدنيا كلَّ وطرٍ فلا بدَّ من أنْ يموت:

ألفـتُ النـوى حتـى أنسـتُ بوحـشتي ... وصـرتُ بـها لا بالـصبابة مُولَـعا
فلم أُحصِ كـمْ رافقـتُ فيهـا مُرافِقـاً ... ولم أُحصِ كمْ يمَّمتُ في الأرض موضعا
ومِن بَعدِ جَوب الأرض شرقاً ومغرباً ... فلابـدَّ لي مِن أنْ أُوافـيَ مَصـرعا[3]

ويشيعُ في قصيدة رثاء النفس معنى الأجل المحدَّد الذي لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، وهو معنى الآية الكريمة: "وإذا جاء أجلُهم لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون"[4]، والآية الكريمة: ﴿وما يُعَمَّرُ من مُعَمَّر ولا ينقص من عمرهِ إلاَّ في كتاب﴾[5]، ومِن ذلك قول جعفر بن عثمان المصحفي:

---

(١) مستودع العلامة: ص٧٤، والإفادات والإنشادات: ص١٥٤، ونفح الطيب: ٥/ ٣٨٣.

(٢) نفح الطيب: ٤/ ١١٧.

(٣) معجم الأدباء: ١٨/ ٢٨٢، ونفح الطيب: ٢/ ١١٤.

(٤) الأعراف: الآية ٣٤.

(٥) فاطر: الآية١١.

لـــي مُـــدَّةٌ لابـــدَّ أبـــلغُها فـــإذا انقـــضتْ أيَّـــامُها مُـــتُّ
لـــو قـــابلتني الأُســـدُ ضـــاريةً والمـــوتُ لمْ يُـــقَدرْ لَمـــا خفـــتُ
فـــانظرْ إلـــيَّ وكُـــنْ علـــى حَـــذَرٍ فبمثـــلِ حالِـــكَ أمـــسِ قـــد كنـــتُ[1]

ولعلَّ البلَّفيقي يشير إلى المعنى ذاته في قوله:

وهبني أعشْ هلْ لي إذا شاب مفرقي وولَّى شبابي هـلْ يُبـاحُ التسوُّفُ؟[2]

وكذلك معنى فناء الدنيا بأجمعها في إشارةٍ إلى الآية الكريمة: "كلُّ مَن عليها فان"[3]، ومن ذلك قول الأمير عبد الله، ويخاطب نفسه:

أرى الـــدنيا تـــصيرُ إلى فنـــاءِ ومـــا فيهـــا لِـــشيءٍ مِـــن بقـــاءِ
فبـــادرْ فـــي الإنابـــةِ غيـــرَ لاوٍ علـــى شـــيءٍ يـــصيرُ إلى فـــناءِ
كأنَّـــكَ قـــد حُملـــتَ علـــى ســـريرٍ وصـــار جديـــدُ حـــسنكَ للـــبلاءِ
فنفـــسَكَ، فابكِهـــا، أو نُـــحْ عليهـــا فرُبَّـــتما رُحِمـــتَ علـــى البُكـــاءِ[4]

وذهبَ كثير من الشعراء وهم يرثون أنفسهم إلى التخفيف من الإحساس بفاجعة الموت من خلال الاعتبار بموت السابقين من الناس مهما بلغ شأوهم في الحياة، ومهما طالت أعمارهم. يقول أبو عامرٍ ابن شُهيد:

يقولونَ: قد أودى أبـو عـامرِ العُـلا أقلُّـــوا فَـــقِدماً مـــاتُ آبـــاءُ عـــامرِ
هو الموتُ لم يُصرفْ بأجراسِ خاطبٍ بليـــغٍ ولم يعطـــفْ بأنفـــاسِ شـــاعرِ

---

(١) الحلة السيراء: ١/ ٢٦٧.

(٢) شعر البلفيقي: ص٦٠، وفيه: "وهبني أعيشُ هل إذا شابَ مفرقي"، ولا يستقيم معه الوزن.

(٣) الرحمن: الآية ٢٦.

(٤) الحلة السيراء: ١/ ١٢٢، والبيان المغرب: ٢/ ١٥٥.

ولم يجتنبْ للبطشِ مُهجةَ قادرٍ		قويٌّ ولا للضعفِ مُهجةَ صافِرِ
يَحلُّ عُرى الجبَّار في دار مُلكِهِ		ويهفو بنفسِ الشاربِ المتساكرِ
وليس عجيباً أنَّ بين جوانحي		هوىً كشرارِ الجمرةِ المتطايرِ
يُحرِّكني والموتُ يحفزُ مهجتي		ويهتاجني والنفسُ عندَ محاجري[1]

ويقولُ محمد بن عبد الله بن زمنين الألبيري:

الموت في كلِّ حينٍ ينشرُ الكفَنا		ونحنُ في غفلةٍ عمّا يُرادُ بِنا
لا تطمئنَّ إلى الدنيا وزخرفها		وإنْ توشَّحنَ من أثوابها الحَسَنا
أين الأحبةُ والجيرانُ؟ ما فعلوا؟		أين الذين هُمُ كانوا لنا سَكَنا؟
سقاهم الدهرُ كأساً غيرَ صافيةٍ		فصيَّرتْهم لأطباقِ الثرى رُهُنا
تبكي المنازلُ منهم كلَّ منسجمٍ		بالمكرماتِ وتَرثي البرَّ والمِننا
حَسْبُ الحِمامِ لوَ ابقاهمْ وأمهلَهمْ		أنْ لا يظنَّ على مَعْلوَّةٍ حسَنا[2]

ويقول عبد الله بن خلصة:

لئنْ كنتُ منعيّاً فما الموتُ وصمةٌ		لقدْ نُعيَتْ قبلي الرسالةُ والوحيُ[3]

وأما ابن الزقاق البلنسي فيعزِّي نفسَه بأنّه لن يكون آخر الموتى، وأنَّ أحداً لن ينجوَ من الموتِ بَعده، فما القضيةِ إلا قضية زمنٍ وحسب:

أَإخواننا والموتُ قد حالَ بيننا		وللموتِ حُكمٌ نافذٌ في الخلائقِ
سبقْتُكمُ للموتِ والعُمرُ طيَّةٌ		وأعلمُ أنَّ الكلَّ لابدَّ لاحقي[4]

---

(١) الذخيرة: ١/ ٢٠٤.

(٢) مطمح الأنفس: ص٢٦٧، وجذوة المقتبس: ص٥٧،ونفح الطيب: ٣/ ٥٥٤.

(٣) الوافي بالوفيات: ١٧/ ٥٤٣.

(٤) ديوانه: ص ٢٠٥.

ويؤكِّدُ أبو بكر ابن الصائغ هذا المعنى بقوله:

لعلَّكَ يا يزيدُ علمتَ حالي ... فتعلمَ أيَّ خطبٍ قد لقيتُ
وإني إنْ بقيتُ بمثل ما بي ... فمنْ عجبِ الليالي أنْ بقيتُ
يقولُ الشامتون شقاء بختٍ ... لَعَمرُ الشامتين لقد شقيتُ
أعندَهمُ الأمانُ من الليالي ... وسالمهم بها الزمنُ المقيتُ
وما يدرونَ أنهمُ سيُسقوا ... على كُرهٍ بكأسٍ قد سُقيتُ[1]

إنَّ الإقرارَ بحلول الأجل عاجلاً أم بعد حينٍ جعلَ جماعةً من الشعراء يهوِّنون من أهمية الحياة، ويستشعرون عدم جدواها مهما طال العمر، وعدم أهمية طول الأمل فيها، فهذا ابن حزم يحثُّ نفسه على عدم الاكتراث بملذات الدنيا لأنها متبوعةٌ بالموت:

أقولُ لنفسي ما مُبينٌ كهالكٍ ... وما الناس إلاَّ هالكُ وابنُ هالكِ
صُنِ النفسَ عما عابها وارفض الهوى ... فإنَّ الهوى مفتاحُ بابِ المهالكِ
رأيتُ الهوى سهلُ المبادي لذيذَها ... وعُقباهُ مُرُّ الطعمِ ضنكُ المسالِكِ
فما لذةُ الإنسانِ والموتُ بَعدَها ... ولو عاشَ ضِعفَيْ عُمر نوحِ بن لامكِ[2]

ويُحدِّثُ إبراهيمُ بن علي بن هردوس نفسَه بهذا المعنى:

أَإبراهيمُ إنَّ الموتَ آتٍ ... وأنتَ من الغوايةِ في سُباتِ
رجاؤكَ مثل ظلِّ الرمحِ طولاً ... وعُمرُكَ مثل إبهامِ القطاةِ[3]

---

(١) نفح الطيب: ٧/ ٢٣.

(٢) طوق الحمامة: ص٢٩٨.

(٣) الوافي بالوفيات: ٦/ ٥٧.

وقَـصَّرَ آمـالي مـآلي إلى الـردى   وأني، وإنْ طال المدى، سوفَ أهلِـكُ[1]

وينحرفُ أحمد بن إبراهيم بن صفوان المالقي عن معنى حتمية الموتِ قليلاً فيرى في موت أعدائه قبله سروراً، ولو بساعةٍ واحدة، وهو معنى يُلمَح منه التشفّي:

يقولون إنَّ الموت حتمٌ على الورى   يـدير صـغيرٌ كأسَـهُ وكبيـرُ
فلا تنـتسمْ ريحَ ارتيـاحٍ لفقـدِهِ   فإنـكَ عـن قـصدِ الـسبيلِ تجـورُ
فقلتُ: بلى حُكـمُ الـمنيةِ شـاملٌ   وكـلٌّ إلى ربِّ العبـادِ يـصيرُ
ولكنْ لتقديمِ الأعادي على الردى   نـشاطٌ يعـود القلـبَ منـهُ سـرورُ
وأمْـنٌ ينـامُ المرءُ في بـردِ ظِـلِّـهِ   ولا حيَّـةٌ للحقـدِ ثـمَّ تـثورُ
وحسبي ببيتٍ قالَـهُ شـاعرٌ مـضى   غـدا مَـثَلاً في العـالمينَ يـسيرُ
وإنَّ بقـاءَ المـرءِ بَعـدَ عَـدوِّهِ   ولـو سـاعةً مِـن عُمـرِهِ لَـكثيرُ[2]

٢- الإعداد للموت:

اهتمَّ الشعراء الأندلسيون، وهم يرثون أنفسهم، بموضوع الإعداد للموت والتحضير للآخرة، يستحوذ عليهم طول تفكُّرٍ في مفارقة الحياة إلى ملاقاة الله سبحانه، والوقوف بين يديه، فمنهم مَنْ يحاسبُ نفسَه على ما اقترفتْ من ذنوبٍ هو أدرى بها، فيحثها على الإقبال على ما يرضاه الله وما يكون شفيعاً له في يوم الحساب، ومنهم مَن هو يائسٌ من رحمة نفسه لضيق فسحة الحياة وقرب الموت، فيطمع في مغفرةٍ من الله ورحمة منه تنجيه من عذاب الآخرة، وكأنهم في ذلك كله ينظرون إلى قوله سبحانه وتعالَى (البقرة:

---

(١) برنامج الوادي آشي: ص٧٥.

(٢) الديباج الـمُذهَب: ص٤٣.

الآية:٩٤): ﴿قلْ إنْ كانَ لكم الدار الآخرة عند الله خالصةً من دون الناس فتمنَّوا الموتَ إنْ كنتم صادقين﴾، وقوله جلّ وعلا: ﴿وليست التوبة للذينَ يعملونَ السيئاتِ حتى إذا حضرَ أحدَهم الموتُ قالَ إنّي تبتُ الآنَ ولا الذين يموتون وهم كُفَّارٌ أولئكَ اعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾[1].

ومن هؤلاء الشعراء أبو عمران المارتلي الذي لم ينتبه إلى انغماسه في المعاصي إلاّ بعد أنْ أحسَّ بدنوّ الموت،، فلم يتسنَّ له إلاَّ أنْ يوم نفسه:

إلى كـم أقـولُ ولا أفعـلُ ... وكـم ذا أحـومُ ولا أنـزلُ

وأزجـرُ عيني فـلا ترعـوي ... وأنـصحُ نفـسي فـلا تقبـلُ

وكـم ذا تعلّـلُ لـي ويحهـا ... بعـلّ وسـوفَ وكـم تمطـلُ

وكـم ذا أُؤمّـلُ طـولَ البقـاءِ ... وأغفـلُ والمـوتُ لا يغفـلُ

وفي كـل يـومٍ ينـادى بنـا ... منـادي الرحيـل ألا فـارحلوا

أمـنْ بعـد سبعين أرجـو البقـاءَ ... وسـبعٍ أتـتْ بعـدَها تعجـلُ

كـأنْ بـي وشـيكاً إلى مـصرعي ... يُـساقُ بنعـشي ولا أُمهَـلُ[2]

ومنهم أبو الوليد الباجي في قوله:

إلاهـيَ قـد أفنيـتُ عمـري بَطالـةً ... ولم يَـثنني عنهـا وعيـدٌ ولا وَعْـدُ

وضيَّـعتُهُ سِـتِّين عامـاً أعُـدُّها ... ومـا خـيرُ عمـرٍ إنمـا خَـيرهُ العَـدُّ

وقدَّمتُ إخواني وأهلي فأصبحوا ... تـضمُّهمُ أرضٌ ويـسترهم لَـحْدُ

وجاء نذير الشيبِ لو كنتُ سـامعاً ... لِـوعظِ نـذيرٍ لـيس مـن سَـمعِهِ بُـدُّ

---

(١) النساء: الآية ١٨.

(٢) تحفة القادم: ص١٣٢.

تلَبَّستُ بالدنيا فلما تنكَّرتْ تمنَّيتُ زُهداً حين لا يُمكنُ الزهدُ
وتابعتُ نفسي في هواها وغيِّها وأعرضتُ عن رشدي وقد أمكنَ الرشدُ
وأجهدتُها في نيلِ دنيا فلم أرحْ وكم أسفٍ قد جرَّهُ ذلك الجُهدُ
ولم آتِ ما قدَّمتُهُ مِن جهالةٍ فيمكنني عُذرٌ ولا يمكنُ الجَحْدُ
وها أنا مِن وِرد الحِمامِ على مدى أُراقبُ أنْ أُمسي لديهِ وأنْ أغدو
وقد فاتني الإعداد بالعملِ الذي به كان يُرجَى القُربُ والفوزُ والخُلدُ
وبُعديَ عن نار الجحيم وحرِّها وأنّى لِمثلي عن لظَى حرِّها بُعدُ
ولم يبقَ لي إلاّ رجائيَ فضلَ مَنْ له المُلكُ والإحسانُ والجودُ والحمدُ
يُزحزح بالإيمان عنّي جهنماً ويُوردها مَن دينُهُ الكفرُ والجحدُ
ولا يشمتنْ بي كافرٌ كان حقدُهُ عليَّ لتوحيدي فما صدقَ الحقدُ
فيا نفسُ إنْ فاتتكِ بالأمس توبةٌ فبادرْ ولا يغررْكَ سوفَ ولا بَعدُ
وبادرْ فإنَّ الله أكرمُ راحمٍ يقومُ بعذر العبد إنْ راجع العبدُ
فلم تبقَ إلا ساعةٌ إنْ أضعتَها فمالكَ في التوفيقِ نقدٌ ولا وعْدُ[1]

ومِمن يأملون رحمة الله سبحانه وتعالى وعطفه وقد أحاطتْ به فكرة الموت والانتقال إلى الدار الأخرى أبو الصلت الأندلسي أمية بن عبد العزيز:

سكنتُكِ يا دار الفناءِ مُصدِّقاً بأني إلى دار البقاء أصيرُ
وأعظم ما في الأمرِ أنيَ صائرٌ إلى عادلٍ في الحكم ليس يجورُ
فيا ليتَ شعري كيف ألقاهُ عندها وزادي قليلٌ والذنوبُ كثيرُ
فإنْ أكُ مَجزيًّا بذنبي فإنّني بشرِّ عقابِ المذنبين جديرُ

(١) الغنية: ١/ ١٥٤.

وإنْ يكُ عفوٌ منهُ عنّي ورحمةٌ فَثمَّ نعيمٌ دائمٌ وسرورُ[1]

وقد وقف الشعراء الأندلسيون طويلاً عند معنى حمل الزاد إلى الآخرة كنايةً عن الأعمال الصالحة، وفي ذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وتزوَّدوا فإنَّ خيرَ الزادِ التقوى﴾[2]، ومن ذلك قول أبي الحجاج يوسف المنصفي:

قالت ليَ النفسُ أتاك الردى وأنتَ في بحر الخطايا مقيمْ
وما ادَّخرتَ الزادَ قلتُ اقصري هل يُحملُ الزادُ لدار الكريم؟
واخجلتا منهُ إذا جئتُهُ والعبدُ مطلوبٌ بدينٍ قديمْ
وما أرى يطلبني قد درى أنّيَ محتاجٌ إليهِ عَديمْ
ولستُ محتاجاً إلى شاهدٍ لأنَّ مولايَ بحالي عليمْ
وحكمهُ القِسطُ ولا يقتضي هلاكَ مِديانٍ بمال الغريمْ[3]

ومن ذلك قول أبي عثمان سعيد بن حكم القرشي:

يا ربّ إنّي راحلٌ والزاد ما عنديَ منهُ للرحيلِ عَتادْ
والوقتُ عنه ضيِّقٌ ولديكَ ما يسعُ الورى لهمُ وأنتَ جوادْ[4]

ولابن شرف قوله في ذلك:

رحلتُ وكنتُ ما أعددتُ زاداً ولا قصَّرتُ في قوتِ المُقيمِ
فها أنا ذا رحلتُ بغيرِ زادٍ ولكنّي نزلتُ على كريمِ[5]

---

(١) الوافي بالوفيات: ٩/ ٤٠٥.

(٢) البقرة: الآية ١٩٧.

(٣) تحفة القادم: ص٨٤-٥.

(٤) تحفة القادم: ص ٨٥.

(٥) تحفة القادم: ص ٨٤.

ولأبي بكر مالك بن جمير الأريولي في هذا المعنى:

رحلتُ وإنني من غير زادِ ... وما قدَّمتُ شيئاً للمَعادِ
ولكنّي وثقتُ بجودِ ربي ... وهل يشقَى المقلُّ مع الجوادِ[1]

ومن ذلك ما قاله أبو عبد الله المرسي محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الفضل:

قالوا: محمدُ قد كَبِرتَ وقد أتى ... داعي المَنونِ وما اهتممتَ بزادِ
قلتُ: الكريمُ من القبيحِ لِضيفِهِ ... عندَ القدومِ مجيؤهُ بالزادِ[2]

ويغلبُ في النصوص الشعرية الخاصة بالإعداد للموت أسلوب مخاطبة الشاعر الأندلسي لنفسهِ. يقول ابن جبير:

أتاكَ الرحيلُ فَشمِّرْ لهُ ... فإمّا إلى جَنةٍ أو لنارْ
وكيفَ تقرُّ بدنياكَ عيناً ... ولم تدرِ أين يكون القرارْ[3]

ويقول الألبيري:

بصرتُ بشيبةٍ وخَطتْ نصيلي ... فقلتُ لهُ: تأهَّبْ للرحيلِ
ولا يَهُن القليلُ عليكَ منها ... فما في الشيبِ ويحكَ من قليلِ
ولازمْ قرعَ بابِ الرب دأباً ... فإنَّ لزومَهُ سببُ الدخولِ
فما من مخلصٍ للهِ إلاّ ... على أعمالِهِ أثرُ القَبولِ[4]

---

(١) تحفة القادم: ص ٨٤، وفي نفح الطيب: ٤/ ٣٤٨ أبو بكر مالك بن جبير.

(٢) معجم الأدباء: ١٨/ ٢١٢.

(٣) تراجم مغربية من مصادر مشرقية: ص ١١٤.

(٤) ديوانه: ص ١٠٥-٦.

ويخاطب مرج الكحل نفسه قائلاً:

اذكرْ ذنوبكَ أيها ذا الناسي ... واستغفرنَّ الله ربَّ الناسِ
واقرعْ على ما فاتَ سنَّكَ نادماً ... واكرعْ من العبراتِ في أكواسِ
وانفضْ عن الدنيا يديك ولا تكنْ ... تُعنَى بهذي الأربُع الأدراسِ
واكحلْ جفونكَ بالسهادِ فإنما ... يرضى حبيبكَ غايةُ الإيناسِ
انظرْ لنفسِكَ قبلَ وقتِ رحيلها ... واذكرْ بقبرِكَ قلَّةَ الإيناسِ(١)

وكذلك فعلَ أبو محمد القاسم بن فتح بن يوسف بن الأريولي عندما قال:

إلى كم تقولُ ولا تفعلُ ... وتغفلُ والموتُ لا يغفلُ
أَأَمَّلتَ خُلداً فهيهاتَ أنْ ... يُرى المرءُ يُدرِكُ ما يأملُ
أم الدهرُ غرَّكَ إمهالُهُ ... ولو قد تحققتَ ما يمهلُ(٢)

ولعلَّ أبا عمران المارتلي يعارضهُ في قصيدته التي يقول فيها:

إلى كم أقولُ ولا أفعلُ ... وكم ذا أحومُ ولا أنزلُ
وأزجر نفسي فلا ترعوي ... وأنصح نفسي فلا تقبلُ
وكم ذا تعللُ لي ويحها ... بعلَّ وسوفَ وكم تمطلُ
وكم ذا أؤمِّلُ طول البقاءِ ... وأغفلُ والموتُ لا يغفلُ(٣)

أما الغزال فإنَّ سكنه بجوار المقابر في قرطبة جعله شاهداً على دخول الموتى إليها دون خروجٍ منها، متذكِّراً الموتَ باستمرار، وفي ذلك خير موعظةٍ له، ومن العبثِ أن يهرب من مواجهته باللجوء إلى ملذّات الحياة، فيخاطب نفسه قائلاً:

أي لاهياً في القصرِ قُربَ المقابرِ ... يرى كلَّ يومٍ وارداً غيرَ صادرِ

(١) مرج الكحل: ص١٢٢.
(٢) أخبار وتراجم أندلسية: ص٥٣-٥٤.
(٣) تحفة القادم: ص ١٣٢.

كأنَّكَ قد أيقنتَ أنْ لستَ صائراً غداً بينَهم في بعضِ تلكَ الحفائرِ
تَراهمْ فتلهو بالشرابِ وبعضُ ما تَلَذُّ به مِن نقرِ تلكَ المزاهرِ
وما أنتَ بالمغبونِ عقلاً ولا حِجى ولا بقليلِ العِلمْ عندَ التخابُرِ
وفي ذاكَ ما أغناكَ عَن كلِّ واعظٍ شفيقٍ، وما أغناكَ عَن كلِّ زاجِرِ
وكمْ نعمةٍ يَعصِي بها العبدُ ربَّهُ وبَلْوى عَدَتْهُ عن ركوبِ الكبائرِ
سترحلُ عن هذا وإنَّكَ قادمٌ وما أنتَ في شكٍّ على غيرِ عاذرِ![1]

٣- **صورة ما بعد الموت:**

أسهب الشعراء الأندلسيون في وصف صورة ما بعد الموت، فهذا لسان الدين بن الخطيب يصف لحظة الأجل وكيف هي انتقال من الحركة المطلقة إلى السكون المفاجئ، وما يتلوها من الرجوع إلى التراب، وهو انتقال من التقوُّتِ بملاذ الحياة إلى الكينونة قوتاً لديدان الأرض، يقول:

بعُدنا وإنْ جاورتنا البيوتْ وجِدنا بوعظٍ ونحنُ صُمُوتْ
وأنفاسُنا سكنتْ دفعةً كجهرِ الصلاةِ تلاهُ القنوتْ[2]

وإلى مثل هذه المفارقة يشير ابن زهر الحفيد وهو طبيب:

تأمَّلْ بحقِّكَ يا واقفاً ولاحظْ مكاناً دُفعنا إليهْ
تُرابُ الضريحِ على وجنتيَّ كأنّيَ لمْ أمشِ يوماً عليهْ
أداوي الأنامَ حذارَ المنونِ فها أنا قد صرتُ رهناً لديهْ[3]

---

(١) الغزال: ص٨١-٨٢.

(٢) نفح الطيب: ٥/ ١١١.

(٣) التكملة لكتاب الصلة: ص٢٦٨-٩، وأزهار الرياض: ١/ ٢٧٥، ونفح الطيب: ٣/ ٤٣٤.

والإيداع في القبر هو مرحلة من مراحل الوحدة والوحشة، حيثُ لا سمير ولا رفيق، حيثُ جميع الناس من الأحياء سينشغلون في أمور دنياهم، يقول الغزال:

وما أُفارقُ يوماً مَن أُفارقُهُ | إلاّ حسبتُ فراقي آخرَ العهدِ
أنظرْ إليَّ إذا أُدرجتُ في كفني | وانظرْ إليَّ إذا أُدرجتُ في اللحدِ
واقعدْ قليلاً وعاينْ مَنْ يُقيمُ نعي | ممّنْ يُشيّعُ نعشي مِن ذوي ودِّي
هيهاتَ كلُّهمُ في شأنِهِ لَعِبٌ | يَرمي الترابَ ويحثوهُ على خَدِّي[1]

ويقول أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمي:

هاأنذا في الترابِ وحدي | فلا ظهيرٌ ولا نصيرُ[2]

ومع هذا الاستيحاش في ظلمة القبر فإنَّ الإقامة فيه طويلة الأمد. يقول إبراهيم بن عبد الرحمن بن يخلف القيسي المعروف بابن النشا الوادي آشي:

وعنْ قريبٍ أحُلُّ قبراً | أُطيلُ في قَعرِهِ المُقاما
فبلِّغوا مَن رأيتموهُ | بعديَ يا إخوتي السلاما[3]

ويؤكِّد عبد الكريم القيسي هذا المعنى، وهو يتحدث عن نفسه بضمير الغائب، مشيراً إلى أنَّ إقامته في القبر، ستطول حتى يوم القيامة:

ويجنحُ للدنيا اعتذاراً وإنه | سيرحلُ عنها عن قريبٍ إلى القبرِ
ويتركُ فيها ما حواهُ لغيرهِ | ويذهبُ عنها مُعدماً منه ذا فقرِ
إلى جَدَثٍ بيتِ التغرُّبِ والبلى | يُقيم بهِ حتى القيامةِ والحشرِ[4]

(١) ديوانه: ص ٦٤.
(٢) المطرب: ص٢٣٣.
(٣) بغية الوعاة: ١/ ٤١٧.
(٤) ديوانه: ص٤٦٣.

وأما أبو جعفر أحمد بن أيوب اللَّماي فيصف القبر ويشير إلى مساحته:

بنيتُ ولم أسكنْ وحصَّنتُ جاهداً ... فلما أتى المقدورُ صيَّرهُ قبري

ولم يكُ حظِّي غيرَ ما أنتَ مبصرٌ ... بعينِكَ ما بين الذراعِ إلى الفترِ(1)

وإذا كان يتعذّرُ على الأهل والأصدقاء والأحباء أن يرافقوا الميتَ في قبرِهِ، ويؤنسوا وحشته، وكل منهم سوف يضحك بعد بكاء ويسلو بعد فراق، فلم يبقَ إلى الأمل بالله سبحانه وتعالى، وإلى هذا المعنى يشير أبو بكر محمد بن ولّاد:

أرجوكَ يا ربُّ في سرِّي وفي علني ... إنَّ الرجاء إليكَ اليومَ يحملني

مَن ذا يؤنِّسني في القبرِ منفرداً ... إنْ لم تكنْ أنتَ يا مولايَ تُؤنسني

وسوف يضحكُ خلٌّ قد بكى جَزَعاً ... بعدي ويسلو الذي قد كان يندبني(2)

ويقول أبو الوليد وأبو محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي القرطبي:

أسير الخطايا عند بابك واقفُ ... على وجلٍ مما به أنتَ عارفُ

يخاف ذنوباً لم يغبْ عنك غيبُها ... ويرجوكَ فيها فهو راجٍ وخائفُ

ومن ذا الذي يُرجَى سواكَ ويُتّقَى ... وما لكَ في فصل القضاءِ مُخالِفُ

فيا سيدي لا تُخزني في صحيفتي ... إذا نُشرتْ يوم الحساب الصحائفُ

وكنْ مؤنسي في ظلمة القبرِ عندما ... يَصُدُّ ذوو القربى ويجفو المؤالِفُ

لئن ضاق عني عفوكَ الواسعُ الذي ... أُرجِّي لإسرافي فإنّي لَتالِفُ(3)

---

(1) الإحاطة في أخبار غرناطة: ١/ ٢٤٣ وفيه: "ولم يكن" ولا يستقيم معه الوزن.

(2) تحفة القادم: ص٣٨، والوافي بالوفيات: ٥/ ١٧٦.

(3) نفح الطيب: ٢/ ١٢٩.

وتناولَ جملة من الشعراء الأندلسيين فكرة اللقاء بالأحبة بعد الموت، ومنهم لسان الدين بن الخطيب:

هــل يُبــاحُ الــورودُ بعــدَ ذِيــادِ أو يُتــاحُ اللقــاءُ بعــدَ انتــزاحِ؟
وإذا أعــوزَ الجــسومَ التلاقــي نــابَ عنــهُ تعــارفُ الأرواحِ[1]

ولهُ وقد حزن على موت زوجته حزناً شديداً وكانَ دفَنَها بنفسهِ في مدينة "سلا" المغربية، يقول:

أمــا وقــد غــاب في تــراب ســلا وجهُــكِ عــني فلــستُ بالــسالي
فــانتظريني فالــشوق يُقلقــني ويقتــضي ســرعتي وإعجالــي
ومهِّــدي لــي لــديكِ مــضجعاً فعــن قريــبٍ يكــونُ ترحــالي[2]

ولعلَّ أحمد بن سعيد بن سليمان بن جودي يشير إلى مثل هذا بقوله عندما أيقنَ بحلول موته:

وأدِّ إلى عِرسي الـسلامَ وقـلْ لهـا عليـكِ سـلامي إلى موقـفِ الحـشرِ[3]

وإلى هذا المعنى أيضاً ذهب الوزير أبو بكر الصائغ بقوله:

وســألنا متــى اللقــاءُ فقــالوا الــ ــحــشرُ قُلنــا: صــبراً إليــهِ وحُزنــا[4]

أمَّا العاقبةُ بعد الموت، والحساب في يوم القيامة، وهي مرحلة تالية للقبر، فقد أخذت حيِّزاً كبيراً في قصيدة رثاء النفس الأندلسية، ومن المعاني التي تدور حول هذه

---

(١) نفح الطيب: ٦/ ٥٠٩-١٠.

(٢) نفاضة الجراب: ص٢٠٥.

(٣) المقتبس في تاريخ الأندلس: ص ١٤٩.

(٤) قلائد العقيان: ص٧٣٠.

العاقبة الحيرة والسؤال في ذهن الشاعر عنها وكيف تكون في اليوم الآخر. يقول أبو عمران موسى بن عمران المارتلي:

كـأنْ بـي وشـيكاً إلى مـصرعي ... يُـسـاقُ بنعـشي ولا أُمهَـلُ
فيـا ليـتَ شـعريَ بعـدَ الـسؤالِ ... وطُـولِ الـمُقام لِمـا أُنقَـلُ![1]

ويقول أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت:

سـكنْتُكِ يـا دار الفنـاءِ مُـصدِّقـاً ... بأنّـي إلى دار البقـاءِ أصـيرُ
وأعظم مـا في الأمـر أنـيَ صـائرٌ ... إلى عـادلٍ في الحكـمِ لـيس يجـورُ
فيا ليتَ شِعري كيف ألقاهُ عندها ... وزادي قليـلٌ والـذنوبُ كـثيـرُ
فـإنْ أكُ مَجـزيّاً بذنبـي فإننـي ... بـشرٌ عـقابِ المذنبـينَ جَديـرُ
وإنْ يـكُ عفـوٌ منـهُ عنّي ورحمـةٌ ... فَـثَمَّ نعـيمٌ دائـمٌ وسُـرورُ[2]

وما هذه الحيرة إلاَّ لأنَّ الشاعر كان قد انغمس بملذّات الدنيا وارتكب المعاصي، ولم يتوقَّ لهذه العاقبة ولم ينتبه إلاَّ بعد الإحساس باقتراب الأجل المحتوم، كما هو حال أبي إسحاق الألبيري:

هـي الأقـدار والآجـال تأتـي ... فتنـزلُ بالمطـبَّبِ والطبـيبِ
تفـوِّقُ أسـهماً عـن قـوسِ غيـبٍ ... ومـا أغراضُـها غيـر القلـوبِ
فـأنّى بـاحتراسٍ مـن جنـودٍ ... مؤيَّـدةٍ تُمَـدُّ مـن الغُـيوبِ
ومـا آسـى علـى الـدنيا ولكـنْ ... علـى مـا قـدْ ركبـتُ مـن الـذنوبِ

---

(١) الغصون اليانعة: ص١٣٧، والمغرب في حلى المغرب: ١/ ٤٠٧، ونفح الطيب: ٢٩٦.

(٢) أبو الصلت: ص٨٧، وانظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ١/ ٥٠٣، ووفيات الأعيان: ٢/ ٢٧٠، والوافي بالوفيات: ٩/ ٤٠٥، ونفح الطيب: ٢/ ١٠٨ و٣/ ٢٩٧-٨.

فيا لهفي على طولِ اغتراري ... ويا ويحي من اليومِ العصيبِ
إذا أنا لم أنُحْ نفسي وأبكي ... على حُوبي بِتهتانٍ سَكوبِ
فَمَنْ هذا الذي بَعدي سيبكي ... عليها مِن بعيدٍ أو قريبِ؟[1]

ومثلُهُ أبو بكر عبد الرحمن بن محمد بن مغاور الشاطبي الذي أرَّقَهُ التفكير في ما ارتكبَ من ذنوبٍ ثقالٍ عند حضور الموت:

قلْ لمن سالَ عن شكاتي وحالي ... لستُ أشكو غير الذنوب الثقالِ
ليت شِعري وهي الجبالُ الرواسي ... مَنْ يُجيرني من صعق هذي الجبالِ
وهي دائي وليس لي من دواءٍ ... غيرُ صفحٍ لذي الرضى والجلالِ
فإذا متُّ مسلماً فانتقالي ... مِن محلِّ الغرور خيرُ انتقالِ
وإذا كان لِلإلهِ مَرادي ... لا أُبالي من مِيتةٍ لا أُبالي
إنَّ ظنّي باللهِ ظنٌّ جميلٌ ... وهْو حسبي في مبدإٍ ومَآلِ[2]

وفي قصيدة رثاء أخرى لنفسه يأمل عفو ربه لما اقترف من تلك الذنوب، بعد أنْ ينسب الجزع الخوف من العاقبة لأهله ومحبيه الذين تولَّوا دفنه:

أودعوني بطنَ الضريحِ وخافوا ... مِن ذنوبٍ كُلومها بأديمي
قلتُ: لا تجزعوا عليَّ فإنّي ... حَسَنُ الظنِّ بالرؤوف الرحيمِ
واتركوني بما اكتسبتُ رهيناً ... غَلِقَ الرهنُ عند مولىً كريمِ[3]

---

(١) ديوانه: ص٣٧.

(٢) ابن مغاور الشاطبي: ص٢٢٨.

(٣) زاد المسافر: ص٨١، والتكملة لكتاب الصلة: ٣/ ٤٠، وتحفة القادم: ص٢٥، ونفح الطيب: ٣/ ٣٣١.

ويتعلَّق ابن شُهيد بمثل هذا الرجاء فيقول مخاطباً صديقه ابن حزم:

فلا تنسَ تأبيني إذا ما ذكرتني ... وتذكار أيامي وفضلَ خلائقي
وحرِّكْ لهُ بالله مهما ذكرتني ... إذا غيَّبتني كلُّ سهمٍ غُرانقِ
عسى هامتي في القبر تسمعُ بعضَهُ ... بترجيعِ شادٍ أو بتطريبِ طارقِ
فلي في ادّكاري بعد موتيَ راحةٌ ... فلا تمنعوها لي عُلالةَ راهِقِ
وإني لأرجو اللهَ فيما تقدَّمتْ ... ذنوبي به ممّا درى مِن حقائقي[1]

أمّا عاقبة المذنبين فما هي إلا النار والعذاب، فهذا ابن حمديس يحدِّثُ نفسه ويتذكَّر موقفه في ذلك اليوم وما يمكن أن يناله من عقابٍ شديد:

مغربكَ القبر الذي ... يكونُ منهُ مطلعكْ
إنْ فرّقتْكَ تُربةٌ ... فالله سوفَ يجمعُكْ
وللحساب موقفٌ ... أهوالُهُ تروِّعُكْ
كم جرمٍ ما أشفقتَ منْ ... لَمْسِكَ منهُ إصبعُكْ
فكيف بالنار التي ... من كل وجهٍ تلذعُكْ
يراكَ ذو العرشِ إذا ... ناديتَهُ ويسمعُكْ
فثِقْ به ولا يكنْ ... لِغيرهِ تضرُّعُكْ[2]

ومنهم مَن يكتفي بالتلميح والإشارة إلى ما تكون عليه العاقبة مثل محمد بن عبد الله ابن الغازي بن قيس القرطبي:

ماذا تعاينُ هذي العينُ من عَجَبٍ ... عند الخروج من الدنيا إلى اللهِ؟[3]

(١) مطمح الأنفس: ص٢٠١.

(٢) ديوانه: ٣٤٨.

(٣) بغية الوعاة: ١/ ١٤٠.

ويؤمّل ابن الناظر الحسين بن عبد العزيز بن محمد أنْ يحظى بدار النعيم ويُوضع موضع الأبرار في الجنة:

وأمّلتُ من مولاي نظرة رحمةٍ ... يكونُ بها منّي إليه بلاغُ
فأحظى إذا الأبرار قيل لهم غداً ... هلمُّوا إلى دار النعيم فراغوا[1]

ويعارضهُ أبو عبد الله محمد بن علي بن يوسف السكوني، فينظم رثاءه لنفسه على وزن قصيدة ابن الناظر وقافيتها، وهي قافية صعبة، ويؤكِّدُ معنى الرجاء بحسن العاقبة بعد أن يتفكَّر المسلمُ بحتمية الموت وأن يعيشه قبل أن يحدث:

ومن لم يمتْ قبل المماتِ فإنه ... يُراعُ بهولٍ بعدهُ ويُراعُ
فيا ربّ وفقني إلى ما يكون لي ... به للذي أرجوكَ منهُ بلاغُ[2]

ويقول الفقيه علي بن أحمد بن سعيد بن حزم مشيراً إلى شدّة العاقبة:

هل الدهرُ إلاّ ما عرفنا وأدركنا ... فجائعهُ تبقى ولذّاتُه تَفنَى
إذا أمكنتْ منهُ مَسرَّةُ ساعةٍ ... تولّتْ كمرِّ الطرفِ واستخلفتْ حُزنا
إلى تبعاتٍ في المعادِ وموقفٍ ... نودُّ لديه أننا لم نكنْ كُنّا[3]

وقد شاعتْ على ألسن الشعراء الأندلسيين وهم يرثون أنفسهم معاني الجزاء بجنس العمل، فإما أنْ يفوز المسلمُ في الآخرة بجنات النعيم فيكون فيها من الخالدين، وإمّا أنْ يُعاقَب بجهنم يصلى فيها ناراً تستعر، وإلى هذا المعنى ذهب أبو الحسن منذر بن سعيد البلوطي بقوله محدِّثاً نفسه:

---

(١) بغية الوعاة: ١/ ٥٣٦.

(٢) نفح الطيب: ٥/ ٥١٦.

(٣) جذوة المقتبس: ص٣٠٩، وبغية الملتمس: ص٤١٦، والمعجب في تلخيص أخبار المغرب: ١/ ٤٧.

فلـو كنـتَ تَعقِـلُ مـا ينقـضي　　مـن العمـرِ لاعتـضتَ خـيراً بِـشرّْ
فمالـــــكَ لا تـــستعدُّ إذاً　　لِـــدارِ المُقـــامِ ودارِ المقـــرّْ ؟
أترغـبُ عــن فجـأةٍ للمنــونِ　　وتعلــمُ أنْ لــيسَ منهــا مفــرّْ ؟
فإمّـــا إلى جنـــةٍ أُزلِفـــتْ　　وإمّـــا إلى سَقَـــرٍ تـــستعِرْ*[1]

ويقول الوزير الحسن بن رحيم:

ولا خُـطّــة غـير إحـدى اثنـتينِ　　فإمّـــا نــعيمٌ وإمّـــا عــذابْ*[2]

ويقول القاضي الشريف ابن الجياب الغرناطي:

مُعمّى كتابٍ فَكُّهُ "احذرْ" فهـذهِ　　سـفينة هـذا العمـرِ قاربـت الـشطّا
وإنْ طالما خاضتْ بهِ اللججُ الـتي　　خبطـتَ بهـا في كـلِّ مهلكـةٍ خَبطـا
ومـا زلـتَ في أمواجهـا مُتقـلّباً　　فَــآونةٌ رفعـــاً وآونـــةٌ حَـطّــا
فقد أوشكتْ تُلقيكَ في قَعرِ حفـرةٍ　　تــشدُّ عليـكَ الجـانبينِ بــها ضـغطا
ولستَ على علمٍ بما أنـتَ بعدهــا　　مُلاقٍ، أرضواناً من الله أمْ سَـخطا![3]

ويقول الحجاري:

وقد حان ترحالي فقلْ ليَ عـاجلاً　　علــى أي حــالٍ تَنقـضي عزماتـــي
أَأُثـني بـــخيرٍ أم أقـولُ تـمـثُّلاً　　كمــا قالــت الخنـساءُ في الـسَّمُراتِ
إذا لم يكـنْ فـيكنَّ ظـلٌّ ولا جَنـى　　فأبعدكـــنَّ اللهُ مِـــن شـــجَراتِ[4]

---

(١) مطمح الأنفس: ص٢٤٩.

(٢) ابن خفاجة: ص٤١٣.

(٣) نفح الطيب: ٥/ ٤٤٠.

(٤) المغرب في حلى المغرب: ٢/ ١٠١.

وما هذه العاقبة إلاَّ بحسب ما كان للمسلم من عملٍ في دنياه. يقول الألبيري:

وقـد سـلَّ الحِمـامُ علـيَّ نـصلاً سـيقتلُني وإنْ شـاكت سـلاحي
ويحملـني إلى الأجـداث صـحبي إلى ضـيقٍ هـناكِ أو انفـساحِ
فـأُجزى الخـيرَ إنْ قـدَّمتُ خـيراً وشـرّاً جُزيـتُ علـى اجتراحـي[1]

وأما عبد الكريم القيسي فيشير إلى هذا المعنى مع فضل تفصيلٍ فيقول متحدثاً عن نفسه بضمير الغائب:

فيُبـصر أهـوالاً ويلقـى شـدائداً يشيبُ لها رأسُ الفتى الحدث العُمـرِ
ويُـسأل عـن أعمالـه في حياتـهِ ويُجزَى على ما كان من خيرٍ أو شرٌ
فـذو الخيرِ مثـواهُ الجنـانُ مرفَّـعاً وذو الـشـرِّ مـأواهُ مـن النـارِ بالقعـرِ
وشـيآنِ كـلٌّ منهمـا هُـوَ بالجـزا كفيلٌ نعـيمٌ أو جحـيمٌ كمـا تـدري[2]

ولهذا السبب يؤكّد الشعراء معنى عمل الخير في الدنيا ليحسن الجزاء في الآخرة. يقول عيسى بن عبد الله بن قرلمان الخازن المعروف بأبي الأصبغ:

كـأنني سـامعٌ بَعـدي وقـد ذهبـتْ نفـسي ووافـانيَ المحـذور مـن أجلـي
قولينِ والنعشُ موضوعٌ على جَـدَثي قـولاً علـيَّ بـمكروهٍ وآخـرُ لـي
مِن شامتٍ بيَ أو محْـضِ الـودادِ ولم ينفـعْ ولا ضـرٌّ إلاَّ سـالفُ العـمَلِ[3]

---

(١) ديوانه: ص٤٩.

(٢) ديوانه: ص٤٦٣.

(٣) جذوة المقتبس: ص٢٩٩، وبغية الملتمس: ص ٤٠٣.

وإلى هذا المعنى يشير ابن شهيد بقوله:

وما أنا إلاَّ رهنُ ما قدَّمتْ يدي ... إذا غادروني بين أهلِ المقابرِ[1]

ولأبي عمر ابن عبد البر النمري الحافظ قوله:

تذكرتُ من يبكي عليَّ مُداوماً ... فلمْ أُلفِ إلاَّ العلم بالدينِ والخَبَرْ

علومُ كتابِ اللهِ والسننِ التي ... أتتْ عن رسول الله معْ صحَّةِ الأثرْ

وعلم الأُلَى من ناقديهِ وفهم ما ... له اختلفوا في العلمِ بالرأيِ والنظرْ[2]

ويتعلقُ المؤمن بحاجته للدعاء والاستشفاع، ويتشبثُ بالاستغفار وطلب العفو والرحمة من الله سبحانه وتعالى، وقد شاعت مثل هذه المعاني في قصيدة رثاء النفس الأندلسية. يقول ابن أرقم النميري الوادي آشي:

أتيتُ إلى خالقي خاضعاً ... ومَن خدُّهُ في الثرى يخضعُ

وإنْ كنتُ وافيتُهُ مُجرِماً ... فإنّيَ في عفوِهِ أطمَعُ

وكيفَ أخافُ ذنوباً مضتْ ... وأحمدُ في زلَّتي يشفعُ!

فأخلصْ دُعاءكَ يا زائري ... لعلَّ الإلهَ بهِ يَنفعُ[3]

ويقولُ أبو يحيى محمد بن عاصم الغرناطي:

أنا مما اقترفتُ في نَقَماتِ ... كدَّرتْ من مواهب العيشِ شُربي

أنا مما جنيتُ في ظلماتٍ ... طبَّقتْ لي ما بين شرقٍ وغربِ

حمَّلتني أوزارها كلَّ ثقلٍ ... أنا منه ما بينَ خوفٍ ورُعبِ

---

(١) قلائد العقيان: ص٢٠٤.

(٢) نفح الطيب: ٤/ ٣٢٧.

(٣) بغية الوعاة: ١/ ٤٢.

وغزانـي للابـتلا أيُّ جـيشٍ — أنـا منـهُ مـا بـين طـَعنٍ وضـربِ

وبجـدّي بالـسيئاتِ انـتـفاءٌ — حـالَ فـرضُ الـدعاءِ منـهُ بِحَجْبِ

فبفكـري في أمرهـا طـار عقـلي — ويخـوفي مِـن شـرِّها طـاشَ لُبِّـي

قد أقضَّتْ من مضجعي في حياتي — وهْيَ أدهَى إذا امتطَى التُّربُ جَنبِي

لـستُ أخـشَى بؤسـاً ولا أتّقـيهِ — مِـنْ سـواها عنـدَ انفـرادي بربِّـي

دَهمـتْني بكـل خَطـبٍ وإنّـي — لـستُ أرجـو سـواهُ في كـشفِ خَطبِي

طـرقتني بكـل كـربٍ وإنّـي — منـهُ مـستوثـقٌ بتفـريجِ كَـربي[1]

ويطلبُ أبو اسحاق ابن خفاجة من الواقفين بقبره السلام عليه والدعاء له بالرحمة:

خليلـيَّ هـل مِـن وقفـةٍ بتـألُّـمِ — علـى جـدثي أو نظـرةٍ بترحُّـمِ

خليليَّ هل بعد الـردى من ثَنيةٍ — وهـل بعـد بطـن الأرض دارُ مخيَّمِ؟

وإنّـا حَـيينا أو ردينـا لَإخـوةٌ — فَمَـن مـرَّ بـي مِـنْ مـسلِمٍ فلْيُـسلِّمِ

ومـاذا عليـهِ أنْ يقـولَ مُحيِّـياً — ألا عِـمْ صـباحاً أو يقـولُ ألا اسـلمي

وفاءً لأشلاءٍ كَـرُمنَ علـى البِلـى — فعـاجَ عليهـا مِـن رفـاتٍ وأعظُـمِ[2]

وإلى مثل هذا المعنى ذهب أبي إسحاق الألبيري وزاد ذكره بعد موته من لدن إخوته وأصدقائه وبالصفات الحسنة دون السيئة والغض من هفواته ففي ذكرهم سيئاته شقاء له:

فيا إخوتي مهما شهدتمْ جنازتـي — فقومـوا لربـي واسـألوهُ نـجاتي

وجدُّوا ابتهالاً في الدعاءِ وأخلصوا — لعـلَّ إلاهـي يَقبـلُ الـدعواتِ

---

(١) جنة الرضا: ١/ ١٤٤-٥.

(٢) تحفة القادم: ص٢٤.

وقولوا جميلاً إنْ علمتمْ خلافَهُ وأَغضوا على ما كان مِن هفواتي
ولا تصفوني بالذي أنا أهلُهُ فأشقَى وحلُّوني بخير صفاتِ [1]

أما المعتمد بن عبّاد فيستسقي لقبره فيقول:

قبرَ الغريبِ سَقاكَ الرائحُ الغادي حقًّا ظفرتَ بأشلاءِ ابن عبَّادِ!
كفاكَ، فارفقْ بما استودعتَ من كرمٍ روَّاكَ كلُ قَطُوب البرقِ رعَّادِ
يبكي أخاهُ الذي غيّبتَ وابلَهُ تحتَ الصفيحِ، بدمعٍ رائحٍ غادي
حتَّى يجودَكَ دمعُ الطلِّ منهمِراً من أعينِ الزهرِ لم تبخلْ بإسعادِ
ولا تَزلْ صلواتُ اللهِ دائمةً على دَفينِكَ لا تُحصَى بتعدادِ [2]

ويُجملُ ابن حمديس الكلامَ على ما يحدثُ له بعد الموت من مساءلة الملكين له، وتجشمه جواز الصراط دون زللٍ يوم القيامة ليفوز بالجنة ويتفادى نار جهنم:

ما الذي أعددتَ للموتِ فقدْ قُدِّرَ الموتُ بلا شكٍّ عليكْ
أذنوباً كاثرتْ عدَّ الحصى بئسَ ما استكثرتَ من كسْبِ يديكْ
بئسَ ما يسمع من تعظيمها مَلَكا القبرِ به من ملكيكْ
أي خطبٍ فادحٍ في رقدةٍ يُوقظُ الحشرُ إليها مُقلتيكْ
وصراطٍ لستَ بالناجي إذا وطِئتهُ زلَّةٌ من قدميكْ
فلكَ الويلُ من النار إذا مُقلةُ الرحمنِ لم تنظرْ إليكْ [3]

---

(١) ديوانه: ص٦٣.

(٢) ديوانه: ص٩٦.

(٣) ديوانه: ص ٣٤٦.

ويشير في قصيدة أخرى إلى قضية فناء الدنيا، والبعث والنشور، والبقاء لله وحده سبحانه، وينصُّ على مصطلحَين آخرين هما العالم السفلي وهو الحياة الدنيا، والعالم العلويّ وهو الحياة الآخرة:

أرى العالَمَ العلويَّ يَـفنَى جميعُـهُ   إذا خَلَتِ الـدنيا مـن العـالَم الـسُّفْلي
ويـبقَى على ما كانَ مِن قبلِ خَلْقِهِ   إلــهٌ هَــدَى أهــلَ الـضلالـةِ بالرُّسْــلِ
ويَـبعثُ مَنْ تحتَ الـترابِ وفوقَــهُ   نشوراً، إليهِ الفضلُ، يا لكَ مِن فـضْلِ[1]

وهكذا رأينا أن صورة ما بعد الموت لم تكنْ لتتعدى الحدود التي رسمتها العقيدة الإسلامية السمحاء، وهي صورة خلا منها الشعر العربي في عصر ما قبل الإسلام، ولاسيما في إطار موضوعنا، فخلتْ، تبعاً لذلك، معانيها لدى الشعراء في عصر ما قبل الإسلام الذين "نجدهم في رثائهم لأنفسهم يسخرون مما يُصنَعُ لهم بعد موتهم"[2].

٤- الروح والجسد:

يرى عبد الجليل بن وهبون أنَّ الروح سرابٌ أو شعلةٌ تتصل بالتراب والماء فيتخلَّق الجسد، ثمَّ ترجعُ عنه عند الموت وتخلص منه، ولكنَّ الخلاص منه ليس كالاتصال فيه، ففي الخلاص مشقَّة وعناء، مشيراً إلى ما يواجهه المرء ساعة مفارقة الحياة:

نفسي وجسمي إنْ وصفتهما معـاً   آلٌ يــذوبُ وصــخرةٌ خلقــاءُ
ما النفس إلاّ شعلةٌ سـقطتْ إلــى   حيــثُ اسـتقلَّ بهــا الثـرى والمــاءُ
حتى إذا خلصتْ تعودُ كما بـدتْ   ومــن الخــلاص مــشقَّةٌ وعنــاءُ[3]

وفي قوله: "تعود كما بدتْ" إشارة إلى خلود الروح في مقابل فناء الجسد.

---

(١) ديوانه: ص٣٦٤.

(٢) شعر الرثاء في العصر الجاهلي: ص٢٠١.

(٣) الذخيرة: ٢/٢٨٦-٧.

وإلى مثل هذا الرأي يذهب ابن الطفيل محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسي الوادي آشي (ت ٥٨١هـ) ويرى أنَّ الروحَ نورٌ يتردد في طينٍ هو الجَسَد لمدةٍ معلومة محددة، وعند انتهاء هذه المدة التي هي حياة الفرد يتخلَّى هذا النور (الروح) عن الطين (الجسد) ليرقى إلى مقامٍ رفيعٍ ويتركه للكفن، فما تلك المدة بين دخول النور في الطين ومفارقته له سوى هدنةٍ على فسادٍ باطنٍ، وهو معنى قوله "هدنة على دَخَن":

يا باكياً فرقة الأحبابِ عن شحطٍ ... هلاّ بكيتَ فراقَ الروحِ للبدنِ
نورٌ تردَّدَ في طينٍ إلى أجلٍ ... فانمازَ علواً وظلَّ الطينُ للكفَنِ
يا شدَّ ما افترقا من بعدما علقا ... أظنُّها هدنةً كانتْ على دخَنِ[(١)]

ويشير أبو عامر بن سوار الشنتريني إلى مفارقة الروح للجسد بعد الموت، ويعلنُ أنْ لا قيمة للجسد بعد أنْ تُفارقه الروح، فهو مفضٍ إلى التفسُّخ والتعفُّن، ولذلك فلا يستحق البكاء عليه، والرثاء له، وأمّا الروح فهي باقية، وفي بقائها موجبٌ لترك البكاء عليها أيضاً:

يا لقومي دفنوني ومضوا ... وبَنَوا في الطينِ فوقي ما بَنَوا
ليت شعري إذْ رأوني ميِّتاً ... وبَكَوني أيَّ جزأيَّ بَكَوا ؟
أنعوا جسمي فقد صارَ إلى ... مركزِ التعفينِ أمْ نفسي نَعَوا؟
كيف ينعَونَ نفوساً لمْ تزلْ ... قائماتٍ في حضيضٍ وبجوّ[(٢)]

وإلى معنى تلاشي الجسد وبقاء الروح ذهب عليّ بن أبي جعفر بن همشك، وأقرَّ بأنْ لا فائدة من وجود قبرٍ لجسدٍ لن يكون له بقاء:

لعمركَ ما أردتُ بقاءَ قبرٍ ... وجسمي فيهِ ليسَ لهُ بقاءُ[(٣)]

---

(١) تراجم إسلامية ومشرقية وأندلسية: ص١٦٣.

(٢) الذخيرة: ٢/ ٢٨٧.

(٣) الروض المعطار: ص٣٤٩.

ويؤكِّدُ أبو إسحاق الألبيري هذا المعنى من حيث أنَّ الروحَ هي المحرِّك الأساس للجسد، فهي بمثابة القطب الذي تدور حوله وبه أدوات الجسد، ولذلك فهو يسمع ما يُقالُ عنه لأنَّ روحه يبقَى حياً بعد فناء جسده، وكذلك يتكلم مع محبِّيه ويُناجيهم عن طريق الإيحاء:

وإنْ كنتُ ميتاً بين أيديكمُ لَقىً ... فروحيَ حيٌّ سامعٌ لِنُعاتي
أناجيكمُ وَحْياً وإنْ كنتُ صامتاً ... ألا كلُّكمْ يوماً إليَّ سَياتي
وليسَ يقومُ الجسمُ إلاَّ بروحِهِ ... هو القطبُ والأعضاءُ كالأدواتِ(١)

وقد تجرَّأ بعضُ الشعراء في التطرق إلى فكرة دورة الحياة، وإنْ لم يتعمَّقوا فيها، فهذا أبو بكر ابن الصائغ التجيبي السرقسطي الذي قال عندما بلغه موتُهُ:

ألا يا رزءُ والأقدار تجري ... بما شاءتْ نَشا أو لا نشاءُ
هَلَ انتَ مُطارحي شَجوي فتدري ... وأدري كيف يُحتَمَلُ القضاءُ
يَقولونَ الأمورُ تكونُ دوراً ... وهذا فَقدُهُ فمتى اللقاءُ؟ (٢)

ويقول الوزير أبو بكر بن زهر:

إني نظرتُ إلى المرآة إذْ جُليتْ ... فأنكرتْ مقلتاي كلَّ ما رأتا
رأيتُ فيها شُييخاً لستُ أعرفُهُ ... وكنتُ أعهدُهُ من قبل ذاكَ فتى
فقلتُ أين الذي بالأمس كان هنا ... متى ترحَّلَ عن هذا المكانِ متى؟
فاستجهلتْني وقالتْ لي وما نطقتْ ... قد كان ذاك وهذا بعد ذاكَ أتى(٣)

---

(١) ديوانه: ص٦٣.
(٢) قلائد العقيان: ص٢٢٦، ونفح الطيب: ٧/ ١٩.
(٣) معجم الأدباء: ١٨/ ٢١٨.

ويثيرُ منظرُ الجبل ابنَ خفاجة فيراهُ باقياً شاهداً على تجدد العصور، وتعاقب الأجيال والأزمنة، مع استمرار الحياة فيجسِّدُ على لسانه فكرة بقاء الحياة من خلال دوران الأرواح بين أجساد البشر وشخوصهم التي تفنَى باستمرار:

أصختُ إليه وهو أخرسُ صامتٌ فحدَّثني ليل السرى بالعجائبِ
وقال: إلى كم كنتُ ملجأ قاتلٍ وموطن أواهٍ تبتلَ تائبِ
وكم مرَّ بي من مدلجٍ ومؤوّبٍ وقالَ بظلّي من مطيٍّ وراكبِ
ولاطم من نكب الرياحِ معاطفي وزاحم من خصر البحار غواربي
فما كان إلا أنْ طوتهم يد الردى وطارتْ بهم ريح النوى والنوائبِ
فما خفق أيكي غير رجعة أضلعٍ ولا نوح ورقي غير صرخة نادبِ
وما غيَّض السلوان دمعي، وإنما نزفتُ دموعي في فراق الصواحبِ
فحتّى متى أبقى ويظعنُ صاحبٌ أودع منه راحلاً غير آئبِ
وحتى متى أرعى الكواكب ساهراً فمن طالع أخرى الليالي وغاربِ(١)

ويتمنى أبو عامر بن ينّق الشاطبي أن تكون دورة الحياة في الشخص نفسه، إذْ تتجدد حياته برجوع روحهِ مباشرةً إلى جسدهِ نفسه بعد خروجها، وبهذا يُكتَب له الخلود، ولكن هذا الأمر لن يتعدّى كونه أمنية تعز على التحقيق، ويبقى جسدُ الإنسان غير جديرٍ بها:

ما أحسنَ العيشَ لو أنَّ الفتى أبداً كالبدرِ يرجو تماماً بعدَ نُقصانِ
إذْ لا سبيلَ إلى تخليد مأثرةٍ إذْ لا سبيلَ إلى تخليدِ جثمانِ(٢)

وهكذا رأينا أنَّ الشاعر الأندلسي لم يتعمّق كثيراً في تناول الروح والجسد أكثر مما كان يُسمح له بذلك، على وفق ما نعرفه من ضيق مجال التفلسف هناك.

---

(١) ديوانه: ص٣٦٧-٨.

(٢) نفح الطيب: ٣/٥٩٦.

٥- التعلُّق بالحياة

على الرغم من سيادة الإيمان بالموت والاعتراف بمغادرة الحياة في رثاء النفس في الشعر الأندلسي، فإنَّ كثيراً من الشعراء لم يتوانوا عن التصريح بتعلقهم بالحياة، وأسفهم الشديد لانتهائها ومغادرتهم لها، وكان هذا أمراً غير مُستغرَبٍ لدى أصحاب الجاه والسلطان والثروة، وآخرين ممن تعلَّقوا بأسباب الحياة من لـهوٍ ولذَّةٍ ومتعة واسترخاء، تجافوا عن تعاليم الدين الحنيف.

على أنَّ هؤلاء الشعراء أنتجوا شعراً على قدرٍ كبير من الأهمية من حيث توفُّره على جمال الأسلوب وقوَّة النظم وبراعة المعاني، وما ذاك إلاَّ لأنهم تشبَّثوا بالحياة بأقوى الأسباب، وأفرغوا من أجلها شديد عاطفتهم، وعميق حبهم، وحقيقة نزوعهم، وعظيم حرصهم على اقتطاف المزيد من ملذَّاتها، وفي مقابل ذلك نجد الهدوء والاستسلام وضعف العاطفة من أهم ما يطبع شعر المؤمنين الصالحين الذين آمنوا باليوم الآخر، وأيقنوا بشديد العقاب وجزيل الثواب، فضعف شعرهم لضعف تعلقهم

بالحياة وهي زائلة وهم يودِّعونها، وكأنهم يتمثلون الآية الكريمة: "وإنما تُوفَّونَ أجوركم يوم القيامة فمن زُحزِحَ عن النار وأُدخِلَ الجنةَ فقد فازَ وما الحياة الدنيا إلاَّ مُتَعٌ وغرور"، أو الآية الكريمة[1]: "فتمنَّوا الموتَ إنْ كنتم صادقين"[2]، وشتَّان بين تمنّي الحياة والتشبُّث بها، وبين طلب الموت والتعلُّق بالآخرة.

هذا أبو الحسن بن الفضل الأريولي يأسفُ على أنه سيغادر الدنيا قبل أن يبلغ ما يرجوه منها:

فَـوا أسـفي أتـدركني المنايـا	ولم أبلـغْ مـن الدنـيا مُـرادي؟
ومـا هـو غـير أنْ أُدعَـى وحسبي	حَيـا الإخـوان أو حـرب الأعـادي[3]

(١) آل عمران: الآية ١٨٥.

(٢) الجمعة: الآية ٩٤.

(٣) أدباء مالقة: ص٤٠٦.

وإلى مثل هذا المعنى أشار أبو الحجاج البلوي في قوله:

أُؤمِّـلُ آمـالاً ولـستُ بعـارفٍ ... أأبلغـها أمْ يبلـغ المـوتُ قبلـها

وللمـرءِ نفـس لا تـزال بحرصـها ... تُمنّـي وتهـوى أن تُبلِّـغَ سُـؤلها[1]

وهو لشدّة تعلُّقه بالملذات وارتكاب الخطايا من أجلها لا يجنح للتوبة والإحسان على الرغم من إحساسه بالخطأ وإعجابه بالتوبة إذا صدرتْ من سواه:

ألا يـا ويـح نفـسي مـا لهـا إذْ ... تميـلُ بهـا إلى الخـيراتِ تابـى

فمـا لـي لا أتـوبُ مـن الخطايـا ... ويعجـبني إذا ذو الـذنب تابـا![2]

وهذا أبو بكر الصائغ وقد فشل في الفرار من الموت، ولم يكن له بدّ من الاستسلام له في نهاية الأمر:

أقول لنفسي حين قابلها الـردى ... فراغـتْ فـراراً منـه يُـسرى إلى يُمـنى

قري تحمدي بعض الذي تكرهينه ... فقد طال ما اعتدتِ الفرار إلى الأهنى[3]

وأما الألبيري فإنه على الرغم من موته إلا أنه يبقى متعلّقاً بأسباب الحياة، يطلب من إخوانه وأحبته أن يدعوا له بالنجاة من عذاب الآخرة، وأن يذكروه بخير، ويعترف بأنه لم يفارق الحياة إلا مجبَراً، وإنّ زفراته ما زالت متعلقةً بالدنيا:

فيا إخوتي مهمـا شهدتم جنـازتي ... فقومـوا لربِّـي واسألـوه نجاتـي

وجدوا ابتهالاً في الدعاء وأخلصوا ... لعـلّ إلاهـي يقبـلُ الدعـواتِ

وقولـوا جمـيلاً إنْ علمـتمْ خلافَـهُ ... وأغـضوا علـى مـا كـان مـن هفـواتي

ولا تـصفوني بالـذي أنـا أهلـهُ ... فأشـقى، وحَلُّونـي بخـير صـفاتِ

---

(١) زاد المسافر: ص٨٢، وأدباء مالقة: ص٣٣٠.

(٢) أدباء مالقة: ص٤٠٢.

(٣) قلائد العقيان: ص ٧٣٧، والوافي بالوفيات: ٢/ ٢٤١، ونفح الطيب: ٧/ ٢٤.

ولا تتناسوني فقِدماً ذكرتكمْ   وواصلتُكم بالبرِّ طولَ حياتي
وبالرغمِ فارقتُ الأحبَّةَ منكمُ   ولما تفارقْني بكم زفراتي[1]

ويعجب ملك غرناطة يوسف الثالث من تمكن الموت منهُ وعدم قدرته على رده وتفاديه وقد كانَ الموتُ طوع حدِّ سيفه:

خليليَّ لم يخشَ الردى حدُّ مرهفي   فيا عجباً والموتُ في صفحاتهِ
وطيف يقيل الدهرُ للموتِ عثرةً   ونحن نقيلُ الدهرَ مِن عثراتِهِ
ولكنني لم ألقَ للموتِ دافعاً   يردُّ الذي قد خِيفَ من سطواتِهِ[2]

وعندما يحيق الموتُ بابن شهيد فإنه يتمنى الهرب منه إلى رأس جبلٍ شاهقٍ يتغذّى بقليلٍ من الحبوب ويحتسي النـزرَ من ماء صخوره حيث يظنُّ الخلاص:

ولما رأيتُ العيشَ ولّى برأسِهِ   وأيقنتُ أن الموتَ لاشكَّ لاحقي
تمنّيتُ أنّي ساكنٌ في غيابةٍ   بأعلى مهب الريحِ في رأس شاهقِ
أذرُّ سقيطَ الحَبِّ في فضل عيشةٍ   وحيداً وحسْيُ الماءِ ثنْيُ المفالقِ[3]

ويصل التشبث بالحياة والحرص عليها من قبل بعض الشعراء إلى البكاء جزعاً من الموت، ومن هؤلاء أبو عبد الله محمد بن علي بن أحلى الذي يقول:

خليليَّ قد ضاقت عليَّ مذاهبي   وكفكفتُ نفسي عن جميع مطالبي
وضاقت جفون العين من عبراتها   لأمرٍ يراهُ الخُبرُ ضربةَ لازبِ[4]

(١) ديوانه: ص٩٩.
(٢) ديوانه:٢١-٢٢.
(٣) ديوانه: ص١٠١.
(٤) الحلة السيراء:٢/ ٣١٦.

ويقول محمد بن سعد بن أحمد بن لبّ:

أبـادَ البَـينُ آجـاد التـلاقي وحالـتْ بيننـا خيـلُ الفـراقِ
فجـودوا وارحمـوا وارثـوا ورقُّـوا علـى مَـن جفنُـهُ سـكب المـآقي[1]

ويقول أبو بكر الكتندي:

لأمـرٍ مـا بكيـتُ وهـاج شـوقي وقـد سـجعتْ علـى الأيـكِ الحَمـامُ
لأنَّ بياضـها كبيـاضِ شيـبي فمعنـى سَـجعها قُـرب الـحِمامِ[2]

وقد يعظمُ حزنُ الشاعر وهو ينظرُ في أمر مفارقته الحياة، فيرى أنَّ بكاءه وحده على هذا القدَر المحتومِ لا يكفيه، ولا يقومُ بحقه، فيطلب من أحبتهِ أن يساعدوه على ذلك ليخفَّ عنه عبءَ هذا القدَر الذي لا يختصُّ به وحده، وهذا ما كان لدى البلفيقي:

ألا سـاعدوني في البكـاءِ فـأدمعي غـزارٌ ولكـنْ مـا قـضتْ حـقَّ أشـجاني
فيـا كمـدي ردَّ الـدموعَ لِبـاطني لتـسقيَ أوجالـي فتثمـر أشجانـي
أُبكّي شباباً قد مضى صفوُ مائهِ وأقبـلَ شـيبٌ أبـيضٌ مثـلُ أكفانـي
مضى كلُ أقراني وأهلي وأسـرتي وما قد لقـوا يـا حـسرتي سـوف يلقـاني
بِكيتُ لبلـوى كلُّكـمْ مُبتلَـى بهـا ففي الحقِّ أنْ تبكوا على ما قـدَ ابكـاني[3]

ويبلغُ التشبثُ بالحياة أقصى مَدَياتهِ عندما لا يكتفي الشاعر بالبكاء على نفسه، بل يُحمِّلُ الموجوداتِ وعناصرَ الطبيعة وزرَ مفارقته الحياة، ويرى لبكائها عليه بعد موته

---

(١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج: ص٤٦٠.

(٢) زاد المسافر: ص٨٢.

(٣) شعر البلفيقي: ص٧٧-٧٨.

تخفيفاً عنه وقد واجهَ قدَر الموت مجبَراً، وتعظيماً لشأنه في الحياة، وأسفاً على أنه مات، وأغلب هؤلاء الشعراء هم ممن كان لهم شأن خطير في الحياة في مجالات السياسة والشهرة والعِلم، ومنهم ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن أحمد بن رُحيم الذي يقول:

تُقارعني أيدي النوى كلَّ ساعةٍ ... وتخصمُني الدنيا بألسنةٍ لُدِّ
تُساتر حَربي ثمَّ تُظهرُ سِلمَها ... وتَنوي هلاكي وهي تُسفرُ عن وُدٍّ
لذلكَ سلَّ البرقُ صفحةَ نصلِهِ ... وصَلصلَ صوتُ الرعدِ خوفاً على فَقدِي
ألمْ يأنِ للأيامِ أنْ تقضيَ النوى ... وتبكي كما يبكي الغمامُ على بُعدي؟[1]

ومثل هذا المعنى تردَّد لدى ذي الوزارتين ابن زيدون إذْ قال:

ألم يأْنِ أنْ يبكي الغمامُ على مثلي؟ ... ويطلبُ ثأري البرقُ منصلتَ النصلِ؟
وهلاَّ أقامت أنجم الليلِ مأتماً ... لتندبَ في الآفاقِ ما ضاعَ من ثَكلي؟[2]

ولابن خفاجة في مثل ذلك:

ألا ساجلْ دموعي يا غمامُ ... وطارحني بشجوكَ يا حمامُ
فقد وفَّيتُها سِتِّين حَولاً ... ونادتْني ورائي: هل أمامُ؟[3]

وينضمُّ الرمادي إلى هذا الرعيل من الشعراء فيقول في هذا المعنى:

على كبَري تهمي السحابُ وتذرفُ ... ومن جَزعي تبكي الحمامُ وتهتفُ
كأَنَّ السحابَ الوارفاتِ غواسلي ... وتلكَ على فَقدي نوائحُ هُتَّفُ[4]

---

(١) قلائد العقيان: ص٣٠٤.

(٢) ديوانه: ص٢٦٢-٣.

(٣) ديوانه: ص ٢٣٨.

(٤) مطمح الأنفس: ص٣٢٠، ونفح الطيب: ٤/ ٣٩.

وأما الملك المعتمد بن عباد فإنّ أقرب من يبكي عليه بعد موته هو أدوات مُلكهِ وآياتُ سُلطانه، ومنها سرير المُلك وتاجُهُ وقصوره "الزاهي" والزاهر" و"الثريا" والوحيد"، وقد أشار إلى ذلك في عددٍ من قصائده، فمنها قوله:

غريبٌ بأرض المغربين أسيرُ ... سيبكي عليه منبرٌ وسريرُ
وتندبُه البيضُ الصوارمُ والقنا ... وينهلُ دمعٌ بينهنَّ كثيرُ
سيبكيهِ في زاهيهِ والزاهر الندى ... وطلاّبُهُ، والعرفُ ثمَّ نكيرُ(١)

ومنها قوله كذلك:

بكى المُبارَكُ في إثرِ ابن عبَّادِ ... بكَى على إثرِ غزلانٍ وآسادِ
بكتْ ثُريَّاهُ لا غُمَّتْ كواكبُها ... بِمثلِ نوءِ الثريَّا الرائحِ الغادي
بكى الوحيدُ، بكَى الزاهي وقبَّتُهُ ... والنهرُ، والتاجُ، كلٌّ ذُلُّهُ بادي(٢)

ومن الشعراء الأندلسيين مَن كان يطمع بحياةٍ أطول، ويمنِّي نفسه بأملٍ واسعٍ في الحياة ويأسف لانقطاعها، ومنهم محمد بن عبد الله الأنصاري البلنسي بقوله:

النفسُ تطمعُ والأقدارُ واسعةٌ ... وبين هذينِ عمرُ المرءِ ينقطعُ
وكلَّما زدتُ سنًّا زادني أملي ... فالعمرُ ينقصُ والأيامُ تتَّسعُ(٣)

بل هناك مَن تمنَّى ألاَّ ينقضيَ العمر، فلا يبلغ العمرُ المدى حتى يرجعَ ليبدأ من جديد، وهو نزوع إلى الخلود الذي لا سبيل إليه لمخلوق، وهذا هو المعنى الذي أراده أبو عامر بن ينّق الشاطبي في قوله:

---

(١) ديوانه: ص٩٨.

(٢) ديوانه: ص٩٥.

(٣) أدباء مالقة: ص١٠٢.

ما كان أحسنَ لو أنَّ الفتى أبداً ... كالبدرِ يرجو تماماً بعدَ نُقصانِ[1]

ومن وجوه تعلُّق الشعراء بالحياة رغبتُهم في بقاء ذكرهم مخلَّداً بين الناس، بعد الموت، وهو نوع من أنواع الاعتزاز بالذات والفخر بها، ومن هؤلاء الشعراء ابن الحداد الوادي آشي الذي يقول:

إلى الموتِ رُجعي بعد حينٍ فإنْ أمُتْ ... فقد خُلِّدتْ خُلْدَ الزمانِ مناقبي

وذكريَ في الآفاقِ طارَ كأنَّهُ ... بكلِّ لسانٍ طِيبُ عذراءَ كاعِبِ

ففي أي عِلمٍ لم تبَرِّزْ سوابقي ... وفي أيِّ فنٍّ لم تُبَرِّزْ كتائبي[2]

ومنهم أبو الفضل بن شرف الذي يرى في تخليد مآثره بعد موته تعويضاً له عما فاته في حياته من كثيرٍ مما كان يطمع فيه، ومن ذلك منزلةٌ ساميةٌ تليقُ به بين الناس:

لعمركَ ما حصلتُ على خطيرٍ ... من الدنيا ولا أدركتُ شَيَّا

وها أنا خارجٌ منها سليباً ... أُقلِّبُ نادماً كلتا يَديَّا

وأبكي ثمَّ أعلمُ أنَّ مَبكا ... يَ لا يُجدي فأَمسحُ مُقلتيَّا

ولم أجزعْ لهولِ الموتِ لكنْ ... بكيتُ لِقلَّة الباكي عليَّا

وأنَّ الدهر لم يعلمْ مكاني ... ولا عرفتْ بنوهُ ما لَديَّا

زمانٌ سوف أُنشرُ في نَشراً ... إذا أنا بالحِمامِ طُويتُ طَيَّا

أُسَرُّ بأنَّني سأعيشُ مَيْتاً ... بهِ ويسوؤني أنْ مُتُّ حَيَّا[3]

ومثل هذا الاتجاه إلى الحياة والتشبث بها والتعلق بأسبابها يندرُ أنْ يُسهم فيه الشعراء من الفقهاء ورجال الدين والمؤمنين الصالحين الذين يرون فيه اعتراضاً على مشيئة الله، بل هم يتشوَّقون إلى لقائه، باستثناء ما كان طلباً للذكر والدعاء بعد الموتِ طلباً

---

(١) نفح الطيب: ٣/ ٥٩٦.

(٢) نفح الطيب: ٤/ ٤٩.

(٣) نفح الطيب: ٣/ ٢٢٩.

للمغفرة، فضلاً عن أنه يتذبذبُ بين الضعف والقوة تبعاً لضعف العامل السياسي أو قوته، فكلما قويَ العامل السياسي ضعفَ الاتجاه إلى الدين، وقويَ التشبُّثُ بالحياة، وكلما ضعفَ العاملُ السياسي قويَ الاتجاهُ إلى الدين، والتشبُّثُ بالآخرة، ولقد كان الأمر على هذه الوتيرة من التذبذب في العصور السياسية كافةً في الأندلس.

الخاتمة

حاولتْ هذه الدراسة أنْ تُثبت أنَّ رثاء النفس في الشعر يمكن أن يكون غرضاً قائماً بذاته شأنه شأنَ الأغراض الأخرى المستقلة، وقد أرَّختْ لهذا الغرض فرأيناه يُرافقُ الأغراض الأخرى منذ وقتٍ مبكّرٍ جداً في الأندلس واستمرَّ حتى آخر يوم من أيام الوجود العربي فيها، بل إلى ما بعد ذلك بقليل.

ولقد كان رثاء النفس في الشعر الأندلسي سِجِلًّا لأحداثٍ تاريخية كثيرة لارتباطه برثاء أصحاب السلطان لأنفسهم ولاسيما عندما يتعرضون لعقوبة الموت أو زوال سلطانهم، كما كان سِجِلًّا لطبيعة العلاقات الاجتماعية بين الآباء والأبناء، والأزواج، والإخوة، والأصدقاء، والأساتذة والطلاَّب من خلال رثاء الآخَر، وسِجِلًّا لتاريخ حياة الشاعر نفسه من حيث الدلالة على ما بلغه من العمر، أو تاريخ ولادته ووفاته، غير أنَّ إسهام المرأة فيه كان نادراً.

وفضلاً عن ذلك استوعب هذا النمط من الرثاء التعبير عن حياة الأندلسيين في جانبيها الروحي والمادي، وفلسفتهم في الحياة والموت موقفهم منهما، كما دلَّ على إسهام عدد كبير جداً من الشعراء، ومنهم الكبار والمشهورون، فيه، فضلاً عن إسهام عِلية القوم من الرؤساء والملوك والأمراء والوزراء والقوّاد ورجال الدولة على اختلاف منازلهم، وكذلك رجال الدين والفقهاء والزهّاد والمتصوفة، فأدّى ذلك إلى كثرة بواعث النظم في هذا الغرض وتنوُّعِها، وإسهام الشاعر في أكثر من باعث واحد، ومن الشعراء مَن رثى نفسه عدة مراتٍ، كما نتجَ عن ذلك كله كَمٌّ هائل من النصوص الشعرية التي كان الكثير منها ذا قيمةٍ فنيةٍ عالية تبعاً لظروف الشاعر وهو يرثي نفسه، وطبقته الشعرية، ومقدار تعلقه بالحياة، وعمره، ومكانته في المجتمع.

ومن طريف ما أفاد به رثاء النفس في الشعر الأندلسي هو التقاليد والعادات والمعتقدات الخاصة بالموت لدى المسلمين في الأندلس كالاحتضار والوصية والتشييع والدفن والدعاء والقبر وما بعد الدفن من ضيق القبر وظلمته والاستيحاش فيه وسماع

كلام الآخرين، وما بعد الموت في الحياة من دعاء للميت وذكرٍ طيبٍ حسنٍ وآثار باقية، وما بعده في الآخرة من عاقبة وحساب وثواب، وكثيراً ما يشيرون بشكل مباشر أو غير مباشرٍ إلى معاني آي الذكر الحكيم.

ومن ناحية أخرى دلَّ هذا النمط الشعري على طبيعة الأندلسيين الميَّالة إلى التحرر والتجريب والتجديد، وعدم التقيُّد ببعض ما شاع من القواعد الموضوعة في عصورٍ سابقة، فتركوا نفوسهم على سجيتها وهم يرثون أنفسهم، فنـزعوا إلى النظم على البحور المختلفة حتَّى القصيرة والخفيفة منها فجاءت قصائدهم متنوعة الإيقاع، متلونة الموسيقى، كما جرَّبوا كل أنواع القوافي حتى قليلة الاستخدام في الشعر العربي منها.

وقد خلط بعض الشعراء رثاء النفس بموضوعات أخرى مثل رثاء الآخَر والمديح ووصف الطبيعة وشكوى الزمان ووصف الشيب، كما عبَّروا عن ثقافاتهم الشخصية المتعلقة بالموت والحياة من خلال التاريخ والأخبار والقصص والتجارب الإنسانية والحكم والأمثال، وهم يرثون أنفسهم، فكان ذلك واحداً من أسباب طول القصائد التي زادَ بعضها عن سبعين بيتاً.

كما استطاعت قصيدة رثاء النفس أنْ تؤسِّس نموذجاً يُحتَذى، فنشأت عن ذلك ظاهرة كبيرة هي المعارضات التي أدَّتْ إلى التوسُّع في النظم، من خلال احتذاء شعراء تالين لشعراء سابقين للنظم في مثل قصائدهم منْ حيث الوزن والقافية والموضوع، نظراً إلى وجود المثال الذي يمكن مجاراتُهُ وتقليده، وهي بذلك تؤكِّد استقلالية هذا الغرض وقدرته على الوقوف بين الأغراض الأخرى منفرداً.

ولقد كانت قصيدة رثاء النفس الأندلسية وعاءً شافًّا للتعبير عن أعمق المشاعر الإنسانية تجاه أكثر الموضوعات أهميةً وخطورة في حياة الفرد والمجتمع، ذلك هو موضوع الحياة والموت، كما كانت جديرةً بإظهار المشاعر المتضاربة لدى الأفراد وهو يرثون أنفسهم من حيث اليأس والرجاء، والرفض القبول، والحزن والفرح، والخوف والاطمئنان، والرضا والغضب، والفرار والاستسلام، فضلاً عن قوة هاجس الشعر لدى الشعراء الأندلسيين ونظمهم له حتى في أشدِّ ساعات الحياة صعوبة وحرجاً وهي ساعات الاحتضار.



المصادر والمراجع

• القرآن الكريم

١- ابن حريق البلنسي حياته وآثاره: أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد (ت ٦٢٢هـ) – دراسة وتح د. محمد بن شريفة – مط النجاح الجديدة بالدار البيضاء – ط١ ١٩٩٦م.

٢- ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية: د. محمد بن شريفة – مط النجاح الجديدة بالدار البيضاء – ط١ ١٩٩٩م.

٣- ابن شهيد الأندلسي حياته وأدبه: د. حازم عبد الله خضر- منشورات وزارة الثقافة والإعلام بالجمهورية العراقية- دار الحرية للطباعة ببغداد- ١٩٨٤م.

٤- ابن مغاور الشاطبي حياته وآثاره: د. محمد بن شريفة – مط النجاح الجديدة – ١٩٩٤م.

٥- البداية والنهاية: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ)- دار ابن كثير ببيروت- ١٩٦٧م.

٦- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري: د. محمد مصطفى هدارة- ط١ دار المعارف بمصر بمصر- ١٩٦٣م.

٧- اتجاهات الشعر في العصر الأموي: د. صلاح الدين الهادي- مكتبة الخانجي بالقاهرة- ط١ ١٩٨٦م.

٨- الإحاطة في أخبار غرناطة: لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن سعيد السلماني ابن الخطيب (ت٧٧٦هـ) – تحقيق محمد عبد الله عنان – مكتبة الخانجي ط٢- ١٩٧٣م.

٩- أخبار وتراجم أندلسية: تح د. إحسان عباس – دار الثقافة ببيروت – ط١ ١٩٦٣م.

١٠- اختصار القدح المعلّى في التاريخ المحلّى: أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي (ت٦٨٥هـ) - تحقيق إبراهيم الإبياري - دار الكتاب اللبناني - بيروت ط٢ - ١٩٨٠م.

١١- أدباء مالقة: أبو بكر محمد بن محمد بن علي بن خميس المالقي (ت بعد ٦٣٩هـ) - تح د. صلاح جرار - دار البشير بعمّان ومؤسسة الرسالة ببيروت - ط١ ١٩٩٩م.

١٢- أديب الأندلس أبو بحر التجيبي عمر قصير وعطاء غزير: د. محمد بن شريفة - مط النجاح الجديدة بالدار البيضاء - ط١ ١٩٩٦م.

١٣- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت ١٠٤١هـ)- تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري- مط لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة - ١٩٣٩-١٩٤٢م.

١٤- إعتاب الكتّاب: ابن الأبّار أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القُضاعي (ت ٦٥٨هـ) - تح د. صالح الأشتر - مط مجمع اللغة العربية بدمشق - ط١ ١٩٦١م.

١٥- الأعلام: خير الدين الزركلي - دار العلم للملايين ببيروت - ط١١ ١٩٩٥م.

١٦- الأعمى التطيلي حياته وأدبه: عبد الحميد عبد الله الهرامة - المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان بطرابلس ليبيا- ط١ ١٩٨٣م.

١٧- الإفادات والإنشادات: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي الأندلسي (ت ٧٩٨هـ)- تح د. محمد أبو الأجفان- مؤسسة الرسالة ببيروت-ط٢ ١٩٨٦م.

١٨- الأمراء الأمويون الشعراء في الأندلس: د. إبراهيم بيضون- دار النهضة العربية ببيروت- تاريخ المقدمة ١٩٨٦م.

١٩- برنامج الوادي آشي: أبو عبد الله محمد بن جابر بن سعيد القيسي (ت ٧٤٩هـ)- تحقيق محمد محفوظ- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ١٩٨١م.

٢٠- البسطي آخر شعراء الأندلس: د. محمد بن شريفة – دار الغرب الإسلامي ببيروت – ط١ ١٩٨٥م.

٢١- بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس: أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي (ت ٥٩٩هـ) –دار الكاتب العربي- القاهرة ١٩٦٧م.

٢٢- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ)- تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم- مط عيسى البابي الحلبي وشركاه- ط١- القاهرة ١٩٦٥م.

٢٣- البلغة في تاريخ أئمة اللغة: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ)- تح محمد المعري- منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق- ١٩٧٢م.

٢٤- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: محمد (أو أحمد) بن محمد بن عذاري المراكشي (ت نحو ٦٩٥هـ)- تح ج.س. كولان، وأ. ليفي بروفنسال- مط دار الثقافة ببيروت – بدون تاريخ.

٢٥- تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة: د. إحسان عباس – دار الثقافة ببيروت – ط٧ ١٩٨٥م.

٢٦- تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين: د. إحسان عباس – دار الثقافة ببيروت – ط٧ بدون تاريخ.

٢٧- تاريخ الأدب العربي: د. عمر فروخ- دار العلم للملايين- بيروت- ج ٤ ط٣ ١٩٩٢، ج٥ ط٢ ١٩٨٥م، ج٢ ط٦ ١٩٩٢م.

٢٨- التاريخ السياسي والاجتماعي لأشبيلية في عهد دول الطوائف – امحمد بن عبود – مط الشويخ بتطوان – الوغرب ١٩٨٣م.

٢٩- تاريخ العرب في الأندلس عصر الإمارة: د. خالد الصوفي – منشورات جامعة قاريونس – ليبيا- ط٢ ١٩٨٠م.

٣٠- تحفة القادم: أبو عبد الله محمد بن الأبار القضاعي البلنسي (ت ٦٥٨هـ): تح د. إحسان عباس - دار الغرب الإسلامي ببيروت - ط١ ١٩٨٦م.

٣١- تراجم إسلامية شرقية وأندلسية: محمد عبد الله عنان- مكتبة الخانجي-ط٢-١٩٧٠م.

٣٢- تراجم مغربية من مصادر مشرقية: د. محمد بن شريفة - مط النجاح الجديدة بالدار البيضاء - ط١ ١٩٩٦م.

٣٣- ترجمان الأشواق: محيي الدين بن عربي أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد بن عبد الله الحاتمي الطائي (ت٦٣٨هـ) - دار صادر ببيروت - ١٩٦٦م.

٣٤- التكملة لكتاب الصلة: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن الأبار القضاعي البلنسي (ت ٦٥٨هـ)- تح د. عبد السلام الهراس - دار الفكر ببيروت- ١٩٩٥م.

٣٥- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس: أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح الأزدي الحميدي (ت٤٨٨هـ)- الدار المصرية للتأليف والترجمة- مط سجل العرب ١٩٦٦م.

٣٦- جنة الرضا في التسليم لما قدَّر الله وقضى: أبو يحيى محمد بن عاصم الغرناطي (٨٧٥ هـ) - تح د. صلاح جرار - دار البشير للنشر والتوزيع بعمّان - ١٩٨٩م.

٣٧- الحلة السيراء: ابن الأبار البلنسي- تح د. حسين مؤنس- دار المعارف- ط٢-١٩٨٥م.

٣٨- الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب: أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن فرحون المالكي (ت٧٩٩هـ)- تح محمد الأحمدي أبو النور- دار التراث للطبع والنشر بالقاهرة- ١٩٧٢م.

٣٩- ديوان ابن حمديس: عبد الجبار بن أبي بكر محمد الأزدي الصقلي (ت ٥٢٩هـ) - تصحيح وتقديم د. إحسان عباس - دار صادر ودار بيروت - ١٩٦٠م.

٤٠- ديوان ابن خفاجة: أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح عبد الله بن الهواري الشُّقري (ت ٥٣٣هـ) – تح د. سيد غازي – منشأة المعارف بالأسكندرية – ط٢ ١٩٧٩م.

٤١- ديوان ابن دراج الأندلسي: أبو عمر أحمد بن محمد بن العاصي بن أحمد بن سليمان بن دراج (ت ٤٢١هـ)- تح. د. محمود علي مكي- المكتب الإسلامي بدمشق- ط١-١٩٦١م.

٤٢- ديوان ابن سهل الأندلسي: إبراهيم بن سهل الأشبيلي الأندلسي (ت٦٤٩هـ)- تقديم الدكتور إحسان عباس- دار بيروت للطباعة والنشر-دار صادر-١٩٨٠م.

٤٣- ديوان ابن شهيد الأندلسي: أحمد بن أبي مروان بن عبد الملك (ت ٤٢٦هـ) – تح د. محي الدين ديب- المكتبة العصرية- صيدا-بيروت- ط١ ١٩٩٧م.

٤٤- ديوان ابن الزقاق البلنسي: أبو الحسن علي بن عطية الله بن مطرف بن سلمة اللخمي (ت٥٢٩هـ)- تح عفيفة محمود ديراني- دار الثقافة ببيروت-١٩٨٩م.

٤٥- ديوان ابن زيدون ورسائله: أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب المخزومي (ت٤٦٣هـ) – تح علي عبد العظيم – نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة- ١٩٧٧م.

٤٦- ديوان ابن سهل الأندلسي: أبو إسحاق إبراهيم بن سهل الأشبيلي (ت ٦٤٩هـ) – تقديم د. إحسان عباس – دار بيروت للطباعة والنشر – دار صادر – ١٩٨٠م.

٤٧- ديوان ابن شهيد الأندلسي ورسائله: أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن عيسى (ت ٤٢٦هـ) – جمع وتحقيق د. محي الدين ديب – المكتبة العصرية بيروت – ط١ ١٩٩٧م.

٤٨- ديوان ابن الصباغ الجذامي: أبو علي محمد بن أحمد (ت ٧٥٨هـ)- تح د.محمد زكريا عناني ود. أنور السنوسي-دار الأمين للنشر والتوزيع -القاهرة – ط١ ١٩٩٩م.

٤٩- ديوان ابن عبد ربه: أبو عمر أحمد بن عبد ربه الأندلسي (ت٣٢٨هـ)- تح محمد رضوان الداية- مؤسسة الرسالة ببيروت-ط١-١٩٧٩م.

٥٠- ديوان ابن عربي:- محيي الدين بن عربي - شرح وتقديم نواف الجراح- دار صادر ببيروت - ط١ ١٩٩٩م.

٥١- ديوان ابن فركون: أبو الحسين بن أحمد بن سليمان بن أحمد (ت ق٩ هـ) - تقديم وتعليق د. محمد بن شريفة - مط النجاح الجديدة بالدار البيضاء - ط١ ١٩٨٧م.

٥٢- ديوان ابن هانئ الأندلسي: أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدي (٣٦٢هـ)- تح محمد اليعلاوي- دار الغرب الإسلامي- ط١-١٩٩٥م.

٥٣- ديوان أبي إسحاق الألبيري: إبراهيم بن مسعود بن سعد التجيبي (ت نحو ٤٦٠ هـ) - تح د. محمد رضوان الداية - دار الفكر المعاصر ببيروت ودار الفكر بدمشق - ط١ ١٩٩١م.

٥٤- ديوان الأعمى التطيلي: أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن أبي هبيرة (ت٥٢٥هـ)- تح د. إحسان عباس- دار الثقافة ببيروت- ١٩٦٣م.

٥٥- ديوان حازم القرطاجني: حازم بن محمد بن حسن بن محمد بن خلف بن حازم الأنصاري (ت ٦٨٤هـ) - دار الثقافة ببيروت - ١٩٨٩م.

٥٦- ديوان الحكيم: أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الداني (ت ٥٢٩هـ) - جمع وتح محمد المرزوقي - دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع - تونس ١٩٧٩م.

٥٧- ديوان الرصافي البلنسي: أبو عبد الله محمد بن غالب (ت ٥٧٢هـ) - جمع وتقديم د. إحسان عباس - دار الشروق ببيروت - ١٩٨٣م.

٥٨- ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي: بن محمد بن عبد الكريم - تح د. جمعة شيخة ود. محمد الهادي الطرابلسي - المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات - "بيت الحكمة" - قرطاج تونس -١٩٨٨م.

٥٩- ديوان لسان الدين بن الخطيب السلماني: تح د. محمد مفتاح- دار الثقافة للنشر والتوزيع- الدار البيضاء- ط١ ١٩٨٩م.

٦٠- ديوان محمد بن هانئ الأندلسي: أبو القاسم محمد بن هانئ بن محمد بن محمد بن سعدون (ت ٣٦٢هـ) – تح محمد اليعلاوي – دار الغرب الإسلامي ببيروت – ط١ ١٩٩٥م.

٦١- ديوان المعتمد بن عباد ملك أشبيلية: أبو القاسم محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد (ت ٤٨٨هـ) – تح د. حامد عبد المجيد ود. أحمد أحمد بدوي – مط دار الكتب المصرية بالقاهرة – ط٢ ١٩٩٧م.

٦٢- ديوان ملك غرناطة: يوسف بن يوسف الثالث (ت٨١٩هـ تخميناً)- تح عبد الله كنون- مكتبة الأنجلو المصرية –القاهرة ط٢ ١٩٦٥م.

٦٣- ديوان الهذليين: الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة- ١٩٦٥م.

٦٤- ديوان يحيى بن حكم الغزال: يحيى بن حكم البكري الجياني الأندلسي الملقب بالغزال (ت ٢٥٠ هـ) – تح د. محمد رضوان الداية – دار قتيبة بدمشق – ط١ ١٩٨٢م.

٦٥- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت٥٤٢هـ)- تح سالم مصطفى البدري- دار الكتب العلمية ببيروت- ط١ ١٩٩٨م.

٦٦- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة: أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي (ت٧٠٣هـ)- تح د. إحسان عباس- دار الثقافة ببيروت- السفر الخامس ١٩٦٥، السفر السادس ١٩٧٣م.

٦٧- رحلة التجاني: أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد (ت ق ٨ هـ) – تح حسن حسني عبد الوهاب – الدار العربية- تونس- ليبيا- ١٩٨١م.

٦٨- الروض المعطار في خبر الأقطار: محمد بن عبد المنعم الحميري (ت٩٠٠هـ)- تح د. إحسان عباس-مؤسسة ناصر للثقافة-ط٢ ١٩٨٠م.

٦٩- زاد المسافر وغرة محيا الدب السافر: أبو بحر صفوان بن إدريس المرسي (ت ٥٩٨هـ)- تح عبد القادر محداد- دار الرائد العربي ببيروت- ١٩٨٠م.
٧٠- سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون: ابن نباتة المصري أبو بكر جمال الدين محمد بن شمس الدين محمد بن شرف الدين (ت ٧٦٨هـ) - تح محمد أبو الفضل إبراهيم - منشورات المكتبة العصرية ببيروت- ١٩٨٦م.
٧١- شعر ابن مرج الكحل، جمع وتوثيق وتقديم مصطفى الغديري - مستل من مجلة كلية الآداب بوجدة - العدد ٥ السنة ١٩٩٥م.
٧٢- شعر أبي البركات بن الحاج البلفيقي: محمد بن محمد بن إبراهيم (ت ٧٧١هـ) - بعناية عبد الحميد عبد الله الهرامة - مط مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي - ط١ ١٩٩٦م.
٧٣- شعر الرثاء في العصر الجاهلي: د. مصطفى عبد الشافي الشوري - الدار الجامعية ببيروت - ١٩٨٣م.
٧٤- شعر المكفوفين في العصر العباسي- د. عدنان عبيد العلي- دار أسامة للنشر والتوزيع بعمّان الأردن- ١٩٩٩م.
٧٥- الشعر النسوي في الأندلس: محمد المنتصر الريسوني - منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت - ١٩٧٨م.
٧٦- كتاب الصلة: أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال (ت ٥٧٨هـ)- الدار المصرية للتأليف والترجمة- القاهرة ١٩٦٦م.
٧٧- صلة الصلة: أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير (ت٧٠٨هـ)- تح أ. ليفي بروفنسال-مط الاقتصادية بالرباط ١٩٣٨م.
٧٨- طبقات الأمم: أبو القاسم صاعد بن أحند بن عبد الرحمن التغلبي (ت ٤٦٢ هـ) - تح حياة بوعلوان - دار الطليعة ببيروت - ط١ ١٩٨٥م.
٧٩- طبقات الشعراء: محمد بن سلام الجمحي (ت ٢٣١هـ) - دار الكتب العلمية ببيروت - ط١ ١٩٨٢م.

٨٠- طوق الحمامة في الألفة والإلّاف: ابن حزم الأندلسي أبو محمد علي بن أحمد (ت ٤٥٦هـ) - ضبط وتفسير سعيد محمود عقيل -دار الجيل ببيروت - ط١ ١٩٩٧م.

٨١- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت٤٥٦هـ) تح محمد محيي الدين عبد الحميد- دار الجيل ببيروت- ط٤ ١٩٧٢م.

٨٢- عيون الأنباء في طبقات الأطباء: موفق الدين أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ) - تح د. نزار رضا - مكتبة الحياة ببيروت - ١٩٦٥م.

٨٣- الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة: ابن سعيد الأندلسي- تح إبراهيم الإبياري- دار المعارف بمصر- ١٩٤٥م.

٨٤- الغُـنية "فهرست شيوخ القاضي عياض": أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي (ت ٥٤٤هـ) - تح د. محمد بن عبد الكريم - الدار العربية للكتاب - ليبيا- تونس- ١٩٧٨م.

٨٥- الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي: د. جمعة شيخة - المطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار بتونس - ط١- ج١ وج ٢ ١٩٨٤- ج٣ ١٩٩٧م.

٨٦- فوات الوفيات والذيل عليها: محمد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ)- تح د. إحسان عباس- دار صادر ببيروت- تاريخ المقدمة ١٩٧٣م.

٨٧- في الأدب الأندلسي: د. جودت الركابي- دار المعارف بالقاهرة- ١٩٨٠م.

٨٨- قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس: د. السيد عبد العزيز السالم- دار النهضة ببيروت- ١٩٧٢م.

٨٩- قلائد العقيان: ابن خاقان: أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الأشبيلي (ت ٥٢٩هـ)- تح محمد الطاهر ابن عاشور- الدار التونسية للنشر- ١٩٩٠م.

٩٠- كتاب الكافي في العروض والقوافي: ابن الخطيب التبريزي (ت ٥٠٢هـ)- تح الحساني حسن عبد الله- نشر خانجي وحمدان ببيروت- بدون تاريخ.

٩١- الكامل في التاريخ: علي بن محمد بن عبد الكريم بن الأثير (ت ٦٣٠هـ)- ط دار صادر ببيروت- ١٩٦٦م.

٩٢- الكتيبة الكامنة في مَن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة: لسان الدين بن الخطيب السلماني: تح د. إحسان عباس - دار الثقافة ببيروت - ١٩٨٣م.

٩٣- المختار من شعر بشار اختيار الخالديين: شرح أبي الطاهر إسماعيل بن أحمد بن زيادة التجيبي البرقي - مط الاعتماد بمصر- بدون تاريخ.

٩٤- مرج الكحل سيرته وشعره: د. صلاح جرار -- دار البشير للنشر والتوزيع بعمّان- ط١ ١٩٩٣م.

٩٥- المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا: أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد الجذامي المالقي النباهي (ت بعد ٧٩٣هـ)- تح أ. ليفي بروفنسال - دار الكاتب المصري- القاهرة ١٩٤٨م.

٩٦- مستفاد الرحلة والاغتراب: القاسم بن يوسف بن محمد التجيبي السبتي (ت ٧٣٠هـ)- تح عبد الحفيظ منصور - الدار العربية للكتاب- ليبيا تونس- (مقدمة المحقق ١٩٧٥م).

٩٧- مستودع العلامة ومستبدع العلاّمة: أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر (ت ٨١٠هـ)- تح محمد التركي التونسي- مط المهدية بتطوان- ١٩٦٤م.

٩٨- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس: أحمد مختار العبادي - مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية - ١٩٨٣م.

٩٩- مصارع العشّاق: أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج القارئ (ت ٥٠٠هـ) - دار صادر ببيروت - بدون تاريخ.

١٠٠-المطرب من أشعار أهل المغرب: ذو النسبين أبو الخطاب عمر بن حسن ابن دحية (ت ٦٣٣هـ) -- تح إبراهيم الإبياري ود. حامد عبد المجيد - مط دار الكتب المصرية بالقاهرة -- ١٩٩٧م.

١٠١-مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس: ابن خاقان- تح محمد علي شوابكة – دار عمار – مؤسسة الرسالة – ط١ ١٩٨٣م.
١٠٢-المعجب في تلخيص أخبار المغرب: عبد الواحد بن علي المراكشي (ت ٦٤٧هـ) – مط الاستقامة بالقاهرة – ط١ ١٩٤٩م.
١٠٣-معجم الأدباء: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي (ت ٦٢٦هـ) – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- ط٣ ١٩٨٠م.
١٠٤-معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة – مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي ببيروت – بدون تاريخ.
١٠٥-المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: وضعه محمد فؤاد عبد الباقي- دار الجيل ببيروت- بدون تاريخ.
١٠٦-المعيار في أوزان الأشعار: أبو بكر محمد بن عبد الملك بن السراج الشنتريني الأندلسي (ت ٥٥٠هـ) – تح د. محمد رضوان الداية – دار الأنوار ببيروت – ط١ ١٩٦٨م.
١٠٧-المغرب في حلى المغرب: ابن سعيد الأندلسي – تح د. شوقي ضيف – دار الكتب بالقاهرة – ط٤ ج١ ١٩٩٣، ج٢ ١٩٩٥م.
١٠٨-المقتبس في تاريخ الأندلس: أبو مروان حيان بن خلف بن حسين (ت ٤٦٩ هـ) – تح د. إسماعيل العربي- منشورات دار الآفاق الجديدة بالمغرب- ط١ ١٩٩٠م.
١٠٩-المقتضب من تحفة القادم: ابن الأبار – اختيار وتقييد أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم البلفيقي (ت؟) – تح إبراهيم الإبياري – دار الكتاب اللبناني ببيروت – ط٢ ١٩٨٣م.
١١٠-ملامح الشعر الأندلسي: د. عمر الدقاق- دار الشرق العربي ببيروت- بدون تاريخ.

١١١-منهاج البلغاء وسراج الأدباء: أبو الحسن حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) - تح محمد الحبيب بن الخوجة - مط الرسمية - تونس ١٩٦٦م.

١١٢-نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان: أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر- تح د. محمد رضوان الداية- دار الثقافة ببيروت- ١٩٧٦م.

١١٣-نفاضة الجراب في علالة الاغتراب: لسان الدين بن الخطيب - تح د. أحمد مختار العبادي - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة - بدون تاريخ.

١١٤-نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: المقري التلمساني - تح د. إحسان عباس - دار صادر ببيروت - طبعة جديدة ١٩٩٧م.

١١٥-نقد الشعر: أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) - مكتبة الخانجي بالقاهرة - ط٣ ١٩٧٨م.

١١٦-نيل الابتهاج بتطريز الديباج: أحمد بابا التنبكتي (ت ١٠٣٠هـ) - إشراف وتقديم عبد الحميد الهرامة - منشورات كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس ليبيا- ١٩٨٩م.

١١٧-الوافي بالوفيات: صلاح الدين أبو الصفاء خليل بن أيبك بن عبد الله (ت ٧٦٤هـ) - تح مختلفين - مطابع مختلفة وتواريخ مختلفة.

١١٨-وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (ت ٦٨١هـ) - تحقيق د. إحسان عباس - دار صادر ببيروت - بدون تاريخ.





المحتويات

للمؤلف

١- النوريات في الشعر الأندلسي- بيروت ١٩٨٦م.

٢- نظرية نشأة الموشحات الأندلسية بين العرب والمستشرقين- بغداد ١٩٨٦م.

٣- الموشحات في بلاد الشام- بيروت ١٩٨٧م.

٤- عروض الموشحات الأندلسية- بغداد ١٩٩٠م.

٥- أبحاث في الشعر الأندلسي- مصراتة -ليبيا ١٩٩٤م.

٦- ملامح من تاريخ الخليج والجزيرة العربية- الأسكندرية- مصر ١٩٩٨م.

٧- مصادر التراث الأندلسي من كتاب كشف الظنون- أبو ظبي ١٩٩٩م.

٨- اتجاهات نقد الشعر في الأندلس في عصر بني الأحمر- أبو ظبي ٢٠٠٠م.

٩- رثاء النفس في الشعر الأندلسي (هذا)-

١٠- نقد الشعر في الأندلس قضايا ومواقف- تحت الطبع.

١١- معجم الجملة الأسبانية المفيدة- لم يطبع.

١٢- الحب مرتين (شعر)- بغداد ١٩٧٥م.

١٣- لا شيء سوى الحب (شعر)- بغداد ١٩٨٠م.

١٤- عفواً أيها الساتر (شعر)- بغداد ١٩٨٨م.

١٥- ليلة شهرزاد الأخيرة (شعر) - القاهرة ٢٠٠٣م.

١٦- بكاء النخيل (شعر) تحت الطبع.

١٧- مجمرة النبض (شعر)- لم يطبع.

١٨- قالوا هو الحب (شعر)- لم يطبع.

المؤلف في سطور

- شاعر و ناقد وباحث.
- ولد ببغداد في العام ١٩٥٣، وبها أكمل دراسته الابتدائية والمتوسطة والثانوية والجامعية.
- نال شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها من جامعة بغداد في العام ١٩٨٢، ثم نال شهادة دكتوراه فلسفة في اللغة العربية وآدابها من جامعة بغداد في العام ١٩٨٩.
- عمل في الصحافة محرراً ثقافياً ١٩٧٧-١٩٧٩، وكاتباً مشاركاً فيما بعد.
- زاول التدريس الجامعي، ورئاسة قسم اللغة في كلية الآداب جامعة البصرة، وألقى محاضراته على طلبة الدراسات الأولية والعليا في الأدب العربي، ولاسيما الأندلسي تخصصه الأول، والنقد الأدبي وعلم العروض، في جامعتي بغداد والبصرة في العراق ١٩٨٢-١٩٩٢، وجامعة التحدي في ليبيا ١٩٩٢-١٩٩٦، واللغة لغير الناطقين بها في جامعة غوتنبرغ والجامعة الشعبية في السويد.
- أسهم في المؤتمرات العلمية العربية والعالمية والندوات والمهرجانات في مجال الأدب العربي، وتحقيق التراث، والنقد الأدبي، والدراسات المورسكية، والبحث العلمي في العراق ومصر وليبيا وتونس والمغرب والسويد.
- صدر له في مجال الدراسات: النوريات في الشعر الأندلسي- بيروت- ١٩٨٦. نظرية نشأة الموشحات الأندلسية بين العرب والمستشرقين- بغداد-١٩٨٦. الموشحات في بلاد الشام منذ نشأتها حتى نهاية القرن الثاني عشر الهجري- بيروت-١٩٨٧. عروض الموشحات الأندلسية-بغداد-١٩٩٠. أبحاث في الأدب الأندلسي- ليبيا- ١٩٩٤. دراسات في تاريخ الخليج والجزيرة العربية- المكتب الجامعي الحديث-١٩٩٨. مصادر التراث الأندلسي من كتاب كشف الظنون- أبو

ظبي- ١٩٩٩. اتجاهات نقد الشعر في الأندلس في عصر بني الأحمر- أبو ظبي- ٢٠٠٠. فضلاً عن مجموعة من الأبحاث المشورة في المجلات والدوريات المحكَّمة، ومجموعة كبيرة من المقالات المنشورة في الصحف والمجلات في قضايا الأدب والنقد والثقافة والتراث العربي.

- وله تحت الطبع: نقد الشعر في الأندلس- قضايا ومواقف. وبانتظار الطبع معجم الجملة الأسبانية المفيدة.
- وله في مجال الإبداع (الشعر): الحب مرَّتين-بغداد-١٩٧٥. لا شيء سوى الحب- بغداد-١٩٨٠. عفواً أيها الساتر -بغداد-١٩٨٨. ليلة شهرزاد الأخيرة- القاهرة- ٢٠٠٣. وتحت الطبع: "بكاء النخيل" و"مجمرة النبض".
- عضو الاتحاد العام للأدباء والكتّاب العراقيين، وعضو مؤسس لاتحاد الأدباء والكتاب في البصرة، وعضو اتحاد الكتّاب السويديين، وعضو المجمع اللغوي السويدي، ومنتدى الشعر السويدي.

* * *





المؤلف في سطور

- شاعر و ناقد وباحث.
- ولد ببغداد في العام ١٩٥٣، أكمل فيها دراسته الابتدائية والثانوية والجامعية.
- نال شهادة الماجستير من جامعة بغداد ١٩٨٢، وشهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها ١٩٨٩.
- مارس تدريس اختصاصه في الأدب والنقد في جامعة البصرة وجامعة بغداد في العراق (١٩٨٢-١٩٩٢)، وفي جامعة التحدي في ليبيا (١٩٩٢ - ١٩٩٦)، واللغة العربية لغير الناطقين بها في جامعة غوتنبرغ والجامعة الشعبية في السويد حيث يقيم منذ أواخر العام ١٩٩٦.
- صدر له في الدراسات: نظرية نشأة الموشحات الأندلسية بين العرب والمستشرقين ١٩٨٦، والثوريات في الشعر الأندلسي ١٩٨٦، والموشحات في بلاد الشام ١٩٨٧، وعروض الموشحات الأندلسية ١٩٩٠، وأبحاث في الأدب الأندلسي ١٩٩٤، وملامح من تاريخ الخليج والجزيرة العربية ١٩٩٨، ومصادر التراث الأندلسي من كتاب كشف الظنون ١٩٩٩، واتجاهات نقد الشعر في الأندلس في عصر بني الأحمر ٢٠٠٠، وله تحت الطبع: «نقد الشعر في الأندلس - قضايا ومواقف».
- كما صدر له في الشعر: الحب مرتين ١٩٧٥، ولا شيء سوى الحب ١٩٨٠، وعفواً أيها السائر ١٩٨٨، وليلة شهرزاد الأخيرة ٢٠٠٣، وله تحت الطبع: «مجمرة النبض».
- نشر مجموعة كبيرة من المقالات النقدية حول الشعر والقصة منذ أواسط السبعينات، فضلاً عن البحوث الأكاديمية في المجلات المحكمة.
- عضو في اتحاد الأدباء والكتّاب العراقيين، وعضو في اتحاد الكتّاب السويدي والمجمع اللغوي السويدي ومنتدى الشعر السويدي.



العبدلي- عمارة جوهرة القدس - ص.ب ٨٦٧٠ عمان ١١١٢١ الأردن
تلفاكس: ٠٩٦٢٦٤٦٢٠٠٧٨
www.juhaina.net - info@juhaina.net